الجزء السابع عشر

سورة المزمل

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن ابي عبد الله الصادق - عليه السلام - قال : " من قرا سورة المزمل في العشاء الاخرة في اخر الليل كان له الليل و النهار شاهدين مع سورة المزمل ، و احياه الله حياة طيبة ، و اماته ميتة طيبة. "

تفسير نور الثقلين / ج ٥ / ص ٤٤٥

الاطار العام

التوحيد هو قاعدة الانطلاق و الهدف الرئيسي لكل رسالات الله ، و يتمثل عمقه الاصيل في علاقة الانسان المخلوق بربه الخالق ، و لقد تمحورت كثير من الآيات القرآنية فيما تمحورت حول منهجة هذه العلاقة ، بالتاكيد عليها كأصل من اصول الاسلام ، و بيان خلفياتها و معطياتها و تفاصيل برنامجها ، و المتدبر في سورة (المزمل) يجدها تعالج هذا الموضوع من زاوية قيام الليل ، و اقول : قيام الليل لان هذا التعبير اوسع من قولنا : صلاة الليل ، و اقرب لما يعنيه السياق و يندب اليه.

- 1ففي البداية يخاطب الله رسوله المزمل فارضا عليه قيام الليل فرضا كالصلاة و الصيام و الجهاد ، حيث قالوا : بانه - صلى الله عليه واله - قد خص بوجوب قيامه الليل دون امته ، و يبين ان الليل عنده و بالتالي عند عباده الصالحين ليس كما يزعم الناس : فرصة لا سترخاء النوم ، لانها هزيع من عمر الانسان ينبغي ان يكون مثل النهار ساحة سعي نحو الفلاح و السعادة ، و من ثم فان الاصل في حياة الفرد الرسالي انه يقوم الليل الا قليلا نصفه او ينقص منه قليلا ، او يزيد عليه ، الا ان تعترضه الاسباب و الاعذار الشرعية من مرض و ضرب في الارض و قتال في سبيل الله و ما اشبه ، كما تبين الآية الاخيرة من السورة (الآيات ١ / ٤.)

- 2و يعتبر الرب - عز وجل - ترتيل القران (قراءته بصوت حسن و تدبر) من أهم البرامج في قيام الليل ، الى حد يمكن اعتباره كافيا عن سائر برامج الليل ، ذلك لان القران هو الوسيلة العظمى للاتصال برب العزة ، و لانه تعالى لا يريد منا قياما روحيا مجردا ، بل يريد علاقة تنعكس على كل ابعاد الحياة ، حتى تتحول الى نهج حياة من خلال تدبر القران و العمل بآياته (الآيات ٤ / ٢٠.)

- 3و مع ان المؤمن يواجه مصاعب من هذا التكليف الالهي حيث تحديات النفس وحب النوم الا ان ناشئة الليل في مقابل ذلك انفذ الى اغوار النفس " اشد وطا " و اصدق حينما ينبعث الانسان من النفس لاصلاح الاخرين " اقوم قيلا " اقوم لقول الانسان و سلوكه على طريق الحق و السعادة ، و بالذات اذا اخذنا بعين الاعتبار معادلة الزمن اليومي المنشطرة الى وقتين : الليل و النهار ، فان البشر بحاجة ماسة وهو يكابد مشاكل الحياة و تحدياتها بالنهار الى ارادة التحدي و الاستقامة على الطريق المثلى دون تاثر بالطبيع ة او بعواملها تاثرا سلبيا ، و ذلك يعرج اليه و يستلهمه المؤمنون من قيام الليل ، فلا يشطون في سبح النهار الطويل عن الحق و الصواب قيد انملة) الايات ٥ / ٧.)

- 4و اذا كان الجميع معنيون بقيام الليل فان الرساليين بالذات مخصوصون بهذا الفرض الالهي ، و يتركز

الامر عند القيادة الرسالية الى حد الوجوب بالنسبة للامام المعصوم ، و الى قريب من ذلك عند سواه . و السبب انهم المستامنون على رسالة الله و جنوده الذين يخو ضون الصراع المبدئي الحضاري ضد الباطل ، و يعلم الله كم هي التحديات و الضغوط و المشاكل التي يواجهها من يركب هذا الطريق ، و بالتالي كم هم بحاجة الى زاد الايمان و وقود التقوى.

و لن يفلح الرساليون في صراعهم حتى يعرجوا الى قمة التوحيد ، و التوكل على رب العزة ، و الصبر على الاذى و الحق في سبيل الله ، و من هذا المنطلق تاتي أهمية قيام الليل ، و يتضح دوره الاصيل في المسيرة الرسالية ، باعتباره معراجا رئيسيا الى تلك القمة السامق ة.

- 5و بعد ان يحذر الله المكذبين اولي النعمة نفسه مذكرا بالاخرة و عذابه الشديد فيها يذكرنا تعالى بان بعثه حبيبه الرسول - صلى الله عليه واله - الينا مظهر لسنته الجارية في الحياة ، حيث يبعث الرسل شهداء على الامم) مبشرين و منذرين) محذرا ايانا من معصية اوليائه لانها تؤدي الى الاخذ الوبيل في الدنيا ، كما انتهت بفرعون و ملئه و جنوده ، و اعظم من تلك العاقبة عذاب يوم القيامة " يوما يجعل الولدان شيبا * السماء منفطر به " لا ريب فيه ، و انها لمن عظيم تذكرة الله الى خلقه " فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا. "

- 6و في الخاتمة يبين لنا القران اهتمام الرعيل الاول بقيام الليل (و في طليعتهم النبي الاعظم) الذين كانوا يقومون ادنى من ثلثي الليل و نصفه و ثلثه حسب الظروف ، و يقدمهم اسوة للاجيال بعد الاجيال ، معالجا في الاثناء موضوع الظروف الاستثنائية و الاعذار الشرعية التي تمنع من قيام الليل ، و موجها ايانا الى بعض التكاليف المفروضة ، و داعيا الى الاستغفار " ان الله غفور رحيم. "

قم الليل الا قليلا
بينات من الآيات
] [1]يا ايها المزمل[

لقد وقف المفسرون طويلا عند هذه الآية ، و اختلفوا في معنى المتزمل ، فقال بعضهم : المتزمل بعباءة النبوة ، و المتحمل لأثقالها (١) ، و علق العلامة الطباطبائي على هذا الراي قائلا : و لا شاهد عليه (٢) . و في الكشاف : كان رسول الله (ص) نائما بالليل متزملا في قطيفته فنبه بما يهجن اليه الحالة التي كان عليها من التزمل في قطيفته و استعداده للنوم ، كما يفعل من لا يهمه امر و لا يعنيه شان (٣) ، و روي في الدر المنثور عن جابر قال : اجتمعت قريش في دار الندوة ، فقالوا : سموا هذا الرجل اسما نصدر الناس عنه، فقالوا : كاهن ، قالوا : ليس بكاهن ، قالوا : مجنون ، قالوا : ليس بمجنون ، قالوا : ساحر ، قالوا : ليس بساحر ، قالوا : يفرق بين الحبيب و حبيبه ،(١) تفسير مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٧٧ عن عكرمة.

(2)تفسير الميزان /ج ٢٠ / ص ٦٠ .

(3)تفسير الكشاف / ج ٤ / ص . 644

فتفرق المشركون على ذلك ، فبلغ ذلك النبي (ص) فتزمل في ثيابه و تدثر فيها (١ (، و قيل كان يتزمل بالثياب اول ما جاء به جبرئيل خوفا حتى انس به ، و انما خوطب بهذا في بدء الوحي و لم يكن قد بلغ شيئا ، ثم خوطب (ص) بعد ذلك بالنبي و الرسول (٢. (

و قبل ان نبين راينا في هذه الآية الكريمة نسجل بعض الملاحظات حول بعض من الاراء ، فان ما علق به الزمخشري من حيث العبارة (يهجن .. لا يهمه امر .. لا يعنيه شان) و من حيث المعنى لا يليق بمقام حبيب الله و صفوة انبيائه و رسله و هو المعصوم ، و المهتم بامرالرسالة الى حد كاد يهلك نفسه من اجلها ، و تحمل من الاذى لها حتى خاطبه ربه سبحانه : " طه * ما انزلنا عليك القران لتشقى * الا تذكرة لمن يخشى " (٣. (

و كذلك لا يليق بمقامه (ص) ما روي في الدر المنثور من انه تاثر باعلام الجاهليين سلبيا فتزمل و تدثر

في ثيابه ! اما ما قيل من ان النبي (ص) كان يتزمل خوفا او ذهب الى خديجة قائلا : (زملوني زملوني .. دثروني دثروني) اول ما اتصل بالله عبر امينه جبرئيلحتى انس به ..هذا الراي الذي تبناه بعض المفسرين ، فانه ابعد ما يكون عن طبيعة الانبياء و شخصية سيدهم الاعظم صلوات الله عليهم.

و السبب ان فيه شيئا من نسبة الشك في صحة الرسالة و الاتصال بالله عنده (ص) ، و هذا نقيض قول الله عنه : " و لقد راه بالافق المبين * و ما هو على الغيب بضنين *و ما هو بقول شيطان رجيم " (٤. (

(1)تفسير الدر المنثور / ج ٦ / ص ٢٧٦.

(2)تفسير مجمع البيان / ج ٥ / ص ٣٧٧.

(3)طه / ١ -٣.

(4)التكوير / ٢٣ -٢٥.

و الذي يبدو لي ان كلمة " المزمل " تحتمل معنيين:

الاول :ما اشار اليه عكرمة بانه المحتمل لاعباء النبوة ، فان المتصدي لامر الرسالة و مسُؤولية التغيير بها احوج ما يكون الى قيام الليل ، يستمد منه روح الايمان و ارادة الاستقامة على الصراط المليء بالمصاعب و التحديات .جاء في المنجد : زمل زملا الشيء : حمله ، ازدمل الحمل : حملة بمرة واحدة ، الزمل : الحمل (١. (

الثاني : الذي لف عليه ثيابه او غطاءه على وجه الوصف لحال النبي حين نزل الوحي عليه بهذه الآيات ، و هو ظاهر اللفظ و في الخطاب بهذه الكلمة فائدتان:

اولا : تلطف و تعطف و دلالة على قرب الرسول من ربه حتى يخاطبه بمثل هذا التعبير الذي يجري بين الاحبة.

و ثانيا : التوسع الى كل من يتزمل للنوم ، فان الحديث يشمله انطلاقا من قاعدة : (اياك اعني و اسمعي يا جارة) التي نزلت بها ايات الذكر الحكيم.

على ان المعنى الاول هو الاخر يتسع لكل من تحمل اعباء الدعاء الى الله ، و ليس في هذا التعبير ادنى مساس بعظمة الرسول (ص) - كما زعم البعض - فانه بشر مثلنا يحتاج الى الراحة و النوم . و لعل الرسول كان ينام اول الليل ليقوم في منتصفه و اخره ، موصلا قيامه بالليل بصلاة الصبح كما نقل عنه ، و يقوي هذا الاحتمال اللغة حيث جاء فيها : زمل الشيء بثوبه او فيه : لفة (٢. (

[2]و حيث ينتفض كل مزمل على نداء الوحي الالهي المتوجه اليه يجد نفسهأمام أمر هام.

]قم الليل[

و لم يقل : (صل) لان التعبير بالقيام اشمل من الصلاة ، فالقيام يشمل الصلاة المخصوصة و غيرها ، و كذلك الدعاء و قراءة القرآن و التفكر و الاستغفار ، و الذي يستتبع محاكمة الماضي بالمحاسبة الذاتية و التفكير المنهجي في المستقبل . اذن فالليل ليس لمجرد النوم و الراحة ، كلا .. انما هو فرصة المؤمنين الذهبية للعروج نحو الكمال الروحي و العقلي ، و الاتصال برب العالمين .. و من ثم التخطيط السليم للمستقبل ، سواء مستقبل الاخرة البعيد ، او مستقبل الغد القريب في الدنيا ، حيث السبح الطويل كل نهار . و يتميز الليل عن النهار بهدوئه و صفائه ، و كون الانسان فيه بعيدا عن كثير من المؤثرات التي تواجهه في النهار ، و لذلك جعله الله ميعاد لقائه بعباده الصالحين.

ان الاسلام يريد لاتباعه ان يقودوا البشرية ، و يشيدوا على هداه سعادتها الخالدة ، و ذلك بحاجة الى العزيمة العالية ، و الارادة الصلبة ، و مناجاة الله الذي من عنده كل خير و سعادة .. و قيام الليل يؤمن لهم كل ذلك ، كما ان بلوغ ذلك الهدف رهين السعي المستمر نحوه و الذي لا يكفيه النهار مما يدعو المؤمنين الى مواصلة السعي فـي النهار بقيام الليل ، فلا ينامون الا قليلا ، بلى : ان الهدف عظيم ، و الفرصة قصيرة ، فلا بد اذن من سعي مضاعف ، يسخرون فيه ما يمكنهم من طاقاتهم ، و ينتهزون لاجله ما يمكن من الوقت.

]الا قليلا[

من عمرهم يخصصونه لراحة ابدانهم كحاجة طبيعية تفرض نفسها على كلمخلوق ، و حيث يستريحون بالنوم فليس لذاته ، بل لينهضوا من بعده الى عمل دؤوب و انجازات عظيمة ، فاذا بك تدرس حياة احدهم لتقسم انجازاته على ايام عمره تجده احيانا يسبق الزمان بانجازاته الكبيرة ، و على عكسهم اولئك الذين يستسلمون لحب النوم و الراحة ، فان واحدهم يعيش ثمانين عاما في ظاهر الامر و لكنك حينما تقيم حياته على اساس الاعمال و المنجزات تجده لم يعش اكثر من عشرين او ثلاثين سنة ، لانه كان ينام ساعات طويلة في اليوم ، اما اوقات يقظته فانها تضيع بين غفلة و لهو و لعب.

بلى . ان الله يريد لنا ان نقوم النصف الاخر من اعمارنا ، و الذي عادة ما يخسره الناس ، قياما نعمره بالعمل الصالح ، و اي عمل صالح افضل من التقرب اليه تعالى ، و التدبر في كتابه ، و استثارة العقل بآياته فيه وفي الطبيعة ؟

و اذا كان الامر القراني " قم " ظاهر في الوجوب بالنسبة الى النبي و المعصومين - عليه و عليهم الصلاة و السلام - و محمول على الاستحباب لمن سواهم فان المتقين يتلقونه على وجه الفرض عمليا ، بحيث يلتزمون قيام الليل كالتزامهم بالصلوات اليومية ،انطلاقا من تحسس أهمية هذا الامر و دوره في حياتهم و شخصيتهم و حركتهم و ايمانا بان القرآن موجهة آياته الى كل فرد فرد ، و اليهم بصورة اخص من العالمين.

[4 / 3]و بعد ان امر الله تعالى نبيه (ص) و من خلاله كل مؤمن بقيام الليل الا قليلا كأعلى و أفضل نسبة للقيام ، يضعنا امام ثلاثة خيارات اخرى:

]نصفه او انقض منه قليلا * او زد عليه[

و قد اختلف في الضمير المتصل بكلمة النصف هل هو عائد على الليل او على القليل ، و بالتاليل اختلف نحويا في كون " نصفه " بدلا عن ايهما ؟ فقال البعضو من بينهم شيخ الطائفة : نصفه بدل من الليل ، كقولك : ضرب زيدا رأسه (1)، و قيل : انه بدل من القليل ، فيكون بيانا للمستثنى ، و يؤيد هذا القول ما روي عن الصادق (ع) قال : " القليل النصف ، او انقص من القليل قليلا ، او زد على القليل قليلا " (٢) ، و الاقرب - كما يبدو لي - ان الضمير في " نصفه " عائد الى الليل فيكون المعنى : قم كل الليل الا قليلا ، او نصفه ، او اقل من النصف بالانقاص منه قليلا ، او اكثر من النصف بالزيادة عليه.

و نستطيــع ان نقـول : بان المقصود من الليل في قوله : " قم الليل " هو الجنس ، و ان المستثنى بعضه ، فيكون المعنى : قم كل الليالي الا قليلها و بعضها ، و هي - كما عبر صاحب المجمع - ليالي العذر كالمرض و غلبة النوم و علة العين و نحوها (٣) ، ويؤيد ذلك ما رواه محمد بن مسلم عن الامام الباقر - عليه السلام - قال : سالته عن قول الله تعالى : " الآية " قال : " أمره الله ان يصلي كل ليلة الا ان تاتي عليه ليلة من الليالي لا يصلي فيها شيئا " (٤) لعذر من الاعذار.

و السؤال : لماذا أمر الله بالقيام على شبه من التردد بين اربعة خيارات دون تحديد ؟ لعله للاسباب التالية:

- 1لان الفرض المحدد امر مستحيل في بعض الظروف حتى بالنسبة الى الرسول و المعصومين الذين

يجب عليهم قيام الليل وجوبا شرعيا عينيا ، ذلك ان الانسان من الزاوية الواقعية عرضة للظروف المتغيرة التي لا يمكنه مقاومتها ، كالمرض و الحرب و الظروف الامنية ، قال علي ابن ابي طالب : " خير الله نبيه (ص) في هذه(١) التبيان / ج ١٠ / ص ١٦٢.

(2)تفسير مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٧٧.

(3)المصدر.

(4)تفسير الميزان / ج ٢٠ / ص ٧١ عن كتاب التهذيب.

الساعات القيام بالليل ، و جعله موكولا الى رأيه ، و كان النبي (ص) و طائفة من المؤمنين معه يقومون على هذه المقادير ، و شق ذلك عليهم ، فكان الرجل منهم لا يدري كم صلى ، و كم بقي من الليل ، فكان يقوم الليل كله مخافة ان لا يحفظ القدر الواجب حتى خفف الله عنهم بآخر السورة " (١) الذي يشير القرآن فيه إشارة واضحة لواحد من اسباب تعدد الخيارات.

- 2ثم ان وضع المكلف امام خيارات متعددة تختلف في ثقلها على النفس و فضلها عند الله ، لا فرق بين درجة التكليف هل هي الوجوب او الندب و الاستحباب ، يكشف عن مدى إيمانه و ارادته حين يختار بنفسه ايها شاء ، وفي ذلك نوع من الامتحان الالهي للمؤمنين.

- 3كما نهتدي من ذلك بالنسبة لغير النبي (ص (الى استحباب قيام الليل لا وجوبه كحكم شرعي ، و قد اعتبر الفقهاء الاختلاف في النصوص ضيقا وسعة ، و كثرة و قلة ، دليلا على الاستحباب ، و ذلك ان الفرض الواجب يكون محددا.

و قيام الليل - كما تقدمت الاشارة - لا ينحصر في عدد من الركعات و الاذكار و حسب ، بل هو برنامج متكامل للجسم و الروح و العقل ، و ذلك بما يتضمنه من صلاة و مناجاة و تلاوة للقرآن ، يعرج من خلالها القائمون بالليل الى آفاق الإيمان و المعرفة ، و بالذات منهاترتيل القران الذي يحقق تسامى الروح و انفتاح العقل معا ، مما يسبب في ان واحد عروج الانسان الى مراتب الكمال.

و ان قراءة القران و تدبر معانيه روح قيام الليل ، فهو عهد الله للانسان ، وحبله الممدود من السماء الى الارض ، و نهجه الذي يداوي به ادواءه و يصل الى السعادة عبره ، فمنه يستمد روح التوحيد و التوكيل و الصبر ، و من آياته يستلهم بصائر الهدى(١ (تفسير مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٧٧.

و الحق في كل ميدان من الحياة ، لينطلق بالنهار على هدى من ربه ، و بين يديه بلسم لكل داء ، و حل لكل مشكلة ، و رؤية صائبة في كل قضية و حركة في الحياة ، فردية او اجتماعية ، و في اي حقل من حقولها ، بلى . ان قراءة القرآن بذاتها بركة و حسنة عظيمة ، و لكن هدفالقرآن أعظم من مجرد التبرك ، بل ان خيره الاكبر لا يحصل الا باستثارة العقل به ، و تدبر معانيه . او لم تسمع قول الله عز وجل " :كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته و ليتذكر اولوا الالباب " ؟ و التدبر فيه ليس لمجرد الفهم و انما للعمل و التطبيق ايضا ، و لهذا يربط القرآن نفسه بين ترتيله بالليل و السبح الطويل بالنهار . و لان القراءة بذاتها ليست هدفا يأمرنا الله بقراءة آياته على وجه مخصوص هو الترتيل.

]و رتل القران ترتيلا[

و الترتيل هي القراءة الحسنة و المتأنية المصحوبة بالتفكر و التدبر ، فعن عبد الله بن سليمان قال : سألت ابا عبد الله (الامام الصادق عليه السلام (عن قول الله عز وجل : " الآية " ، قال " قال أمير المؤمنين (ع) : بينه بيانا ، و لا تهذه هذ الشعر ، و لا تنثره نثر الرمل ، و لكن أفزعوا قلوبكم القاسية ، و لا يكن هم أحدكم آخر السورة " (١) ، و قال الامام الصادق (ع " : (ان القرآن لا يقرا هذرمة (بسرعة) و لكن يرتل ترتيلا ، فاذا مررت بآية فيها ذكر الجنة فقف عندها ، و أسال الله -عز وجل - الجنة ، و اذا مررت بآية فيها ذكر النار فقف عندها ، و تعوذ بالله من النار " (٢) ، و قال - عليه السلام - : " هو ان تتمكث فيه

، و تحسن به صوتك " (٣) و عن أم سلمة : كان رسول الله يقطع قراءته آية آية (٤) ، و عن انس(١)
تفسير نور الثقلين / ج ٥ / ص ٤٤٦.

(2)المصدر.

(3)المصدر / ص ٤٤٧.

(4)المصدر.

قال :كان يمد صوته مدا (١) ، و يصف الامام علي - عليه السلام - المتقين كيف يتعاملون مع القرآن عند قيام الليل فيقول : " اما الليل فصافون أقدامهم ، تالين لأجزاء القران يرتلونها ترتيلا ، يحزنون به انفسهم ، و يستثيرون به دواء دائهم ، فاذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعا ، و تطلعت نفوسهم إليها شوقا ، و ظنوا انها نصب أعينهم ، و إذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا اليها مسامع قلوبهم ، و ظنوا ان زفير جهنم و شهيقها في أصول آذانهم ، فهم حانون على اوساطهم ، مفترشون لجباههم و أكفهم و ركبهم ، و أطراف أقدامهم ، يطلبون الى الله تعالى في فكاك رقابهم " و هذا ينعكس بالنهار على شخصياتهم ماديا و معنويا ، حيث يضيف الإمام - عليه السلام - قائلا " : و اما النهار فحلماء علماء ، أبرار أتقياء " (٢. (

والمعنى اللغوي للترتيل يلتقي مع ما تقدم ، يقال : رتل الشيء : تناسق و انتظم انتظاما حسنا ، فهو رتل ، و رتل الكلام : أحسن تأليفه الى بعضه ، و القرآن تأنق في تلاوته ، و الرتل في المصطلح العسكري صف الجنود او الآليات المتراص ، و قيل : خفض الصوت عند القراءة (٣. (

[6 / 5]و يبين الله واحدة من الخلفيات الأساسية التي تكشف أهمية قيام الليل ، و ذلك ببيان دوره الأساسي في بناء الشخصية الرسالية القادرة على تحمل مسؤولية الوحي ، فالأمانة الإلهية ثقيلة لأنها تخالف أهواء الإنسان و حبه للراحة و الاسترسال ، و الموقف السليم منها ليس الهروب من حملها ، و إنما العروج بالنفس الى مستوى حملها بالتزكية و التربية و التعليم من خلال البرامج المختلفة ، و من بينها و اهمها قيام الليل على الوجه الذي أشارت اليه الآيات الآنفة.

(1)المصدر.

(2)نهج البلاغة / خ ١٩٣ / ص ٣٠٤.

(3)المنجد / مادة رتل باضافة و تصرف.

]انا سنلقى عليك قولا ثقيلا[

قال عبد الله بن عمر : اي سنوحي اليك قولا يثقل عليك و على امتك (١) ، و قيل " ثقيلا " : لا يحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق ، و نفس مؤيدة بالتوحيد ، و قيل :عظيم الشأن ، كما يقال : هذا كلام رصين ، و هذا الكلام له وزن إذا كان واقعا موقعه (٢) ، وقيل هو : ثقيل في الميزان يوم القيامة ، و قال القرطبي :هو متصل بما فرض من قيام الليل ، أي سنلقي بافتراض صلاة الليل قولا ثقيلا يثقل حمله ، لأن الليل للمنام ، فمن أمر بقيام أكثره لم يتهيأ له ذلك إلا بحمل شديد على النفس ، و مجاهدة الشيطان ، فهو أمر يثقلعلى العبد (3)، و ذهب البعض الى تفسير مادي لمعنى الثقيل مستدلا بمرويات غير محققة كقول عائشة : إنه كان ليوحى الى رسول الله (ص) و هو على راحلته فتضرب بجرانها (٤) (أي تضرب بمقدم عنقها الى مذبحها الأرض) و في رواية : كانت تبرك الدابة على الأرض من ثقلالوحي . و ان جبين الرسول (ص) ليرفض عرقا . (5)

و الذي أختاره : أن الثقل هو الثقل المعنوي قبل أن يكون الثقل المادي ، و إذا صحت الروايات المتقدمة حول ما يتركه نزول الوحي من أثر مادي على رسول الله (ص) و على دابته من باب " لو أنزلنا هذا

القران على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله "فإنها مظاهر و دلالات على الآثار و الحقائق المعنوية ليس إلا . و لا ريب أن القرآن قول ثقيل باعتباره يحمل الإنسان مسؤوليات عظيمة كمسؤولية الاستقلال و التغيير و التزكية و تحدي الباطل ، و لذلك فالإنسان بحاجة إلى قيام الليل(١) نور الثقلين / ج ٥ / ص ٤٤٧.

(2)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٧٨.

(3)الجامع لاحكام القران / ج ١٩ /ص ٣٨.

(4)تفسير نور الثقلين /ج ٥ / ص ٤٤٧.

(5)المصدر.

ليسموا الى احتماله ، و هكذا تجد السياق يبين الصلة بين ثقل القرآن و بين قيام الليل ، فيبين أن الصلاة و التهجد و الحالة النفسية المنبعثة منها إذا نشا كل ذلك بالليل كان أفضل منه إذا نشأ بالنهار.

]إن ناشئة الليل[

و الناشئة في اللغة من نشأ الليل أي أحدثه ، و الله : خلقه ، و الحديث او الكلام : وضعه و ابتدأه ، و سميت ساعات أول الليل ناشئة لابتداء الليل بها (1)، و عندنا : ما ينشأ بالليل من عبادة روحانية أو بصيرة عقلانية أو حكمة ربانية . أما المفسرون فذهبوا إلقولين : أحدهما : أنها ركعتان بعد صلاة المغرب (لعلها الغفيلة ، و قيل غير ذلك) (٢) ، و الآخر : أنها قيام الليل ، ففي مجمع البيان عن الباقر و الصادق (ع) : " هي القيام في آخر الليل إلى صلاة الليل " (٣) ، و هو الأقرب إلى سياق السورة كما سبق.

]هي أشد وطئا[

و شدة الوطأ بمعنى ثبات القدم الذي يعكسه ثقل الوطأة و شدتها ، فالوطأة الشديدة على الارض أثبت للقدم ، قال قتادة : أثبت في الخير (٤) ، و قال الفراء : أشد ثبات قدم ، لأن النهار يضطرب فيه الناس ، و يتقلبون فيه للمعاش (٥) . و لا ريب أن الإستقامة على طريقالرسالة أمر مستصعب بحاجة إلى الإرادة الصلبة و الروح العالية ، حتى يواجه الإنسان بهما تحديات الإستقامة على الحق .. و قيام الليل(١) المنجد / مادة نشا.

(2)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٤٤٨ نقلا عن الكافي.

(3)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٧٨.

(4)الدر المنثور / ج ٦ / ص ٣٧٨.

(5)التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص ١٧٥.

بقراءة القرآن و التدبر فيه و الدعاء و الإستغفار يعطي إرادة الثبات و روح التحمل و عند هذه الآية ينبغي أن ندرس حياة الأجيال الأولى من المسلمين الذين صنعوا المنجزات العظيمة في التاريخ ، و غيروا مسيرة الإنسانية ، فإنهم لا ريب كانوا يستلهمون من قيامهم الليل و ما إلى ذلك همتهم العالية ، و إرادتهم الصلبة ، فكانوا رهبان الليل و فرسان النهار.

كما أن ناشئة الليل ثقيلة على النفوس لأن القائم لأدائها يواجه تحدي النفس التي يغالبها النعاس ، و تحن إلى الفرار من المسؤولية ، و تفضل الراحة الجسدية على لقاء ربها الجبار ، و تواجه كذلك تحدي الشيطان الذي يوسوس إليها بالتسويف ، لها بالنوم بعذر أو آخر، و هكذا يكون قيام الليل منطلقا لإصلاح

جذري في النفس و المجتمع ، فهو إذا عملية صعبة ، و قد أشار القرآن إلى هذا المعنى بقوله تعالى : " و استعينوا بالصبر و الصلاة و إنها لكبيرة إلا على الخاشعين " (١. (

و هكذا رأى بعضهم أن المراد من شدة الوطأ صعوبة صلاة الليل ذاتها ، قيل أثقل و أغلظ على المصلي من صلاة النهار ، وهو من قولك : اشتدت على القوم وطأة السلطان .. فأعلم الله نبيه ان الثواب في قيام الليل على قدر شدة الوطأة و ثقلها ، و نظير قوله (ص) : " أفضل العبادات أحمزها " (٢) و قيام الليل حمز (صعب) لأنه يخلق توازن الشخصية عند الإنسان لتكون قائمة على أسس رشيدة على قيم الوحي و هدى العقل و تجارب البشر ، فإذا برهبان الليل طاهرة ألسنتهم عن الغيبة و الشتم و سائر الأخطاء و الذنوب المنطقية التيمن بينها شهادة الزور ، لأن قيامهم بالليل يزيل من قلوبهم العقد ، و يزرع فيها التقوى ، كما يجعلهم يفكرون في كلامهم قبل النطق به ، و يزنونه بميزان الحق و الصواب ، لأامر الذي يعلهم يصيبون الحق حين(١) البقرة / ٤٥.

(2)التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص ١٧٦.

يتكلمون ، فإذا سكتوا تفكروا ، و إذا نطقوا تفجرت الحكمة من جوانبهم ، كما وصفهم سيدهم أمير المؤمنين (ع) بقوله : " منطقهم الصواب " (١. (

]وأقوم قيلا[

أي أنهم أصوب للحق بجهاته المختلفة من غيرهم على الاطلاق ، فهم الأقوم (يعني الأفضل) ، قال الفخر الرازي مفسرا الآية : أحسن لفظا ، و قال أنس : أصوب و أهيأ وأحد (٢) ، و هذا أمر طبيعي لأن القائم بالليل يتصل بقول الله و وحيه (القرآن) و يؤسس به تفكيرهو منطقه في الحياة ، و هو الذي يهديه للتي هي أقوم كما نعته عز وجل ، و لأن إثارة العقل بالتفكير في آيات الله ليلا يرسم السبيل للمنطق الأقوم عند السبح و الكلام في النهار.

و إذا اعتبرنا القرآن من مصاديق القول الثقيل الذي ألقاه الله على رسوله و على أتباعه فإن ناشئة الليل التي تهيء القلب لإستقباله تجعله أهيأ و أصلح لفهم معانيه و ثبوته فيه و العمل به.

[7]إن مسؤوليات الليل تتكامل - في منهج المؤمن - مع مسؤوليات النهار الذي يستوعب انتشارا واسعا ، و سبحا طويلا.

]إن لك في النهار سبحا طويلا[

هناك رأيان كلاهما ينتهي لعلاج التوهم بالتناقض بين مهام الانسان في الليل و مهامه في النهار ، فلإسلام يعتبر الإثنين يتكاملان:

(1)نهج البلاغة / خ ١٨٣ / ص ٣٠٣.

(2)التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص ١٧٦.

الرأي الأول : السبح بمعنى : المهام و العمل ، يقال : سبح القوم : تقلبوا و انتشروا في الأرض (١) ، فكان القرآن يريد القول لنا بأن للمؤمن مسؤوليتين :إحداهما بالنهار على عشرات المهام و الأمور ، و الأخرى بالليل تتحدد بقيامه ، و مهما كانت المسؤولية في النهار كبيرة طلب علم ، أو جهاد في سبيل الله ، أو سعي للرزق الحلال) فإنه من الخطأ إستعاضة مسؤولية الليل بالنهار ، لأان العالم لو لم يخلص لكان ضرر العلم عليه و على الناس أكبر من نفعه ، و الذي يجعل العلم مفيدا ، و العالم ملتزما برسالته في الحياة ، فلا يزيف الحقائق ، و لا يبيع نفسه و علمه على أية حكومة و طاغية و مترف ، هو الإيمان الذي يستلهمه من قيام الليل.

إن حاجة المؤمن لقيام الليل في أي خندق كان هي حاجة ملحة و أكيدة ، لأن سبحه الطويل بالنهار جسد لابد له من عقل و روح لا يجدهما إلا في الأتصال بالله و إتباع وحيه . و إنه لخطأ فظيع أن يقبل الإنسان على سبح النهار الطويل و يخوض لججه من دون إعداد كاف ، و إن الامام عليا (ع) ليؤكد بأن ما يصير أليه المتقون من الفضيلة بالنهار إنما هي ثمرة قيامهم بالليل ، و ذلك حينما قال و قد وصف شأنهم بالليل كما سبق : " و أما النهار فحلماء علماء ، أبرار اتقياء ، قد براهم الخوف يري القداح ، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى ، و ما بالقوم من مرض ، و يقول : لقد خولطوا ، و لقد خالطهم أمر عظيم ! لا يرضون من أعمالهم القليل ، و لا يستكثرون الكثير ، فهم لإنفسهم متهمون ، و من أعمالهم مشفقون ، إذا زكي أحد منهم خاف مما يقال له ، فيقول : أنا أعلم بنفسي من غيري ، و ربي أعلمبي من نفسي . اللهم لا تؤاخذني بما يقولون ، و اجعلني أفضل مما يظنون ، و اغفر لي ما لا يعلمون " (٢. (

الرأي الثاني : السبح بمعنى الفراغ و الفرصة ، قال الجبائي : إن فاتك شيء بالليل(١) المنجد : مادة سبح.

(2)نهج البلاغة / خ ١٩٣ / ص ٣٠٤.

فلك في النهار فراغ تقضيه (١) ، و جدير أن ننقل هنا ما قاله العلامة الطبرسي : إن مذاهبك في النهار و مشاغلك كثيرة ، فإنك تحتاج فيه إلى تبليغ الرسالة ، و دعوة الخلق ، و تعليم الفرائض و السنن ، و إصلاح المعيشة لنفسك و عيالك ، و في الليل يفرغ للتذكرة و القراءة ، فاجعل ناشئة الليل لعبادتك ، لتأخذ بحظك من خير الدنيا و الآخرة ، و في هذا دلالة على أنه لا عذر لأحد في ترك صلاة الليل لأجل التعليم و التعلم ، لأن النبي (ص) كان يحتاج الى التعليم أكثر مما يحتاج الواحد منا ، ثم لم يرض أن يترك حظه من قيام الليل)
(2، فلا يصح أن يتعلل المؤمن بشيء عن قيامه ، ففي النهار فرصة كافية للمهام الأخرى ، أما الليل فإنه بالدرجة الأولى موضوع للقيام.

[8]في حديث معروف : إن شئت أن يكلمك الله فاقرأ القرآن ، و إن شئت أن تتكلم مع الله فناجه ، و هكذا المؤمنون في قيامهم الليلي تراهم يبادلون ربهم الحديث ، فمرة يتلون الكتاب و أخرى يذكرون ربهم بالدعاء ، كما أمرهم الله فقال:

]و اذكر اسم ربك[

و ذكر الله هو مخ العبادة ، بل هو الهدف الرئيسي في الاسلام ، لأن نسيانه تعالى سبب كل إنحراف في حياة الإنسان . و قال : " اسم ربك " لأن المخلوق عاجز عن معرفة الذات و الإتصال بها مباشرة ، فجعل الله أسماءه ذرائع العباد و وسائلهم إليه ، و ذكر أسماء الله ليس بتلفظ حرفها وحسب ، بل بالإيمان بها و معرفته من خلالها ، إذ لكل إسم منها إنعكاس في خلقه.

و لقوله : " إسم " بالإفراد دلالة على الإطلاق الذي يفيده استخدام أي إسم من(١) التبيان / ج ١٠ / ص ١٦٣.

(2)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٧٨.

اسمائه الحسنى ، وهو الأقرب ، لأن ذكر الله يتم بذكر أي من أسمائه ، كما قال عز وجل : " قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى. (1) "

و الذكر الحقيقي ليس مجرد التلفظ بأسماء الله ، بل هو إضافة الى ذلك تعميق الصلة به ، في آفاق توحيده ، و الإنقطاع إليه ، و لذلك يردف الله مع الأمر بالذكر أمرا بالتبتل.

]و تبتل اليه تبتيلا[

روى أبو بصير عن الامام الصادق (ع) : " و اما التبتل فإيماء باصبعك السبابة (2) "، و روى زرارة و حمران عن أبي جعفر و عن أبي عبد الله - عليهما السلام - : " ان التبتل هنا رفع اليدين في الصلاة " (٣) ، و عن الامام الكاظم (ع) قال : " التبتل ان تقلب كفيك في الدعاء اذا دعوت " (٤) ، و قد أشار جملة من المفسرين الى ان المعنى هو الاخلاص في الدعاء ، و ما الايماء بالإصبع ، و رفع اليدين ، و تقليب الكف الا مظاهر له ، فمثلها مثل الركوع و السجود و القنوت ، و الأصل اللغوي للكلمة يهدينا الى هذا المعنى ، قال شيخ الطائفة : فالتبتل الانقاطع الى عبادة الله ، و منه : مريم البتول و فاطمة البتول ، لإنقطاع مريم الى عبادة الله ، و إنقطاع فاطمة عن القرين (لولا علي) . و قيل : الانقطاع الى الله تأميل الخير من جهته دون غيره (٥) ، و أضاف الفخر الرازي : و قيل : صدقة بتلة منقطعة من مال صاحبها ، و قال الفراء : يقال للعابد اذا ترك كل شيء و أقبل على العبادة قد تبتل ، اي انقطع عن(١) الاسراء / ١١٠ .

(2)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٤٥٠.

(3)مجمع البيان / ج / 10ص ٣٧٩.

(4)نور الثقلين / ج ٥ /ص ٤٤٩.

(5)التبيان / ج ١٠ / ص ١٦٤.

كل شيء الى أمر الله و طاعته (١) ، و في الدر المنثور عن قتادة : " و تبتل اليه تبتيلا " قال : أخلص له الدعوة و العبادة ، و عن مجاهد : اي أخلص المسالة و الدعاء إخلاصا.

و اختلف في " تبتيلا " لماذا جاء بهذه الصيغة ، بينما يعتبر مصدر التبتل في هذه الآية ، فذهب البعض الى ما لا يليق بادب الوحي و عظمته ، اذ قالوا : لمراعات الفواصل (٢) ، و يبدو ان التبتل مصدر كلمة أخرى أشير اليها ، فكانت العبادة تحتمل معنين:
الاول :الانقطار الجدي ، و عبر عنه بكلمة " و تبتل " ، و الثاني : الانقطاع المرة بعد الأخرى ، و عبر عنه بالمصدر " تبتيلا " ، على ان الكلمة الاولى جاءت بصيغة التفعل ، و الثانية بصيغة التفعيل . و يبدو ان الكلمة تفيد التأكيد على التبتل و ان يكون حقيقيا ، فليس كل مظهر تبتل يحسب تبتلا عند الله ، و التبتل على وزن التفعل الذي يعني المداومة و العودا اليه حينا بعد حين ، و ذلك ان الانسان عرضة للانحراف و للتأثر بالعوامل السلبية في كل لحظة .. اذن فهو بحاجة الى مداواة هذه المعضلة بالالحاح على الانقطاع الى الله ، و التبتل اليه حينا بعد حين.

[9]و يتعمق ذكر الله و التبتل اليه في نفس الانسان و على جوارحه حينما يتأسسان على المعرفة به سبحانه ، و غاية معرفته توحيده و التوكل عليه ، و هذه هي الزاوية التي تنتظم من خلالها الآية التاسعة في سياق السورة حيث تعرفنا بربنا.

]رب المشرق و المغرب[

قال صاحب المجمع : اي رب العالم بما فيه لانه بين المشرق و المغرب ، و قيل : رب مشرق الشمس و مغربها (٣) ، و الإطلاق هو الأقرب بصرف المعنى للمشرق(١ (التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص ١٧٨.

(2)الميزان / ج ٢٠ / ص ٦٥.

(3)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٧٩.

و المغرب و ما بينهما ، فكل الكائنات بمفرداتها آيات على ربوبيته ، و انها مخلوقات له عز وجل . و في الآية تناسب بين الاشارة الى حركة الشروق و الغروب الكونية و بين اسم (الرب) باعتبارهما مظهر و

آية للربوبية التي تعني الانماء و التجديد و الاضافة في الخلق، كما هناك تناسب مع قيام الليل و السبح بالنهار لارتباطهما بشروق الشمس و غروبها.

وحيث يطوف الانسان بنظره و فكره متدبرا في المشرق و المغرب و ما بينهما تتأكد له حقيقة التوحيد ، اذ يكتشف ان كل شيء مخلوق لا يصح الاعتماد عليه ؛ لان له شروقا و غروبا ، الا الرب الواحد الاحد الذي كان قبل الانشاء ، و يبقى بعد فناء الاشياء.

]لا اله الا هو فاتخذه وكيلا[

و لا تتخذ غيره ، لان الغير متغير ، لا ينبغي الاعتماد عليه ؛ لان ما سوى الله عرضة للزوال و الفناء . قال العلامة الطبرسي : اي حفيظا للقيام بأمرك ، و قيل : فاتخذه كافيا لما وعدك به ، و اعتمد عليه ، وفوض أمرك اليه تجده خير حفيظ و كاف (١) ، و في فتح القدير : اي اذا عرفت انه المختص بالربوبية فاتخذه وكيلا (٢. (

[10]و حاجة الانسان الرسالي الى التوكل على الله و توحيده و التبتل اليه و ذكره ، و بالتالي حاجته الى قيام الليل ، حاجة ملحة تفرضها مسيرته الجهادية الصعبة ، حيث التحديات التي يواجهها . ولولا التوكل على الله و الاستمداد منه إنحرف عن الصراط المستقيمشيئا كثيرا او قليلا.

(1)المصدر.

(2)فتح القدير / ج ٥ / ص ٣١٨.

و من أعظم تلك التحديات و الضغوط ما يقوله الاعداء ضد المؤمنين و بالخصوص قيادتهم ، و ذلك ان الاعلام السلبي من أهم أسلحتهم الخطيرة التي يوجهون حرابها ضدهم ، فاذا بهم يسعون لتشويه سمعة الرساليين ، و على المؤمنين ان يواجهوا ذلك بالصبر و الهجران الجميل.

]و اصبر على ما يقولون و اهجرهم هجرا جميلا[

والهجر الجميل هو المقاطعة بحكمة ، و بعيدا عن الإثارة ، لان الهجر حينما يخرج عن سياق الحكمة قد يتحول الى صراع مادي حاد في ظروف غير مناسبة ، مما يضر أكثر مما ينفع ، قال الفخر الرازي : الهجر الجميل ان يجانبهم بقلبه و هواه ، و يخالفهم مع حسن المخالفة والمداراة و الاغضاء ، و ترك المكافاة (١. (

ان الاسلام يريد للانسان ان يبني شخصيته و مواقفه على أساس الاستقلال فلا يتاثر بردات الفعل كالكلام السلبي الذي يوجه ضده ، بل يمضي قدما في تنفيذ خطته الحكيمة التي رسمها لنفسه ، دون ان يستفزه الاخرون ، و يسيرونه حسب خطتهم ، و يفرضوا عليه ساعة المعركة وطريقتها و أرضها ، و من هنا فان الصبر لا يعني عدم اتخاد الخطوات اللازمة تجاه تحديات الاعداء ، بل يعني الانتظار حتى تحين الفرصة المناسبة حسب الخطة المرسومة ، و كل ذلك يوفره قيام الليل و التوكل على الله.

و التعبير القراني دقيق للغاية حيث قال تعالى : " و اصبر على ما يقولون " اي ان ما يقوله الاخرون لا ينبغي ان يزلزل الرساليين عن مواقفهم الصحيحة الى غيرها ، فقد يصعد المستكبرون و المترفون حربهم الاعلامية ضد قيمة من القيم الالهية كالحجاب على أساس انه لون من ألوان الارهاب ، و هكذا الجهاد من أجل التحرر(١) التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص ١٨٠.

و الاستقلال .. فيجب على الرساليين ان يصبروا و يتجرعوا كلمات الشتم و التجريح ، و ضغط الاعلام ، لا ان يتنازلوا عن قيمهم و يداهنوا فيها.

و قد نستوحي من الهجر الجميل انه القائم على أساس العدل و الحكمة ، فلا ينبغي ان يهجر المؤمن طرفا هجرا كاسحا ، فيبخس الناس أشياءهم ، و لا يعترف لهم بأية إيجابية ، او يقطع صلته معهم الى حد يحرم نفسه إيجابياتهم .. و بتعبير آخر : ينبغي ان ننصف الناس - حتى اعدائنا - من انفسنا ، فلا تصحب المقاطعة و الهجر عملية اسقاط للاخرين بعيدة عن حدود الله و شرائعه.

[11]و يستلهم المؤمنون روح الصبر من أمرين هما :التوكل على الله ، و الايمان بأنه سوف يجازي أعداءهم شر مجازات ، فلماذا الاستعجال و عدم الصبر ما دام الفوت غير ممكن ؟ ! بلى . قد لا يعاصر جيل من المؤمنين انتقام الله من أعدائهم و أعداء الرسالة ، و قدلا ينتقم منهم في الدنيا ، و لكن الأمر واقع لا محالة ان فيها او في الاخرة ، حيث عذاب الخزي الذي يلحق بالمترفين و المستكبرين المكذبين بالرسالة.

]و ذرني و المكذبين اولى النعمة و مهلهم قليلا[

اي المترفين الذين يعارضون الرسالة ، و يكذبون بايات الله . و كلمة " ذرني " تفيد التهديد و الوعيد ، كما تشير الى معنى التوكل على الله نعم الوكيل ، حيث ينبغي للمؤمن و هو يصبر على ما يقوله الاعداء ان يطمئن اطمئنانا تاما بان صبره لن يذهب هباء، لان المتوكل عليه سوف ينتقل له و للحق منهم . و لعل ذكر تنعمهم يهدينا الى ان العذاب الذي سيحل بهم يشمل تغيير ماهم عليه من النعيم ، و الى ذلك أشار صاحب الميزان فقال : و الجمع بين توصيفهم بالمكذبين و توصيفهم باولي النعمة للاشارة الى علة ما يهددهم به منالعذاب ، فان تكذيبهم بالدعوة الالهية و هم متنعمون بنعمة ربهم كفران منهم بالنعمة ، و جزاء الكفران سلب النعمة ، و تبديلهابالنقمة (١. (

و مهما استطال شوط الصبر في تصور المؤمنين ، و امتد ترف المكذبين و نعيمهم ، الا انه قصير بالقياس الى معادلة الزمن الحقيقية عند الله ، بل هو قصير بالفعل ، و الذي يدرس تاريخ الصراع بين الحق و الباطل يصل الى قناعة راسخة بهذه السنة الالهية ، تقول عائشة:
لما نزلت " الآية " لم يكن الا قليل حتى كانت وقعة بدر (٢) التي أذل الله فيها المشركين ، و قيل : نزلت في المطعمين ببدر و هم عشرة ، و قيل : نزلت في صناديد قريش المستهزئين (٣ (، و أضاف الزمخشري في الكشاف : و كانوا أهل تنعم و ترفه (٤) ، و ما ذلك الا شاهدا و مصداقا لسنة الله في الحياة التي تمتد الى الوراء من أعماق التاريخ و الى الامام الى المستقبل البعيد.

[14 / 12]و يكشف لنا القرآن حجابا عن غيب ما أعد الله للمترفين المكذبين من عذاب اليم و مهين في الآخرة ، يو م ترجف الارض و الجبال.

]ان لدينا انكالا و جحيما[

قال صاحب المنجد : أنكال و نكول : القيد الشديد من اي شيء كان ، و حديدة اللجام (٥) ، و قيل وهو الأقرب : الصنيع الفظيع من العذاب الذي يخشاه من يراه و يحذر منه ، و نكل به صنع به صنيعا يحذر غيره ، و يجعله عبرة له (٦ (و لعل الكلمة تحمل في طياتها معنى الشدة و الانتقام و الاذلال ، و القيود و الاغلال مظهر(١) الميزان / ج ٢٠ / ص ٦٧.

(2)الدر المنثور / ج ٦ / ص ٢٧٩.

(3)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٨٠.

(4)الكشاف / ج ٤ /ص ٦٤٠.

(5)المنجد / مادة نكل.

(6)المصدر.

للتنكيل يرافقها عذاب الحريق بجهنم ، و ما يلقاه الانسان في الاخرة من أنواع العذاب ليست مفروضة علية و آتية من خارج القوانين و السنن الطبيعية ، بل هي من صنع يده ، قدمها لنفسه ، فالكذب الذي يمارسه في الدنيا يتحول اصرا و نادا عليه في الاخرة ، و هكذا الغيبةو السرقة ، و السباب ، و أكل أموال الناس بالباطل .. كلها تصير انكالا و جحيما.

]و طعاما ذا غصة و عذابا اليما[

اي الطعام الذي لا يتهنأ بأكله و لا طعمه و لا رائحته الآكلون ، بل يصعب عليهم مضغه و بلعه لما فيه من العذاب و أسباب الاذى . قال أكثر المفسرين : ان به شوكا ، و قيل : لشدة خشونته ، و أوله الزمخشري و الرازي على انه شجرة الزقوم ، و بهذا النفس عبر صاحب الكشاف : الذي لا يساغ يعني الضريع و شجر الزقوم (١) . و من أنواع العذاب المذكورة في الايتين يتبين لنا بانها تأتي نقيضا لما هم فيه من النعمة و الراحة في الدنيا كجزاء لتكذيبهم ، و عدم شكرهم ربهم عليها.

]يوم ترجف الارض و الجبال[

اي تتحرك باضطراب شديد ، و ترجف الجبال معها ايضا ، و تضطرب بمن عليها (٢ (، من هول ذلك اليوم ، الأمر الذي يكشف عن عظمة الموقف و مدى رهبته ، فما بالك بهذا الانسان الضعيف في يوم أحداثه ترجف بالارض و الجبال ؟ ! انه يكون ادنى من ريشة في ريح عاصف يتقاذفهاالتيار الكاسح.

ان تصور هذا الموقف و الحضور عند هذه الحقيقة بالقلب يكفي وسيلة يقتلع(١) راجع الدر المنثور و الكشاف و المجمع و التفسير الكبير و التبيان عند الاية.

(2)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٨٠.

الانسان بها جذور الغرور بنفسه و قدرته في شخصيته ، و أتكاله على الدنيا و ما فيها ، و يتعرف عن طريقها على ربه و قدرته المطلقة ، فيؤمن به و برسالته بدل التكذيب كما هو شان أولي النعمة المبطرين بها.

ان الجبال الراسية و المتماسكة تستحيل يومئذ كذرات الرمل نتيجة الرجف الشديد المتتالي الذي تتعرض له.

]و كانت الجبال كثيبا مهيلا[

قال القمي مثل الرمل (١) ، و في مجمع البيان : اي رملا متناثرا عن ابن عباس ، و قيل : المهيل الذي اذا وطأته القدم زل من تحتها ، و اذا أخذت أسفله انهار أعلاه (٢) ، و في المنجد : انكثب الرمل : اجتمع و انتشر بعضه فوق بعض ، و كل ما انصب في شيء فقد انكثفيه (٣) ، و المهيل الذي يهال فيقع بعضه على بعض ، يقال : أهال التراب : اذا هده من أساسه فانهار على بعضه منتثرا ، و يسمى التراب الناعم الذي تجمعه الرياح في الصحراء كثيب ، و جمعه كثبان ، و من خصائصه انه سريع و سهل الانهيار و الانتشار و التطاير في الهواء. و اذا كانت الجبال الصخرية الراسية تستحيل كثيبا مهيلا فما بال الانسان الضعيف عندما ترجف به الارض ؟ و لماذا يتحدى قدرة ربه ؟!

و العلاقة بين سياق السورة عن قيام الليل و بين الحديث عن مشاهد عذاب الاخرة هذه ان الخوف من أهوال ذلك اليوم يدفع المؤمنين الى السعي من أجل الخلاص ، و من ثم ينفخ فيهم روح القيام بالليل . و انها حقا لتقض مضجع كل(١) تفسير القمي / ج ٢ ص ٣٩٢.

(2)مجمع البيان / ج ١٠ ص ٣٨٠.

(3)المنجد / مادة كثب.

ذي لب و ضمير حيين ، اذ كيف تنام عينه و هو مطالب باقتحام هذه العقبات ، و تجاوز أهوالها بنجاح ؟!

و ثمة علاقة بين أمر الله للرسول (ص) بالصبر على ما يقوله المكذبون و بين كلامه عما أعد لهم من العذاب ؛ و هي : ان عدم التصبر (الاستعجال) انما يندفع اليه الانسان بهدف الانتقام ورد الفعل ، و المؤمن يصبر و لا يتعجل لانه لا يخاف الفوت ، و يعلم ان سوفياتي اليوم الذي ينتقم الله (وكيله (له من اعدائه.

[19 / 15]و الى جانب التحذير من عذاب الآخرة يحذر الله المترفين و غيرهم من عواقب التكذيب التي تنتظرهم في الدنيا ، و ذلك من خلال التذكير بالسنن الثابتة في الحياة و مصير أحدى الامم التي عصت رسولها فاهلك الله أهلها و أخذهم اخذا و بيلا.

]انا ارسلنا اليكم رسولا شاهدا عليكم كما ارسلنا الى فرعون رسولا]اي يقوم بالشهادة الحقة فيكم ، و يجسد القيم الالهية ، مما يجعله ميزانا لمعرفة الحق و الباطل ، و أسوة لمن أراد الهداية الى الصراط المستقيم . و قد ذكر الله قوم فرعون لان وجوه التشابه بين واقع اولئك و الواقع الذي عاصره الرسول كثيرة ، و من أبرزها : ان المترفين هم الذين يمثلون جبهة الباطل في الصراع في كلا المقطعين التاريخيين.

و كما ان لله سنة ماضية في حياة المجتمعات في إرسال الرسل في الامم بعد الامم ، و الاجيال بعد الاجيال ، فانه - عز وجل - جعل سنة الجزاء لا تنفك عنها ابدا ، فاذا ما استجابت الاقوام لقيادة الرسول و قيم الرسالة اجزيت خيرا و سعادة في الدنيا و الاخرة ، امااذا عصت و كذبت فستعرض نفسها للانتقام و سوء العذاب ،كقوم فرعون الذين عصوا رسولهم موسى (ع) فاغرقوا و أهلكوا.

]فعصى فرعون الرسول فأخذناه اخذا و بيلا[

اي أخذا شديدا منكرا ، و في الآية تحذير للمشركين و لأمة محمد (ص) من معصيته ، و تلويح بأن سنة الاخذ ليست منحصرة في زمان دون آخر ، و لا في قوم دون غيرهم . و اذا يذكرنا القرآن بصورة من الانتقام الالهي في التاريخ فلكي يسد بابا من ابواب الشيطان الذي يوغل بالانسان من خلاله في الانحراف و الضلال البعيد ، حيث يهمز في اذنه و فكره : ان الله رحيم بعباده ، و يستحيل ان يعذبهم في الاخرة ، و ان هذه الوعود ليست الا لمجرد التخويف لا اكثر .. و لهذا يوجه الله الخطاب مباشرة لمعاصري الرسول و رسالة الاسلام بانكم لاتستطيعون الهروب من سطوات الله اذا اراد الانتقام.

]فكيف تتقون ان كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا[

و ذلك لشدة أهواله و رهبة مشاهده ، قال القمي : تشيب الولدان من الفزع حيث يسمعون الصيحة (١) ، و في الدر المنثور عن ابن مسعود عن النبي - صلى الله عليه واله - قال : " اذا كان يوم القيامة فان ربنا يدعو ادم فيقول : يا ادم ! اخرج بعث النار ، فيقول:
اي رب الا علم لي الا ما علمتني : فيقول الله : أخرج بعث النار من كل الف تسعمائة و تسعة و تسعين يساقون الى النار سوقا مقرنين كالحين ، فاذا خرج بعث النار شاب كل وليد " (٢) ، و فيه عن ابن عباس : فاشتد ذلك على المسلمين ، فقال حين أبصر ذلك في وجوههم:
"ان بني آدم كثير ، و ان يأجوج و مأجوج من ولد آدم ، وانه لا يموت رجل منهم حتى يرثه لصلبه الف رجل ففيهم(١) تفسير القمي / ج ٢ / ص ٣٩٣.

(2)الدر المنثور / ج ٦ / ص ٢٧٩.

و أشباههم جند لكم " (١) ، و قد حذر الامام علي بن ابي طالب (ع) من ذلك اليوم فقال : " احذروا يوما تفحص فيه الأعمال ، و يكثر في الزلزال ، و تشيب في الأطفال (٢) ، و كيف لا يشيب الوليد من أهواله وهو اليوم الذي يفصل الله فيه بين الخلائق و يقررمصائرهم ، فمن صائر الى الجنة و من صائر الى

النار خالدين فيها ابدا.

بلى انه يوم عظيم ، بل هو أعظم يوم في وجود العالمين إنسا و جنا ، و كيف لا يسرع الشيب الى من يقف بين يدي جبار السموات و الارض ينتظر المسير الى مصيره الابدي ، و بالذات اولئك المجرمون الذي سودوا صحائفهم بالسيئات و الفواحش ، و بعدهم المذنبون ، اما المؤمنون و المتقون فإنهم في مأمن من رحمة الله ، بل هو يوم سعادتهم و فرحتهم العظمى . او ليسوا يلتقون حبيبهم و سيدهم رب العالمين ؟

و الشيب ليس كناية عن الشدة و المحنة (٣) و حسب ، بل لعله حقيقة مادية تقع يوم القيامة ، حيث ان حوادث ذلك اليوم الفظيع أعظم من قدرة احتمال جسد الانسان ، و لولا ان الله لم يقدر عليهم الموت لكانت كل حادثة منها تقضي عليهم جميعا.

ان الحوادث ذلك اليوم لا تنعكس فقط على الانسان بل على الطبيعة الصامتة ايضا ، فتأخذ الرجفة الارض و الجبال لرهبة الموقف ، و هكذا تشقق السماء.

]السماء منفطر به[

(1)التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص ١٨٤.

(2)نهج البلاغة خ ١٥٧ / ص ٢٢٢.

(3)المصدر.

و ليس في حدوث هذا اليوم شك و تردد ، لانه مما وعده الله الوفي المقتدر ، و هذا ما يجعل التعبير عن وقائع القيامة يأتي بصيغة الماضي في الاغلب و كأنها وقعت.

]كان وعده مفعولا[

إذن فالأمر ليس كما يتمنى الانسان ، و لا كما يضله الشيطان الغرور بان و عوده تعالى للتخويف فقط ، كلا .. فوعود الله صادقة و واقعة لا محالة ، و لا بأس ان نشير هنا الى ان بعض الفلسفات المادية ذهبت في الضلال بعيدا حينما زعمت بأن الاخرة لا واقع لها ، و إنما طرحتها الفلسفات الدينية لكي تكون عاملا في توجيه أتباعها نحو التقيد بمبادئها لا غير ! و هذه الآية الكريمة ترد ردا حاسما و ناسفا على هذه الظنون و المزاعم الخاطئة بالتاكيد على ان وعد الله مفعول قطعا.

ثم يقول الله مشيرا الى ما تقدم من بيان الآيات الكريمة.

]ان هذه تذكرة[

تذكر الانسان بالحق ، و تثير فيه العقل و كوامن الخير التي تهديه الى رب العزة و ترسم له الصراط المستقيم و النهج القويم اليه سبحانه .. فدور التذكرة اذا هو بيان الخطوط العامة ، و رسم معالم الطريق للانسان ، لا فرض خيار معين كرها ، لان الاختيار من خصائصالانسان نفسه ، فهو الذي يريد الحق و الباطل او لا يريد.

]فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا[

قال الفخر الرازي : ان التذكرة ما تقدم من السورة كلها ، و اتخاذ السبيل عبارة عن الاشتغال بالطاعة ، و الإحتراز عن المعصية (١) ، و اختار صاحب الميزان تعميم(١) التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص ١٨٥.

التذكرة على كل ما سبق ، و خص صلاة الليل بالسبيل ، لانها تهدي العبد الى ربه (١) ، و الاصح :ان السبيل عموم الصراط المستقيم الموصل الى رضوان الله ، و قيام الليل خطوات فيه ، الا ان أبرز مصاديق السبيل القيم الالهية ، و اظهرها القران ، و القيادة الرسالية ،و مصداقها الرسول الاعظم (ص) و ائمة الهدى - عليهم السلام - كما جاء في دعاء الندبة : " ثم جعلت اجر محمد - صلواتك عليه واله -مودتهم في كتابك ، فقلت : " قل ما اسالكم عليه من اجر الا من شاء ان يتخذ الى ربه سبيلا " فكانوا هم السبيل اليك، و المسلك الى رضوانك " (٢. (

[20]و في ختام السورة يعود القرآن للحديث عن قيام الليل ، بالاشارة الى برنامج القيام عند الرعيل الأول و بالذات عند أسوة المؤمنين و سيدهم حبيب الله النبي محمد - صلى الله عليه وآله - و ببيان سماحة دين الاسلام و واقعيته ، حيث يعتبر الظروف الحقيقية عاملا مٌؤثرا في التشريع ، بحيث يرتفع التكليف بقيام الليل عن ذوي الاعذار المشروعة بصورة تامة ، او يخفف الى حد الاكتفاء بقراءة ما يتيسر من القرآن ، و ممارسة مجموعة من الواجبات العامة التي من بينها الصلاة و الزكاة و الانفاق و الاستغفار .

]ان ربك يعلم انك تقوم ادنى من ثلثي الليل[

أي أقل من الثلثين ، و أكثر من النصف بعض الاحيان.

]ونصفه[

أحيانا أخرى.

(1)الميزان / ج ٢٠ / ص ٦٩.

(2)مفاتيح الجنان / ص ٥٣٣.

]وثلثه[

أحيانا ..وهذا يعني انه - صلى الله عليه وآله - يطبق أمر الله بقيام الليل ، و الذي مر بيانه في الآيات (٢ / ٤) . و للآية واحدة من دلالتين : الاولى : ان رسول الله (ص) كان يقوم كل ليلة بأختلاف في مدة القيام بين ليلة وأخرى ، فمرة يقوم أقل من الثلثين، و ثانية يقوم النصف ، و ثالثة الثلث ، او أنه - صلى الله عليه وآله - كان ينهض لقيام الليل ثلاث مرات يستريح بينهما ، كل ليلة (أدنى من الثلثين ، و منتصف الليل ، و ثلثه. (

و هناك رواية تشير الى الاحتمال الثاني ذكرها العلامة الطوسي في التهذيب : قال الامام الصادق (ع) و قد ذكر صلاة النبي (ص) : " كان يؤتى بطهور و يخمر عند رأسه (اي يغطى بخمار) و يوضع سواكه تحت فراشه ، ثم ينام ما شاء الله ، و اذا استيقظ جلس ، ثمقلب بصره في السماء ، ثم تلا الآيات من آل عمران " ان في خلق السماوات و الارض و اختلاف الليل و النهار .. " ، ثم يستن (اي يعمل بسنة السواك) و يتطهر ، ثم يقوم الى المسجد ، فيركع أربع ركعات على قدر قراءته ركوعه و سجوده ، و سجوده على قدر ركوعه، يركع حتى يقال : متى يرفع رأسه ؟ و يسجد حتى يقال : متى يرفع رأسه ؟ ثم يعود الى فراشه فينام ما شاء الله ، ثم يستيقظ فيجلس فيتلو الآيات ، ثم يقلب بصره في السماء ثم يستن و يتطهر و يقوم الى المسجد ، فيصلي أربع ركعات كما ركع قبل ذلك ، ثم يعود الى فراشه فينام ما شاء الله ، ثم يستيقظ فيجلس فيتلو الآيات من آل عمران ، و يقلب بصره في السماء ، ثم يستن و يتطهر و يقوم الى المسجد فيوتر (يصلي الوتر) و يصلي الركعتين (يعني ركعتي الشفع او نافلة الفجر) ثم يخرج الى الصلاة " (١. (

و على خطى الرسول (ص) كان خلص أصحابه من الرعيل الاول يقومون(١) نور الثقلين / ج ١ / ص ٤٢٢

.

الليل كما يقومه النبي (ص) تأسيا به ، اذ جعله الله أسوة المؤمنين ، و كان الآية تبين معنى المعية بأنها ليست مجرد الزعم ، و لا الانتماء الديني و الإجتماعي الظاهر لقيادة الرسول وخطه ، بل الصحبة الحقيقية تتمثل في الاتباع العملي لقيادته و رسالته.

]و طائفة من الذين معك[

و نحن الاجيال الحاضرة - اذا فاتتنا صحبة النبي - صلى الله عليه واله - بالأبدان و معيته فاننا نستطيع ان نكون معه باقتفاء أثره ، و من أثره جهاده و قيامه بالليل قال الحسكاني : " الذين معك " علي و ابو ذر (١. (

]و الله يقدر الليل و النهار[

قال صاحب المجمع : اي يقدر اوقاتهما لتعلموا فيها على ما يأمركم به ، و قيل : لا يفوته علم ما تفعلون ، و المراد : انه يعلم مقادير الليل و النهار ، فيعلم القدر الذي تقومونه من الليل (٢) ، و لعل في التقدير أشارة الى إختلاف الليالي و الايام في الجانب الزمني ، حيث تطول و تقصر ، و ربنا هو الذي يعين المقادير المختلفة.

]علم ان لن تحصوه[

و في معنى الاحصاء قولان : أحدهما : الظاهر أي لن تعدوه ، و الاخر : لن تطيقوا قيامه ، وهو الاقرب بدلالة السياق ، حيث يجري الحديث مباشرة عن التوبة و التخفيف ، و حيث يشير القرآن الى جانب من الاعذار المشروعة التي تعيق عن قيام الليل بصورته الاولية .. قالمقاتل : كان الرجل يصلي الليل كله مخافة ان

(1)تفسير البصائر / ج ٥٠ / ص ١٣٢ عن المجمع.

(2)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٨١.

لا يصيب ما أمر به من القيام ، فقال سبحانه : " علم ان لن تحصوه " اي لم تطيقوا معرفة ذلك ، و قال الحسن : قاموا حتى انتفخت أقدامهم ، فقال : انكم لا تطيقون احصاءه على الحقيقة ، و قيل معناه : لن تطيقوا المداومة على قيام الليل ، و يقع التقصير فيه(١. (

]فتاب عليكم[

اي رحمكم و تلطف بكم ، لان من تاب الله عليه فقد رحمه . و اذا اخذنا بالمعنى الاصيل للتوبة وهو الرجوع فإن المعنى : يكون : انه تعالى بدى له أمر فعادلكم وحيه بحكم آخر غير الحكم الاول الذي يقتضي قيام الليل كله الا قليلا ، او الذي كان القيام فيه واجبا لا مستحبا (٢. (

]فاقرءوا ما تيسر من القرآن[

و تأكيد الله على قراءة القرآن يهدينا الى عظمته ، و ان تلاوته و تدبر معانيه روح قيام الليل و من أهم أهدافه ، حيث يعود الانسان الى كلام ربه و عهده اليه ، فيستلهم منه بصائر الحق ، و مناهج حياته في كل بعد و جانب . ان غاية قيام الليل هي تكامل الانسان ، تكاملا روحيا بالتهجد و التبتل و الصلاة ، و تكاملا عقليا بالتفكر في خلق الله و تدبر آيات قرآنه .. نعم . ان الظروف قد لا تسمح بقيام الليل على صورته الاولية ، و لكن لا ينبغي للمؤمن ان يترك قراءة القرآن على أية حال ، ولو قراءة ما تيسر منه . فما

معنى قول الله : " ما تيسر منه " ؟

لقد اختلف المفسرون و القراء في القدر الذي تضمنه هذا الأمر من القراءة ،(١) المصدر.

(2)مع انه لا توجد روايات صريحة بان قيام الليل كان واجبا شرعيا على المسلمين في اول الدعوة ، الا انه محتمل ، او هكذا استقبلوه ثم تبين لهم غير ذلك.

فقال سعيد بن جبير : خمسين آية ، و قال ابن عباس : مائة آية ، و قال السدي : مائتا آية ، و قال جويبر : ثلث القرآن لان الله يسره على عباده (١) إشارة لقوله تعالى : " و لقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر " (٢) ، و ليس بين الاقوال الاربعة تناقض ، لان ما تيسر هو ما يجده القارىء يسيرا على نفسه ، سواء كان آية واحدة او القرآن كله ، و أن كانت الكلمة في ظاهرها اشارة الى القليل ، و قد ذهب البعض بعيدا حينما فسروا الآية في الصلاة و قال معناه : فصلوا ما تيسر من الصلاة ، و عبر عن الصلاة بالقران لانها تتضمنه (٣. (

و جدير التساؤل عن السبب في التيسير بعد التشدد في منهجية التشريع الاسلامي ، الأمر الذي يكاد يصبح ظاهرة في أحكام الله لكثرة شواهده ، فقد فرض الله على المؤمنين تقديم صدقة بين يدي نجواهم الرسول (٤) ثم الغيت الصدقة ، و حرم عليهم مقاربة ازواجهم حتى لياليالصيام ثم احلها (٥) و في الجهاد فرضه واجبا اذا كانت نسبة المؤمنين الى أعدائهم تعادل واحدا الى عشرة ، اي أنهم يجب عليهم الجهاد وخوض الحرب اذا كانوا مائة و كان العدو الفا ، ثم خفف الحكم بنسبة واحد الى اثنين (٦) ، و مثل ذلك احكام عديدة و التي من بينهاقيام الليل الذي نحن بصدد الكلام عنه.

ان هذه الظاهرة في التشريع الاسلامي تهدينا الى ان إصلاح الانسان - و بالذات في الانطلاقة - بحاجة الى برنامج مركز و صعب حتى يصلح نفسه(١) مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٨١ .

(2)القمر / ٤٠.

(3)نقل هذا القول مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٨١ و به قال صاحب الكشاف و الفخر الرازي.

(4)المجادلة / ١٢ - ١٣.

(5)البقرة / ١٨٧.

(6)الانفال / ٦٥ - ٦٦.

إصلاحا جذريا ، كما المقاتل في دورته العسكرية الاولى ، فاذا ما استمر قطاره على السكة يخفف عنه ، و هذه منهجية الاسلام في بناء أفراده و مجتمعه ، و اذا صح هذا التحليل فاننا يجب ان نستفيد من ذلك في حياتنا و مسيرتنا ، ففي بداية التغيير ينبغي ان تؤخذ الامةبالشدة حتى تذوب في بوتقة الايمان و العمل الرسالي ، ثم يأتي دور التخفيف عنها شيئا ما.

و يلفتنا القرآن الى خصيصة تشريعية في الاسلام و هي واقعيته ، وأخذه ظروف المشرع له بعين الاعتبار ، فهو ليس نظاما قسريا ، بل تشريعا واقعيا مرنا ، و ذلك مما يؤكد حقانيته.

]علم ان سيكون منكم مرضى[

يعيقهم مرضهم عن القيام ، او يجعله امرا مكلفا . و هذه كناية عن المقوقات البدنية التي تصيب الانسان بالضعف.

]و ءاخرون يضربون في الارض يبتغون من فضل الله[

طلبا للرزق . و الضرب في الارض كناية عن التنقل و الترحل و السعي الحثيث ، و علل الرازي تخفيف الفرض على هذا الفريق و من يلونهم (المقاتلين في سبيل الله) قائلا : و اما المسافرون و المجاهدون فهم مشتغلون في النهار بالاعمال الشاقة ، فلو لم يناموا في الليل لتوالت اسباب المشقة عليهم (١. (

]و ءاخرون يقاتلون في سبيل الله[

اعلاء لكلمته ، و انفاذا لامره ، و تحكيما لشرعه ، و دفاعا عن ثغور المسلمين ،(١) التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص ١٨٧.

وهؤلاء لا شك لهم من الاجر الشيء العظيم ، و لعمري ان جهادهم بمثابة قيام الليل أجرا و قدرا عند الله ؛ لانهم لولا جهادهم و قتالهم لكان الامر كما حكى الله تعالى : " لهدمت صوامع و بيع وصلوات و مساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا " (١) . قال الفخر الرازي : و من لطائف هذه الآية انه تعالى سوى بين المجاهدين و المسافرين للكسب الحلال (٢) ، و هذا يؤيد قول رسول الله (ص " : (ايما رجل جلب شيئا الى مدينة من مدائن المسلمين صابرا محتسبا فباعه بسعر يومه كان عند الله من الشهداء " (٣) ، وهو تأكيد لقول الامام الصادق -عليه السلام - : " الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله " ، و يؤكد الله مرة اخرى أمره بتلاوة القرآن.

]فاقرءوا ما تيسر منه[

و لو بضع آيات ، المهم ان لا يترك المؤمن رسالة ربه ، لانه قد يستغني عن قيام الليل و لكنه لا يستغني عن بصائر الوحي في حياته مهما كانت الظروف.

]و أقيموا الصلاة[

بممارسة شعائرها و فروضها ، و حقيقيا بالتزام مضامينها ، و تحقيق أهدافها على الصعيد الشخصي و في المجتمع.

]و ءاتوا الزكاة[

كناية عن كل انفاق واجب ، يزكي المؤمن نفسه و ماله باعطائه.

]و اقرضوا الله قرضا حسنا[

(1)الحج / ٤٠.

(2)التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص ١٨٧.

(3)المصدر عن ابن مسعود.

وهو كل انفاق مستحب في سبيل الله (1)الذي لا يضيع عنده عمل عامل ابدا.

]وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله[

في الدنيا و الاخرة . و في الآية إشارة ليس الى العمل الصالح الذي يمهد للمؤمنين آخرتهم و حسب ، بل ان كثيرا من التوفيقات و البركات التي ينالها الانسان في الدنيا ، و هكذا المكاره التي تدفع عنه ، ليست الا نتائج قائمة على مقدمات سابقة بادر اليها ، والتيمن بينها الانفاق في سبيل الله ، فالمكروه

الذي يرتفع عن المتصدق انما ترفعه صدقته التي قدمها قبل حدوثه .. فالمنفق في حقيقة الامر يقدم بانفاقه خيرا لنفسه.

]هو خيرا و أعظم أجرا[

حيث يتضاعف خيره و أجره بفضل الله تعالى ، و كيف لا يتضاعف و المجازي رب المحسنين ؟ ! بلى . ان الصدقة القليلة لا ينحصر خيرها و أجرها في الدنيا ، بدفع الشر عن صاحبها ، و جلب البركة و التوفيق اليه ، بل يمتد الى الاخرة ايضا ، فاذا بالدرهم الواحد يستحيل جنة عالية و حورا و نعيما لا ينقطع ، بل يضاعفه الله يوما بعد يوم.

]و استغفروا الله[

هناك قال و قد خفف حكم قيام الليل : " فتاب عليكم " و هنا يأمر المؤمنين بالاستغفار ، مما يوحي لهم بان ترك القيام بالليل غير محمود عند ربهم في حال وجود العذر ، فكيف بتركه دونه ؟ّ! كما يثير في انفسهم الشعور بالتقصير ، و من ثم يدفهم للمزيد منالسعي و العمل الصالح و التقرب اليه بالاستغفار.

(1)لقد مر تفصيل في معنى القرض الحسن في سورة الحديد / ١١ فراجع.

]ان الله غفور رحيم[

وهذه الخاتمة تملا القلوب أملا و طمعا في غفرانه و رحمته تعالى ، حيث أمرهم بالاستغفار ، و أكد اليهم بأنه الغفور الرحيم ، و كأن الخاتمة ضمانة بالاجابة بعد الامر المتقدم بالاستغفار ، و لعل القرآن يريد ان يقول لنا بإن اداء المؤمن للفروض الواجبة - كإقامةالصلاة و الزكاة و الانفاق - ينبغي ان لا يشحنه بالغرور و شعور الاكتفاء ، فيقتصر على ذلك من دون المستحبات المشرعة في الدين و من بينها قيام الليل.

سورة المدثر

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن ابي جعفر محمد بن علي الباقر - عليه السلام -قال : " من قرأ في الفريضة سورة المدثر كان حقا على الله عز وجل ان يجعله مع محمد - صلى الله عليه واله - في درجة ، و لا يدركه في حياة الدنيا شقاء ابدا ان شاء الله."

نور الثقلين / ج / 5ص ٤٥٢

الاطار العام

بعد ان يستنهض الوحي النبي المدثر لتحمل أعباء الرسالة بالانذار ، و تكبير الله ، و تطهير ثيابه من كل نجاسة مادية و معنوية ، و مقاطعة الرجز بالهجران ، ينهاه عن المنة على الله لانها تقطع الخير ، و يأمره بالصبر له كضرورة تفرض نفسها على كل داعية حق و حامل رسالة . اوليس يريد الثورة على الواقع المنحرف و المتخلف ؟ اذن يجب ان يتوقع الكثير من المشاكل و الضغوط المضادة في هذا الطريق ، و عليه يجب ان يتحمل و يصبر كشرط للاستقامة و تحقيق الهدف (الايات ١ / ٧. (

و لان المؤمن يؤلمه تسلط الطغاة و المنحرفين من قوى سياسية و اقتصادية و اجتماعية و عسكرية ، و بالتالي يستعجل لهم الهلاك و الجزاء ، فان القرآن يسكن ألمه هذا بتوجيهنا الى يوم القيامة حيث

الانتقام الاعظم من اعداء الرسالة و المؤمنين ، اذ ينقر في الناقورايذانا ببدء يوم عسير لا يسر فيه على الكافرين و اشباههم ، يلاقون فيه ألوانا من العذاب الخالد الذي لا يطاق .. و انى يطيق المخلوق الضعيف انتقام رب العزة ؟ ! (الآيات ٨ / ١٠. (

و هكذا نهتدي الى ان محور السورة - فيما يبدو لي - صراع الرسول مع مراكز القوة التي لا بد ان يتحداها بكل اقتدار.

و يعالج السياق طائفة من الافكار الخاطئة التي يتشبث بها المتسلطون و المترفون لدعم مواقعهم القيادية ، منها الزعم بانه لولا رضا الله عنهم لما اوسع عليهم نعمة.

اذا فما في يد الكفار و الطغاة من نعيم ليس دليلا على حب الله لهم ، و لا على صحة منهجهم في الحياة .. بلى . ان عندهم مالا ممدودا ، و أتباعا كثيرة و أبناء ، و ممهدة لهم وسائل العيش الرغيد ، الذي لا يشبعون منه ، بل يطمعون في زيادته .. ولكنهم ضالون عن الصراط السوي ، جاحدون لآيات الله .. و بالتالي مستحقون لعذابه و انتقامه ، و المقياس السليم للتقييم ليس المادة ، بل القيم ، و ليس الدنيا بل الاخرة ، و المترفون على عناد مع قيم الحق ، و خاسرون في الاخرة ، فهنالك لا يبقى لهم نعيم و لا انصار ، و لا مقام احترام كما هم في الدنيا ، بل يتبدل واقعهم الى قطع من العذاب الاليم و المهين ، و تصبح كل نعمة أعطيت لهم و بالا عليهم حيث لم يؤدوا شكرها .. فهم اشد الناس عذابا لانهم قد املي لهم من فضل الله ، و من الم ما يلقون عذابا الصعود المرهق (الآيات ١١ / ١٧. (

و ليس ارهاقهم بالعذاب مجرد انتقام عبثي ، بل هو انتقام متأسس على الحساب الدقيق و الحكمة و العدل ، فانك حيث تحقق في سببه تجده منهجيتهم الخاطئة و الضالة في الحياة ، و التي ترتكز على التفكير المنحرف و التقديرات الخاطئة ..فانها حقا هي المسؤولية عما يحلبهم من اللعن و القتل و العذاب ، فهم الذين عبسوا و بسروا ثم أدبروا و استكبروا ، و كان هذا موقفهم من الحق قيما و قيادة و حزبا ، بل ذهبوا الى ابعد من ذلك حينما رموا الحق بالتهم الرخيصة الباطلة ، فقالوا : " ان هذا الا سحر يؤثر " ، و قالوا : بلهو من صنع البشر و ليس رسالة من الله .. من دون دليل الاللطعن فيه و التهرب من مسؤولية الايمان ، و الا لتضليل الناس عن طريق الهدى و سبيل الرشاد) الآيات ١٨ / ٢٥. (

من هنا حق لو عذب الله الكفار المعاندين باعتبارهم يبارزون رب العزة و يحاربون الحق ، و بالذات كبراؤهم و الملأ المترفين منهم ، كالحكام الطغاة ، و أصحاب الثروة ، و ادعياء العلم ، و لذلك يتوعد الجبار واحدهم باشد العذاب ، و يؤكد ذلك لرسول (ص) و كل رسالي يقف على خط المواجهة و في جبهة التحدي و الصراع ضد الباطل بانه سيصليه سقر ، و هي أشد أقسام النار تلظيا و حرارة و رهبة بحيث لا يمكن لبشر ان يتصورها و يدري ما هي ، الا ان القرآن يشير الى بعض صفاتها الرهيبة حيث انها لا تبقي و لا تذر ، لواحة للبشر..
و منظر آخر مخيف منها يمثله ملائكة غلاظ شداد النار نفسها فرقة منهم.

انهم تسعة عشر .. هكذا يقول الله .. فأما المؤمنون فانهم تقشعر جلودهم ثم تلين ، و هكذا يزداد خوفهم و تقواهم لمجرد سماعهم قول رب العزة ، لان المهم عندهم حقيقة الأمر لا تفاصيله حتى يختلفون في ألوان اولئك النفر الموكلون بسقر من الملائكة ، و لا في احجامهم و اوزانهم و عددهم .. كما اختلف الكفار و الذين في قلوبهم مرض ، و فتنوا انفسهم قائلين : " ماذا أراد الله بهذا مثلا " ؟ ! فضلوا عن الهدف و الحكمة الا و هي التذكرة (الايات ٢٦. (31 /

"كلا و القمر * و الليل اذ أدبر * و الصبح اذا اسفر " هكذا يقسم ربنا أقساما غليظة عظيمة مترادفة ، و يؤكد بان القضية كبيرة و مشتملة على موعظة و انذار عظيمين للبشر لو كانوا يعقلون .. بل انها ركيزة أساسية و ملحة للانسان في مسيرته و مصيره ، وذلك ان تقدمه (فردا و أمة) و كذلك تأخره رهين موقفه من حقائق هذه الذكرى الالهية للبشر (الايات ٣٣ / ٣٧. (

و في سياق الحديث عن الاخرة و عذاب سقر ينعطف بنا القرآن الى آية مهمة في سورة ، بل في المنهجية الاسلامية بصورة عامة ، و ذلك حينما يربط بين مستقبل الانسان و حاضره و بين سعيه و

مصيره و مؤكدا بأنه المسؤول عن نفسه ، فهو الذي بيده حبسها في العذاب كما بيدهفك رهانها منه ، و الدخول بها الى جنات الخلد والنعيم . و يضع الله الناس فردا فردا امام حقيقة عظيمة و مهمة يجب ان يضعوها نصب أعينهم ، و يتحركوا في الحياة على ايحاءاتها و مستلزماتها .. الا و هي ان الانفس كلها رهينة .. شهواتها و ضلالها و قراراتها المنحرفة الخاطئة ، الا ان يعتصم البشر بحبل الايمان و يتبع منهجه فيخلصها الله من سجنها الخطير، كما صنع و يصنع بأصحاب اليمين) الآيات ٣٨ / ٣٩. (

و من خلال حوار قصصي يدور بين اصحاب الجنة و المجرمين - ينقله القرآن - تبصرنا الآيات الربانية بأهم ركائز الجريمة التي تؤدي الى سقر و التي حذرنا ربنا منها ، و بذلك يجيب القرآن على سؤال يفرض نفسه على كل من يعرف حقيقة سقر ، حيث يبحث عن النجاة من شرها ،و يسعى لتجنب أسباب التورط فيها ، وهي اربعة أساسية كما يقر المجرمون انفسهم) : عدم كونهم من المصلين ، و عدم اطعامهم المسكين ، و خوضهم مع الخائضين ، و التكذيب بالاخرة) و ماذا يرتجى لمن يوافيه الاجل ، و يلقى ربه على هذا الضلال البعيد و الجريمة ؟ ؟ (الايات ٤٠ / ٤٧. (

و من يتورط في الذنوب الاربعة الكبيرة التي مر ذكرها فإن مصيره النار لا محالة ، لانه لا عمل صالح عنده ينجيه من العذاب ، ولن تدركه رحمة من الله و قد بارزه و حاربه ، ولن يشفع له احد ، ولو استشفع له احد - جدلا - فلن تنفعه شفاعة ابدا ، لان الشفاعة تنفعمن تكون مسيرته العامة في الحياة مسيرة سليمة ، ثم يرتكب بعض الذنوب و المعاصي .. و ليس المجرمون كذلك (الاية ٤٨. (

و في خاتمة السورة يستنكر القرآن على المجرمين (الكفار و مرضى القلوب (إعراضهم عن تذكرة الله لهم و رحمته المتمثلة في آيات وحيه الهادية ، مع انهم مستقبلون أمرا عظيما و نارا لا تبقي و لا تذر .. و لا خلاص لهم الا بالاقبال على التذكرة ، و العمل على ضوءبصائرها و هداها ! ! انهم حقا يشبهون - حيث يعرضون عن آيات الله - قطيع حمر انقض عليه ليث لا يدرون قسورة الى اين يفرون منه ، و ما الحيلة للخلاص .. و الحال ان آيات الله على عكس ذلك جاءت لتاخذ بأيديهم الى ساحل الأمن و الرحمة و السعادة ، و اولى بهم ان يستقبلوها كما يستقبل الضمأى و المجدبون غيث السماء .. " بل يريد كل أمرء منهم ان يؤتي صحفا منشرة " و لن يكون ذلك ابدا ، " بل لا يخافون الاخرة " و هذا في الحقيقة - أعني الكفر بالاخرة و عدم حضورها في وعي الانسان - أكبر عامل في الانحراف ، وعدم الاهتمام بالتذكرة و التاثر بها (الآيات ٤٩ / ٥٣. (

و يرد القرآن على أباطيل المدبرين عنه و المستكبرين على الحق ، الذين قالوا : " ان هذا الا سحر يُؤثر * ان هذا الا قول البشر " ردا موضوعيا حاسما في آيات ثلاث (٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦) تبين في نفس الوقت دور القرآن بانه التذكرة بالله و بالحق ، و ان الانسان مكلف بالاستجابة لهداه ، و لكنه غير مجبور على ذلك بل مخير ، و ان كان توفيق التذكر و الهداية لا يحصل " الا ان يشاء الله هو أهل التقوى و أهل المغفرة "و معرفة هذه الحقيقة امر ضروري بالنسبة للانسان ، لانها تحيي فيه روح التوكل على الله و التضرع اليه ، و تبعده عن الغرور الناشىء من الاعتماد على الذات.

خلاصة القول : ان الموضوع الرُئيسي في السورة تصدي الرسول لمراكز القوى الجاهلية ، و لكنها تعالج ايضا قضايا هامة اخرى و هي :ان الغنى و القدرة و سائر نعم الله مجرد ابتلاء ، و ليست دليلا على رضا الله عن أصحابها ، و ان الانسان رهن سعيه ، و ان عليه هو انيسعى نحو الهداية ، و انه لا يكره عليها إكراها.

و لربك فاصبر

هدى من الآيات

في البداية تبين الآيات الكريمة أهم الصفات التي يجب توافرها في كل منذر يتصدى لهداية الناس و تغيير الواقع بالرسالة ، و هي : تكبير الله وحده ، و تطهير الثياب من كل دنس و نجاسة ، و مقاطعة الرجز بكل أشكاله و صوره ، و عدم المنة على الله ، و الصبر و الاستقامة في الطريق الشائك ، فالمنذر الرسالي لا يكون منذرا الا اذا تحلى بهذه الصفات اللازمة ، و كذلك لا يمكنه تحقيق أهدافه (الهداية و التغيير) الا بها (الآيات ١ / ٧. (

ثم تنذر الكفار بيوم عسير عليهم لا يسر فيه ، يوم الانتقام ، الذي يشفي به الله صدور المؤمنين الذين

يتذوقون مرارة الاذى منهم ، و بالتالي يبعث فيهم روح الصبر و الاستقامة (الآيات ٨ / ١٠. (

و من هذا الوعيد العام لكل الكافرين و مرضى القلوب ، يخص الله بوعيدهاقطاب الضلال و ائمة الكفر .. بصيغة الافراد .. و كأنه يهددهم واحدا واحدا بالذات ، لا فرق بين من عاصر النبي منهم و من يأتي بعدهم ، مؤكدا بان ترفهم و ماهم فيه من نعمة ليس دليلا على قربهم منه و سلامة منهجهم ، كلا .. بل هو كيد عظيم ضدهم كما يأتوا في الاخرةمالهم من خلاق و لا نصيب سوى العذاب الاليم ، لانهم جحدوا بالآيات و فكروا و قدروا فما اسوء ما فكروا فيه و قدروا فاصيبت مقاتلهم ، و دفعوا انفسهم في نار سقر لا تبقي و لا تذر ، عليها تسعة عشر من ملائكة الله الغلاظ الشداد (الآيات ١١ / ٣١. (

بينات من الآيات

[2 / 1]مع اختلاف الكلمتين (المزمل و المدثر) في معناهما ، و استقلال السورتين في موضوعهما و سياقهما ، الا ان البعض خلط بينهما الى حد التطابق في النصوص الواردة في أسباب التنزيل مما يضعف رواياتها عندي . قال تعالى:

]يا ايها المدثر[

لقد اجمع المفسرون على ان " المدثر " هو رسول الله - صلى الله عليه واله وسلم -سماه ربه بذلك ، قال الكلبي عن ابي عبد الله الصادق - عليه السلام - قال " :يا كلبي كم لمحمد (ص) من اسم في القرآن ؟ " فقلت : اسمان او ثلاثة ، فقال : ياكلبي له عشرة اسماء " و عدها الي ان قال : " و يا ايها المدثر و يا ايها المزمل " (١) و وقع الاختلاف في انه (ص) لم سمي مدثرا ، فمنهم من أول الظاهر ، و منهم من بقي عليه ، و تساءل : لماذا تدثر الرسول بثيابه ؟

قال جابر عن رسول الله (ص) انه قال : " جاورت بحراء شهرا ، فلما قضيت(١) البرهان / ج ٣ / ص ٢٨.

جواري نزلت فاستبطنت الوادي ، فنوديت فنظرت امامي و خلفي ، و عن يميني و عن شمالي فلم ار احدا ، ثم نوديت فرفعت راسي فاذا هو على العرش في الهواء - يعني جبرئيل - فقلت : دثروني دثروني فصبوا علي ماء ، فانزل الله عز و جل " : الآيات من المدثر " (١)، و في الدر المنثور : " فرفعت رأسي فاذا الملك الذي جاءني بحراء على كرسي بين السماء و الارض ، فجئت رعبا فقلت : .. الخ (2) "و نقل الفخر الرازي ان نفرا من قريش اذوا رسول الله (ص) و هم : ابو جهل ، و ابو لهب ، و ابو سفيان ، و الوليد ، و النضربن الحرث ، و أمية بن خلف ، و العاص بن وائل فقالوا : ان محمدا لساحر ، فوقعت الضجة في الناس :ان محمدا ساحر ، فلما سمع رسول الله (ص) ذلك اشتد عليه ، و رجع الى بيته محزونا ، فتدثر بثوبه ، فجاءه جبرئيل (ع) و ايقظه ، و قال : " يا ايها المدثر " (٣) ، و ضعف السيوطي ذلك في اسباب النزول ص ٢٢٣ ، و لقد انتقدت في سورة المزمل اسباب النزول هذه لما فيها من اشارة الى شك اصاب الرسول في رسالته ، و ضعف في الموقف قبالة ضغوط المشركين ، بلى . قد يكون النبي (ص) حين نزول هذه الآيات متدثرا لاسباب عادية.

و من المفسرين من تاول لكلمة المدثر غير ظاهرها فقال : ان المراد كونه متدثرا بدثار النبوة و الرسالة ، من قولهم البسه الله لباس التقوى ، و زينه برداء العلم ، و يقال : تلبس فلان بكذا (٤) ، و قد نقل العلامة الطباطبائي هذا الراي في تفسيره و قواه (٥) ، وقيل : المراد به الاستراحة و الفراغ ، فكانه قيل له : يا ايها المستريح(١) مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٨٤ و التبيان /ج ١٠ / ص ١٧١ ، و الكشاف / ج ٤ / ص ٦٤٤ و التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص ١٨٩ ، و في ظلال القران / ج ٨ / ص ٣٤٥ ، و الميزان / ج ٢٠ / ص ٨٣.

(2)الدر المنثور / ج / 6ص ٢٨٠.

(3)التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص ١٩٠.

(4)المصدر.

(5)الميزان / ج ٢٠ / ص ٧٩.

الفارغ قد انقضى زمن الراحة ، و اقبل زمن متاعب التكاليف و هداية الناس (١) ، و هو بعيد عما نعرفه من خلق الرسول الذي ما كان ليستريح و لا يني يجاهد لاعلاء كلمة الله قبل و بعد البعثة.

و في اللغة : المدثر : المتفعل من الدثار ، الا ان الثاء ادغمت في الدال لانها من مخرجها ، مع ان الدال اقوى بالجهر فيها عن التبيان ، و هو المتغطي بالثياب عند النوم (٢ (، يقال : تدثر تدثرا ، و دثره تدثيرا ، و دثر الرسم يدثر دثورا اذا محي اثره (٣) ، و القوي عندي في معنى المدثر ثلاثة اراء:

الاول : ظاهر الكلمة اي المتدثر بغطاء ، فان الوحي كان ينزل على رسول الله (ص) في مختلف حالاته ، راكبا و راجلا ، و نائما و يقظا و .. و..

الثاني : المتدثر بدثار النبوة ، و قد بينا ما يشبه ذلك في تفسير الآية الاولى من سورة المزمل.

الثالث :المتكتم و المتخفي ، و انما سمي الدثار دثارا لانه يخفي النائم ، من باب دثرت المعالم اذا انمحت و اختفت ، و عليه يحتمل ان تكون سورة المدثر فاتحة المرحلة العلنية من الدعوة الاسلامية ، التي مرت في بدايتها بظروف السرية و التكمان .. و اذا صح هذاالراي قد نكون وصلنا الى حل للاختلاف بين المفسرين في انه هل العلق هي اول ما نزل من القران ام سورة المدثر ؟ حيث يوصلنا هذا الراي الى ان العلق هي اول سورة نزلت على الاطلاق ، اما المدثر فهي اول ايذان باعلان الدعوة من الله.

(1)المصدر.

(2)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٨٣.

(3)التبيان / ج ١٠ / ص ١٧٢.

]قم فانذر[

قال الرازي : في قوله : " قم " و جهان : قم من مضجعك ، و قم قيام عزم و تصميم (1)، و يتسع المعنى لقيام الجهاد و التغيير و الثورة لوصفه تعالى المتقاعسين و الساكتين بالقاعدين في قوله " و فضل الله المجاهدين على القاعدين اجرا عظيما "(٢) و هكذا في مواضع اخرى من القرآن (٣) ، و الانذار و التحذير من عواقب الضلال و الانحراف انه من اهم أهداف الحركة الرسالية الاصيلة و منطلقاتها ، لانه يعكس في الحقيقة تحسس الطلائع بالواقع الفاسد ، و من ثم تحركهم للتغيير ايمانا بالمسؤولية الربانية .

بلى . قد يكون نفسه على الطريق السوي ، و لكن مسؤوليته شاملة لا تنحصر في ذاته وحسب ، بل هو كفرد من المجتمع مسؤول عن واقعه ، ليس من زاوية انسانية و دينية فقط بل من زاوية واقعية ايضا ، فان تخلف مجتمعه و امته يؤثر عليه شاء ام ابى ، و ان القوانين و السننالجزائية تطال الجميع دون استثناء .. و لا ريب ان نشر القيم الصالحة ، و توعية المجتمع ، و من ثم تغيير مسيرته نحو الصواب ، يجعل الانسان أقرب الى أهدافه ، و أقدر على بلوغها بصورة اسرع و أفضل حيث يتحرك في محيط صالح ممهد للنهضة و التقدم.

ومن الناس من يتوانى عن إداء مسؤوليته الاجتماعية ، و يتعلل بفهمه الخاطىء لقول الله سبحانه : " يا ايها الذين امنوا عليكم انفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم (4) "و يزعم انه يأمر بالتقاعس و التساهل ازاء تخلف المجتمع و انحرافه ، (1)التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص ١٩٠.

(2)النساء / ٩٥.

(3)المائدة / ٢٤ ، التوبة / ٤٦ - ٨٦.

(4)المائدة / ١٠٥.

كلا ..اليس الظاهر القراني حجة ؟ اوليس هذا القران ينادي فينا بالقيام و النهضة للتغيير ؟ اوليس القرآن رسالة الله الى كل انسان مكلف ؟ اوليس الرسول (ص) اسوة حسنة لنا جميعا .. فقد قام و انذر و اصلح بذلك مجتمعه و أسس حضارة الاسلام.

ان الطلاق بين الامة و رسالتها ، و تقليد الشرق و الغرب ، و سبات العقل ، و حالة الفردية و التفرق ، و الجهل ، و القعود عن الجهاد في سبيل الله ، و .. و .. كلها خطوات نحو أسوء العواقب ، و يجب علينا ان ننذر انفسنا و امتنا من مخاطرها ، و اعظم ما ينبغي التحذير منه هو نسيان الله عز وجل فانه لما كان لا مخافة اشد من الخوف من عقاب الله كان الانذار منه اجل الانذار ، كما يقول شيخ الطائفة (١. (

و علق صاحب الميزان على أمر الله للنبي بالانذار فقال : و التقدير : انذر عشيرتك الاقربين لمناسبة ابتداء الدعوة كما ورد في سورة الشعراء (٢) ، و الاقرب أطلاق الانذار ، لان التخصيص لا دليل عليه ، مع ان سياق السورة وجوها العام يوحيان الى انه موجه الى الكفار جميعا ، و هكذا يوجب الانذار لجميع الناس على كل مسلم.

[7 / 3]و بعد الامر الالهي بالقيام و الإنذار يبين القرآن اهم الصفات التي يجب توافرها في المنذر ، حتى يكون عند الله منذرا بتمام المعنى ، و لكي تثمر جهوده و مساعيه .. فليس المهم ان ينهض الواحد للجهاد و التغيير و حسب ، بل الاهم ان يؤدي دوره على الوجه الصحيح و الاكمل ، و ذلك بالتزامه بخمس صفات في شخصيته و مسيرته:

(1)التبيان / ج ١٠ / ص ١٧١.

(2)الميزان / ج ٢٠ / ص ٨٠.

الاولى : تكبير الله.
]و ربك فكبر[

ان المؤمن حينما يقوم منذرا لله يواجه في طريقه عشرات العقبات النفسية و التحديات الاجتماعية ، كما يواجه القوى المضادة اقتصادية و سياسية و اجتماعية ، و واجبه تحديها و رفض الخضوع لها ، الا انه يجد نفسه عادة امام احد خيارين : اما الانهزام و اما التحدي والنصر ، فكيف يسير باتجاه خيار التحدي ؟ انما يرتكز الانتصار ذلك على مدى رسوخ توحيد الله في نفسه ، و ذلك بان يكبره في وعيه و يعظمه في نفسه قبل ان يكبره بلسانه ، فانئذ يصغر كل شيء دونه ، و تتساقط في داخله كل الاصنام . و هذا هو سر انتصار المؤمنين على العقبات و التحديات و الضغوط و القوى المضادة . و انها لصفة اصيلة فيهم يصفها الامام امير المؤمنين (ع) بقوله : " عظم الخالق في انفسهم فصغر ما دونه في اعينهم " (١) ، و على ضوء هذه المعادلة يجب ان نفهم معنى التكبير في حياتنا الفردية و الاجتماعيةو السياسية.

و انما تتعمق هذه الحقيقة في وعي الانسان بالمعرفة السليمة بالله ، و انه الكبير المتعال ، و انه فوق ان يوصف او ترقى الى ذاته كلمات البشر او تصوراته ، و لهذا ورد في معنى (الله اكبر) عن ائمة الهدى - عليهم السلام -انه اكبر من ان يوصف (٢) ، و فيما يلينقل رواية تبين نورا من انوار عظمة الله عز وجل : روى الامام الصادق (ع) عن جده المصطفى - صلى الله عليه واله - انه قال : " و الاشياء كلها في

العرش كحلقة في فلاة ، و ان لله تعالى ملكا يقال له " خرقائيل " له ثمانية عشر الف جناح ، ما بينالجناح الى الجناح خمسمائة عام ، فخطر له خاطر : هل فوق العرش شيء ؟ فزاده الله تعالى مثلها أجنحة اخرى ، فكان له ست و ثلاثون الف(١) نهج البلاغة / خ ١٩٣ / ص ٣٠٣.

(2)الميزان / ج ٢٠ / ص ٨٠.

جناح ، ما بين الجناح الى الجناح خمسمائة عام ، ثم أوحى الله اليه : ايها الملك طر ، فطار مقدار عشرين الف عام لم ينل رأس قائمة من قوائم العرش ، ثم ضاعف الله له في الجناح و القوة ، و أمره ان يطير فطار مقدار ثلاثين الف عام لم ينل ايضا ، فأوحى الله اليه : ايها الملك لو طرت الى نفخ الصور مع اجنحتك و قوتك لم تبلغ الى ساق عرشي ! فقال الملك : سبحان ربي الاعلى فأنزل الله عز وجل : " سبح اسم ربك الاعلى " فقال النبي " اجعلوها في سجودكم " (١. (

و لعل من مفاهيم تكبير الله ان يسعى الانسان المؤمن لتحطيم كيان الضلال و الكفر ، كي تتهاوى الانظمة و المعادلات الاستكبارية ، و تبقى كلمة الله هي العليا في الواقع السياسي و الاجتماعي ، و يكون هو الاكبر في نفوس الناس و وعيهم ، و تكبره ألسنتهم بالغدو والاصال ، قال الفخر الرازي : و هكذا تنبيه على ان الدعوة الى معرفة الله و معرفة تنزيهه مقدمة على سائر أنواع الدعوات (٢) ، و الذي يريد ان يدعو الناس الى التوحيد يجب عليه ان يسقط كل الاصنام في نفسه بالتكبير اولا ، ثم يقدم نفسه نموذجا حقيقيا لرسالته ، فانذلك يعظم الله و يكبره في نفوس الاخرين . و من معاني تكبيره الله ان يتجرد الفرد الرسالي في دعوته لربه ، فلا يتخذ رسالته وسعيه وسيلة لتكبير احد دونه ، كالحكومات الجائرة ، او الذات و العشيرة و القومية .. كما يصنع علماء السوء الذين يتخذون الدين ذريعة لمصالحهم و تضخيم انفسهم في المجتمع .

الثانية : تطهير الثياب.

]و ثيابك فطهر[

(1)موسوعة بحار الانوار / ج ٥٨ / ص ٣٤.

(2)التفسير الكبير للرازي / ج ٣٠ / ص . 191

و يبدو ان الثياب هي عموم ما يتصل بشخصية الانسان ظاهريا ، و لذلك مصاديق ذكر المفسرون بعضها و منها:

- 1اللباس ، فانه يجب على الداعية الرسالي ان يهتم بأناقته و نظافته في جو العمل الرسالي الحاد ، و ليس صحيحا ان ينسى مظهره بحجة خوضه الصراع الاجتماعي و السياسي ، و التحديات المضادة ، و لابد ان يعلم بان تصرفاته و سلوكه و مظهره كل ذلك مقياس عند البعض ودليل على شخصيته و من ثم رسالته.

و تطهير اللباس يعني رفع النجاسة عنه ، و مراعات القواعد الصحية العامة ، و هناك روايات فسرت التطهير بأنه تقصير الثياب كي لا تعلق النجاسات و الاوساخ الارضية بها ، قال الامام علي (ع) : " ثيابك ارفعها لا تجرها (1) " و عن طاووس : و ثيابك فقصر، قال الزجاج : لان تقصير الثياب ابعد من النجاسة ، فانه اذا انجر على الارض لم يؤمن ان يصيبه ما ينجسه (٢ (، فالغرض اذن ان لا يطال الارض ، و ليس كما فهم بعض المتزمتين الذين راحوا يقصرون ثيابهم الى قريب الركبة ! و قيل في معنى تطهير الثياب : اتخاذها من الحلال دون الحرام لانه نوع من الطهارة (٣. (

- 2الازواج ، قال في المجمع : و قيل معناه : و ازواجك فطهرهن من الكفر و المعاصي حتى يصرن مؤمنات (٤) ، و لعل في قول الله عن الزوجات : " هن لباس لكم " (٥) أشارة الى هذا المعنى ، و من

الناحية الواقعية فان أسرة الانسان و بالذات زوجه مظهر لشخصيته كما الثوب.

(1)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٤٥٣.

(2)مجمع البيان ج ١٠ / ص ٣٨٥.

(3)المصدر.

(4)المصدر.

(5)البقرة / ١٨٧.

- 3و قيل ان البدن من مصاديق الثياب باعتباره ثوب الروح و وعائها ، و قيل معناه : و نفسك فطهر من الذنوب ، و الثياب عبارة عن النفس (١) ، يقال : طاهر الثياب اي طاهر النفس منزه عن العيب ، و دنس الثياب اي خبيث الفعل و المذهب (٢. (

و لعل التكبير هو عنوان الطهارة الباطنية و وسيلتها ، و أمر الله بتطهير الثياب بعد الامر بالتكبير يهدينا الى ضرورة الطهارتين الباطنية و الظاهرية عند الداعية الرسالي ، فإن الآخرين و بالذات المغرضين منهم قد لا يجدون ثغرة في رسالة المؤمن و مبادئه و حتشخصيته الذاتية و لكنهم يجدون بعض الثغرات في مظاهره (ثيابه) يطعنونه من خلالها ، و يشوهون شخصيته و سمعة رسالته عبرها.

الثالثة : مقاطعة الباطل مقاطعة تامة و شاملة:

]و الرجز فاهجر[

اي اقطع صلتك به . و اختلف في الرجز فقيل : هو الاصنام و الاوثان عن ابن عباس ، و قيل : المعاصي عن الحسن ، وقيل معناه : جانب الفعل القبيح و الخلق الذميم ، و قيل معناه : أخرج حب الدنيا من قلبك لانه رأس كل خطيئة (٣) ، و قيل : اهجر ما يُؤدي الى العذاب (٤) ، و قال الرازي : الرجز العذاب ، قال الله تعالى : " لئن كشفت عنا الرجز " اي العذاب ، ثم سمي كيد الشيطان رجزا لانه سبب للعذاب ، و سميت الاصنام رجزا لهذا المعنى ، فعلى هذا القول تكون الآية(١) مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٨٥.

(2)المنجد مادة ثوب.

(3)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٨٥.

(4)التبيان / ج ١٠ / ص ١٧٣.

دالة على وجوب الاحتراز عن كل المعاصي (١) ، و مثله صاحب الكشاف و الميزان . و عن جابر قال : سمعت رسول الله . (ص) يقول : " هي الاوثان " (٢. (

و كل ما ذكره المفسرون صحيح ، الا انه مصاديق لشيء واحد هو الباطل ، و اظهر مفردات الرجز التي يجب على الداعية الرسالي مقاطعتها التالية:

الف : على الصعيد الفردي .. العقائد و الافكار الباطلة ، و الاخلاق و الصفات السيئة ، و الممارسات و السلوكيات الخاطئة.

باء :و على الصعيد الاجتماعي .. الفواحش ما ظهر منها و ما بطن ، كالزنا و السرقة و شهادة الزور و

ظلم الناس و أكل أموالهم بالباطل .. و يدخل في الرجز الاجتماعي مجالس البطالين و رفاق السوء ، فانهما يفسدان أخلاق المؤمن ، و يؤثران سلبا على مسيرته.

جيم : و على الصعيد السياسي ..التعاون مع الطاغوت و الحكومات الفاسدة ، و الركون الى الظالمين ، و هكذا الانتماء الى التجمعات السياسية المنحرفة ، و الخضوع للقيادات الضالة و الجائرة.

الرابعة : عدم المنة على الله بل الاحساس الدائم بالتقصير تجاهه.

]و لا تمنن تستكثر[

و المؤمن الصادق لا يتبع جهاده وسعيه بالمن و الاستكثار ابدا ، ذلك لانه يعد عمله الصالح شرفا وفقه الله اليه ، و أنه الذي يستفيد من العمل في سبيل الله في(١) التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص ١٩٣.

(2)الدر المنثور / ج / 6ص ٢٨١.

الدنيا و الاخرة و ليس العكس ، لانه المحتاج الى الله و الفقير لرحمته ، و الى ذلك أشار القرآن بقوله تعالى : " قل لا تمنوا علي اسلامكم بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ان كنتم صادقين " (١) . ثم ان المؤمن انما يعمل صالحا لينال ثواب الله و رضوانه ، و المن يبطل الأجر فلماذا يمن على ربه ؟ قال الامام علي (ع) يوصي مالك الاشتر لما ولاه مصر : " و اياك و المن على رعيتك باحسانك .. فإن المن يبطل الاحسان " (٢) . ثم كيف يمن المؤمن على ربه وهو يعلم بانه لولا فضله و رحمته لما صدر منه الاحسان و لما استطاع اليه سبيلا ؟!

و لكلمة " تستكثر " معنيان يهتدي اليهما المتدبر:

الاول :لا تمن على الله باستكثار عملك ، قال الرازي : لا تمنن على ربك بهذه الاعمال الشاقة كالمستكثر لما تفعله .. و نقل عن الحسن قوله : لا تمنن على ربك بحسناتك فتستكثرها (٣. (

الثاني : لا تمن على الله فان ذلك يزيدك عملا صالحا و أجرا بعد أجر ، فان أصل المن هو القطع ، و الذي يمن على ربه عمله في سبيله فانه لا يستزيد عملا ، و السبب انه حينئذ يشعر بالاكتفاء و الاشباع فلا يجد حاجة تدعوه الى المزيد من السعي و الاستكثار من الخير. و على الصعيد الاجتماعي فان المن على الناس يدعوهم الى النفور من الداعية ، كما ان عدمه يدعوهم للالتفاف حوله بكثرة . و ما اكثر ما منع المن و لايزال الخير و التكامل عن الكثير من الناس ! اما المؤمنون المخلصون و الواعون فانهم لا يمنون على الله ابدا لعلمهم بان الانسان مهما عمل صالحا فانه قليل بالنسبة الى أهدافه ، و بالنسبة للجزاء الذي سوف يؤجره ربه به على(١) الحجرات / ١٧.

(2)نهج البلاغة / كتاب ٥٣ / ص ٤٤٤.

(3)التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص ١٩٤.

أعماله.

الخامسة : الصبر و الاستقامة في طريق الحق.

]و لربك فاصبر[

و هـذه الآية تكشف لنا طبيعة المسيرة الرسالية بانها مليئة بالضغوط و المشاكل ، لانها الطريق الى الجنة التي حفت بالمكاره ، و يجب على كل داعية الى الله و كل مجاهـد ان يعـي هذه الحقيقة و قد اختار الانتماء الى حزب الله و العمل في سبيله ، ومن ثم يعد نفسه لمواجهة كل التحديات و المكاره

بسلاح الصبر و الاستقامة.

ان الذي يتصور طريق الحق خاليا من الاشواك يخطىء فهم الحياة و سنن التغيير . او لست تريد بناء كيان الحق على انقاض الباطل ؟ بلى . فانت اذن في صراع جذري مع الباطل بكل أثقاله و امتداداته .. مع النظام الفاسد ، و الطاغوت المتسلط ، مع الثقافة التبريرية ، معالاعلام التخديري ، مع التربية الفاسدة ، مع العلاقات المتوترة بين الناس .. و بكلمة : مع تخلف المجتمع الفاسد الذي تسعى لعلاجه ، فلابد ان تتوقع ردات الفعـل المضادة ، و الضغوط و التحديات المتوالية و المركزة في طريقك.

و حيث يحتدم الصراع و يصعد مرحلة بعد مرحلة تتضاعف التحديات و الضغوط ، الأمر الذي يضع الرسالي (فردا و حركة) أمام خيارين : الهزيمة او الصمود ، و خياره الاصيل هو الاستقامة ، فيجب اذن ان يصبر لربه ، و الذي يعني عدة أمور:

الاول : ان يجعل صبره خالصا لوجه الله ، لا يريد الا رضوانه و ثوابه.

الثاني :ان يستقيم على الحق حتى لقاء ربه عز وجل ، كما قال الله : " و اعبدربك حتى ياتيك اليقين " (١) ، فالصبر اذن ليس له حد كما يزعم البعض الذين يبررون هزيمتهم و تراجعهم ، بل يجب ان يصبر المؤمن و يصبر حتى يلقى ربه.

الثالث :ان يصبر لحكم ربه و يسلم لقضائه بعد ان يقوم بما ينبغي عمله ثم يترك الأمر لله يقدر فيه ما يشاء ، و هذا معنى التسليم لله و التفويض اليه ، و هو درجة عالية من اليقين تضمد جراحات الداعية ، و تطمئنه بان الله ليس بغافل عما يلاقيه ، و هو رقيب على كل شيء ، وسوف ينتقم في المستقبل من أعدائه ، و تتضمن الآية تحذيرا موجها الى الكفار و المعاندين بالانتقام ، و هذا ما يفسر العلاقة بينها و بين الآيات القادمة.

] [10 - 8]فاذا نقر في الناقور [

في المنجد : الناقور جمعه نواقير ، و هو العود او البوق ينفخ فيه ، و النقر هنا بمعنى النفخ ، و كانت هذه الالة تستخدم قديما لجمع الناس و الجيوش في المناسبات ، و الذي يقصد بالناقور في هذه الآية الصور ، الذي ينفخ فيه اسرافيل مرة فيصعق من في السماوات و الارض ، و أخرى فيبعثون للحساب و الجزاء ، و هو كهيئة البوق . و قد اختلف المفسرون في النفخة هذه هل هي الاولى او الثانية ، فقوى صاحب التبيان كونها الاولى ، و قال : قيل : ان ذلك في اول النفختين ، وهو اول الشدة الهائلة (٢) ، و قيل : انها النفخة الثانية (٣).(

و الأقرب عندي حمل النقر على الاطلاق ، فإن كلا النفختين عسيرتان على الكافرين ، فاما الاولى فانها تسلبهم ما في ايديهم من نعيم و حياة ، و اما الثانية(١) الحجر / ٩٩.

(2)التبيان / ج ١٠ / ص ١٧٤.

(3)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٨٥.

فهي تبعثهم للوقوف بين يدي جبار السماوات و الارض للحساب و الجزاء . و لا ريب ان النفخة التي يعقبها الحساب أعسر من الاخرى التي تميت الناس فقط.

و قد يكون التعبير مجازيا ايضا ، بحيث يصير النقر في الناقور كناية عن يوم الانتقام .. كما نقول قرعت طبول الحرب.

]فذلك يومئذ يوم عسير * على الكافرين غير يسير[

فهو يوم عسر مطلق لا يسر فيه على الكافرين ، اما المؤمنون فانهم مخصوصون بلطف الله و رحمته ،

مما يهدينا الى ان الجزاء و الانتقام الالهي قائم على اساس الحكمة و التدبير الدقيق . و من الايتين مجموعة يتبين ان ذلك اليوم بذاته عسير جدا لما فيه من احداث و مواقف عظيمة لولا انه تعالى ييسره على المؤمنين.

و حضور ذلك اليوم في وعي المؤمنين ، و بالذات الطلائع و القيادات الرسالية الذين يخوضون الصراع ، و يواجهون الاف الضغوط و التحديات ، من شأنه ان يثبتهم على الطريقة ، و يصبرهم على الاذى في جنب الله ، اذ لا يخشون الفوت فيستعلجوا ، بل هم على يقين بان في ضمير المستقبل يوم انتصار على الاعداء و انتقام حتمي منهم للحق ، و ان السبيل لدفع عسره تجرع آلام الجهاد من أجل الحق ، و الصبر لله في الحياة الدنيا.

[16 / 11]و ليس بالضرورة ان يتحقق هذا الوعد غدا او بعد غد ، و ليس صحيحا ان نشكك فيه لو تأخر عنا قليلا و نترك الجهاد في سبيل الله ، او انذار الكفار .. كلا .. فان تدبير الأمور بيد الله ذي الحكمة البالغة و العلم المحيط ، و خطأ ان يعترض أحد على تقديراته ، بل يجب ان نسلم له تسليما مطلقا بانه يفعل ما فيه الخير و الصلاح ، اما نحن فقاصرون عن إدراك حكمة كل قضاء و قدر ، فلعله آخر طاغية يتسلط على رقاب الناس ، و يعيث الفساد في الارض ، او جعل أمر شعب منالشعوب رهن اسرة فاسدة طاغية يتوارثون الحكم و الظلم فليفعل ربنا ما يشاء مسلمين بقضائه كما أمرنا بذلك و قال:

]ذرني و من خلقت وحيدا[

ان حمل أمانة الرسالة و من ثم مسؤولية الانذار و التغيير واجب إنساني شرعي ، مكلف به كل مؤمن ، بل كل انسان عاقل مستطيع ، اما متى و كيف يتغير النظام الحاكم ، و ينتصر أهل الحق على حزب الشيطان ، فإنه أمر يختص به رب العزة و ما ينبغي لنا الايمان به حكمته البالغة ، و بذلك نزداد صبرا و استقامة.

-3-و للآية عدة تفاسير أهمها و أقربها:

الاول :انها وعيد للكفار ، اي دعني و إياه فاني كاف له في عقابه ، كما يقول القائل : دعني و إياه ، و عن مقاتل : معناه : خل بيني و بينه فانا افرد بهلكته (١. (

الثاني : انها أشارة الى أصل خلقة الانسان ، فمعناه : دعني و من خلقته في بطن أمه وحده لا مال له و لا ولد (٢) ، شبيه قوله تعالى : " ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة " (٣) ، و في ذلك أشارة لطيفة الى انه تعالى سوف يسلب منه ما أعطاه من النعيم ، فهو في الاصل كان وحيدا جاء الى الدنيا لا شيء معه ، فمن الله عليه بالأموال الممدودة و البنين الشهود.

الثالث : انها طعن في نسب الوليد بن المغيرة بصورة خاصة اذ كان مجهول(١) مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٨٧.

(2)المصدر.

(3)الانعام / ٩٤.

الوالد ، فعن زرارة و حمران و محمد بن مسلم عن الامام الصادق (ع) قال : " ان الوحيد ولد الزنا " (١) ، و قال زرارة : ذكر لابي جعفر - عليه السلام - عن أحد بني هشام إنه قال في خطبته : انا ابن الوحيد (يعني المتميز المنقطع عن النظير ، و هكذا كانهذا الاموي يفتخر بالوليد الذي لعنه الله من فوق عرشه) ، فقال الباقر عليه السلام : " ويله لو علم ما الوحيد ما فخربها " فقلنا له : و ما هو ؟ ! قال : " من لا يعرف له أب " (٢. (

و قيل معناه : دعني و من خلقته متوحدا بخلقه لا شريك لي في خلقه .. هكذا في مجمع البيان و التفسير الكبير (٣) ، و عن ابن عباس : كان الوليد يسمى الوحيد في قومه (٤) ، قال الفخر الرازي : و

كان يقلب بالوحيد ، و كان يقول : انا الوحيد بن الوحيد ، ليس لي في العرب نظير ، و لا لأبي نظير ، فالمراد " ذرني ومن خلقت " اعني " وحيدا " و طعن كثير من المتأخرين في هذا الوجه ، و قالوا : لا يجوز ان يصدقه الله في دعواه : انه وحيد في هذه الامور .. ذكر ذلك الواحدي ، و الكشاف ، ورد عليه ثلاثة ردود (٥.(

و لقد كان الوليد بن المغيرة من طغاة الجاهلية المترفين ، الذين أقبلت عليهم الدنيا بزينتها (المال و البنون) كما وصف الله بقوله:

]و جعلت له مالا ممدودا[

و ما دام الله هو الذي جعله فإنه قادر على سلبه و الذهاب به ، لانه لم يجعله الا(١) مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٨٧.

(2)المصدر.

(3)راجع مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٨٧ و التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص ١٩٨.

(4)المصدر الاول.

(5)التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص ١٩٨.

لحكمة بالغة . و المال الممدود هو الكثير و المتنامي ، قال الطبرسي في المجمع : ما بين مكة الى الطائف من الإبل المؤبلة - المجمعة - و الخيل المسومة ، و النعم المرحلة ، و المستغلات التي لا تنقطع غلتها ، و الجواري و العبيد و العين الكثيرة ، و قيل : الذي لاتنقطع غلته عن سنة حتى يدرك غلة سنة اخرى فهو ممدود على الايام ، و كان له - يعني الوليد - بستان بالطائف لا ينقطع خيره في شتاء و لا صيف (١. (

]و بنين شهودا[

اذا كان له عشرة اولاد " شهودا " حضورا معه بمكة ، لا يغيبون لغناهم عن ركوب السفر للتجارة (٢) . و قد كانت كثرة الاولاد - الذكور بالذات - تعد من اكبر النعم في ذلك العصر بالخصوص بسبب العادات و الظروف الاجتماعية و الامنية الحاكمة . اضف الى ذلكان مشيهم مع والدهم و سيدهم يعطيه عزة و هيبة بين الناس ، فكيف اذا كان نفسه شيخ عشيرة و صاحب جاه و ثروة ؟ ! و الى هذا المعنى اشار الرازي فقال : انهم رجال يشهدون معه المجامع و المحافل (٣. (

و كلمة " بنين " شاملة تتسع لاكثر مما تتسع اليه كلمة الأولاد ، فهي تشمل الأولاد من الصلب ، و الأولاد بالتبني ، و الأتباع ، لان بين التابع و المتبوع علاقة التبني ذات الطرفين ، و ما اكثر اولئك المصلحيين الذين تحلقوا حول الوليد ، و لا يزالونيتبعون المترفين طمعا في ان يصيبهم فتات من طعامهم .

ثم انه تعالى حيث اراد به كيدا فتح عليه أبواب الخيرات كي يلقاه في الآخرة و ماله من خلاق ، فبالاضافة لنعمتي المال الممدود و البنين الشهود بسط له من فضله ما مهد به سبل العيش الرغيد و ذلل العقبات.

(1)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٨٧.

(2)المصدر.

(3)التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص ١٩٨.

]و مهدت له تمهيدا[

قال في المنجد : مهد الفراش : بسطه و وطأه ، و الأمر سواه و سهله و أصلحه ، و تمهد الرجل : تمكن ، و المهدة جمعها مهد و هي ما انخفض من الارض في سهولة و استواء (١) بحيث يتمكن الناس من المشي عليها بسهولة و راحة . و على مثل هذا اجمع المفسرون ، قال الرازي : اي و بسطت له الجاه العريض و الرياسة في قومه ، فأتممت عليه نعمتي المال و الجاه ، و اجتماعهما هو الكمال عند أهل الدنيا ، و لهذا يدعى بهذا فيقال : أدام الله تمهيده ، اي بسطته و تصرفه في الامور (٢) ، و من التمهيد صحة البدن و راحة البال و ما اشبه . و المفعول المطلق " تمهيدا " يفيد التأكيد و المبالغة في الاستغراق .

و كانت هذه النعم داعية الى الشكر و الايمان لكل عاقل و صاحب ضمير حي ، فهي بمثابة عامل يعبد طريق الهداية للانسان و يمهده له لو تفكر و عقل ، و لكن الوليد كان مريض القلب ، و لذلك كان يزداد ضلالا و إصرارا على الكفر بنسبة طردية كلما توالت عليه النعم ، والسبب ان غير المؤمن يقف عند حد الدنيا ، و تسيطر عليه الروح المادية بحيث يصبح جمع حطامها هدفا بذاته ، فاذا به يفكر في الاستزادة بدل العمل على الشكر لصاحب النعمة.

]ثم يطمع أن أزيد[

اما المؤمن فانه يتطلع عند كل نعمة الى توفيق الشكر و اداء حقها لله و الى الناس ، و صدق رسول الله (ص) حينما قال في حق طالب الدنيا : " منهومان لا يشبع طالبهما : طالب العلم ، و طالب الدنيا " (٣) " فاما طالب العلم فيزداد رضى(١) المنجد مادة مهد بتصرف.

(2)التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص ١٩٩.

(3)كنز العمال / ح ٣٨٩٣٢.

الرحمان ، و اما طالب الدنيا فيتمادى في الطغيان " (١) (و بئس العبد عبد له طمع يقوده الى طبع) (٢) (اي طبع قلبه بالرين) ، و صدق الامام علي (ع) اذ قال : " اكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع " (٣) و انما اعشى قلب الوليد تقادم الخير عليه و طمعه في زيادته ، و انه لمكر الله بالمترفين ، الذي يزيدهم ضلالا عن الحق ، و خسارة في الدنيا و الآخرة ، فلا يشكر ربه و لا هو يصل الى غايته (الزيادة) لان توسيع الله على أحد ليس مطلقا ابدا بل له حد و قيد ، و ليس خارجا عن سننه و قوانينه في الحياة ،فكيف يزيد من لا يؤدي شكر النعمة وهو القائل : " لئن شكرتم لازيدنكم و لئن كفرتم ان عذابي لشديد " (٤) ؟ ! قال صاحب التبيان : اي لم يشكرني على هذه النعم ، و هو مع ذلك يطمع ان ازيد في انعامه و التمهيد و التوطئة و التذليل و التسهيل.

]كلا[

اي لن يكون ذلك ابدا ، فهذه كلمة تفيد النفي القاطع و العنيف ، و السبب هو عناده للآيات الربانية.

]انه كان لاياتنا عنيدا[

و معاندتها يمنع الزيادة لسببين:

الاول :السبب الغيبي ، فانه تعالى يدافع عن رسالاته و آياته ، و ينتقم للحق من جاحديه ، بالاهلاك و الاستئصال تارة ، و بالقحط و سلب البركة تارة اخرى.

الثاني : السبب الظاهر و ذلك ان آيات الله هي النهج القويم الذي يهدي(١) موسوعة بحار الانوار / ج ١ / ص ١٨٢.

(2)المصدر / ج ٧٧ / ص ١٣٥.

(3)المصدر / ج ٧٣ / ص ١٧٠.

(4)ابراهيم / ٧.

الانسان الى كل خير مادي و معنوي ، و يأخذ بيده الى الرفاه و النمو الاقتصادي لو عمل بها و طبقها في حياته ، و حيث يعاندها الكفار و مرضى القلوب فكيف يستزيدون ، و كيف توطأ لهم سبل العيش ، و تمهد أسباب السعادة ؟ ! قال المفسرون : و لم يزل في نقصان - يعنون الوليد - بعد قوله : " كلا " حتى افتقر و مات فقيرا (١) ، و قال العلامة الطبرسي عند تفسيره اللآية : اي لا يكون كما ظن ، و لا ازيده مع كفره (٢) ، و الى مثله ذهب الزمخشري في الكشاف.

و العناد مرحلة من الكفر و النفور تشبه الجحود ، فان الانسان حينما يكفر بالحق يكفر تارة لانه لما تتوفر الآيات الدالة عليه ، او لانه يكفر للتهرب من مسؤولية الايمان به ، و لكنه تارة بلا مبرر سوى محاربة الله و الاستهزاء بآياته و هذا هو العناد .. او تأخذه العزة بالاثم ، و يخلط بين الأمور كان يكفر بالاسلام و القرآن لصراع شخصي بينه و بين الداعية الى الله ، قال الرازي : و قوله : " انه كان " يدل على انه من قديم الزمان كان على هذه الحرفة (٣. (

[31 - 17]و معاندة آيات الله و من ثم محاربته ليس تمنع عن العنيد النعمة و الخير و حسب ، بل و تؤدي به الى الشر و العذاب في دنياه و آخرته.

]سأرهقه صعودا[

أي سأجعله يتكلف الصعود حتى يرهق إرهاقا شديدا ، و الصعود كناية عن المشقة ، ففي التحقيق نقلا عن التهذيب : و يقال لأرهقنك صعودا ، أي لأجشمنك مشقة من الامر ، لان الارتفاع في صعود أشق من الانحدار في هبوط ، و منه اشتق(١ (التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص ١٩٩.

(2)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٨٧.

(3)التفسير الكبير / ج ١٠ / ص ١٩٩.

تصعد في ذلك الأمر اي شق عليه (١. (

و لا ريب ان من يعاند آيات الله و شرائعه ثم يتبع هواه و شرائع البشر فانه سيلاقي أنواع المصاعب و المشاكل باعتباره يسبح خلاف قوانين الله و سنن الطبيعة ، فهو على شبه ممن يصعد الجبال الرفيعة الوعرة يرهقه الصعود . اترى كيف لقيت و لا تزال تلاقي أمتنا الاسلامية من العقبات كالتمزق و الظلم و التخلف الحضاري حينما هجرت كتاب ربها ؟ فهي اذا حقيقة واقعية يواجهها كل من يعاند آيات ربه فردا او مجتمعا أو أمة و في الجانبين المادي و المعنوي.

و لا ينتهي الامر عند هذا الحد ، بل يمتد العذاب الى الاخرة و يتجلى بصورة أشد و أكثر و أوضح حيث يتبين للمعاندين خطأهم الكبير في صورة جبل مخيف من العذاب ، قال الامام الصادق (ع) : " صعود جبل في النار من نحاس يحمل عليه (الكافر) ليصعده كارها ، فاذا ضرب بيديه على الجبل ذابتا حتى تلحق بالركبتين ، فاذا رفعهما عادتا ، فلا يزال هكذا ما شاء الله " (٢) ، و في فتح القدير عن النبي (ص) قال : " الصعود جبل في النار يصعد فيه الكافر سبعين خريفا ثم يهوي ، و هو كذلك فيه ابدا " (٣ (، و عن الامام الباقر - عليه السلام - قال : " ان في جهنم جبلا يقال له صعود ، و ان في صعود لواديا يقال له

سقر ، و ان في سقر لجبا يقال له هبهب ، كلما كشف غطاء ذلك الجب ضج أهل النار من حره ، و ذلك منازل الجبارين " (٤ (، و يقال للألم الذي يصل الى الرأس صعود لانه يرتفع اليه و لانه شديد أثره ، و ربما تتسع الكلمة الى معنى التزايد فان العذاب الالهي في تصاعد مستمر.

(1)التحقيق في كلمات القران / ج ٦ / ص . 273

(2)تفسير البصائر / ج ٥٠ / ص ٤٣٠.

(3)فتح القدير / ج ٥ / ص ٣٢٩.

(4)تفسير البصائر / ج ٥٠ / ص ٤٣٠ عن روضة الواعظين.

و يبين القرآن السبب الرئيسي الآخر الذي يؤدي بالانسان الى الشقاء و العذاب في الحياة و هو اولا : فقدانه بركة رسالات الله و آياته ، و ثانيا : اتباعه المناهج البشرية الضالة ، و اعتماده على فكره الضحل و تقديره الخاطىء.

]انه فكر و قدر[

و التفكير هو تقليب وجوه الرأي ، بينما التقدير هو تحويل التفكير الى خطة بعد الدراسة ، يقال فكر في الأمر و تفكر ، اذا نظر فيه و تدبر ، لما تفكر رتب في قلبه كلاما وهيأه ، و هو المراد من قوله : " و قدر " (١) ، و في تفسير الميزان قال علامة الطباطبائي : و التقدير عن تفكير نظم معاني و اوصاف في الذهن بالتقديم و التأخير ، و الوضع و الرفع لاستنتاج غرض مطلوب ، و قد كان الرجل يهوي ان يقول في أمر القرآن شيئا يبطل به دعوته (٢) . و لقد توهم الوليد بتفكيره و تقديره ان تهمه السحر ستدحض الحق .. و ليسالامر كذلك.

]فقتل كيف قدر[

و لقد ذم الله تفكره لانه فكر فكرا يحتال به للباطل ، و لو فكر على وجه طلب الرشاد لم يكن مذموما بل كان ممدوحا (٣) ، لان التفكير و التخطيط بأعمال العقل على ضوء المعلومات و المعطيات أمر حسن بذاته ، و إنما جاءت رسالات الله و بعث الانبياء لغرض إصلاح الناس و هدايتهم باستثارة العقول.

بلى .ان العقل بذاته وسيلة خير و صلاح ، و هو يعمل لصالح الانسان ، و لكن بشرط ان يكون خياره الاول صحيحا ، اما لو اختار الباطل ثم استثار عقله في هذه(١) التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص ٢٠٠.

(2)الميزان / ج ٢٠ / ص ٨٦.

(3)التبيان / ج ١٠ / ص ١٧٧ بتصرف.

القناة فلن يجني من تفكيره و تقديره سوى الضلال و العذاب ، و يسمى ذلك بالمكر و هي حيل الشيطان ، و هكذا الفكر ، و ذلك انه سلاح ذو حدين ، يكون تارة لصالح صاحبه و خير البشرية اذا كان قائما على أساس العقل ، و يكون أخرى اداة لدمارها و وسيلة لاشعال الحروب ، كما تفعل خبرات القوى الإستكبارية في هذا العصر.

ان الانسان قادر على نيل الحياة بالتفكير و التقدير اذا اختار مسبقا هدفا نبيلا و اتخذ فكره وسيلة لتحقيقه ، فالمهم ليس ان تفكر و تقدر بل الأهم لماذا تمارس التفكير و التقدير ، و الى ذلك يوجهنا القرآن بطرح السؤال : " كيف قدر " مكررا ؟

و يصف علي بن ابراهيم القمي حالة الوليد عندما فكر و قدر و يقول : نزلت في الوليد بن المغيرة و كان شيخا كبيرا و مجربا من دهاة العرب ، و كان من المستهزئين برسول الله) ص) ، و كان رسول الله (ص) يقعد في الحجرة و يقرأ القرآن فأجتمعت قريش الى الوليد بنالمغيرة ، فقالوا : يا أبا عبد الشمس ما هذا الذي يقول محمد أشعر هو ام كهانة أم خطب ؟ فقال : دعوني أسمع كلامه ، فدنا من رسول الله) ص) فقال : يا محمد أنشدني من شعرك ، قال : " ما هو شعر ، و لكنه كلام الله الذي ارتضاه لملائكته و أنبيائه " فقال: اتل علي منه شيئا ، فقرا رسول الله (ص) حم السجدة ، فلما بلغ قوله " فان اعرضوا (يا محمد أعني قريشا) فقل (لهم) أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد و ثمود " فاقشعر الوليد ، و قامت كل شعرة في رأسه ولحيته ، و مر الى بيته ولم يرجع الى قريش من ذلك ،فمشوا الى ابي جهل فقالوا : يا أبا الحكم ان أبا عبد الشمس صبا الى دين محمد اما تراه لم يرجع الينا ؟ فغدا ابو جهل فقال له : يا عم نكست رؤوسنا و فضحتنا و أشمت بنا عدونا و صبوت الى دين محمد ، فقال : ما صبوت الى دينه ، و لكني سمعت منه كلاما صعبا تقشعرمنه الجلود ، فقال أبو جهل : أخطب هو ؟ قال : لا . ان الخطب كلام متصل و هذا كلام منثورو لا يشبه بعضه بعضا ، قال : أفشعر هو . ؟ قال : لا . أما اني قد سمعت أشعار العرب بسيطها و مديدها و رملها و رجزها و ما هو بشعر ، قال : فما هو ؟ قال : دعني أفكر فيه ، فلما كان من الغد قالوا : يا أبا عبد الشمس ما تقول فيما قلناه ؟ قال : قولوا هو سحرفإنه أخذ بقلوب الناس (١) . لقد انتهى به تفكيره القائم على أساس العناد الى هذه النهاية الخاطئة ، فتفوه بهذا الباطل ، و كان من الممكن ان يوصله العقل الى ساحل الأمن و الهدى ، و لكنه لم يفكر و يقدر حينما فكر و قدر بمنهجية موضوعية و منطلقات سليمة ، انمامارس كل ذلك بهدف تضليل الآخرين ، و تبرير ما هو عليه من الباطل و الضلال لنفسه أمام و جدانه اولا ثم للناس المغرورين به ، فاوقع نفسه في الشقاء ، و استحق بذلك اللعنة و العذاب.

]ثم قتل كيف قدر[

و تكرار اللعنة بالقتل عليه دلالة على استحقاقه ضعفا من العذاب ، الاول على عناده الآيات الربانية ، و الآخر على اتباعه هواه و بنات فكره بدل تشريع الله ، او يكون أحدهما جزاء التفكير المنحرف ، و الثاني جزاء التقدير الخاطىء . قال العلامة الطبرسي : هذا تكرير للتأكيد ، اي لعن عذب ، و قيل : لعن بما يجري مجرى القتل ، و قيل : معناه لعن على أي حال قدر ما قدر من الكلام ، كما يقال : لأضربنه كيف صنع ، أي على أي حال كان عليه (٢. (

بلى . ان الناقد المنصف لا يستطيع الا التسليم بصدق الرسول ، و ان الرسالة حق ، و لكن الوليد و أمثاله من المترفين و أعداء الحق لم يكونوا كذلك ، بل سعوا الى الانتقاد عبر منهجية خاطئة تتركز على العزة بالاثم ، و الموافق العدائية السابقة ،(١) تفسير القمي / ج ٢ / ص ٣٩٣.

(2)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٨٨.

و هذه من المؤثرات السلبية على نتيجة أي بحث و تفكير ، و لعل السبب يعود الى حالتهم الاجتماعية اذ هم من المستكبرين الذين يبنون كيانهم على أساس الظلم و استثمار المحرومين و قهر المستضعفين ، فانى لهم القبول بقيادة ربانية تفتخر بانها من الفقراء ، و تسعى منأجل إسعاد المحرومين ، و تحرير المستضعفين من نير المترفين.

]ثم نظر[

و الأقرب ان النظر هنا بمعنى اعمال الفكر و البصر ، فان الطغاة المستكبرين حينما يريدون تضليل الناس عن الحق يفكرون و يقدرون اولا ثم ينظرون مفتشين عن ثغرات و أساليب لبث أفكارهم و تقديراتهم و نشرها بين الناس ، فوسائل الاعلام المضللة من اذاعات و تلفزة وصحافة و حتى وسائل التثقيف و التربية التي تروج ثقافة الباطل ، و ثبت الاشاعات ضد المؤمنين و القيادات الرسالية .. انها لا تتحدث اعتباطا ، بل هناك وراء القناع خبراء إعلاميون و نفسيون و سياسيون و .. و .. يخططون للتضليل ، و هذه سمة للانظمة الفاسدة .. فالجانب فرعون كان هامان و جنود كثيرون متخصصون في كل جانب من الجوانب ، و من قصة قريش و ابي جهل مع الوليد يتضح انه من قياداتهم و عقولهم المدبرة ، و هناك إشارات الى هذا التفسير و جدتها لدى بعض المفسرين ففي البصائر : أي نظر في وجوه قومه (١) ، و

في الميزان:
أي ثم نظر بعد التفكير و التقدير نظر من يريد ان يقضي في أمر سئل ان ينظر فيه (٢. (

و بعد ان اختمرت الفكرة الشيطانية في رأسه بدأ حركته نحو الانتاج و الاخراج كي تكون أمضى أثرا في نفوس الآخرين ، فاذا بكل ملامحه مشحونة بامارات الحقد(١) البصائر / ج ٥٠ / ص ٣٦٢.

(2)الميزان / ج ٢٠ / ص ٨٧.

و الغيظ على الرسالة و الرسول (ص. (

]ثم عبس و بسر[

و هذه المظاهر الخارجية و أخرى غيرها ملامح لحالات نفسية من الحقد و العناد يعكسها القرآن بأسلوبه التصويري البديع ، و انها لطبيعة في الانسان ان تبدو على مظهره علامات مخبره بحيث يقول علماء النفس انك تستطيع قراءة داخل الانسان بمظاهره ، و في الحديث الشريف قال أمير المؤمنين (ع) : " ما اضمر أحد شيئا الا ظهر في فلتات لسانه و قسمات وجهه " (١. (

قال القمي : العبوس للوجه ، و البسور القاء الشدق (٢) ، و عن قتادة قال : قبض ما بين عينيه و كلح (٣) ، و في فقه اللغة للثعالبي : اذا زوي ما بين عيني الرجل فهو قاطب عابس ، فاذا كشر عن أنيابه مع العبوس فهو كالح ، فاذا زاد عبوسه فهو باسر مكفهر (٤) ، و ذكر اللغويون الإستعجال كواحد من معاني البسور يقال : بسر الغريم اي تقاضاه قبل الأجل ، و بسر الدمل : عصره قبل نضجه ، و بسر الفحل الناقة قبل الضبعة اي قبل ان تطلب اللقاح (٥) ، فكان الباسر في وجه احد يستعجل به الأذى و الشر ، و بذلك قال الراغب في مفرداته . (6)

و قد تعبر عن العبوس و البسور المفردات و التصرفات التي تصدر عن الانسان بقلمه و فيه و مواقفه ، فالطاغوت قد يعبر عن عبوسه و بسوره وجهه ، و قد تظهر في قمعه(١) نهج البلاغة / حكمة ٢٦ / ص ٤٧٢.

(2)تفسير القمي / ج ٢ / ص ٣٩٤ بتصرف.

(3)الدر المنثور / ج ٦ / ص ٢٨٣.

(4)فقه اللغة للثعالبي / ص ١٤٠.

(5)البصائر / ج ٥٠ / ص ٢٨٠ و الى مثله ذهب صاحب المنجد.

(6)مفردات الراغب مادة بسر.

الجنوني للمعارضة و الجماهير ، و ما يقصه القرآن الكريم عن الوليد بن المغيرة ليس الا شاهدا على طبيعة الموقف الذي يتخذه المترفون في كل مكان و زمان ضد الدعوات الاصلاحية ، فإنهم باعتبارهم بؤرة الفساد في المجتمع أول المتضررين بهذا التغيير ، و لهذا يكونون طليعة المعارضة للحق.

]ثم ادبرو استكبر[

بلى .انه فكر في الموقف من الرسالة ، كان يريد الوصول الى افضل طريقة للمعارضة و التضليل .. بل و تبرير كفره أمام عقله و ضميره ، و لكنه كلما أعمل فكره و نظره كلما تجلت له الحقيقة و عاد بصره خاسئا وهو حسير ، و كان من المفروض ان يقبل على الايمان بالحق ،و يتواضع له عن مراتب النفور و الاستكبار و الاعتزاز بالاثم ، الا انه أصر على الكفر من لحظته الاولى فازداد إدبارا ، و حيث اختار موقف

الكفر فكر مرة أخرى لتبرير موقفه من الحق المبين ، فما وجد تهمة أصلح - في نظره - من قذف الرسالة بالسحر.

]فقال ان هذا الا سحر يؤثر[

و لكلمة " يؤثر " هنا معنيان ربما أرادهما السياق معا:

الاول :ينقل عن الآخرين ، و قد اتفق أكثر المفسرين عليه ، أي يؤثره عن غيره من القوى القادرة عليه كالسحرة و الشياطين ، من قولهم : اثرت الحديث اثره أثرا اذا حدثت به عن قوم في آثارهم ، و منه قولهم : حديث مأثور عن فلان.

الثاني :تميل الى النفوس و تفضله على غيره ، قال في المجمع : و قيل هو منالإيثار ، أي سحر تؤثره النفوس ، و تختاره لحلاوته فيها (١) ، و بذلك سعى الطاغية للتقليل من شأن أمرين مهمين : أحدهما : معجزة القرآن العظيمة بظاهره و محتواه و الآخر : ظاهرة الاستجابة للرسالة الجديدة و الدخول في دين الرسول ، و من ثم كان الوليد - كما هو حال أي طاغية و مترف - يسعى لتحقيق عدة أهداف خبيثة من وراء هذه الشائعة الضالة:

- 1تبرير هزيمتهم في الصراع المبدئي و الحضاري مع الاسلام بقيمه و قيادته و حزبه.

- 2تضليل الناس عن الحق و وضع حد لزحفهم باتجاه الدخول في الدين الجديد.

و قد جعل تهمة القرآن بالسحر مدخلا اليه لحل عقدة تواجه كل من يحارب الذكر الحكيم ، الا و هي ان آثار الحكمة و العلم الالهية واضحة في آياته . و انها لتهدي كل ذي لب منصف الى كونها متنزلة من عند رب العزة ، و باعتراف الوليد نفسه حينما قال : سمعت منه - يعني الرسول (ص) - كلاما صعبا تقشعر منه الجلود .. لا خطب و لا شعر ، فمستحيل إذن ان ينسبه الى المخلوقين من دون مقدمة ، فالمسافة بينه و بين كلام المخلقوقين لا تحد و فضله عليه لا يوصف ، و هو كفضل الله على سائر خلقه .. و من هذه المقدمة انطلق الى ما أراد قوله بالضبط.

]ان هذا الا قول البشر[

فمتى ما أوصل هذه القناعة الى أذهان الناس تقدم خطوات أساسية في الصراع ضد الرسالة الربانية في زعمه ، و من أجل هذا الهدف جند طاقاته .. ففكر و قدر..

(1)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٨٨.

انه يستطيع الى ذلك سبيلا ، و غاب عنه ان معجزة القرآن أعظم من ان يحجب نورها تقدير الإنس و الجن لو تظاهروا ، فكيف بجاهل سفيه كالوليد بن المغيرة ؟ " ! فقتل كيف قدر " ؟!

من هنا فشلت كل جهوده و مساعيه الرامية الى تضليل الناس عن الحق و حجبهم عن نوره ، بل و حكم على نفسه بتفكيره و تقديره الخاطئين بالخسارة و باللعنة التي خلدها القرآن في الاجيال بعد الاجيال في الدنيا ، و جر نفسه الى الهلاك و العذاب المهين في الآخرة ،و أعظم منه غضب الله الذي توعده بسقر فقال:

]سأصليه سقر[

قال في التبيان : أي الزمه جهنم ، و الاصطلاء الزام موضع النار .. و أصله اللزوم (١) ، و صلى الكفار بالنار جعلها أكثر و أشد مساسا بهم ، قال الامام الصادق (ع) : " ان في جهنم لواديا للمتكبرين يقال له سقر ، شكا الى الله عز وجل حره ، و سأله أن يأذن له ان يتنفس فتنفس فأحرق جهنم " (٢ (، و عن أبن

عباس قال : سقر أسفل الجحيم ، نار فيها شجرة الزقوم (٣) ، و إنها من رهبتها و ما تتميز به من الصفات لا يستطيع بشر ان يتصور مداها و يعي حقيقتها.

]و ما أدراك ما سقر[

و في هذه الصيغة استثارة للانسان نحو السعي الى المعرفة و لو بصورة إجمالية ، و القرآن يبين بعض صفات سقر فيقول:

]لا تبقى و لا تذر[

(1)التبيان / ج ١٠ / ص ١٨٠.

(2)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٤٥٧.

(3)الدر المنثور / ج ٦ / ص ٢٨٣.

قيل :لا تبقيهم أحياء فهي تميتهم ، و لا تترك لأبدانهم أثرا فهي لا تذرهم ، أي ان لها أثرين : الاول على الروح ، و الآخر على الجسم ، و قيل : ان الكلمتين مترادفين في المعنى مختلفين في الدرجة و الأثر ، و ذكرهما معا يفيد المبالغة و التاكيد ، و قال في التبيان : قيل : لا تبقي أحدا من أهلها الا تناولته ، و لا تذره من العذاب (١) ، و في الميزان قال العلامة الطباطبائي : لا تبقي شيئا ممن نالته الا أحرقته ، و لا تدع أحدا ممن القي فيها الا نالته ، بخلاف نار الدنيا التي ربما تركت بعض ما القي فيها و لم تحرقه (٢) ، و عن مجاهد قال : لا تحيي و لا تميت (٣) ، و استدل صاحب الميزان على هذا الرأي بقوله تعالى : " الذي يصلى النار الكبرى * ثم لا يموت فيها و لا يحيى " (٤) ، و الأقرب عندي ان معنى " لا تبقى " لا تدع أحدا من الناس الذين فيها باقيا بلتفنيهم جميعا ، و معنى " لا تذر " اي لا تذر شيئا من أي واحد منهم ، فالاول يشمل كل من فيها ، و الثاني يتسع لكل جزء ممن فيها ، و هو أعظم ، و هذه - فيما يبدو لي - صفة النار مع قطع النظر عن صفة جهنم التي يجدد الله فيها ما تحرقه النار ، فلا منافاةبينها و بين قوله سبحانه " لا يموت فيها و لا يحيى " اذ الحديث عن النار هنا جاء بقدر فهمنا لها و حسب مقاييسنا . و لعل من المعاني : ان سقر من حيث شدة العذاب و نوعيته لا تبقي من يلقى فيها ، و من حيث المدة و الملازمة فانها لا تترك أهلها أبدا ، وهذا يهدينا الى ان أهلها من الخالدين في العذاب ، فلا تترك سقر أهلها بل يبقون خالدين في العذاب ، لأن الإحتراق هناك ليس احتراقا عاديا و انما هو احتراق يشبه الإحتراق الذري الذي لا ينتهي ، و الله العالم.

و صفة أخرى لسقر هو تلويحها أهلها .

(1)التبيان / ج ١٠ / ص ١٨٠.

(2)الميزان / ج ٢٠ / ص ٨٨.

(3)الدر المنثور / ج ٦ / ص ٢٨٣.

(4)الاعلى / ١٢ -١٣.

]لواحة للبشر[

في المنجد : ألاح فلانا أهلكه (١) فهي المهلكة للبشر ، و يقال : لوح فلانا بالعصا و السيف و السوط و النعل : علاه بها و ضربه (٢) ، و قيل : المعطشة ، تقول العرب : إبل لوحى ، و رجل ملواح أي سريع

العطش ، و يقال لمن ضربته الشمس و غيرت لونه لوحته تلويحا ، وكأن سقر من حرارتها تغير جلود أهلها و وجوههم.

و حين يرد المجرمون وادي سقر يستقبلهم ملائكة غلاظ شداد ..هم مالك و ثمانية عشر ، أعينهم كالبرق الخاطف ، و أنيابهم كالصياصي ، يخرج لهب النار من أفواههم ، ما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة ، تسع كف أحدهم مثل ربيعة و مضر ، نزعت منهم الرحمة ، يرفع أحدهم سبعين ألفا فيرميهم حيث أراد من جهنم (٣. (

]عليها تسعة عشر[

و تحتمل الآية معان عدة:

الأول :المعنى الظاهر وهو ان خزنة سقر هذه عدتهم ، و ليس ذلك بالقليل اذا كانت صفتهم كما ذكر صاحب المجمع ، بل انه تعالى قادر ان يجعل عليها واحدا يدير شؤونها و يعذب أهلها أشد أنواع العذاب.

الثاني : ان التسعة عشر خزنة وادي سقر فقط ، و لبقية أجزاء جهنم خزنة آخرون.

الثالث : ان العدد المذكور هم بمثابة القواد و المدراء ، و تحت إمرتهم مالا يدرك(١) المنجد مادة لوح.

(2)المصدر.

(3)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٨٨.

عددهم الا الله من الملائكة ، و الى هذا المعنى أشارة في قول الله : " وما يعلم جنود ربك الا هو " ، و الجهل بهذه الحقائق هو الذي دفع المشركين الى الاستهزاء ، و كفرهم بالغيب .. قال أبو جهل يوما : يا معشر قريش ! يزعم محمد ان جنود الله الذين يعذبونكم في النار تسعة عشر ، و أنتم أكثر الناس عددا ، أفيعجز مائة رجل منكم عن رجل منهم ؟ ! (١) ، و قال رجل من قريش يدعى أبا الأشد : يا معشر قريش ! لا يهولنكم التسعة عشر ، أنا ادفع عنكم بمنكبي الأيمن عشرة ، و بمنكبي الأيسر التسعة (٢) فأنزل الله : " الآية ٣١ . "

]وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة[

إن الله يمتحن عباده بما يشاء ، و مما يمتحنهم به أمرهم بالإيمان بالغيب ، و كلما كان الغيب أشد غموضا كلما صعب الايمان به ، و كان أرفع درجة في القرب من الله ، و لذلك جاء في الحديث عن الامام الصادق (ع) : " انا صبر و شيعتنا أصبر منا " (قالالراوي) قلت : جعلت فداك ! كيف صار شيعتكم أصبر منكم ؟ ! قال " :لأنا نصبر على ما نعلم ، و شيعتنا يصبرون على ما لا يعلمون " (٣ (، ولقد جعل الله الايمان بالغيب ركنا أساسيا في الشخصية الإيمانية ، و من هذا المنطلق أخفى كثيرا من الحقائق كالموت والبرزخ و الآخرة ، فإما الكفار و المشركون و الذين في قلوبهم مرض فان الغيب يزيدهم فتنة و نفورا ، ليس لانه لا واقعية له ، فالآيات الهادية اليه كثيرة ، و إنمالأان الإيمان به درجة رفيعة من العلم و الإيمان ، لا يصل إليها إلا عباد الله المتميزون المتقون " الذين يؤمنون بالغيب و يقيمون الصلاة " (٤) ، و سبيل المؤمنين الى اليقين بالغيب أمران:

(1)اسباب النزول للسيوطي / ص ٢٢٤.

(2)المصدر اخرجه السدي.

(3)موسوعة بحار الانوار / ج ٧١ / ص ٨٠.

(4)البقرة / ٣.

أحدهما :الآيات و الحجج الهادية اليه ، فمن آثار الحكمة و العلم و النظام المتجلية في الكون يهتدون الى الايمان بربهم ، و من شواهد سنة الجزاء في التاريخ و الواقع يؤمنون بالجزاء الأعظم في الآخرة ، فهم لا ينتظرون ان تلامس جلودهم النار ، و تبصر أعينهمالملائكة ، و يقعون في قبضة الموت حتى يؤمنوا بكل ذلك ، إنما يكتفون بظهور الإيات و الحجج .. و هذه من أهم الخصائص التي تميز العاقل عمن سواه.

الثاني : إيمانهم بالله عز وجل كما وصف نفسه و تجلى في كتابه و خلقه بأسمائه الحسنى ، فهم يؤمنون بالله القادر ، القاهر ، العليم ، الرحمن الرحيم و .. و .. إيمانا قائما على اليقين و المعرفة . و متى ما بلغ الانسان هذه الغاية صار مسلما بكل الحقائق الغيبية ، فلا يشك في الجنة و النار و ما فيهما من النعيم و العذاب ، لأن الله الذي وعدنا بهما مطلق القدرة لا يعجزه شيء أبدا ، و لا يدخل في نفق الجدال و الشك في عدد أصحاب النار و صفاتهم ، بل يسلم بما يسمعه عن الله تسليما مطلقا . و لان الكفار و المشركين و مرضالقلوب لم يبلغوا هذه الغاية الأساسية صاروا الى الشك في حقائق الغيب ، بل في حقائق الشهود ايضا ، فاذا بواحدهم يشك في أصل وجوده ، كما فعل السوفسطائيون!

ان المؤمن ليس مسلما لله بفعله و قوله فقط ، بل هو مسلم بعقله و علمه ايضا ، ففي سلوكه و مواقفه لا يخالف الحق ، و في داخله لا يثير أدنى تساؤل شكي حول آيات ربه .. و هذه من أهم مرتكزات الإيمان و الاسلام ، كما قال الله " : فلا و ربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدون في أنفسهم حرجا مما قضيت و يسلموا تسليما " (١) .. بلى . قد لا ندرك خلفيات بعض الأحكام الالهية ، و قد لا نستوعب بصورة تامة بعض الحقائق ، و لكن ذلك ليس مبررا للكفر بها ابدا في منطق الاسلام و لا عند العقلاء ، و هذه قيمةعلمية مسلمة و من صفات الراسخين في

(1)النساء / ٦٥.

العلم ، قال تعالى : " هو الذي انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب و آخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة و ابتغاء تأويله و ما يعلم تأويله الا الله و الراسخون في العلم يقولون آمنا بل كل من عند ربنا و ما يذكر الا أولوا الألباب " (١ (، فالراسخون في العلم - غير أهل البيت - قد لا يدركون تأويل بعض الآيات و لكنهم لا يكفرون بها ، فلذلك ليس من منطق العقلاء و أصحاب الألباب ، و الا لكان الكفر بالله أولى من كل شيء لاننا قاصرون عن إدراك كنهه و معرفة ذاته!

ان في قلوب الكفار و المشركين لمرضا عضالا هو كفرهم بالله ، و ذلك الكفر الذي تأباه عقولهم و فطرتهم ومن ثم اتباعهم الباطل بصورة مفضوحة ، و لذا فانهم يبحثون دائما عما يبرر لهم هذا الموقف ، فاذا بهم يختلفون في عدد الملائكة و الوانهم و أشكالهم ، بدل ان يسلموا لآيات الذكر الحكيم . و ماذا ينفعهم الاطلاع على ذلك ؟ هل ينجيهم من عذاب النار ؟ كلا..

]و ما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا[

فهي من جهة تزيدهم ضلالا و نفورا ، و من جهة أخرى تظهر حقيقة معدنهم و شخصيتهم ، كما تظهر النار طبيعة المعدن ذهبا و غيره ، بينما ترفع هذه الآية و ما تبينه من حقيقة المؤمنين درجة رفيعة في الإيمان .. حيث اليقين و التسليم بآيات الله و وعوده.

]ليستيقن الذين أوتوا الكتاب[

قيل هم اليهود و النصارى ، و سبب استيقانهم أنه مذكور في كتابهم (التوراة(١) آل عمران / ٧.

و الانجيل (ان هذه عدة ملائكة سقر ، و حيث يبينها القرآن فذلك يدعوهم لليقين بأنه من عند الله ، و الأقرب حمل المعنى على أنهم العلماء الذين حملوا رسالة الله ، او الذين أعطوا الكتاب ، و الكتاب هنا كناية عن العلم الذي يسطر فيه . و إنما يستيقنون لان ما تطرحه الآية تكشف لهم عن حقيقة جديدة من الغيب تزيدهم إيمانا باعتبار كل حقيقة من الغيب يؤمنون بها يرتفعون بها درجة في معراج اليقين.

]و يزداد الذين آمنوا ايمانا[

لان المؤمن كلما اطلع على شيء من الغيب كلما تكاملت معرفته به ، و لا ريب ان هذه المعرفة تعكس أثرها الروحي في شخصيته ، فيزداد خوفا من ربه ، و إيمانا به ، و عملا بأحكامه و شرائعه.

]و لا يرتاب الذين اوتوا الكتاب و المؤمنون [

أي يصلون الى مرتبة من الإيمان لا شك معها ، و هذه من الدرجات الرفيعة ، لان القليل من المؤمنين هم الذين يستطيعون تطهير قلوبهم من رواسب الشك و التردد . و اذا بلغ أحد ذلك فانه يتجاوز كل ابتلاء و فتنة لان " الشكوك و الظنون لواقح الفتن ، و مكدرة لصفو المنائح و المنن " كما قال الامام زين العابدين (ع) (١. (

]و ليقول الذين في قلوبهم مرض[

يعني المنافقين و ضعاف الايمان ، الذين يخالط إيمانهم الشك و الريب و الشرك.

]و الكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا[

و بكلمة : إن الحكمة من وراء ذكر عدة التسعة عشر ابتلاء الناس ليعلم من(١) الصحيفة السجادية / مناجاة المطيعين .

يؤمن بالغيب فيزداد درجة في إيمانه حتى يبلغ مستوى اليقين الذي لا ريب معه ، و ليعلم المنافق و الكافر بالغيب فيزداد شك و ضلالا . و هكذا نجد هذه الحكمة في سائر شرائع الدين.

و إشارة القرآن لسؤال الكافرين و مرضى القلوب : " ماذا أراد الله بهذا مثلا " يكشف عن جهلهم و مدى ضلالهم و طريقتهم الاستهزائية بالآيات ، فان هدفهم من وراء ذلك ليس البحث عن الحق ، بل هو مجرد السؤال كطريق للهروب من مسؤولية الإيمان ، و تشكيك أنفسهم و المؤمنين في الحق .. فهم لا يعلمون الغيب حينما راحوا يشككون في صحة قول الله عن عدة أصحاب النار ، و لا يستطيعون انكار ذلك اذ لا دليل عندهم على خلافه .. و لذلك تساءلوا عن الخلفيات لهذه الحقيقة . و لو أجابهم القرآن ببيان سر هذا العدد لا ختلقوا سؤالا آخرا ، و هكذا.

]كذلك يضل الله من يشاء و يهدى من يشاء[

أي ان ما طرحته الآيات هو مثل حي للضلال و الهداية ، فالحقيقة التي بينها الله في كتابه واحدة ، و المعطيات لدى الفريقين و من بينها العقل و الإرادة واحدة ، الا ان الموقف مختلف تماما ، و هذه الصورة العملية للموقفين تكشف عن ان الهدى و الضلالة و ان كانا بيد الله الا ان العامل الرئيسي فيهما هو الانسان نفسه .. بإرادته و اختياره ، و ليس كما يزعم الجبرية أبدا.

]و ما يعلم جنود ربك الا هو[

لانهم غيب مستور ، و لانهم من الكثرة بحيث لا يستطيع عدهم أحد ، فكيف و ربنا يخلق كل لحظة من ملائكته ما لا يحصيه الا هو سبحانه و تعالى ؟ ! ففي الاخبار ان لكل قطرة غيث تنزل من السماء الى الارض ملكا موكلا بها ، و أنه عزو جل خلق ملكا إسمه الروح له ألف رأس في كل رأس ألف لسان و كل لسان ينطق بألف لغة يسبح الله تعالى ، فيخلق الله بكل تسبيحة من تسبيحاته ملكا يسبح الله الى يوم

القيامة ، أي أنه يخلق عند كل تسبيحة واحدة مليارد ملك (سبحان الله. (

]وما هي الا ذكرى للبشر[

قيل : ان الضمير عائد الى سقر ، و قيل : عائد الى عدة الملائكة ، و كلاهما صحيحان لان الحقيقة واحدة ، فكلاهما ذكرى للناس و متصلان بموضوع الجزاء و العذاب . فالمهم اذا أن يتذكر الإنسان ربه و حقائق الغيب ، لا أن يجادل في القشور .. و قد حذرنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) من النار مبينا صفة واحد من خزنة جهنم فقال : " و اعلموا أنه ليس لهذا الجلد الرقيق صبر على النار ، فارحموا نفوسكم ، فإنكم قد جربتموها في مصائب الدنيا . أفرأيتم جزع احدكم من الشوكة تصيبه ، و العثرة تدميه ، و الرمضاء تحرقه ؟ فكيف اذا كان بين طابقين من نار ، ضجيع حجره ، و قرين شيطانه ؟ ! اعلمتم ان مالكا اذا غضب على النار حطم بعضها بعضا لغضبه ، و اذا زجرها توثبت بين أبوابها جزعا من زجرته .. فالله الله معشر العباد ! و أنتم سالمون في الصحة قبل السقم ، و في الفسحة قبل الضيق ،فاسعوا في فكاك رقابكم من قبل أن تغلق رهائنها " (١. (

(1)نهج البلاغة / خ ١٨٣ / ص ٢٦٧.

كل نفس بما كسبت رهينة

هدى من الآيات

"كلا " .. بهذا الرد القاطع و العنيف يواجه القرآن أباطيل الكفار في شأن الوحي ، إذا زعموا أنه سحر يؤثر ، و أنه قول البشر ، و يوجهنا الى ثلاث من آيات الله في الطبيعة ، و هي القمر ، و حين إدبار الليل ، و عند إسفار الصباح ، فعندما يتدبر الانسان في هذه الآيات تتجلى له ذات الحقيقة العظمى التي تهدي اليها آيات الذكر و هي حقيقة التوحيد ، بل يجدها شهادات هادية الى الايمان بالرسالة .. و كأنها تقرأ عليه الآيات الثلاث (٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ (من المدثر ، و هكذا نجد القرآن في كثير من آياته يربط بين التفكر في الطبيعة و الايمان بالحق المنزل في الكتاب ، ذلك ان القرآن ينطق بسنن الله في الخليقة ، و الكائنات تجسد آيات الله في القرآن ، و هنا و هناك نجد تجليات أسماء الله سواء بسواء ، و كل واحد منهما يهدي الى الآخر ، فكما ان آياته تكشف عن حقائقها و الأنظمة الحاكمة فيها ، و تفسر ظواهرها ، فإنها هي الآخرى تهدي الى الإيمان به (الايات ٣١ / ٣٤) من خلال توافقها مع الكتاب ،و تمثيلها لما فيه .

و لان سبيل الكتاب قويم و قائم على التوازن بين السلب و الإيجاب فإنه يؤكد صدق آياته " إنها لإحدى الكبر * نذيرا للبشر " و ذلك مباشرة بعد ان يسفه مزاعم الكفار حول الرسالة ، مؤكدا بأن الموقف منها هو العامل الرئيسي في تقدم البشرية او تأخرها ، وذلك ان النفس البشرية رهينة في سجن الجهل و الظلم و الهوى و الشيطان و .. و .. وسعيها لا يزيدها الا ارتهانا و قيودا على قيودها ، الا ان تفك رهانها و تصلح سعيها بالسير على هدى ذكر الله و نذيره للبشر وهو كتابه الكريم ، كما فك رهانهم به أصحاب اليمين (الآيات ٣٥ / ٣٩. (

و من خلال حوار بين هذا الفريق المفلح و بين المجرمين الذين سلكوا سقر المحرقة و المخزية يبين لنا القرآن معالم الطريق اليها ، فهي و ان كانت في الاخرة دركة من النار الا انها منهجية عملية في الدنيا تتمثل في ترك الصلاة ، و عدم مساعدة المحتاجين و الضعفاء، و الخوض من الخائضين ، و التكذيب بالآخرة ، و لقاء الله على هذا الضلال البعيد ، و الذي لا ريب ان أحدا لا يشفع لصاحبه عند الله ، بل لا تنفعه فيه شفاعة الشافعين (الآيات ٤٠ / ٤٨. (

و يستنكر ربنا على الكفار حماقتهم و استحمارهم بالاعراض عن التذكرة التي جاءت لإنقاذهم من سقر الجهل و التخلف و الضلال في الدنيا و من سقر النار في الآخرة ، و لكن هزيمة الانسان أمام هوى نفسه و همزات الشيطان ، و عدم حضور الآخرة في وعيه ، هما اللذان يدفعانه الى الإعراض عن التذكرة المبينة)الآيات ٤٩ / ٥٣. (

و لان المقياس السليم لمعرفة الحق ليس موقف الناس ، بل معرفته بذاته ، فإن إعراض المجرمين عن القرآن لا يعني من قريب و لا بعيد أنه باطل ، و لا يغير مناقعه .. " كلا " إنه تذكرة اقبل عليه الناس أو

أدبروا عنه ، فمن شاء تذكر به ربه و الحق ، " و ما يذكرون الا ان يشاء الله " بلطفه و توفيقه (الآيات ٥٤ / ٥٦. (

بينات من الآيات

[37 - 32]ان الرسالة الالهية ذكرى للبشر ، و لكن الكفار - و بالذات المترفين و أصحاب السلطة منهم - يخشون من الإعتراف بها ، لانها تفضح ما هم عليه من الاثم و الضلال ، و لذلك تجدهم لا يعترفون ؛ تمنعهم عن ذلك عزة الجاهلية ، كما انها تفرض عليهم مجموعة من المسؤوليات و التنازلات كمسؤولية الانفاق في سبيل الله ، و الطاعة للرسول (ص) ، و التنازل عن السلطة ، و ذلك مما لا تطيقه أنفسهم الضيقة المستكبرة .. فلا بد اذا من إخراج لموقفهم الباطل من هذه الذكرى ، و لما فكروا و قدروا بهذه الخلفية الثقيلة فتمخضت أفكارهم و تقديراتهم عن نتائج خاطئة ، فزعموا ان الرسالة " سحر يؤثر " و أنها ليست " الا قول البشر " ، و حتى إنذار الله لهم بالسقر لم ينفعهم ، بل اتخذوه تبريرا جديدا لكفرهم ، حيث قالوا بأن العدد المذكور عن حراسها التسعة عشر : عدد قليليمكن مواجهتهم!

و هكذا يفعل كل مترف و متسلط ، لا تزيده الحجج الا لجاجا ، اذ يبحث فيها عن تبرير جديد يزعم انه يسوغ له الكفر و حتى الاستهزاء حتى أنك تجد مثلا بعض المتصوفة يستهزىء بالنار و يقول : سوف أطفئها بطرف ردائي!

و هكذا توالت كلمات القسم في السياق لعلنا نستجيب لها ، و نفكر جديا بأمر لعقاب.

]كلا و القمر[

قيل :معناه ليس الامر على ما يتوهمونه من إنهم يمكنهم دفع خزنة جهنمو غلبتهم (1)، و قال الرازي وهو بعيد : إنه إنكار - بعد ان جعلها ذكرى - ان تكون لهم ذكرى لانهم لا يتذكرون (٢) ، و مثله الزمخشري في الكشاف . و وجه استبعاد هذا الراي ان نفي الذكرى بعد اثباتها بقوله : " و ما هي الا ذكرى للبشر " يحتاج الى تبعيض وتخصيص يفرد الكفار و مرضى القلوب عن عموم البشر ، و لا دليل عليه . و الافضل ان نقول : ان كلمة " كلا " تأتي لردع الانسان عن الجهل و الغفلة و عن مجمل الافكار الباطلة التي كان اولئك يؤمنون بها ، لانها تأتي في سياق الجدال مع الخصم فيتاول - عند السامع - الى نفي أفكاره .

و قسم الله بهذا الكوكب كقسمه بأي شيء آخر يعطيه أهمية و شأنا في وعي الانسان المؤمن بالذات ، و نحن على ضوء هذه الاشارة الالهية القرآنية ينبغي ان نتحرك لفتح آفاق من المعرفة بهذا الكوكب و أهميته ، و علاقة القسم به بما يريد بيانه القرآن في هذه الآية و سياقها.

ان القمر و هكذا الليل بإدباره و الصبح عند تنفسه كل هذه الظواهر الكونية تهدينا عند التفكر فيها الى عظمة الرسالة ، و انها فعلا لاحدى الكبر ، و ان أباطيل الكفار ليست صحيحة أبدا . و لعل القسم بالقمر جاء للاغراض التالية :ان الحقيقة - و جزء منها رسالةالله - قضية واقعية لا تنتفي بمجرد إنكارها ، كما ان القمر و الحقائق الأخرى لا تنمحي من واقع الوجود بإنكار البعض لها.

و هكذا تبقى الرسالة كالقمر المنير تفرض نفسها على ظلام الكفر انى حاولوا إنكارها . انها رسالة عظيمة لو وعوا حقيقتها لتذكروا بها ، و عرفوا كم هي إنذار شديد و عظيم للبشر.

(1)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٩١.

(2)التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص ٢٠٨.

]و اليل إذا أدبر[

قال أكثر المفسرين ان " أدبر " بمعنى ولي و ذهب ، أي قسما بالليل اذ سحب ذيوله مؤذنا بطلوع الفجر

. و في التفسير الكبير قال قطرب : إذا أقبل بعد مضي النهار (١) ، على أساس أنه يقع في دبر النهار و يحل ظلامه على خطى رحيله الأخيرة ، و هذا رأي بعيد ، و قد عجز البعض عن إدراك وقع " إذ " في هذه الآية ودورها في إداء المعنى ، فافترض ما يشاء ، و اعترض على قول الله سبحانه . قال القرطبي بعد بيان الاختلاف في القراءات و المصاحف : و اختار أبو عبيد إذا أدبر (و ليس إذ) قال : لانها أكثر موافقة للحروف التي تليه ، أتراه يقول : " و الصبح إذا أسفر ، فكيف يكون أحدهما " إذ " و الآخر " اذا " ؟ و ليس في القرآن قسم تعقبه " إذ " و إنما يتعقبه " إذا " (٢) و يبدو لي ان " إذ " هنا ظرفية لا شرطية كما في " إذا أسفر " ، فيكون المعنى انه تعالى يقسم باللحظة المباشرة لجمع الليل فلول ظلامه ، و كأنه يريدنا ان نعيش ظاهرة إدبار و بزوغ الفجر.

]و الصبح إذا أسفر[

أي اضاء و انبلج نوره ، لان الصبح له مراحل يتدرج عبرها و يتضح شيئا فشيئا ، حتى تطلع الشمس فتطرد كل فلول الظلام ، و تكشف للناظر عن وجه الطبيعة من حوله ، و في اللغة : سفرت المرأة سفورا كشفت عن وجهها فهي سافر ، و أسفر مقدم رأسه : انحسر عنه الشعر ، وأنسفر الغيم تفرق (٣) فأبدى وجه السماء ، و يقال لصبح أسفر لانه حينما يتشعشع نوره يكشف عن نفسه و عن الطبيعة بكل وضوح . و ربنا يقسم به في مرحلة الاسفار و ليس في أي مرحلة أخرى من مراحله ، (1)التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص ٢٠٩.

(2)الجامع لاحكام القران للقرطبي / ج ١٩ /ص ٨٤.

(3)المنجد مادة سفر.

لتلعق شرط " إذا "بها بالذات.

وحينما يلتفت الانسان ببصره الى هذه الظواهر الكونية الثلاث ، و يتفكر فيها بعقله ، فإنه يجدها آيات هادية الى حقيقة التوحيد و الربوبية العظمى ، و الى ذات الحقيقة بتفاصيلها تهديه آيات القرآن ، و حديثه عن سقر و ملائكتها و تذكره بها ، مما يؤكد ان الذي خلق هذا الكون هو الذي أنزل ذلك التشريع ، و انه اذا كانت هذه الظواهر و أمثالها كبيرة في نفس الانسان و عظيمة فإن القرآن و الآخرة واحدة من أعظم الحقائق المنذرة.

]انها لاحدى الكبر[

قال القرطبي : روي عن أبن عباس " إنها " أي ان تكذيبهم بمحمد (ص) " لإحدى الكبر " أي لكبيرة من الكبائر (١) ، و ليس في السياق ما يؤيد هذا الرأي ، بالذات اذا وصلنا الآية بما يليها ، و قيل : ان قيام الساعة لإحدى الكبر (2)، و هذا صحيح مسلم به إلا أنه لا دليل عليه لا في النص و لا في السياق ، وقيل : يعني سقر ، و فيه وجه لانها واحدة من أعظم شعب النار ، و أكبر النذر للناس ، و قد ذكرت و قيل : آيات القرآن لاحدى الكبر في الوعيد (٣ (، و هو أقرب الآراء و المصاديق الى الآية . كما أولهاائمة الهدى في الولاية ، عن أبي الحسن الماضي قال : " الولاية " (٤) باعتبارها سنام الاسلام ، وواحدة من أكبر أركانه و أهمها ، و عن الباقر (ع) قال : " يعني فاطمة عليها السلام " (٥) لان ولاءها وحبها جزء من تولي(١) الجامع لاحكام القرآن للقرطبي / ج ١٩ / ص ٨٥.

(2)المصدر.

(3)مجمع البيان / ج / 10ص ٣٣١.

(4)نور الثقلين / ج ٥ /ص ٤٥٨.

(5)تفسير القمي / ج ٢ /ص ٢٩٦.

الله و رســوله و حبهما بإجماع كل المذاهب الاسلامية التي تواترت أحاديث فضلها في كتبهم . ثم يقول الله:

]نذيرا للبشر[

عن كل ضلال و تقصير و ذنب ، و إنما يتم الإنذار ببيان العواقب السيئة لكل ذلك ، و بيان طريقة تجنبها . و قد اختلف في من هو النذير الى أقوال أقربها ثلاثة : أحدها : أنه النار التي ما جعــل الله أصحابها الا ملائكة ، و الثاني : أنه رسول الله صلى الله عليهواله ، و الثالث : وهو أقربها جميعا :أنه القرآن باعتباره المنذر الاعظم و الثقل الاكبر على مر الدهور و الاجيال.

]لمن شاء منكم ان يتقدم او يتأخر [

فالرسالة الالهية اذا لا جبر فيها لاحد على اختيار طريقها ، بل الناس بالخيار بين الايمان و الكفر ، و التقدم و التأخر ، و على هذا الأساس يجب على كل مصلح ممارسة التغيير و الإنذار في مجتمعه و أمته . هذا واحد من معاني الآية و هناك تفاسير أخرى:

الاول : فمن شاء ان يتقدم في الايمان بالرسالة فيكون من السابقين او يتاخر فيكون من اللاحقين فان القرآن نذير له .

الثاني : ان " سقر " نذير و جزاء لكل من تقدم الى ائمة الهدى و نهجهم فامن او تاخر فكفر بهم لا فرق.

و عن ابي الفضيل عن ابي الحسن (ع) قال : " كل من تقدم الى ولايتنا تأخرعن سقر ، و كل من تاخر عن ولايتنا تقد الى سقر " (١) ، و الى قريب من هذا المعنى أشار ابن عباس بقوله : من شاء اتبع طاعة الله ، و من شاء تاخر عنها (2)، و قال العلامة الطبرســي : و قيــل انه سبحانه عبر عن الايمان و الطاعة بالتقدم لان صاحبه متقدم فيالعقول و الدرجات ، و عن الكفر و المعصية بالتأخر لانه متأخر في العقول و الدرجات (٣. (

الثالث : التقدم و التأخر الحضاريين في الدنيا ، و التقدم و التأخر في الدرجات في الاخرة ، فانهما مرهونان بموقف الانسان (فردا و مجتمعا و أمة و بشرية (من كتاب الله و ذكراه للبشرية ، فان استمعت للنذر و اتبعت الآيات وصلت الى السعادة في الدارين و تقدمتمسيرتها ، و الا صارت الى الشقاء و التخلف و واقع المسلمين في التاريخ و الان خير دليل على هذه الحقيقة ، فهم لما اتبعوا القرآن سعدوا و تقدموا و قادوا ركب الحضارة البشرية ، و لكنهم الان حيث هجروه تورطوا في انواع المشاكل و البلاء ، و صدق رسول الله (ص (حينما قال : " القرآن هدى من الضلالة ، و تبيان من العمى ، و استقالة من العثرة ، و نور من الظلمة ، و ضياء من الاحزان و عصمة من الهلكة ، و رشد من الغواية ، و بيان من الفتن ، و بلاغ من الدنيا الى الاخرة ، و فيه كمال دينكم (قال الامام الصادق عليه السلام) فهــذه صفة رسول الله للقرآن و ما عدل احد عن القرآن الا الى النار " (٤. (

[47 / 38]و مع اننا نقول بان للرسالة الالهية دورا أساسيا في تقدم البشرية او تخلفها و لكن بشرط ان يسعى الانسان جاهدا في العمل بها.

(1)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٩١.

(2)الدر المنثور / ج ٦ / ص ٣٨٥.

(3)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٩٠.

(4)موسوعة بحار الانوار / ج ٩٢ / ص ٢٦.

]كل نفس بما كسبت رهينة[

و تاكيد القرآن على هذه الحقيقة في كثير من المواضيع و بصيغ مختلفة ينطلق من كونها بصيرة أساسية يجب على الانسان وعيها في حياته ، اذ هي روح المسؤولية ، و الدافع الحقيقي لتحملها .. فمتى ما أمن احد بالعلاقة بين واقعه و بين سعيه و مستقبله و بين سعيه في الحياة تحمل مسؤوليته بتمامها . و من الآية الكريمة نهتدي الى البصائر التالية:

الف : ان فكرة الجبر فكرة خاطئة ، فان الله قد جعل مصير البشر بايديهم و لم يشلأ ان يحتم عليهم مصائرهم ، بل انهم هم الذين يرتهنون انفسهم في النار بسعيهم السيء كالمجرمين او يفكون أسرهم و يصيرون الى الجنة بأعمالهم كأصحاب اليمين ، و هذا من أبرز مظاهر العدالة و الحكمة الالهية . قال الامام الصادق (ع (يعظ واحدا من أصحابه : " اقصر نفسك عما يضرها قبل ان تفارقك ، واسع في فكاكها كما تسعى معيشتك ، فان نفسك رهينة بعملك " (١. (

باء : ان هذه القاعدة جارية على كل نفس بدون استثناء او تمييز بين أبيض و أسود ، او ذكر و انثى ، او عربي و أعجمي ، فلا قيمة أسمى من العمل الصالح . هكذا يشـرع الله لعـباده ، و ذلك يعني ان كل الفلسفات الضيقة العنصرية و العرقية و القومية و .. و .. مرفوضة.

جيم : ان أغلب المآسي التي تصيب النفس و تصبح رهينة لها هي من كسبها و سعيها ، كما قال ربنا سبحانه " : و ما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم و يعفوا عن كثير " (٢ (، فالحوادث انما نذوق طعمها لقلة انتباهنا و ضعف وعينا بأمور الحياة(١) مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٤٥٨.

(2)الشورى / ٣٠.

و قوانينها ، و الامراض انما تتسلل الى اجسادنا لعدم أهتمامنا و القواعد الصحية ، و التخلف و التمزق و سيطرة الطغاة و الظالمين ، و حتى الزلازل و الانهيارات و سائر الكوارث الطبيعية .. انها جميعا من عند الانسان نفسه ، و هكذا الجزاء الاخروي ، فإن أصحاب النار هم المسؤولون عن تورطهم فيها لما أقدموا عليه من الجرائم و السيئات ، كما انهم كانوا قادرين قبل انقضاء فرصة العمر على افتداء أنفسهم و فك أسرها بعمل الصالحات ، كأصحاب اليمين الذين يمتازون عن سائر الناس بذلك.

]الا أصحاب اليمين[

قال الامام الباقر (ع) : " نحن و شيعتنا أصحاب اليمين ، و كل من أبغضنا أهل البيت فهم المرتهنون " (١) ، و في الكشاف : و عن علي (ع) انه فسر اصحاب اليمين بالاطفال ، لانهم لا اعمال لهم يرتهنون بها (٢) ، و ردجحه الرازي في تفسيره ، و ليست هذهالا مصاديق لحقيقة واحدة ، فالاصل من اليمن نقيض الشؤم ، كما مر علينا في سورة الواقعة عند قول تعالى : " و أصحاب الميمنة ما اصحاب الميمنة * واصحاب المشئمة ما اصحاب المشئمة " (٣) ، و ارجاع التعبير الى أصله يجعله يتسع لمصاديق اخرى كثيرة . و قداستثنى ربنا أصحاب اليمين بأعتبارهم من دون كل الناس ليسوا رهائن لان كسبهم و سعيهم محمود ، بل هم في نعيم واسع مقيم.

]في جنات يتساءلون * عن المجرمين [

و السؤال ما هي أهمية التساؤل عن المجرمين بالنسبة لاصحاب الجنة ؟

اولا : لان ذلك يزيد المؤمنين لذة بالنعم مادية و معنوية ، فكما ان تحسس الغني(١) تفسير البصائر / ج ٥٠ / ص ٤٣٢.

(2)الكشاف / ج ٤ / ص ٦٥٥.

(3)الواقعة . 9 - 8 /

لاوضاع الفقراء يزيده شعورا بفضل الله عليه فان أصحاب اليمين تزداد لذتهم بنعم الجنة و نعمة الهداية حينما يطلعون على نقيضهم.

ثانيا :هذا الحوار المستقبلي نافع للمؤمنين في الدنيا ، لانه يكشف لهم عن مكامن الخطر ، و معالم طريق النار ، مما يمكنهم من تجنب الاخطاء و المزالق ، فان المعرفة بها لا تقل أهمية عن المعرفة بالصواب و الحق . و الذي يسعى لبناء شخصية إيمانية في نفسه ينبغيله ان يعرف صفات أهل النار ليتجنبها.

]ما سلككم في سقر[

اي شيء (عمل و منهج) قادكم الى النار ؟

و أجابتهم تبين معالم الشخصية المجرمة من جهة ، و تؤكد عمليا ارتهان كل نفس بكسبها من جهة اخرى ، فما هي الاسباب التي ادت بهم الى الجريمة و من ثم الى عذاب سقر ؟

اولا : تركهم الصلاة.

]قالوا لم نك من المصلين[

و الآية تشمل التاركين للصلاة من الأساس كالكفار و الممسوخين من المسلمين ، كما تشمل اولئك الذين يمارسون طقوس العبادة و لكنهم لا يلتزمون بقيمها و أهدافها ، و هم الذين قال عنهم ربنا : " فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون " (١) ، فانهم عند الله ليسوا من عداد المصلين ، لان تارك الصلاة انما يصبح مجرما لانه ترك أعظم دافع نحو الخير و أفضل رادع عن الشر وهو الصلاة ،(١) الماعون / ٤ - ٥.

قال تعالى : " ان الصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر " (١) و ذلك انها عمود الدين ، و روح الايمان ، وصلة التقرب بالله.

قال الامام علي (ع) يعظ محمد بن ابي بكر : " و أعلم يا محمد ان كل شيء تبع لصلاتك ، و أعلم ان من ضيع الصلاة فهو لغيرها أضيع " (٢) ، و قال رسول الله (ص) : " لا يزال الشيطان يرعب من بني آدم ما حافظ على الصلوات الخمس ، فاذا ضيعهنتجرأ عليه و اوقعه في العظائم " (٣. (

وقد أعطى ائمة الهدى بعدا سياسيا و اجتماعيا لهذه الآية ، من خلال تفسير ترك الصلاة في ترك الانتماء الى حزب الله و رفض القيادة الرسالية ، قال إدريس بن عبد الله سألته - يعني الامام الصادق (ع) - عن تفسير هذه الآية ، قال : " أي لم نك من اتباع الائمة عليهم السلام " (٤) ، و قال : " اما ترى الناس يسمون الذين يلي السابق في الحلبة المصلي ؟ ! أعني حيث قال : " الآية " لم نك من اتباع السابقين " (٥) ، و هذا واضح في نص الآية الكريمة عند قوله " : من المصلين " .. فالمصلون اذا خط و حزب و قياده ، و عدم الانتماء اليهم يستوجب عذاب سقر .. و من هذه الفكرة نهتدي الى ان التفرج على الصراع بين الحق و الباطل في المجتمع دون الانتماء الى فريق الحق مسالة مرفوضة في الاسلام.

و مع ان الكفار و المشركين كافرون بأصول الدين الا ان الله يشير الى كفرهم بالصلاة و هي فرع من فروع الدين كواحدة من الكبائر . لماذا ؟ ! لانها عمود(١) العنكبوت / ٤٥.

(2)موسوعة بحار الانوار / ج ٨٣ / ص ٢٤.

(3)المصدر / ج ٨٣ / ص ٢٠٢.

(4)البرهان / ج ٤ / ص ٤٠٤.

(5)المصدر.

الدين ، و لان الكفار يحاسبون على الفروع ايضا ، فالقانون واحد لا فرق فيه بين المؤمنين و الكفار.

ثانيا : عدم اطعام المسكين.

]و لم نك نطعم المسكين[

و المسكين أشد حاجة من الفقير ، لانه الذي يسكنه الفقر و لا يملك قوت يومه ، و مساعدة هذه الطبقة من الناس واجب شرعي إنساني اجتماعي يفرضه الاسلام كما يفرضه العقل و العرف ، فحينما يصل العوز بفرد من الافراد الى حد الضروريات الاولية كالطعام اللازم للحياةفان المجتمع مسؤول امام الله عن رفع حاجته بأية طريقة ممكنة.

و قد عكس الاسلام هذا المبدا في نظامه الاقتصادي و تشريعاته الجنائية و القضائية ، بحيث رفع حد السرقة عمن تدفعه اليها الحاجة الضرورية و قد تخلف مجتمعه عن إداء مسؤوليته تجاهه . و اعتبر دراسة الاحوال الشخصية و الظروف الاجتماعية و الاقتصادية جزء من نظامه القضائي في المجتمع . و تأخذنا الآية الكريمة حينما نتدبرها ضمن سياقها) صفات المجرمين) الى أبعد من ذلك حينما تعتبر الانسان الذي لا يتحمل مسؤولية الفقراء و المساكين (فردا و مجتمعا) هو مجرما ايضا ، لان أندفاع المسكين الى ممارسة السرقة و الفساد تحتمس الجوع و الحاجة ليس بأعظم جريمة من جريمة عدم اسعافه من قبل ذوي الاستطاعة.

ان موقف الاسلام الحازم و الواضح من مساعدة المساكين و المحرومين جزء من نهجه الاقوم لعلاج مشكلة الظلم و الطبقية ، و قد ربط القرآن بين العاقبة (سلوك سقر) و بين الاسباب (الآيات ٤٣ / ٤٨) لبيان ان عذاب سقر ليس الا سلوكياتو اخلاق تتجسد في الاخرة . و لتقريب الفكرة نقول : لو افترضنا (سقرا) سجنا ذا أربعة جدران من نار فان كل واحدة من صفات المجرمين الاربع تمثل واحدا منها .

ثالثا : الاسترسال مع التيار.

]و كنا نخوض مع الخائضين[

قال قتادة : معناه كلما غوى غاو للدخول في الباطل غوينا معه ، اي كنا نلوث أنفسنا بالمرور في الباطل كتلويث الرجل بالخوض ، فلما كان هؤلاء يخرجون مع من يكذب بالحق مشيعين لهم في القول كانوا خائضين معهم (١) و مثل لذلك ابن زيد فقال : نخوض مع الخائضين في أمر محمد (ص) وهو قولهم : كاذب ، مجنون ساحر .. (٢. (

الاستقلال من أهم أهداف الانسان في الحياة ، باعتباره محتوى التوحيد ، و جوهر العبودية لله ، و لباب حرية الانسان .. من هنا كان الخوض مع الخائضين و الاسترسال مع التيار الغالب انى اتجه كان ذلك جرما عظيما يرتكبه الانسان في حق نفسه ، و هو يعتبر كذلك من مصاديق الشرك بالله ، الذي يستوجب عند الله أشد العذاب ، لانه عامل رئيسي من عوامل خطأ الانسان و أنحرافه و ضلاله (٣. (

و قد جاءت رسالات الله تهدي الانسان الى ذاته ، و معرفة كرامته عند الله ، و آفاق عالمه الكبير ، بينما الشيطان ، و اولياؤه يريدون تضليل الانسان عن نفسه ، و تجهيله بقيمتها و كرامتها و دورها المرسوم في انتخاب الخير و محاربة الشر ، و من هنا(١) مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٨٦.

(2)فتح القدير / ج ٥ / ص ٣٣٣.

(3)لقد بينا دور حس التوافق الاجتماعي السلبي في كتابنا المنطق الاسلامي اصوله و مناهجه / ص ٢١٩ - ٢٤٠.

نجد الطغاة و المترفين اليوم قد تسلحوا بأجهزة إعلامية فائقة الكفاءة من أجل سلب الاختيار من الانسان الفرد ، و قولبة شخصيته ضمن القنوات التي يختارونها له ، و تلقي المواقف و الافكار الجاهزة من خلال وسائل السلطة . و لقد استطاعت الانظمة الاستكبارية في الغربربط شعوبها بوسائلها الاعلامية بالخصوص في القضايا السياسية ، فهي تخوض حينما خاضت حكوماتها و أحزابها . و الشاشة الصغيرة و شبكات الصحف الكبيرة أصبحت اليوم آلهة تعبد من دون الله ، و تفرض آراءها على الناس في شتى الأمور . و حتى اختيار لون فستان زوجته ، وتسريحة شعرها و طبيعة العلاقة معها ، يستمده الانسان الغربي من وسائل الدعاية و الاعلام لا من اختيار حر مستقل.

اما كيف يؤدي حس التوافق الى الجريمة ؟ فالأمر واضح جدا ، اذ ان الفرد الذي فقد الاستقلال سوف يشارك مجتمعه فـي اخطائه حينما يتجه مركبه صوب الجريمة و الضلال ، فاذا فسد أخلاقيا فسد معه ، و اذا شن حربا ظالمة على الاخرين خاض في دمائهم كما يخوضون ، و اذاجلس مجالس الغيبة و البهتان و النميمة أدلى بدلوه في لهو الحديث و لغوه دون ان يملك شجاعة المعارضة.

رابعا : التكذيب بالاخرة.

]و كنا نكذب بيوم الدين * حتى اتانا اليقين[

و اليقين هنا بمعنى العلم ، و قد فسرت الكلمة بالموت لان الانسان حينما يموت يرتفع عن بصره كل حجاب ، فيرى الاخرة و الجزاء و كل الحقائق التي ذكرت بها رسالات الله عين اليقين . و في الايتين اشارة الى ان فرصة النجاة قائمة ما دام حيا ، فلو وقع في خط الباطلو الاجرام ثم تاب و أصلح قبل الموت نفعه ذلك و الا فلا . و حيث لا يعلم الانسان موعده مع الموت و لقاء ربه و جزائه فانه ينبغي له ملازمةالطاعة و العمل الصالح بلا انقطاع ، فلعله و قد فكر في المعصية و واقعها وافاه الاجل فصار الى سوء العاقبة . هكذا اوصى امير المؤمنين ابنه الحسن - عليهما السلام - محذرا اياه من الموت : " فكن منه على حذر ان يدركك و انت على حال سيئة ، قد كنت تحدث نفسك منها بالتوبة ، فيحول بينك و بين ذلك ، فاذا انت قد أهلكت نفسك " (١. (

و يعتبر الاسلام التكذيب بالاخرة و جزائها من أهم العوامل التي تدعوا البشر الى التحلل من المسؤولية ، و الافراط في الانحراف و الذنوب ، و التعبير القرآني الوارد في الآية دقيق جدا اذ يقول الله " نكذب بيوم الدين " و كان التكذيب بالاخرة وسيلة الى كل تكذيب . بلى . ان خشية العقاب تردع الانسان من مخالفة القوانين ، و من لا يخشى عقاب ربه كيف يلتزم بشرائعه ؟ من هنا يؤكد العلماء على ضرورة القوانين الجزائية ، لانها ضرورة ملحة في تنظيم علاقات المجتمع.

و قد اطلق الله على يوم القيامة أسماء كثيرة قد تتفق في حيثياتها الاولية ، و لكنها بلا شك تختلف في إيحاءاتها النفسية و المعنوية ، بحيث يمكن لنا القطع بأن التعبير بـ " يوم الدين " في هذا السياق أصلح من أي تعبير آخر ، و نكتشف ذلك في المفرداتضمن السياق الذي ترد فيه.

و لان سياق سورة المدثر عن تبليغ الرسالة و تكذيب الكفار و مرضى القلوب بحقائق الدين كان من الحكمة التأكيد على " يوم الدين " بالذات ، لبيان ان الدين هو المحور و الميزان في الاخرة ، و ان حقائقه التي يكذب بها أعداء الرسالة سوف يأتي اليوم الذييجليها ، و بالتالي التأكيد على ان التدين ضرورة مصيرية لكل إنسان.

[53 / 48]و يبين لنا القرآن صفة خامسة لأصحاب سقر هي في الحقيقة(١) نهج البلاغة / ك ٣١ / ص ٤٠٠.

عامل رئيسي من عوامل الجريمة و المعصية ، و هو الفهم الخاطىء لمفهوم الشفاعة الذي تنادي به

كل رسالات الله ، حيث التمنيات التي تحولها الى مبرر لممارسة الخطايا.

و اذا كان هذا الفهم تبلور لدى اليهود في نظرية البنوة و شعب الله المختار ، و لدى النصارى في نظرية الفداء ، فان بعض المسلمين ايضا أنزلق الى مثل هذه المفاهيم و التمنيات ، و لكن بقوالب و تعابير مختلفة ، فقال البعض ان المسلمين خير أمة أخرجت للناس ، و انالله لا يعذب أمة فيها حبيبه النبي محمد (ص) ، و قال فريق : ان الاولياء يشفعون له الخطايا من دون قيد و شرط ، و القرآن ينسف كل هذه التمنيات الباطلة حتى لا يدع مجالا للانسان يفر عبره عن تحمل المسؤولية ، و قد حذر ائمة الهدى من هذا الفهم الخاطىء للشفاعة، قال أبو بصير : دخلت على حميدة أعزيها بأبي عبد الله فبكت ، ثم قالت : يا أبا محمد لو شهدته حين حضره الموت و قد قبض إحدى عينيه ثم قال : " ادعوا لي قرابتي و من لطف لي " فلما اجتمعوا حوله قال : " ان شفاعتنا لن تنال مستخفا بالصلاة) "
. (1

و الآية القرآنية قوية في وقعها.

]فما تنفعهم شفاعة الشافعين[

لان أحدا لا يشفع لهم ، و على افتراض ذلك لا تنفعهم ، فكيف و ان اولياء الله لا يشفعون الا لمن ارتضى رب العزة ؟ و انما عبر القرآن بهذه الصيغة لينسف تصوراتهم الخاطئة و المغرقة في الاماني ، و ليس لبيان ان أحدا قد يتقدم للشفاعة في المجرمين ، بلى . ان الشفاعة حقيقة واقعية و لكنها تنفع من تكون مسيرته الكلية مسيرة صحيحة فتسقط عنه سيئاته الجانبية ، و لا تكون مسيرة الانسان العامة سليمة الا بالاقبال على رسالة الله ، و اتباع و رسله اوليائه ، من هنا يستنكر الله على الكفار(١)
موسوعة بحار الانوار / ج ٨٢ / ص ٢٣٦.

و المشركين إعراضهم عن تذكرته في الوقت الذي يتطلعون الى ذلك.

]فمالهم عن التذكرة معرضين[

قال مقاتل : الاعراض عن القرآن من وجهين : أحدهما الجحود و الانكار ، و الوجه الآخر ترك العمل بما فيه (١) ، مع ان التذكرة إنما جاءت من أجل نجاتهم) البشر) بتعبير القرآن ، و ليس ضدهم ، فحق ان يستنكر القرآن موقفهم اللئيم من إحسان الله اليهم بالرسالة ،و ان يشبههم بالحمير وصفا لواقعهم وحطا من قدرهم.

]كأنهم حمر مستنفرة * فرت من قسورة[

و الاستنفار من النفور المختلط بشعور الخوف و الخطر ، و الكلمة دخلت مصطلحا في علم العسكرية ، يقال : استنفر الجيش اذا توقع و تاهب لدفعه ، و في المنجد : المستنفر الشارد المذعور (٢) ، و الكلمة على وزن مستفعل مما يهدينا الى ان المعرضين عن التذكرة يزيد أحدهم الاخر إعراضا و نفورا عن الحق ، كما يزيد أفراد القطيع من حمار الوحش بعضهم بعضا ذعرا و شرودا من سطوة الأسد الهصور حينما يهجم عليهم . و القسورة على الاقرب إسم الأسد حينما ينقض على طريدته ، من القسر بمعنى القهر ، اي انه يقهر السباع ، و الحمر الوحشيةتهرب من السباع (٣) كاشد ما يكون ، و سمي الرامي و الصياد قسورة لانه بسهمه يصطاد الصيد و يقهره ، و تقول العرب لكل رجل قوي شديد قسورة لانه يصرع الأقران ، و يخافه الآخرون ، و ما ابلغه من تشبيه تصويري رائع.

و لعل سائلا يسال : لماذا يفر البشر من التذكرة ؟ و الجواب : ان وجدان(١) الجامع لاحكام القرآن للقرطبي / ج ١٩ /ص ٨٨.

(2)المنجد مادة نفر.

(3)الجامع لاحكام القرآن للقرطبي / ج ١٩ /ص ٨٩.

الانسان و عقله يرفضان كفره و عصيانه ، و يعيش المجرم صراعا دائما معهما و لكنه قد عقد عزمه على المضي قدما مع شهواته ، فيتهرب من الوعظ و الارشاد حتى لا يدعم جانب عقله و وجدانه ، لان الرسالة تكبح جماح الهوى ، و تحدد تصرفات النفس بالأحكام و النظم ، و تحملهكامل المسؤولية في كل بعد من ابعاد الحياة الفردية و الاجتماعية.

]بل يريد كل امرىء منهم ان يؤتى صحفا منشرة[

قال أبن عباس : كانوا يقولون : ان كان محمد صادقا فليصبح عند كل رجل منا صحيفة فيها برائته و أمنه من النار ، قال مطر الوراق : أرادوا ان يعطوا بغير عمل ، و قال الكلبي : قال المشركون : بلغنا ان الرجل من بني إسرائيل كان يصبح عند رأسه مكتوبا ذنبه و كفارته، فاتنا بمثل ذلك ، و قيـل : ان ابا جهل و جماعة من قريش قالوا : يا محمد ! ائتنا بكتب من رب العالمين مكتوب فيها : اني قد أرسلت اليكم محمدا (ص) . نظيره : " و لن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه " (١) . وما يريدونه محمول على ثلاثة أوجه:

الاول :أنهم يريدون مشاهدة الرسالة الالهية تتنزل في قرطاس يلمسونه ، و يكون متميزا معجزا من كل جهاته ، و ما ذلك الا شرط تبريري للفرار من مسؤولية الايمان و الطاعة للرسول ، و قد فضح الله هذه النوايا الخفية ، و كشف عما في قلوبهم من مرض فقال : " ولو أنزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين " (٢. (

الثاني : ان الخضوع لقيادة الاخرين ، و بالذات الخضوع الشامل لجوانب(١) المصدر / ص ٩٠ بتقديم و تأخير.

(2)الانعام / ٧.

الحياة ، كما في الاطروحة الاسلامية للقيادة ، من أصعب الآمور على الانسان ، باعتباره يفرض عليه الخروج من شح النفس و حب الذات ، و يحدد مواقفه و تصرفاته ، هذا في سائر الناس ، اما اذا كان من المترفين و أصحاب الوجاهة فالأمر أثقل عليه و أصعب ، حيث تتوق نفسهللرئاسة على الآخرين ، بينما النظام الاسلامي يفرض عليه الانصياع لاوامر القيادة الرسالية ، و ربما التنازل عن المراكز الاجتماعية التي لا يستحقها و الاموال التي جمعها من غير حلها .. و هذا ما لا يطيقه أبو جهل و أمثاله ، لذلك ترى كل واحد منهم يتمنى لو يكونهو الرسول الذي يختاره الله فينزل عليه وحيه ، و من ثم يفرض قيادته على الناس ، و يوجب عليهم الخضوع له . قال مجاهد : أرادوا ان ينزل على كل واحد منهم كتاب فيه من الله عز وجل : الى فلان بن فلان (١) . و في الآية أعتراف ضمني من المشركين و الكفار بان الرسالةفضل عظيم ، تمناها كل واحد منهم لنفسه لما فيها من الشرف.

الثالث : ان هذه الآية كشفت عن عقدة مستعصية عند الانسان لابد من الجهاد حتى يتغلب عليها ، و هي تلك العقدة التي أشارت اليها آيات عديدة في الذكر تبين طلبات الكفار الاعجازية ، مثل قوله سبحانه : " و قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا * اوتكون لك جنة من نخيل و عنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا * او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا او تأتي بالله و الملائكة قبيلا " (٢) ، و قالوا : " مال هذا الرسول يأكل الطعام و يمشي في الاسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا " (٣) ، فهذهالآيات و نظائرها تكشف عن عقدة أساسية عند الانسان و هي أنه ينتظر ما يجبره على اتباع الحق جبرا ، فتراه دائم الطلب بما يراه علة لايمانه او يسوف الايمان و العمل الصالح الى أيام يزعم ان يجد فيها ما(١) الجامع لاحكام القرآن للقرطبي / ج ١٩ / ص ٩٠.

(2)الاسراء / ٩٠ - ٩٢.

(3)الفرقان / ٧.

يكون سببا تاما لهما . و كما تتجلى هذه الطبيعة في الانسان الفرد فانها قد تتجلى في شعب كامل و أمة كاملة ، و ثابت عمليا في تاريخ البشر و لدى علماء النفس ان بعض الشعوب تنتظر حالة الكره على القانون حتى تلتزم به ، و هو أنتظار سخيف ، اذ شرف الانسان و كرامته(فرد او أمة) يتمثل في انتخابه الحر للخير و الفضيلة ، وليس في تحويله الى اداة طيعة لارادة قاهرة حتى ولو أستخدمت في الطريق الصحيح.

هكذا كانت الهداية من مسؤولية الانسان ذاته ، ان يختارها ، و يسعى جاهدا اليها ، و يجار الى ربه لتوفيقه اليها .. و يكون دليله في كل ذلك عقله الذي يميز له و بوضوح كاف سبيل الهدى عن طريق الضلال ، مما لا يدع له مجالا للتبرير ، وهو اكبر حجة لله عليه ، و لعل الكلمة التالية توحي بذلك:

]كلا[

ليس تبريرهم مقبولا ، و ليس سبب أستمرارهم على الكفر عدم وجود هذا الشر او ذاك.

و قوله في الآية السابقة " كل امرء منهم " اشارة الى كون هذه الصفة مرتكزة في كل فرد فرد من البشر الا ما شاء الله ، و الا من ينتصرون عليها و يصلحون أنفسهم . ثم يبين ربنا بقول فصل العامل الرئيسي في موقف الكفار من قيم الدين و قيادة الرسول ، الا وهو عدم حضور لآاخرة في وعيهم.

]بل لا يخافون الآخرة[

اذن فطلبهم صحفا منشرة و المعجزات الآخرى ليس الا تبريرا لموقفهم ، و غطاء لشيء آخر هو عدم الخوف من الآخرة ، فالآخرة اذن ليست فكرة مجردة يكفيالانسان ان يلقلق بها لسانه ، و يحفظها في ذاكرته ، بل هيه حقيقة كبيرة يجب ان يتفاعل معها عمليا ، فتعكس آثارها في سلوكه و شخصيته ، و أظهر آيات ذلك الخوف من الآخرة ، بالخوف من عذاب الله و غضبه ، فانها أحق بان يخافها البشر . وعدم الخوف من الآخرة قد يكون نتيجة للكفر المحض بها ، و قد يكون نتيجة للافكار التبريرية التي ينسجها الأنسان بخياله ، كالشرك بالله ، و أفكار الفداء الخاطئة.

[56 / 54]ثم يقول الله:

]كلا انه تذكرة[

اي ان الاعراض و النفور عن القرآن لا يصيره باطلا ، فهو بآياته و حقائقه يذكر البشر بأعظم الحقائق ، بل بها كلها ، اذ فيه تبيان لكل شيء.

و الرسول هو الآخر مصداق للتذكرة ، حيث يقوم بذات الاهداف التي جاء من أجلها القرآن ، و أعظمها تذكير الانسان بربه عز وجل ، عبر الادلة و الآيات التي تثير فيه العقل و توقظ الضمير و لكن من دون جبر ، فالرسول ما عليه الا البلاغ المبين ، و القرآن ليس دوره الا بيان الحق و الباطل معا ، و وضع الانسان بكل وجوده المادي و المعنوي امام الاختيار.

]فمن شاء ذكره[

بإرادته و وعيه ، فان أي اختيار آخر مرفوض عند الله ، و لا ينفع صاحبه بشيء لا في الدنيا و لا في الاخرة ، و لعمري انها لمن أظهر الآيات على ان الرسالة حق ، ان تعترف للانسان بحريته و اختياره و مسؤوليته ، و ان لا يمارس معه اي لون من الوان الاكراه اذ " لا اكراه في الدين " أنطلاقا من حاجته هو الى الحق ، و ليس العكس . و هذه في نفس الوقت خصيصة تميز الرسالة الالهية عن الدعوات البشريةالمرتكزة على الجبر و الاكراه ، و من ثم تجاهل دور الانسان و حقه في تعيين مصيره.

و توازن الآيات بين الجبر و التفويض ، لان بصيرة القرآن تهدي الى أمر بين أمرين ، و ذلك من خلال تذكيرنا بحقيقة مهمة بقرار الانسان و اختياره في الحياة ، الا و هي ان مشيئته لا تكون الا بالله . او ليس الله

خلق الانسان و اسبغ عليه نعمه ظاهرة و باطنة ، فلولا خلقه هل كان شيئا حتى يشاء ؟ ثم انه منحه العقل و الارادة ، و وفر له فرصة المشيئة ، و لو كان الانسان كالحجر لا يملك عقلا او ارادة فهل كان يشاء شيئا ؟ و عندما وفرت له فرصة المشيئة و في لحظة المشيئة لولا نور التأييد الذي ينمي ارادته لم يكن يمضي في مشيئته قدما في مقاومة جواذب الشهوة و ركائز النقص و العجز و الجهل التي هو فيها . اليس كذلك ؟ و حينما تكون الهداية محور المشيئة أفيمكن للانسان ان يبلغها من دون تذكرة ربه و توفيقه ؟

بلى . و هكذا قرار الانسان مركب من أمرين : أحدهما متصل به ، و الآخر متصل بربه ، فحيث يختار الهداية و يسعى اليها سعيها يهديه الله و يبارك سعيه ، و هذا معنى قول الامام الصادق (ع) : " لا جبر و لا تفويض ، و لكن أمر بين أمرين " (قال المفضل) قلت : ما أمر بين أمرين ؟ قال : " مثل رجل رأيته على معصية فنهيته فلم ينته ، فتركته ففعل تلك المعصية ، فليس حيث لم يقبل منك فتركته كنت انت الذي أمرته بالمعصية " (١ (، و قال - عليه السلام - : " الله تبارك و تعالى أكرم من ان يكلفالناس ما لا يطيقونه (يجبرهم) ، و الله أعز من ان يكون في سلطانه ما لا يريد) (2) " فيفوض لهم الأمر. (

و قال الامام علي بن موسى الرضا) ع) لما سأله المأمون : يا أبا الحسن ! الخلق(١) موسوعة بحار الانوار / ج ٥ / ص ١٧.

(2)توحيد المفضل / ص ٣٦٠.

مجبورون ؟ : " الله أعدل من ان يجبر خلقه ثم يعذبهم " قال : فمطلقون ؟ قال " : الله أحكم من ان يهمل عبده و يكله الى نفسه " (١) ، و هذا البيان العميق للائمة - عليهم السلام - في شأن ارادة الانسان و قراره هو الحق الذي تهدينا اليه الادلة و الحجج البالغة ، و أهداها وجدان الانسان نفسه و تجاربه الشخصية ، فان الجبرية و ان جادلوا عن رأيهم الا ان كل واحد واحد منهم يعلم علم يقين انه الذي يقرر ما يريد لا يكرهه أحد على ذلك ، و ان المفوضة ليعلمون بأن الامور ليست كلها بأيديهم.

]و ما يذكرون الا ان يشاء الله هو أهل التقوى و أهل المغفرة]اي انه - عز وجل - أهل ان يتقيه خلقه و يخافوه ، و أهل ان ترجى رحمته و مغفرته ، و هذه اللمسة القرانية الاخيرة تضع الانسان على الصراط السوي بين الخوف و الرجاء ، كما وضعته الآيات بين الجبر و التفويض ، على ان مغفرة الله تسبق غضبه.

(1)موسوعة بحار الانوار / ج ٥ / ص ٥٩.

سورة القيامة

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن أبي جعفر (الامام الباقر) عليه السلام قال : " من أدمن قراءة " لا أقسم "و كان يعمل بها بعثه الله عز وجل مع رسول الله - صلى الله عليه وآله - من قبره في أحسن صورة ، و يبشره و يضحك في وجهه حتى يجوز على الصراط و الميزان "نور الثقلين / ج ٥ / ص ٤٦١

الاطار العام

أيحسب الانسان ان يترك سدى ؟ أي شيء في كيانه يدل على العبثية و اللهو ؟ خلقه أطوارا ، أم

فطرته القويمة ، أم نفسه اللوامة التي تبصره بنفسه رغم المعاذير التي يلقيها ، أم الحجج البالغة و أعظم بها كالقرآن الذي تكلفل الرب بجمعه و بيانه ؟

هكذا تترى آيات السورة تعمق في وعينا المسؤولية التي تتجلى في يوم القيامة حيث يسوي الله حتى البنان ، و حيث تترى فيه الفواقر و الدواهي .. و لا يجد الانسان مفرا و لا وزرا يلجا اليه .

هكذا نهتدي الى محور السورة المسؤولية ، و هدفها تعميق الشعور بها ، و الآية التي تتجلى بها قوله سبحانه : " بل الأنسان على نفسه بصيرة . "

و تفصيل هذه الحقيقة ان القرآن يذكرنا في مطلع السورة بحقيقتين :القيامة و النفس اللوامة ، و يربط بينهما على أساس انهما مظهر للمسؤولية ، فكما يستحث الايمان بالقيامة الانسان لتحملها فان النفس اللوامة هي الآخرى تقوم بذات الدورمن بعد آخر ، اذ تقف امام تراجعاته ، و تنهره عن التقصير في أداء الواجب ، و عن أقتحام الخطيئات (الآيات ١ - ٢. (

و يستنكر السياق زعم الانسان انه لن يبعث تارة اخرى بعد ان يصير اشلاء موزعة و رميما . هل يحسب ان قدرة الله محدودة مثله ؟ كلا .. قدرته تفوق تصور البشر .. فهو ليس قادرا على جمع عظامه و حسب ، و انما يقدر ان يسوي بنانه ايضا ، و الانسان حينما يراجع نفسه ويتفكر في آيات قدرة الله في الطبيعة فانه يعرف تلك الحقيقة ، و لكنه انما يخترع تلك الافكار تبريرا للهروب من عرصة المسؤولية ، و الايمان بالرسالة التي تحدد تصرفاته و لا تجعله مطلقا يتبع الهوى كما يريد .. و يؤكد القرآن مرة اخرى ان هذه هي الخلفية الحقيقيةلسؤاله عن القيامة (الآيات ٣ - ٦. (

و يداوي ربنا هذا المرض المستعصي في النفس البشرية بالتأكيد للانسان انه و ان استطاع موقتا)في الدنيا) تبرير ضلاله و الفرار من المسؤولية تحت غطائه فانه لن يجد في المستقبل مفرا من ربه حينما تقوم القيامة " اذا برق البصر * و خسف القمر * و جمع الشمس و القمر * " و عبر قنطـرة الدنـيا الفانـية الـى دار الاستـقرار عنـد اللـه ، فهـنالك يجـد نفســه وجهـا الى وجــه مـع حقيـقة أمره حيث يجد ما عمل محضرا أمامــه (الآيات ١٣ - ١٧. (

و يثير الوحي فينا حس النقد الذاتي ، عن طريق تذكيرنا بحقيقة وجدانية مسلمة ، الا و هي بصيرة الانسان على نفسه ، فانه قبل الآخرين شاهد عليها و عالم بواقعها ، مهما توسل بالاعذار و التبريرات الواهية ، و انما يؤكد القرآن هذه الحقيقة لان المراقبة الذاتية أعظم أثرا ، و ارسخ للتقوى في شخصية الفرد (الآيات ١٤ - ١٥. (

ثم ينعطف السياق الى الحديث عن القرآن نفسه ، داعيا الرسول الى عدم التعجل به من قبل ان يقضى اليه وحيه ، مؤكدا تكفله تعالى بجمعه و قرآنه ثم بيانه للناس .. و هذا مما جعل المفسرين يتحيرون في فهم العلاقة بين سياق السورة و بين هذا المقطع ، الا ان هناك علاقة متينة سنتعرض لايضاحها في البينات (الآيات ١٦ - ١٩. (

و تهدينا الآيات الى واحد من عوامل الانحراف و عدم تحمل المسؤولية عند الانسان ، و الذي لو استطاع التغلب عليه لاهتدى الى الحق ، و سقط الحجاب بينه و بين الاخرة ، الا و هو حب العاجلة (الدنيا) على حساب الآخرة ، و البحث عن النتائج الآنية و إنكار الجزاءالاجل ولو كان الافضل ، بل ولو كان مصيريا بالنسبة اليه ، فهو يعيش لحظته الراهنة دون التفكير في المستقبل ، و هي نظرة ضيقة خطيرة . و حين يفشل الانسان في الموازنة بين الحاضر و المستقبل ، و بين الدنيا و الاخرة فانه يخسرهما معا (الآيات ٢٠ - ٢١. (

و الحل الناجحع لهذه المعضلة عند البشر يتم بإعادة التوازن بينهما الى نفسه ، و لان العاجلة شهود يعايشه بوعيه و حواسه فان حاجته الملحة الى رفع الغيب الى مستوى الشهود عنده ، و لذلك يضعنا القرآن أمام مشاهـد حيــة من غيب الاخرة حيث الناس فريقان : فريق السعداء الذين تجلل وجوههم النضارة ، و يصلون الى غاية السعادة بالنظر الى ربهم عز وجل ، و فريق البؤساء الخاسرين أصحاب الوجوه الباسرة ، الذين ينتظرون بانفسهم العذاب و الذلة) الآيات ٢٢ - ٢٥. (

و يمضي بنا السياق شوطا آخر يحدثنا فيه عن لحظات الموت الرهيبة حيث تبلغ النفس التراقي فيعالج الانسان سكرات الموت حيث يلف ساقا بساق ، و يقبض كفا و يبسط آخرى ، بلى . انه أول مشهد من الآخرة ، و النافذة على عالمها الواسع.

و كما ان تكذيب أحد بهذه الحقيقة لا يدفعها عنه و لا يغير من شأنها فان التكذيب بالآخرة هو الآخرة لا يغير قدر ذرة من أمرها ، لانها حقيقة واقعة و قائمة (الآيات ٢٦ . (29 -

و لان مشكلة الانسان ليس إنكار الموت ، و لا زعم القدرة على دفعه ، بل الشك فيما بعده او الكفر به ، أنعطف القرآن نحو أنقاذه من حيــرة الشـك في المستقبل و الجهل به ، و كانه يحل لغزا رجع صداه في أكثر النفوس البشرية ، ببيان ان مسيرته في الحياة لا تنتهي بالموت ، و انما الموت جسر الى عالم أبدي أوسع ، هو عالم لقاء الله و الحساب و الجزاء بين يديه ، و ذلك مما يعمق الشعور بالمسؤولية في النفس (الآية ٣٠. (

و غياب هذه الحقيقة من وعي الانسان هو المسؤول عن عدم تصديقه به و صلاته له ، و هو يدفعه الى التكذيب ، و ركوب مطية الغرور ، و ان من يكون على هذه الصفات اولى له الموت من الحياة ، و العذاب من الرحمة (الآيات ٣١ - ٣٥. (

و يرجعنا القرآن الى الجذر الاصيل لكفر الانسان بالبعث و الجزاء : انه جهله بقدرة ربه سبحانه ، فليتفكر في أصل خلقته حين كان " نطفة من مني يمنى * ثم كان عقلة " فخلقه الله و سواه ، متكاملا في ذاته ، و متكاملا مع الجنس الآخر بأن خلق " منهالزوجين الذكر و الانثى " فهذه آية واضحة للعقل على قدرة الله " على ان يحيي الموتى " ، لان أصل الخلق أعجب و ادل على قدرته تعالى من الاعادة (الآيات ٣٦ - ٤٠. (

بل الانسان على نفسه بصيرة

بينات من الآيات

[2 - 1]حتى يتعمق الايمان عند الانسان و يتحمل مسؤولياته في الحياة لابد ان يستثار فيه حافزان : وعي الآخرة بما تعنيه من بعث و جزاء ، ثم نفسه اللوامة التي تثير في داخله النقد الذاتي بما يعني ردعه عن اقتحام الخطيئة ، فالمسؤولية اذا هي الجذر الاصيل الذي تلتقي فيه فكرة القيامة و حقيقة النفس اللوامة ، من هنا يذكرنا القرآن بهما جنبا الى جنب في سياق علاجه لموضوعها.

]لا أقسم بيوم القيامة * و لا أقسم بالنفس اللوامة]و ان لكلمة " القيامة " تعبيرا عن الآخرة هنا إيحاء نفسيا خاصا ، يذكر الانسان بالبعث في واحد من أعظم مشاهد تلك الحياة حيث القيام من وهدة القبر للسحاب و الجزاء و القيام أظهر تجليات الحياة اذ لا يقوم الشيء حتى يستوي تماما و يكتمل.

و لقد مضى الكلام عن كلمة " لا " في القسم ، و خلاصة القول : إنها تفيد معنى القسم ، و ان ما يليها من كلام في منزلة من الوضوح لا داعي معها الى القسم (١) او ان ما وراءها من حقيقة نقسم بها عظيمة نجلها عن القسم ، و هما معا يفيدان معنى التفخيم.
و لا حاجة للحديث هنا عن اختلاف المفسرين في تفسير هذه الصيغة القرآنية لكونه نقل في مواضع آخرى سبقت.

اما عن النفس اللوامة فهناك أقوال كثيرة ، فعن قتادة : (انها النفس) الفاجرة يقسم بها (٢) ، و عن أبن عباس قال : المذمومة (٣) ، و هما رأيان بعيدان جدا تخالفهما النصوص التي جرى استخدام الكلمة فيها على وجه الايجاب ، كما يخالفهما المعنى اللغوي للوامة ،و عن مجاهد : تندم على ما فات و تلوم عليه (4)، و عن الحسن قال أن المؤمن لا تراه الا يلوم نفسه ، و أن الفاجر يمضي قدما لا يعاتب نفسه (٥. (

و الذي اختاره و تدلل عليه النصوص ان في الانسان نفسين : أحدهما تختار الباطل و الفساد و هي الامارة ، و الثانية تدعو الى الحق و الصلاح و هي اللوامة ، و نعبر عنها في الادب الحديث بالضمير و

الوجدان ، و هذه النفس تستيقظ داخل الانسان لتعاتبه على عدم العملبالحق ، و تنهره عن اقتحام الباطل . و انما عبر القرآن عنها بصيغة المبالغة (فعالة) لانها كثيرة الملامة لصاحبها و النصيحة اليه ، فاذا ما استجاب لها نمت و أخذت موقعها و دورها الايجابي في حياته ، و اذا أدمن الصد عن نداءاتها و مخالفتها تباطأت عن العمل فلا تعود تلومه على خطاياه كثيرا.

(1)راجع سورة الواقعة عند الايتين / ٧٥ 76 -و ما يليها.

(2)الدر المنثور / ج ٦ / ص ٢٨٧.

(3)المصدر.

(4)المصدر.

(5)المصدر.

و برامج الاسلام تهدف تنمية هذه النفس ، و تعتمد عليها في كثير من تشريعاته جنبا الى جنب أعتماده على العقل ، و هكذا يكون للانسان محكمتـان : محكمـة نفسه اللوامة ، و محكمة الاخرة ، قال الامام الصادق (ع) : " الا فحاسبوا أنفسكم قبل ان تحاسبوا ، فان في القيامة خمسين موقفا كل موقف مقام الف سنة " (١) ، و قال الامام السجاد (ع) : " أبن آدم ! لا تزال بخير ما كان لك واعظ من نفسك ، و ما كانت المحاسبة من همك " (٢. (

و لان النفس اللوامة تقوم بدورها في حياة الانسان تجعل الرسالات الالهية و المواعظ الخارجية تلقى تجاوبا منه ، و الا فهي لا تؤثر شيئا اذا عطل العقل و مات الضمير ، قال الامام الصادق (ع) : " من لم يجعل له واعظا من نفسه فان مواعظ الناس لن تغني عنهشيئا " (٣. (

[4 - 3]و كما ان القيامة يوم البعث و جمع العظام فان النفس اللوامة آية وجدانية على القيامة باعتبارها صورة مصغرة عن تلك المحكمة العظمى ، بل انها تصبح بلا مبرر لولا ان الانسان سيلاقي حسابه الاوفى في يوم من الايام . من هنا يكون كفر البشر بالاخرة مع وجود النفس اللوامة فيه موضع استنكار ، و دليل ضلال فيه مبين ، ما توحي به الآية:

]أيحسب الانسان ألن نجمع عظامه[

و المتتبع لموارد استخدام كلمة (حسب) على صيغها المختلفة في القرآن يجد انها تعني الظن و الزعم الذي لا أساس له ، و ذلك يعني ان تشكيك الانسان بالآخرة لا(١) موسوعة بحار الانوار / ج ٧٠ / ص ٦٤.

(2)المصدر.

(3)المصدر / ص ٧٠.

مبرر له ابدا ، و انما يعتمد على التمنيات الواهية ، و الخيال البعيد ، كما توحي الآية بأن مشكلة الانسان ليست في عدم إيمانه بخطئه ، اذ انه ان لم يعترف به للناس فإنه لا يستطيع الفرار منه امام محكمة الضمير ، و لكن مشكلته كفره بالحقيقة الثانية الا و هي القيامة ، التي تعني البعث و الحساب و الجزاء ، و ذلك انه لا يستطيع استيعاب حقيقة العودة الى الحياة بعد ان يموت و يصير اشلاء موزعة و عظاما بالية تستحيل ذرات تراب مع الأيام .

و جذر هذا التصور نجده حينما نبحث عنه في جهل الانسان بقدرة ربه التي لا تحد ، و تقييم شؤون

الخلائق بما فيها البعث و النشور من خلال قياساته الذاتية و قدراته المحدودة ، دون ان يعرف ان للكائنات العظيمة التي خلقها الله من جبال و وهاد و اراضي و بحار و سماوات و مجرات .. ان لها مقاييس اخرى لا تقاس بذاته.

و لهذا فانه حيث يجد نفسه عاجزة عن جمع عظام الموتى يحسب الامر مستحيلا اما لو عرف ربه لتغير تصوره و موقفه ، و أمن بالآخرة مصدقا قول ربه:

]بلى قادرين على ان نسوى بنانه[

عن سعيد بن جبير قال : سألت أبن عباس عن الآية فقال : لو شاء لجعله خفا او حافرا .. و لكن جعله الله خلقا سويا حسنا جميلا (١) ، و عنه قال : نجعلها كفا ليس فيه أصابع (٢) ، و الاقرب منه ان تكون التسوية هنا بمعنى الخلق الكامل ، بإعادة البنان على خلقها و كمالها الاول بعد الموت و التحلل في التراب ، و هذا رد على شك الانسان في قدرة الله على جمع الأعظم المتفرقة الرميمة ، اي انه تعالى ليس قادرا على جمعها و حسب ، بل هو قادر على كسوها لحما و إعادة الحياة اليها . و اذا(١) الدر المنثور / ج ٦ / ص ٢٨٧.

(2)المصدر.

كانت اليدان من خصائص الحضارة البشرية فان الاصابع هي ميزة اليد عند الانسان بما فيها من دقة و قوة و إناقة ، و خصوصا البنان الذي يقوم بدور عظيم في حياة الانسان.

و قد اعتبر البعض هذه الآية سبقا في بيان حقيقة علمية يستفاد منها كثيرا في القانون الجنائي ، و هي : اختلاف خطوط أطراف الاصابع من انسان الى آخر ، و التي أصبحت بذاتها علما مستقلا يسمى بعلم البصمات ، ترتكز عليه الدوائر الامنية في مكافحة الجريمة و معرفةالمجرمين.

و تعبير الله في الآية الثالثة " نجمع عظامه " يهدينا الى ان الانسان مهما تحلل في التراب الا انه لا يتحول الى العدم ، بل يبقى اجزاء و ذرات صغيرة متفرقة هنا و هناك ، و الخلق الثاني بالبعث يبدأ بجمعها الى بعضها عبر قوانين دقيقة و ارادة إلهيةتجعل ذرات كل فرد و عضو و جزئياته تجتمع و تلتحم مع بعضها ، و الله العالم.

[6 - 5]اما سبب كفر الانسان بالآخرة فهو انه لا يريد الالتزام بالشرائع و الحدود ، بل يريد ان يطلق العنان لاهوائه و شهواته ومن ثم لا يتحمل مسؤوليــة فــي الحياة.

]بل يريد الانسان ليفجر أمامه[

قال الامام الصادق (ع) : " أي يكذبه " (١) ، و على هذا أجمع جل المفسرين قال العلامة الطبرسي : فالفجور هو التكذيب (٢) . و قال الفخر الرازي : اي يكذب بما أمامه من البعث و الحساب ، لان من كذب حقا كان فاجرا (٣) . و الذي يبدو لي(١) البرهان / ج ٤ / ص ٤٠٦.

(2)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٩٥.

(3)التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص ٣١٨.

ان الكلمة بمعناها الاصلي وهو الشق و التحطيم ، و انما سمي الفجر فجرا لانه يشق الظلام و يحطمه ، و الفجور في الاخلاق و السلوك مثل ذلك ، حيث ان الفاجر لا يلتزم بقيمة و لا قانون ، بل يشق عصا المجتمع و الشرع باقتحام اللذات و الخطايا ، و لا يريد أمامه شيئايعيقه ابدا ، و هذا التفسير لا يعارض حديث الامام و لا أقوال المفسرين لان التكذيب مقدمة و مصداق للفجور .و لم اجد من المفسرين من قال ذلك ، الا اشارة عند الرازي اذ قال : من أنكــر المــعاد بنــاء علــى الشهوة فهو الذي حكاه الله تعالى

بقوله " الآية " ، و معناه : ان الانسان الذي يميل طبعه الى الاسترسال في الشهوات ، و الاستكثار من اللذات ، لا يكاد يقر بالحشر و النشر ، و بعث الاموات ، لئلا تنغص عليه اللذات الجسمانية ، فيكون أبدا منكرا لذلك (١. (

و الضمير في " أمامه " إما ان يعود الى يوم القيامة ، او الى الله عز وجل ، حيث ان الفاجر يمارس فجوره في حضور و شهادة الله ، او يكون عائدا على الانسان نفسه باعتباره يفجر أمام ضمير و بشهادة من جوارحه التي تدلي بشهادتها عليه عند الحساب . و الاصح ان الضمير يرجع الى الانسان ، لان الحديث حوله و سائر الضمائر ترجع اليه ، و لعل هذا جعل ذلك مستساغا بينما يقال عادة : امام نفسه.

]يسئل أيان يوم القيامة[

لان الكفر بالقيامة هو الذي يبرر له التحلل من المسؤولية ، فهو في سعي حثيث و جدل دائم من أجل إنكارها ، و صناعة قناعة ولو داهية لنفسه و للاخرين بذلك ، فسؤاله ليس سؤال استهزاء و سخرية فقط ، بل هو سؤال تبرير و جدل ايضا . و انها لصفة كل من يترك العمل بالحق و يخالف القيم ، اذ لا بد من تبرير لموقفه ، فكيف اذا كان فجورا ؟

(1)المصدر / ص ٣١٩.

و لصيغة السؤال هذه استبعاد و تسويف بالتوبة ، قال الزجاج : و يجوز انه يريد ان يسوف التوبة ، و يقدم الأعمال السيئة (١) ، و قيل معناه : انه يتعجل المعصية ثم يسوف التوبة ، و يقول : أعمل ثم أتوب (٢. (

[13 - 7]و يبقى المكذب بالاخرة مسترسلا مع أهوائه و شهواته ، في فجور بعد فجور ، لانه لا يسحب حسابا للقاء ربه ، و وقائع القيامة التي تطبع آثارها المذهلة و الرهيبة عليه و على الطبيعة من حوله ، فهنالك لا يجد مفرا من حكومة الله و جزائه ، لان الوضع يختلف في الاخرة عن الدنيا ، حيث تنتهي فرصة الامتحان و الحرية.

]فاذا برق البصر[

قال في التبيان : يقال برق البرق اذا لمع ، و اما برق بالكسر فمعناه تحير ، و قال الزجاج : برق اذا فزع ، و برق اذا حار (٣) ، و في المجمع قال أبو عبيدة : برق البصر : اذا شق و أنشد (٤) ، و قال العلامة الطبرسي : اي شخص البصر عند معاينة ملك الموت ، فلا يطرف من شدة الفزع ، و قيل : اذا فزع و تحير من شدة أهوال القيامة (٥) ، و قال الرازي بعد ان نقل رأي الزجاج : و الاصل فيه ان يكثر الانسان من النظر الى لمعان البرق ، فيؤثر ذلك في ناظره ، ثم يستعمل ذلك في كل حيرة ، و ان لم يكن هناك نظر الى البرق (٦) . وما اختاره ان بروق البصر يحمل معنى الحيرة و الدهشة لحالة الذهول و الخوف التي تصيب الانسان لسبب من الاسباب . و انه يحدث بعض الاحيان نتيجة الارهاق او الصدمات الروحية و المادية ان يرى الواحد(١) مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٩٥.

(2)المصدر.

(3)التبيان / ج ١٠ / ص ١٩٢.

(4)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٩٤.

(5)المصدر / ص ٣٩٥.

(6)المنجد / مادة برق.

أمام ناظريه ما يشبه النجوم الصغيرة ، و لعل هذه الظاهرة لون من بروق البصر . و في المنجد : برق برقا تحير و دهش فلم يبصر ، البرقة : الدهشة و الخوف (١ . (و بصر الانسان يبرق يوم القيامة .. و مع انه يبرق عند الموت الا ان حمل المعنى على القيامة أقرب الى السياق فالحديث عنها ، و المشاهد التالية متصلة بها لا بالموت.

]و خسف القمر[

قال الزمخشري : ذهب ضوؤه ، او ذهب نفسه (٢) ، و جاء الفعل معلوما بينما يقال عادة خسف ببناء الفعل للمجهول ، و لعله للدلالة على انه في الحالات الطبيعية يحجب نوره بعوامل خارجية كوقوع الارض بينه و بين الشمس في حركتها السنوية ، مما يتسبب في حجب شعاعها عنهو وقوع ظل الارض عليه . اما في الآخرة فان القمر نفسه يخسف و لا يخسف بشيء خارجي ، فهو فاعل الخسف و ليس غيره.

و مشهد مريع آخر يلفت القرآن نظرنا اليه ، و هو اختلال النظام الكوني في الحياة ، و من مظاهره جمع الشمس و القمر ، و هذه النتيجة حتمية و طبيعية في ذلك اليوم ، فالكون و النظام انما أوجدهما الله للانسان ، و حيث ينــتهي دوره في الدنيا يــنتهي معه كل متعلقبه.

]و جمع الشمس و القمر[

و علماء الفلك يدركون الآثار التي يخلفها مثل هذا الأمر على الكائنات ، و ما هو أعظم و أرهب بالنسبة للانسان من هذه الاحداث الكونية تلك الحقائق التي يمثلها يوم القيامة و يكشف عنها ، و أهمها حقيقة الجزاء و المسؤولية ، التي طالما كذب بها(١) المنجد / مادة برق.

(2)الكشاف / ج ٤ / ص ٦٦٠.

و سعى للفرار منها بشتى الحيل و الذرائع ، فهناك يجد نفسه وجها لوجه أمامها ولا سبيل له للهرب منها.

]يقول الانسان يومئذ أين المفر[

و انما يكشف القرآن لإانسان مشاهد الآخرة حتى يزرع التقوى في نفسه فيضع بذلك حدا لفجوره و غروره ، و لان المعرفة بالمستقبل و الإيمان بحقائقه يخلف توازنا في مسيرته الدنيوية الحاضرة ، فهو إنما يفجر زعما منه بإن سيجد مهربا من المسؤولية.

]كلا لا وزر[

أي ملجا و مأوى . قال المبرد و الزجاج : أصل الوزر الجبل المنيع ، ثم يقال لكل ما التجأت اليه و تحصنت به وزر (١) ، و منه الوزير الذي يلجأ اليه في الأمور (٢) ، يقال وزرت الحائط ، اذا قويت بأساس يعتمد عليه ، و قال الحسن : لا جبل ، لان العرب اذا دهمتهم الخيل بغتة قالوا : الوزر ، يعنون الجبل (٣. (

و في الاخرة لا يجد أحد مفرا و لا ملجا من جزائه ، و عذاب ربه ، بلى . هناك مفر واحد فقط ينفع الانسان ، وهو ان يفر الى ربه الذي منه العذاب ، و اليه المصير ، و لا يكون ذلك فجأة ، انما يحتاج الأمر الى تمهيد في الدنيا قبل الآخرة.

]الى ربك يومئذ المستقر[

قال صاحب المجمع : اي ينتهي الخلق يومئذ الى حكمه و أمــره ، و قيــل " المستقر: "

(1)التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص ٢٢١.

(2)مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٩٥.

(3)التبيان / ج ١٠ / ص ١٩٤.

المكان الذي يستقر فيه المؤمن و الكافر ، و ذلك الى الله لا العباد (١) . و الاصح إطلاق الكلمة كي تتسع الى كل المعاني الموحية بها هذه العبارة ، كالقرار ، و المصير ، و المقر ، و الحكم ، و الأمر .. الخ ، و في ذلك تنبية للانسان على ان الدنيا ليست محلا للخلود و الاستقرار ، و لا محطة أخيرة ، فيجب ان يكيف نفسه مع هذه الحقيقة الهامة ، و ليس معنى الآية ان المستقر دون ذلك اليوم ليس لله " فلله الآخرة و الاولى " (٢) ، و لكن حكمته اقتضت ان تكون لنا الحرية في الدنيا ، و يومئذ يكشف لنا الغطاء بصورةأوضح و أجلى عن هيمنته و سلطانه المطلقين ، و نكتشف فيما نكتشف علمه و إحاطته التامين حينما يعرضنا للحساب و الجزاء فنجد انه أحصى كل صغيرة و كبيرة لنا و علينا.

]ينبؤا الانسان يومئذ بما قدم و أخر[

في التبيان و مثله المجمع : اي يخبر الانسان يوم القيامة بأول عمله و آخره فيجازي به ، و قيل : بما قدم من العمل في حياته ، و ما سنه فعمل به بعد موته من خير او شر ، و قيل : بما قدم من المعاصي (على الطاعات) و آخر من الطاعات (٣) (على المعاصي) . قال الامام الباقر (ع) : " بما قدم من خير و شر ، و ما أخر مما سن من سنة ، ليستن بها من بعده ، فان كان شرا كان عليه مثل وزرهم ، و لا ينقص من وزرهم شيء ، و ان كان خيرا كان له مثل أجورهم ، و لا ينقص من أجورهم شيء " (٤. (

و حضور مشهد الحساب الاخروي في وعي الانسان في الدنيا له دور كبير في(١) مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٩٥.

(2)النجم / ٢٥.

(3)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٩٥.

(4)تفسير القمي / ج ٢ / ص ٣٩٧.

بعثه على التقوى و الطاعة ، و ممارسة النقد الذاتي البناء . و ان الله قادر ان يجازي الناس مباشرة بعد بعثهم و لا أحد يسأله عما يفعل ، و لكنه يأبى الا ان يجلي علمه و عدالته لخلقه.

[15 - 14]و السياق مهد السبيل للحديث عن البصيرة الأساسية التي تعتبر محورا هاما في السورة ، و هي وعي الانسان بمسؤوليته عبر استثارة نفسه اللوامة ، التي تجعله عليها شاهدا و رقيبا مما يصلح مسيرته و يوجهه الى تحمل المسؤولية بتمام المعنى ، فلا يمارسالخطيئة لانها تحتاج الى التبريرات و الاعذار ، و هي لا تنفع شيئا عند الله ولا عند محكمة نفسه.

]بلى الانسان على نفسه بصيرة * ولو القى معاذيره]و هنا نهتدي الى عده بصائر:

/ 1يهدف الاسلام عبر منهجه التربوي تنمية وازع الضمير عند الانسان كضمانة أساسية لا لتزامه بالشرائع . من هنا القرآن يذكره بالحقائق الوجدانية المرة بعد الآخرة.

/ 2كما ان الانسان لا يجد مفر من حكومة الله يوم القيامة و لا تنفعه الاعذار ، فانه حين يراجع ذاته (ضميره و عقله (يواجه نفس الموقف ، حيث يعلم بأن الأعذار التي يقدمها لا واقع لها ، فهي قد تخدع غيره و لكن لن تخدع وجدانه.

/ 3ان الأعذار التي يلقيها الانسان أكثرها كاذبة ، يلجأ اليها لتبرير أخطائه و سلوكياته المنحرفة ، و هي

لا تغير من الواقع شيئا لا عند الله و لا عنده . و ورود الكلمة بالجمع "معاذيره " فيه دلالة على انه يتقن فن صناعة التبرير ، و أنه حينما يريد تبرير موقف او عمل ما متصل به لا يكتفي بعذر واحد بل يختلق أعذارا كثيرة.

و هذه البصائر تنسف الثقافة التبريرية التي هي أهم اسباب التخلف و الإجرام ، ذلك لان الانسان الذي خلق في أحسن تقويم ، و أنشات نفسه على فطرة الاستقامة ، ثم زود بالنفس اللوامة التي تراقب إنحرافه بمقياس دقيق ، انه لا يقفز - مرة واحدة - من قمة الحق الى حضيض الباطل ، إنما يهبط اليه عبر سلم التبرير و تقديم الاعذار ، فاذا بنفسه الأمارة بالسوء تسول له الخطيئة ، تقول له مثلا : أنى لك النقاء الكامل ، أنت طيب أكثر من اللازم ، و لا يمكنك أن تعيش من دون ظلم أحد ، كل الناس يظلمون بعضهم .. و هكذا يقدم الأعذارلانحرافه حتى يبتعد كليا عن طريق الحق و يتسافل الى الحضيض.

و اذا عرف الانسان الدور السلبي للأعذار و انها غطاء رقيق لارتكاب الجرائم الخطيرة و انها لا تعني شيئا ، فان ذلك يساهم في استقامته على الحق.

قال الامام الصادق (ع) : " ما يصنع أحدكم أن يظهر حسنا و يسر سيئا ، اليس اذا رجع الى نفسه يعلم انه ليس كذلك ؟ و الله سبحانه يقول : " الآية " ان السريرة اذا صلحت قويت العلانية (١) ، و قال (ع) : " ما يصنع الانسان يعتذر الى الناسخلاف ما يعلم الله منه ، ان رسول الله (ص) كان يقول من أسر سريرة رداه الله رداءها ، ان خيرا فخير ، و ان شر فشر " (٢) . و أختلف في تاء " بصيرة " فقيل انها للتأنيث و تعود على الجوارح ، فكأن الآية تقول :ان جوارح الانسان على نفسه بصيرة ،و قيل : هي للمبالغة فإن العرب تقول : فلانة علامة ، و فلان علامة . و الذي يبدو لي اضافة الى ذلك انها راجعة الى النفس ، فنفس الانسان عليه بصيرة ، و لم اجد من المفسرين من قال ذلك.

و قد اعتمد الفقه الاسلامي هذه البصيرة القرآنية في تحديد بعض التشريعات(١) مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٩٦.

(2)المصدر.

و التكاليف ، بإيكال تشخيص موضوعها و حكمها الى الانسان نفسه من دون حاجة الى مراجعة الفقيه او المختص ، قال زرارة : سألت أبا عبد الله (الامام الصادق (ع)) : ما حد المرض الذي يفـطر صاحبه ؟ قال : " بل الانسان على نفس بصيرة ، هو أعلم بما يطيق " (١) ، و في رواية اخرى : " هو اعلم بنفسه ، ذاك اليه " (٢ (، و قد ذهب بعض الفقهاء في فهمه لهذه الى حد القول : بأن كلام المختص ليس حجة ملزمة دائما ، فلو أمره بالصيام على أساس ان المرض لا يضره و لكنه ارتأى الضرر فله الحق في مخالفته ، و العكسكذلك صحيح.

[19 - 16]لكي تتبلور نظرة الانسان الى نفسه ، و تتميز في وعيه حوافز الخير و الصلاح عن شهوات الشر و الفساد ، لا بد ان يعي الآخرة و أهوالها ، و ينتبه الى نفسه اللوامة ، و يستضيء بالقرآن الذي هو حجة ظاهرة فيما العقل حجة باطنة ، و هما يلتقيان في الحقو في إعطاء الانسان مقياسا سليما فيه . من هنا ينعطف السياق الى الحديث عن تبليغ الرسالة داعيا النبي (ص (الى عدم الاستعجال بالقرآن .

و قد تحير المفسرون في العلاقة بين الآيات (١٦ - ١٩) و بين السياق العام للسورة ، حتى قاد الجهل بعضهم الى آراء بعيدة كل البعد عن حقيقة الرسالة ، فزعم بان القرآن تعرض الى التغيير عن مواضعه ، اذ لا ينبغي ان ترد الآيات المذكورة في مثل سورة القيامة ، وقال آخرون بأن الحديث هنا ليس عن القرآن و انما هو عن كتاب الانسان الذي يلقاه يوم القيامة منشورا ، فقال القفال : و ان قوله : " الاية ١٦ " ليس خطاب مع الرسول (ص) بل هو خطاب مع الانسان المذكور في قوله : " ينبأ الانسان يومئذ بما قدم و أخر" فكان ذلك للانسان حالما ينبأ بقبائح أفعاله ، و ذلك بأن يعرض عليه كتابه ، فيقال له : " أقرا كتابك كفى بنفسك اليوم(١) المصدر.

(2)المصدر.

عليك حســيبا " فاذا أخــذ في القرآن تلجلج لسانه من شدة الخوف ، و سرعة القراءة فيقال له " : لا تحرك به لسانك " فإنه يجب علينا بحكم الوعد و بحكم الحكمة ان نجمع أعمالك عليك ، و نقرأها عليك ، فاذا قرأناه عليك " فاتبع قرآنه " بالاقرار بانك فعلت تلك الافعال (١) . و مثل ذلك قال العلامة البلخي و نص كلامه : و إنما أراد قراءة العباد لكتبهم يوم القيامة ، يدل على ذلك ما قبله و ما بعده ، و ليس منه شيء يدل على انه القرآن ، و لا شيء من أحكام الدنيا (٢. (

و الذي يبدو لي في الصلة بين الآيات ما سبق من ان القرآن - الى جانب يوم القيامة و النفس اللوامة - حجة على الانسان و محكمة لعمله ، يكشف للانسان الحق عندما يرجع الى آياته ، و يعرض نفسه عليها ، و ينبغي للرسول ان لا يستعجل به بهدف إكمال الحجة على الناس ،بل يجب ان يتبع ما يقضى اليه بشأنه ، فان ذلك يكفي لهداية من يريد الهداية و يبحث عنها ، اما الذين لا يريدون تحمل المسؤولية ، و يسعون دائما لالقاء الاعذار و التبريرات (فلا يخافون يوم القيامة ، و لا يسمعون ملامة أنفسهم) فان الاستعجال بالقرآن و عرضه كله عليهم مرة واحدة لا يغير في حياتهم شيئا أبدا ، و السبب ان مشكلتهم ليست قلة الآيات ، بل كونهم لا يريدون الايمان و تحمل المسؤولية ، فلماذا العجلة اذا ؟

كما ان علاج الانسان المشتمل على كثير من الصفات السلبية ، كالجدل ، و حب الراحة ، و التبرير ، و ارادة الفجور ، و من ثم التكذيب بالقيامة و بما تعنيه من مسؤولية في الدنيا ، و بعث و حساب و جزاء في الاخرة ، ان علاجه من كل هذه الادواء لا يتم مرة واحدة ، بل لا بد من منهجية تربوية مخططة و متدرجة ، تنتشله من حضيض الباطل الى قمة الحق لتسمو به في آفاق الكمال و الهدى . و هذا يقتضي(١) التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص . 222

(2)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٩٧.

التدرج في طرح الاسلام عليه.

]لا تحرك به لسانك لتعجل به[

قال أبن عباس : كان النبي (ص) اذا نزل عليه القرآن عجل بتحريك لسانه لحبه إياه ، و حرصه على أخذه و ضبطه مخافة ان ينساه ، فنهاه الله عن ذلك (١ (، و في الدر المنثور عن مجاهــد قال : كان الرسول (ص) يستذكر القرآن مخافة النسيان ، فقيل له : كفيناك يا محمد (٢) ، و على هذا الرأي مؤاخذات عدة:

أولها :أن نهي الرسول (ص) عن فعل شيء ما لا يعني إتيانه له منذ قبل ، فليس صحيحا انه كان يخشى النسيان وهو على يقين بان الله يلهمه القرآن و يثبته في قلبه ، و قد نهى الله نبينا الاكرم (ص) عن أمور كثيرة من قبيل إطاعة الكفار و المنافقين فهل نفهم من ذلك انه خضع لهم ؟ حاشا لحبيب الله . و من ذلك قوله تعالى : " يا ايها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين و المنافقين ان الله كان عليما حكيما " (٣. (

ثانيها : انه تعالــى بين لنبيه) ص) بانه لا ينسى فقال : " سنقرؤك فلا تنسى " (٤) ، و الزعم بان رسول الله)ص) كان قد خشي النسيان يعني (و العياذ بالله) انه شك في وعد الله و كلامه هذا له.

ثالثها : ان القرآن يشير بوضوح الى باعث النبي على التفكير في الاستعجال بالقرآن ، و هو خشيته من ان تحول الظروف دون ان يجمع القرآن و يقرا على الناس و تبين معانيه لهم . او كان شديد الأهتمام بهداية الناس بالقرآن حتى كاد(١) المصدر.

(2)الدر المنثور / ج ٦ / ص ٢٨٩.

(3)الاحزاب / ١.

(4)الاعلى / ٦.

يهلك نفسه ، حتى قال ربنا سبحانه : " فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا . (1) "

و يبدو ان الذين اخطؤوا في فهم الآية قادهم الى ذلك التصوير الفني في تعبير القرآن : " لا تحرك به لسانك " ، و الذي هو أسلوب شائع في آياته الكريمة.

]ان علينا جمعه و قرآنه[

اي جمع آياته فلا يضيع شيء منها ، و الكلمة تتسع الى معنى التاليف و النظم مما يهدينا الى انه تعالى حفظ القرآن عن التحريف بزيادة او نقيصة ، و تكفل هو بتأليف آياته سورا سورا ، فليس ترتيبه على هذه الطريقة التي بين أيدينا من فعل المسلمين ، بل من فعل رسول الله (ص) بأمر الله عز وجل ، الذي تكفل اضافة الى ذلك بقراءته للناس بالكيفية الصحيحة التي يريدها هو ان يقرأ بها كتابه . ولعل في ذلك اشارة الى بطلان فكرة القراءات السبع ، و انها من عند القراء أنفسهم ما أنزل الله بها من سلطان . بلى هناك قراءة صحيحة علمها الله لنبيه فعلمها بدوره المسلمين.

و قول الله تعالى " :ان علينا " لا يعني انه بذاته يجمعه و يقرأه ، كلا .. بل انه سبحانه قد هيأ الاشخاص الذين يقومون بهذا الدور و الظروف التي تساعد على تحقق هذه الغاية ، فلم يتوف نبيه حتى بلغ كامل رسالته و قرأها للناس ، بل و كتبت بأمره مبينا ترتيب السور و الآيات.

و تجدر الاشارة هنا الى ان الامام علي (ع) كان أول من كتب كامل القرآن و جمعه في حياة الرسول (ص (و بعده ، و هذا من أهم الادوار الحضارية التي قام بها(١) الكهف / ٦.

-عليه السلام - ، لان اندثار القيم الحضارية لاي أمة يعني نهاية الامة ، فقد تنحرف مسيرتها و مسيرة قيادتها لفترة من الزمن فتبقى القيم ضمانة العودة ، اما لو خرقت القيم نفسها فلا ضمانة لعودتها .. و هذا ما يجعل تعهد الله بجمع القرآن و بقرآنه و بيانه ضرورةحكيمة تقتضيها حكمته البالغة باعتبار الاسلام دين الانسان الى يوم القيامة ، لا يجوز له ان يبتغي غيره ، فكيف يسمح ربنا اللطيف ان تضيع على البشرية فرصة الهداية بتحريف القرآن ؟

]فاذا قرأناه فاتبع قرآنه[

قال في المجمع : اي قرأه جبرئيل عليك بأمرنا " فاتبع قرآنه " اي قراءته ، و المعنى : أقرأه اذا فرغ جبرئيل عن قراءته ، و قيل : اي فاعمل بما فيه من الاحكام و الحلال و الحرام (١) ، و في النصوص ان القرآن أنزل جملة واحدة على الرسول في ليلة القدرفي شهر رمضان ، فكان يأمره الله حسب حكمته بقراءته على الناس في المناسبات المختلفة . و كانت الحكمة الالهية تفرض على الرسول التحرك في المجتمع على ضوء ما يقضي اليه من الآيات و بقدره ، ليبني المجتمع الاسلامي النقي ، و من ثم الامة الاسلامية الحنيفة على ضوءآيات الوحي ، و يتم - بالتالي - تثبيت فؤاد النبي و سائر المؤمنين عبر القرآن ، و هكذا لم ينزل القرآن لمجرد قراءته و حفظه ، بل حتى يطبقه الناس و يتبعوا هداه في الحياة.

و هذا يهدينا الى ان الله يوفق الانسان لفهم آيات الذكر بما يتم عليه حجته البالغة ، فإن آمن و اتبع هداه نور قلبه بالمزيد من المعرفة ، و ان كفر جعل قلبه قاسيا ، و طبع عليه بكفره.

و لعل في ذلك بصيرة يحتاجها كل داعية رسالي الا و هي ضرورة تحدي انفعالاته(١) مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٩٧.

وردود فعله ، بل يجب ان يتبع خططه الحكيمة ، و ينتظر بكل خطوة و موقف الاذن و الاوان المناسب.

قال الامام الصادق - عليه السلام - : " يا مفضل ! ان القرآن نزل في ثلاث و عشرين سنة ، و الله يقول : " شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن " ، و قال " : انا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين " ، و قال : " لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك " ، قال المفضل : يا مولاي ! فهذا تنزيله الذي ذكره الله ، و كيف ظهر الوحي في ثلاث و عشرين سنة ؟ قال : نعم يا مفضل ! اعطاه القرآن في شهر رمضان ، و كان لا يبلغه الا في وقت استحقاق الخطاب ، و لا يؤديه الا في وقت أمراو نهي " (١. (

]ثم ان علينا بيانه[

ايضاح معانيه ، و بيان حقائقه و تأويلاته ، حتى لا تبقى للانسان حجة على الله ، و لكي تكون لله الحجة البالغة عليه في الدنيا و الاخرة . اما كيف يبين ربنا قرآنه الكريم لكافة الناس فلعل من أسبابه : انه يقيض الدعاة اليه ، و الادلاء عليه ، و أهل البصائر النافذة لتفسيره و بيانه ، ثم ان لله حجتين على الانسان واحدة باطنة هي عقله ، و اخرى ظاهرة هي رسالة الله و رسله ، و هما يلتقيان في وجدان كل إنسان سوي ، فما يأمر به القرآن من قيم الصدق و العدل و الاحسان يأمر به العقل ايضا ، و هذا من سبل بيان القرآن لانه يتطابق و وجدان الانسان و فطرته و عقله و العرف العام عند العقلاء.

وهناك سبب آخر لبيان القرآن : انه يفسر بعضه بعضا ، فلا تكاد كلمة تذكر(١) تفسير البصائر / ج ٥٠ / ص ٥٦٩.

في سياق الا و يفسرها ذات السياق قبله و بعده ، ببيان مصاديقها و امثلتها التاريخية و شواهدها الواقعية ، فلا يدع الناس في حيرة من أمرها ، و أبرز مثل لذلك سورة الاخلاص حيث تأتي كل كلمة فيها تفسيرا لما سبقتها ، فتفسير "قل " يأتي بما بعده من قوله: " هو الله " ، و تأويل " هو " : " الله " ، و تفسير الصمد هو انه لم يلد و لم يولد ، كما ان مجملات القرآن في سورة تفسرها مفصلاتها في سور آخرى ، و هكذا جعل الله القرآن ميسرا للذكر بسبل شتى.

[25 - 20]و لكن هل يقتنع الانسان بذلك البيان يلزم نفسه بالحجج ؟

]كلا[

لانه يريد ان يفجر أمامه ، و من ثم لا يتبع عقله باعتباره يحدد سلوكه و أفعاله ، و انما يتبع هواه ، و تابع الهوى لا يعرف حدا و لا قيمة . و عنوان اتباع الهوى هو حب الدنيا الذي يترتب عليه ترك الآخرة.

]بل تحبون العاجلة * و تذرون الاخرة[

و هذا هو جذر كل خطيئة عند الانسان ، كما بين رسول الله (ص) في حديثه المشهور : " حب الدنيا رأس كل خطيئة " . و قد قال الله " : العاجلة " و لم يقل : (الدنيا) لانه يريد الحديث عن صفة عند البشر هي التي تدعوه للهث وراءحطام الدنيا و ترك الاخرة ، و هي كونه يحب كل مقدم معجل ، و يقدمه على كل مؤخر مؤجل ، دون النظر الى المصلحة العامة و الأساسية في أيهما تكون ، فقد يختار دينارا معجلا على الف مؤجلة ، مع انه قد لا يجد دليلا ينفي ما في المستقبل.

و علاج هذه المعضلة البشرية يتم بإيجاد التوازن في وعيه بين الحاضر و المستقبل ، و ينتهج القرآن من أجل ذلك نهج التذكرة و التصوير لمشاهد الآخرة مما يزيدهاحضورا في وعيه ، و هذا ما نقراه في الآيات التالية.

]وجوه يومئذ ناضرة[

و الكلمة تتسع لجميع معاني الحسن و الجمال و البشر التي تعبر عن نفس مطمئنة راضية تفيض

سرورا و أملا برحمة الله . قال في المنجد : نضر الوجه نعم و حسن و كان جميلا ، فهو ناضر و نضر و نضير ، و النضر جمع نضار ، و أنضر : الذهب و الفضة ، يقال : " تعرف في وجوههم نضرة النعيم " اي بريقه و رونقه . (1)و وجوه المؤمنين يوم القيامة ناضرة فرحا و سرورا بلقاء ربهم ، و رضوانه ، و جزائه الحسن ، و غاية ذلك نظرهم الى ربهم حيث يعرفون من أسماء ربهم الحسنى ، و يرون من آيات بهائه و جلاله ، و ينتظرون من الآئه و نعمائه ما يجعلهم في بحبوحة الرجاء ، و عنفوان الرضا ، و مهرجان الحب و القرب ، و شلال لا ينقطع من نور الله البهي.

]الى ربها ناظرة[

قال العلامة الطبرسي : اختلف فيه على وجهين:

الاول : ان معناه نظر العين ، و اختلف من حمله على نظر العين على قولين:

أحدهما : ان المراد الى ثواب ربها "ناظرة " اي هي ناظرة الى نعيم الجنة حالا بعد حال فيزداد بذلك سرورها .

الآخر :ان النظر بمعنى الرؤية ، و المعنى تنظر الى الله معاينة ، رووا ذلك عن الكلبي و مقاتل و عطاء و غيرهم ، و عموم رأي أهل السنة ، (ورد على هذا الراي فقال :) و هذا لا يجوز ، لان كل منظور اليه بالعين مشار اليه بالحدقة و اللحاظ ،(١) المنجد / مادة نضر.

و الله يتعالى عن ان يشار اليه بالعين ، كما يجل سبحانه عن ان يشار اليه بالاصابع.

الثاني : انه الانتظار ، و اختلف من حمله على هذا المحمل على أقوال:

الف :ان المعنى منتظرة الى ثواب ربها ، و روي ذلك عن مجاهد و الحسن و سعيد بن جبير و الضحاك و هو المروي عن علي (ع) ، و ساق ما قاله شيخ الطائفة من الرد على من اعترض على إمكان تعدي النظر بالى.

باء : ان معناه مؤملة لتجديد الكرامة ، كما يقال : عيني ممدودة الى الله تعالى ، و الى فلان ، و انا شاخص الطرف الى فلان.

جيم : المعنى انهم قطعوا آمالهم و أطماعهم عن كل شيء سوى الله تعالى . (1)

وما يبدو لي ان النظر هنا بكلا المعنيين المجازي و الحقيقي ، فاما المجازي فان المؤمنين يوم القيامة يتأملون من ربهم الثواب و الكرامة ، و يقطعون أملهم الا منه ، و .. و .. و اما الحقيقي فانهم ينظرون الى ربهم ببصائرهم لا أبصارهم من خلال اياته و نوره الذييتجلى لهم إكراما منه تعالى لعباده المتقين.

اما النظر الى ذات الله فهو مستحيل ، و القول بذلك يستدعي التجسيد ، وهو من الثقافة الشركية التي تسربت الى بعض المسلمين من الثقافات الدخلية.

و كيف يجوز النظر الى الله و العين لا تستوعب بعض آياته ؟ هل نظرت الى عين الشمس لحظات ؟ هل تفكر في ان تحدق في الشمس من قرب او لا تحترق عينك ؟ و الشمس آية صغيرة متناهية في الصغر اذا قيست بانوار قدس الرب ! لقد تجلى الله للجبل فجعله دكا ، فكيف يتحمل هذاالبشر الضعيف تجليات الرب الا بقدر ما

(1)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٣٩٨ مع تصرف ترتيبا و تنقيطا و اختصارايشاء الله سبحانه و تعالى عن وصف الواصفين.

جاء في الحديث عن صفوان عن ابن حميد قال : ذاكرت أبا عبد الله (الامام الصادق عليه السلام) فيما يروون من الرؤية (لذات الله عز وجل) فقال : " الشمس جزء من سبعين جزء من نور الكرسي ، و الكرسي جزء من سبعين جزء من نور العرش ، و العرش جزء من سبعين جزء من نور الحجاب ، و الحجاب جزء من سبعين جزء من نور السر ، فان كانوا صادقين فليملؤوا أعينهم من الشمس ليس دونها سحاب !! " (1) .

]و وجوه يومئذ باسرة[

و هي وجوه المجرمين حيث القيامة موعدهم مع الفضيحة و العذاب و الذل ، و بسور و جوههم يحكي باطن نفوسهم المنطوية على اليأس و التشاؤم و الخوف مما ستلاقيه.

]تظن ان يفعل بها فاقرة[

قال في المنجد : الفاقرة جمعها فواقر : الداهية الشديدة ، فكانها تكسر فقره الظهر ، و الفقرة : الامر العظيم (٢) ، و ان المجرمين يوم القيامة ليساورهم هاجس و رعب ينتظرهم من الدواهي ، و هذا الهاجس يعد عذابا عظيما بذاته.

[30 - 26]تلك هي حقائق يوم القيامة التي يجب على الانسان ان يتذكرها دائما ، باعتبار الايمان بها يجعله متوازنا في التفكير ، و يسوقه نحو التسليم للحق و العمل به ، و لكن الحجب تحول بينه و بين الايمان بذلك المستقبل فيكذب به ، و لكن هل(١) موسوعة بحار الانوار / ٤ ص ٤٤.

(2)المنجد / مادة فقر.

يغير تكذيبه من الحقائق شيئا ؟ كلا .. فليكذب بالموت فهل يمكنه ان يلغيه ، او يجد مفرا من ملاقة ؟ بالطبع كلا .. فحركته نحونا و حركتنا نحوه سنة حتمية ، و كذلك بالنسبة لمواقف القيامة . و عندما يواجه الانسان المحنة الفاقرة في الدنيا تتساقط الحجب من عينيه فيرى الحقائق بوضوح و يعترف بها بصراحة ، و يندم حتى الأعمال على ما كذب به ، و لا محنة أعظم من الموت ، و لا ساعة أشد على الانسان في الدنيا من ساعة السكرات.

]كلا اذا بلغت التراقى[

و هي عظم وصل بين ثغرة النحر و العاتق من الجانبين (١) ، و قال صاحب المجمع :التراقي جمع الترقوه ، و هو مقدم الحلق من أعلى الصدر ، تترقى اليه النفس عند الموت ، و هناك تقع الحشرجة (٢) ، و يقال : بلغت الروح التراقي كناية عن صعودها و قرب خروجها من البـدن و مفارقتها له ، و لعلها حقيقة يعانيها الميت عند سكرات الموت.

]و قيل من راق[

اي و قال أهله : من راق ؟ اي طبيب شاف يرقيه و يداويه ، و قيل : تختصم ملائكة الرحمة و ملائكة العذاب أيهم يرقى بروحه (٣) ، و به قال الرازي و الزمخشري و صاحب تفسير فتح القدير . و لعل المعنى من الرقية (الادعية و التعويذات التي تكتب في قرطاس للتشافي بها) و كان المعنى ان أهله او هو نفسه يسألون عمن يكتب له ذلك طمعا في الشفاء.

(1)التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص ٢٣٠.

(2)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٤٠٠.

(3)المصدر / ص ٤٠١.

]و ظن أنه الفراق[

ظن يقين يصل الى حد التصور و شبه الرؤية ، فانه حينئذ يعاين حقيقة الموت والاخرة فاذا به يقبض يدا و يبسط أخرى ، و هكذا يعالج سكرات الموت بروحه و حركاته اليائسة.

]و التفت الساق بالساق[

عن قتادة : هما ساقاه عند النزع ، اما رايته كيف يضرب بإحدى رجليه على الاخرى ؟ وقال الحسن : هما ساقاه اذا التفتا في الكفن ، و قيل : اذا مات يبست ساقاه و التصقت أحداهما بالآخرى (١) ، و عن الشعبي و ابي مالك : لانه يذهب بالقوة فيصير كجلدة يلتف بعضها ببعض ، و قيل : يضطرب فلا يزل يمد أحدى رجليه و يرسل الآخرى . و لعل الآية كناية عن الشدائد و الصعاب التي يواجهها الانسان عند الموت ، و قد وجدت اشارة الى هذا المعنى في تفسير القرطبي قال :اي فاتصلت الشدة بالشدة ، شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة ، قاله أبن عباس و الحسن و غيرهما .. و قال الضحاك : اجتمع عليه امران شديدان .. و العرب لا تذكر الساق الا في المحن و الشدائد العظام ، و منه قولهم : قامت الدنيا على ساق ، و قامت الحرب على ساق (٢. (

و حينما يفارق الانسان هذه الدنيا بما فيها و من فيها فانه لا يصير الى العدم ، و انما ينتقل من فراقها الى لقاء عظيم بربه.

]الى ربك يومئذ المساق[

(1)التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص ٢٣٢.

(2)الجامع لاحكام القرآن / ج ١٩ / ص ١١٢ .

قيل :يعني اليه المنتهى او غاية سوق الملائكة لكل نفس ، و هو صحيح ، و لكن يبدو لي ان " المساق " هنا يعني المصير ، حيث ان الأنفس بعد الحساب تسوقها الملائكة الى مأواها و مصيرها ، فاما تسوق الانسان ملائكة الرحمة الى الجنة ، و اما تسوقه ملائكةالعذاب الى النار ، و الى الله وحده و بيده الأمر بكلا المساقين ، فما أحوجه الى معرفة هذه الحقيقة و الايمان بها ، فان ذلك يبعث فيه روح التسليم اليه و السعي الى القرب منه.

[35 - 31]و حين لا يؤمن الانسان بلقاء ربه ينحرف عن الصراط المستقيم و يترك الواجبات التي عليه.

]فلا صدق و لا صلى * و لكن كذب و تولى[

قيل :لا صدق بماله ذخرا عند الله ، و لا صلى الصلوات التي أمره الله بها (1)، و الاصح حمل التصديق هنا على معناه الاصلي ، و هو تصديق الايمان بالعمل و الباطن بالظاهر و العكس ، وهذا الفهم يجعل الكلمة تتسع لكثير من المفردات و المصاديق و من بينها الانفاق . كما ان الصلاة رمز الصلة و القرب مع الخالق و رمز التواصل مع الخلق ، و هكذا الايتان تفسران بعضهما ، فالتكذيب نقيض التصديق ، و التولي نقيض التواصل ، و المكذب بالحق يرتكب ذنبين : أحدهما عدم التصديق و الصلاة ، و الآخر التكذيب و التولي ، و ابتعاد الانسان عن الحق ليس يقطع علاقته بالله و برسوله فقط ، و انما يفسد علاقته بالناس ايضا ، فهو يركب مطية الغرور و التكبر بينهم.

]ثم ذهب الى أهله يتمطى[

(1)المصدر / ١١٣.

أصل التمطي تمدد البدن من الكسل ، و هو من لوى مطاه اي ظهره . قالوا : انه اشارة الى التبختر على نهج القرآن في ذكر الصفات بالتصوير الظاهر . و لعله أعم من ذلك حيث يدل على حالة الل مسؤولية و الاشتغال باللهو و اللعب عن الجد و الاجتهاد.

ثم يتوعد الله من تكون صفاته التي مر ذكرها بالعذاب بعد العذاب فيقول:

]اولى لك فاولى * ثم الوى لك فأولى[

قال عبد العظيم بن عبد الله الحسني : سألت محمد بن علي الرضا (ع) عن قول الله عز وجل : " الايتين " قال : " يقول الله عز وجل : بعدا لك من خير الدنيا و بعدا لك من خير الاخرة " (١. (

و أصل الكلمة وعيد و تهديد ، و معناه : ان المكروه يقترب منك و أنت صاحبه و جاءت الرواية : ان رسول الله (ص) أخذ بيد ابي جهل ثم قال له : " أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى "فقال ابو جهل : باي شيء تهددني ؟ لا تستطيع انت و لا ربك ان تفعلا بي شيئا ، و أني لاعز أهل الوادي ، فأنزل الله سبحانه كما قال له رسول الله (2)، و قال القرطبي : و قيل : معناه الويل لك (٣. (

[40 - 36]و يستنكر القرآن على الانسان شذوذه عن الحق و كفره به ؟

]أيحسب الانسان ان يترك سدى[

كل شيء في حياة الانسان يهديه الى إحاطة تدبير الله به ، و شمول رعايته(١) نور الثقلين / ج ٥ / ص ٤٦٦.

لحياته ، و الا لأعدمت او تحولت جحيما لا يطاق ، و أبرز ذلك خلقته : كيف حملته يد اللطف من صلب أبيه حيث كان حيوانا منويا لا يرى الى رحم أمه ، و أجرى له من الطعام و الشراب ، و ضمن له من السلامة و الأمن حتى أصبح علقة ، ثم رعاه و حماه و رباه حتى جعله خلقا سويا .. فهل يعقل ان يترك في المستقبل سدى و هو لم يترك كذلك سلفا ، بل لا شيء في كيانه ترك بلا هدف او غاية ؟

]الم يك نطفة من مني يمنى * ثم كان علقة فخلق فسوى * فجعل منه الوجين الذكر و الانثى]و كما ان هذه المراحل حتمية بالنسبة للانسان فان الآخرة هي الأخرى حتمية ، و الفكرة هذه تفسر ربط القرآن الدائم بين الحديث عن الآخرة و الحديث عن مراحل خلقة الانسان و أطواره ، التي يهتدي المتدبر فيها الى معرفة ربه حيث هي آيات لطفه و حكمته و قدرته . و بعد تفكر البشر في نفسه و خلقه يجب ان يطرح على نفسه هذا السؤال الحاسم:

]اليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى[

و لن يجد أحدنا جوابا لهذا السؤال الا ان يقول : بلى . وحينئذ سيؤمن بيوم القيامة و حقائق الآخرة ، لان الشك في فكرة الآخرة منبعث من الجهل بقدرة الله النافذة التي لا تحد.

سورة الانسان

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

روي عن أبي جعفر (الامام الباقر) - عليه السلام - قال : " من قرأ سورة " هل أتى " في كل غداة خميس زوجه الله من الحور العين مأة عذراء و أربعة آلاف ثيب ، و كان مع محمد - صلى الله عليه و آله " - .

نور الثقلين / ج ٥ / ص ٤٦٧

الاطار العام

تفكر حين لم تكن شيئا مذكورا ثم خلقك الله الحكيم المقتدر من نطفة أمشاج . تفكر في هدف ذلك هل هو سوى الابتلاء ؟

هكذا تفتتح سورة الانسان التي تزرع في النفس خشية الآخرة ، و تجعلها معراجا للشخصية الى التكامل و السمو حتى تبلغ درجة الأبرار ، الذين تصبغ شخصيتهم الفذة صفة الوفاء بالنذر ، و الخوف من يوم القيامة ، و الايثار ، و الترفع عن شهوة المدح و حب التسلط علىالآخرين.

و تمضي آيات السورة المباركة التي نزلت في شان أهل الرسول - عليهم الصلاة و السلام - تمضي في بيان نعيم الجنة التي تختمها بوصفها بالملك الكبير ، و بان ربهم الرحمن يسقيهم شرابا طهورا.

و لكي لا يعيش الانسان في أحلام التمني و التظني يذكره السياق بأن ثمن الجنة الصبر لحكم الله ، و الاستقامة ضد ضغوط الآثمين و الكفار ، و ذكر الله بالليلو النهار.

و يبين ان الضالين و الظالمين انتهوا الى هذه العاقبة السوأى بسبب تركهم ذكر يوم القيامة ذلك اليوم الثقيل . و في خاتمة السورة يذكرنا الرب بأن الانسان حر في اتخاذ سبيل الله بتلك المشيئة التي منحه الله إياها ، و ان مشيئته بالله العظيم الحكيم في عطائه وجزائه.

انما نطعمكم لوجه الله

بينات من الآيات

[4 - 1]اذا عرف الانسان ربه عرفه الله بنفسه . كذلك اذا عرف نفسه عرف ربه ، حيث انه حين يتفكر فيها لا يجد فيها الا آيات الصنع و شواهد التدبير.

و أهم آثارة علمية يلقيها القرآن على الانسان : حقيقة حدوثه بعد العدم ، و انه أصبح شيئا مذكورا بعد ان كان خاملا مجهولا.

]هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا]و هذه الأثارة التي تنفذ في أغوار الانسان ، و التي تعبر عنها صيغة الاستفهام ، إنها تجعلنا عندما نتفكر في ابعادها نعيش وعي الصيرورة الزمنية في نشأتنا ، هذا الوعي الذي يزيد العقل ، و يقضي على الغرور ، و يرفع الانسان الى مستوى الحكمة.

و قد اختلفوا في حرف " هل " ، فقال بعضهم : انه هنا بمعنى (قد) ، و قال آخرون : بل هو استفهام تقريري ، يعرف السائل الجواب سلفا ـ و انما يطرح الكلام لاخذ الاقرار من الطرف الاخر.

و يبدو لي ان الكلمات تبقى بمعناها اللغوي عند الاستعمالات الادبية المختلفة ، الا ان هدف الاستخدام يختلف حسب السياق ، فهل هنا - مثلا - جاء بمعنى الاستفهام ، اما لماذا جاء الاستفهام ؟ فهو ليس شأن الكلمات انما هو شأن الذي استخدمها . و يكون مثل ذلك في عالم الماديات : السيارة التي تقوم بحمل الانسان . اما الى أين و لماذا يتحرك الانسان ؟ فهذا ليس شأنها إنما هو شأنه.

و لقد فسر أئمة الهدى هذه الآية عدة تفاسير مما كشف عن أبعادها المتنوعة ، فعن مالك الجهني قال : سألت أبا عبد الله الامام الصادق (ع) عن قوله : " الآية " فقال : " كان مقدرا غير مذكور " (١) ، و عن زرارة قال سألت أبا جعفر) الامام الباقر) - عليه السلام - عن قوله : " الآية " فقال : " كان شيئا و لم يكن مذكورا " (٢) ، و عن الباقر (ع) قال : " كان مذكورا في العلم ، و لمن يكن مذكورا في الخلق " (٣) . و هكذا روايات أخرى كثيرة تهدينا الى ان الانسان يمر قبل وجوده المادي في الحياة بمرحلتين هما:

الاولى : عالم التقدير في علم الله .

الثانية : عوالم النشاة ، مثل عالم الاشباح (الارواح) ، عالم الذر ، عالم(١) نور الثقلين / ج ٥ / ص ٤٧٨.

(2)المصدر.

(3)المصدر.

الاصلاب ، ثم عالم الأرحام ، فعالم الدنيا ، و في تلك العوالم و قبل عالم الدنيا كان الانسان شيئا - في علم الله - و لم يكن مذكورا عند الخلق لضالته المتناهية.

]إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج [

اي مختلطة ، قال الامام الباقر (ع) : " ماء الرجل و المرأة اختلطا جميعا (1) " ، كما انها مختلطة من الناحية المعنوية اذ تحمل الصفات الوراثية و النفسية و الشكلية من الطرفين بما يمثلانه من امتداد في التاريخ و المجتمع كالأجداد و الآباء و الاخوال ، و قد أشار الامام علي (ع) الى هذا المعنى اذ وصف الانسان بقوله : " و محط الأمشاج من مشارب الاصلاب " (٢) ، و من ناحية ثالثة يعيش الانسان ثنائية هامة ، فهو في البداية خليط من تطلعات الفطرة و العقل و الايمان ، و شهوات الهوى والجهل و الجحود ، بين جنود الرحمن ، و أعوان الشيطان.

و هكذا كل شيء في الانسان يحتمل نزعتين ، و صبغتين ، و منهجين ، و وجهتين : الحق و الباطل ، الله او الشيطان ، العقل او الجهل ، الإيمان او الجحود ، الجنة او النار ، و يبدو ان هذه الثنائية أقرب الى كلمة الأمشاج لان شان الثنائيات (الاختلاط بين ماء الرجلو ماء المرأة ، او بين مختلف العوامل الوراثية من الاباء و الامهات (مقدمة لهذه الثنائية ، و يدل على ذلك بيان حكمة الابتلاء بعد بيان الثنائية.

]نبتليه[

و لا يصدق الابتلاء في حياة الانسان حتى يكون مختارا ، و ذلك بان تكون(١) المصدر / ص ٤٦٩.

(2)المصدر نقلا عن نهج البلاغة.

خلقته خليطا من نزعتين و تطلعين : أحدهما الخير و الآخر الشر . و من الضروري للانسان و هو يمارس الحياة و نعمة الوجود ان يعرف بأن الابتلاء جزء من وجوده ، من دونه تصبح حياته بلا معنى بلا روح و بلا هدف .. تماما كتفاحة فاسدة لا طعم لها و لا رائحة ، او كماء آسن لا ينفع سقيا و لا طهورا.

و إطلاق كلمة الابتلاء يدلنا على أن الانسان ممتحن بكل شيء يتصل به خيرا كان او شرا ، و أول ما يبتلى به نعمة الخلق ، فهل يشكر ربه عليها حيث خلقه و أوجده و لم يكن شيئا مذكورا أم يقابله بالجحود و الكفران ؟ قال الامام الباقر (ع) : " ان النبي قال لعلي (ع) : قل : ما أول نعمة أبلاك الله عز وجل و أنعم عليك بها ؟ قال : ان خلقني جل ثناؤه و لم أك شيئا مذكورا ، قال : صدقت " (١. (

و حيث أراد ربنا امتحان الانسان وفر من جهته الشروط و المستلزمات التي تجعل البشر مسؤولا عن

الامتحان فتكون حجة عليه عندما يكفر ، و وسيلة لصالحه عندما يريد الايمان و الشكر.

]فجعلناه سميعا بصيرا[

و السمع و البصر نافذتان لعقل الانسان على الخليقة ، و هما أهم أدوات المعرفة عنده ، و بالتالي أبرز وسائل الاختيار ، فبسمعه يتلقى نصائح الآخرين و تجاربهم ، و ببصره و بصيرته يرى و يقلب وجوه الأمور ثم يختار لنفسه الموقف و الطريق ، و ذلك يكفي دافعا يحملهالمسؤولية و يقيم عليه الحجة ، و لكن الله أبى الا ان تكون له الحجة البالغة عليه فهداه السبيل مبينا له الحق و الباطل و الصواب و الخطا.

]إنا هديناه السبيل[

(1)المصدر.

فمعالم الطريق الصحيح بينة و واضحة للبشر ، هداه الله اليها بالفطرة و العقل و الرسالات و الرسل ، و لكنه لم يجبره لكي لا يتنافى و حكمة الابتلاء ، و انما جعل القرار موكولا اليه يختار أحد الطريقين.

]إما شاكرا[

يتبع فطرته و عقله و هدى ربه ، الذي هو السبيل الذي يسره له ، فيشكره على كل نعمة و من شكره طاعته.

]و إما كفورا[

لا يسمع نداء الحق ، و لا يبصر الطريق و لا يسلكه ، فلا يشكر ربه على نعمه ، و إنما عبر الله بالشكر و الكفر عن الهدى و الضلال لأنهما الأساس و المعول ، فكل ضلال و كفر و انحراف في حياة البشر هو كفران لنعم الله عليه ، و كل هدى و إيمان و عمل صالح هو شكر.

قال حمران بن أعين : سألت ابا عبد الله (ع) عن قوله عز وجل : " الآية " قال : " إما آخذ (بالسبيل (فهو شاكر ، و إما تارك فهو كافر " (١) . و حينما يكفر الانسان بربه و نعمه فإنه يصير الى عذاب شديد أعده لكل كفور.

]إنا أعتدنا للكافرين سلاسلا و أغلالا و سعيرا[

قال القرطبي : السلاسل : القيود في جهنم طول كل سلسلة سبعون ذراعا (٢) ، و قال الرازي : السلاسل تشد بها أرجلهم ، و اما الأغلال فتشد بها أيديهم الى(١ (المصدر.

(2)الجامع لاحكام القرآن / ج ١٩ / ص ١٢٣ .

رقابهم . (1)و لعل السلاسل ما يشهد بها المجرمون الى بعضهم و يسحبون بها ، بينما الاغلال ما يقيد بها الواحد من يديه و رجليه و رقبته . و هذا جزاء مناسب للكافرين ، لانهم يسيؤون الإستفادة من الحرية المعطاة اليهم في الدنيا فيقيدون في الآخرة . و سلاسل الآخرةو اغلالها تجسيدات لمثلها في الدنيا ، لأن من يخالف قيم الحق و سبيل الهدى و يتبع المناهج البشرية يتورط في أغلال العبودية و العقد و المشاكل المختلفة.

[5]أما الشاكرون الذين يهبهم ربهم و سام الأبرار فإنهم يتحررون من سلاسل الضلال و أغلاله و سعيره في الدنيا فقط ، بل و يكسبون الحرية الكاملة في الآخرة و الثواب الجزيل جزاء شكرهم و اتباعهم رسالة الله عز وجل.

]ان الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا[

قيل :هو جمع بر ، و في الصحاح : و جمع البر الأبرار ، و فلان يبر خالقه و يتبرره أي يطيعه (٢) . و القرآن يفسر معنى " الأبرار " من خلال بيانه لصفاتهم ، و هذا يقرب المعنى و يرسخه في الاذهان بصورة أوضح و أفضل.

و ما يشربه الأبرار في الجنة مختلط طعمه و مزاجه بصفات الكافور الحسنة ، وهو اسم عين ماء في الجنة عن أبن عباس (٣) ، و قال سعيد عن قتادة : تمزج لهم بالكافور ، و تختم بالمسك ، و قيل أراد كالكافور في بياضه و طيب رائحته و برده ، لان الكافور لا يشرب (٤) ،و قال مقاتل : ليس بكافور الدنيا ، و لكن سمى الله

(1)التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص ٢٤٠.

(2)الجامع لاحكام القران / ج ١٩ / ص ١٢٥ .

(3)المصدر.

(4)المصدر.

ما عنده بما عندكم حتى تهتدي لها القلوب (١) . و من فوائد الكافور طبعه البارد ، و تسكينه للعطش ، و حين يمتزج بشراب يكون انفع للجسم . و قوله " من كأس " كناية عما في الكأس من الشراب.

] [6]عينا يشرب بها عباد الله[

لماذا استخدمت هنا كلمة " بها " اوليس الانسان يشرب من العين و ليس بالعين ؟ قالوا : ان الكلمة قد أشربت معنى الارتواء أي يشربون منها و يرتوون بها .. اما عن هذه العين فقد جاء عن الامام الصادق (ع) : قال : " هي عين في دار النبي (ص) تفجر الى دور الانبياء و المؤمنين " (٢. (

]يفجرونها تفجيرا[

فمتى ما أرادوا توجهوا تلقاء العين التي لا تزال مختومة ففجروها - بإذن الله - و شربوا من باكورة رفدها الطاهر ما شاؤوا.

وفي تفسير القرطبي : ان الرجل منهم ليمشي في بويتاته و يصعد الى قصوره ، و بيده قضيب يشير به الى الماء فيجري معه حيثما دار في منازله على مستوى الارض في غير أخدود (٣) . و الى مثل هذا الجزاء تتطلع النفوس بصورة فطرية ، من هنا يوجهنا القرآن الى حقيقة هامة وهي ان ذلك النعيم لم يصل اليه الأبرار عبثا و من دون سعي ، و إنما لما جسدوا في حياتهم من صفات الخير ، فان ما عند الله لا ينال بالتمني و التظني بل بالسعي و الاجتهاد.

(1)المصدر / ص ١٢٦.

(2)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٤٧٧.

(3)الجامع لاحكام القرآن / ص ١٢٦.

] [7]يوفون بالنذر[

اي نذر و عهد يقطعونه على أنفسهم ، و أظهر مصاديق النذر في حياة الانسان عهده الذي أخذه الله منه ، و تعهد هو بالوفاء به في الميثاق الاول في عالم الذر حيث قطع على نفسه بتوحيد ربه و طاعته و تولي أوليائه ، و قد بين أئمة الهدى هذا المعنى قال الامام الرضا(ع) : " يوفون بالنذر " الذي أخذ عليهم من ولايتنا " (١) ، و عنه قال : " يوفون لله بالنذر الذي اخذ عليهم في الميثاق من ولايتنا (٢) ، و حينما تنبني شخصية المجتمع على أساس الوفاء بالتعهدات فذلك مما يزيد الثقة و الاطمئنان بينهم ، ويجعل المجتمع مهيأ للتقدم و التحضر ، لان الحضارة في حقيقتها مجموعة من القيم التي يؤمن بها المجتمع و يتعهد الوفاء بها ، و أصل الحضارة تكاثف الجهود ، و تراكم الانجازات ، و تركز الخبرات ، و كل اولئك رهين الثقة المتبادلة و التي يزرعها الوفاء بالعهود.

اما لماذا يلتزم الأبرار بالعهد و يوفون بالنذر فلانهم يعيشون أهوال القيامة فيخشونها ، و يرتفعون الى الحالة الجدية التي يتطلبها مثل ذلك اليوم!

]و يخافون يوما كان شره مستطيرا[

قال الامام الصادق (ع) : " عابسا كلوحا " (٣) ، و عن علي بن ابراهيم قال " : المستطير العظيم " (٤) . فالخوف الحقيقي من الآخرة اذا هو الذي يتحول الى إيمان يردع الانسان عن الخيانة و نقض العهد و الكذب و كل خطيئة ، و يدفعه الى كل

(1)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٤٧٧.

(2)المصدر / ص ٤٧٨.

(3)المصدر / ص ٤٧٧.

(4)المصدر / ص ٤٧٨.

فضيلة و صفة حسنة في الدنيا ، و بتعبير آخر : ان الخوف من الآخرة و قود الانسان في مسيرته الصاعدة نحو الكمال . و هكذا تجد القرآن يذكرنا بها المرة بعد الاخرى لتصبح جزء من كياننا الثقافي ، و مزيجة مع شخصياتنا ، و صبغة أساسية لحياتنا.

[8]و صفة أخرى تقرب الأبرار الى ربهم و الى ذلك النعيم الكبير هي تحمل المسؤولية الاجتماعية تجاه الضعفاء و أهل الحاجة بالرغم من حاجتهم الماسة الى الطعام.

]و يطعمون الطعام على حبه مسكينا و يتيما و أسيرا]قيل : " على حبه " اي على حب الله ، و هذا صحيح من ناحية المعنى ، اما سياق الكلام فيدل على حب الطعام (لانه أقرب الى الضمير ، و لان حب الله (و وجهه) ذكر في الآية التالية بصورة مستقلة لأهميته فلا داعي للتكرار. (..

و هذا يعني ان المراد من حب الطعام هنا : ان الأبرار لا يطعمون الآخرين من فاضل طعامهم ، بل مما يطعمونه أنفسهم و الى حد الايثار ، بحيث يتصدقون بما عندهم و ينفقونه مع حاجة و حب اليه ، و هذه من أرفع مراحل التضحية و العطاء ، و يؤكد ذلك ان الانفاق مما تحبه النفس من شروط القران لبلوغ درجة البر ، كما قال سبحانه " :لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون. "

[9]قد يكون الانفاق بهدف الاستكبار و التعالي على الآخرين و بسط السلطة عليهم . انه إنفاق المن و الرياء ، و لكن الابرار يخلصون في انفاقهم.

]انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء و لا شكورا]ان الأبرار لا يتطلعون الى شيء وراء إنفاقهم و خدماتهم للآخرين الا رضى اللهو ثوابه ، مما يعكس تمحض التوحيد في أنفسهم ، فلا يطالبون حتى بكلمة الشكر (شكر و احسنتم) و ما الى ذلك ، قال الامام الصادق (ع) : " و الله ما قالوا هذا ، و لكنهم اضمروه في أنفسهم فأخبر الله بأضمارهم ، يقولون : لا نريد جزاء تكافوننا به ، و لاشكورا تثنون علينا به ، و لكنا انما نطعمكم لوجه الله و طلب ثوابه " (١) ، و هذا ما يجعلهم في عطاء دائم ، لانه لا ينقطع بسبب عدم مجازات الآخرين لهم او حتى وقوفهم من احسانهم موقفا سلبيا.

[10]كيف يتجرد الابرار من حب الذات الى هذه الدرجة السامية ؟ كيف ينتزعون من انفسهم حب الاموال التي يحتاجونها لطعامهم و قد فطرت الانفس على حب المال ، و بالذات حينما يكون ثمن أهم حاجة عند الانسان حاجة الطعام ؟ و أعظم من هذا كيف يسيطرون على غريزة حب السلطة و العلو في الارض التي هي أعظم غريزة عند الانسان ، و كانت وراء خروج آدم (عليه السلام) من الجنة ، حتى تراهم لا يبحثون عن كلمة شكر تقال لهم ، او أي جزاء من أي نوع يكافؤون به ؟

الجواب :انهم يعيشون أهوال القيامة ، و كل همهم النجاة منها . انهم يعيشون - اذا -عالما آخر له همومه و تطلعاته المختلفة عن هذا العالم المادي المحدود ، و هم يعرفون ان ثمن النجاة في ذلك اليوم الرعيب الرهيب الفظيع انما هو بأتقاء شح الذات و ايثار الضعفاء و المحتاجين ، اذا ان المسؤولية الاجتماعية تجاه المحرومين و البؤساء ليست اختيارية يتحملها الانسان او لا يتحملها ، و انما هي واجب ديني يتصل بمصيرة في الاخرة ، و عاقبته عند الله ، و اذا ما دخلت هذه الحقيقة الى وعي الانسان فسوف لن يتوانى في ادائها.

(1)المصدر نقلا عن امالي الصدوق.

]انا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا[

اي شديدا و عسيرا ، قال الاخفش القمطرير : أشد ما يكون من الأيام و أطوله في البلاء (١) ، و قال الكسائي : يوم مقمطر اذا كان صعبا شديدا (٢. (

و يجدر بنا ان ننقل هنا شأن نزول السورة حسب الرواة و المفسرين من كل الفرق الاسلامية ، لكي نعرف ان هذه الصفات المذكورة في القرآن قد جسدها فعلا بشر امثالنا ، قد خلقوا من لحم و دم و كانت فيهم الحاجات و الغرائز فتغلبوا عليها بحول الله و قوته و بفضل وعيالآخرة . انهم ذرية رسول الله فاطمة و بعلها و بنوها و خادمتهم فضة عليهم السلام.

قال العلامة الطبرسي : نزلت في علي و فاطمة و الحسن و الحسين - عليهم السلام - و جارية لهم تسمى فضة ، و هو المروي عن ابن عباس و مجاهد و أبي صالح ، و القصة طويلة جملتها انهم قالوا : مرض الحسن و الحسين فعادهما جدهما و وجوه العرب ، و قالوا : يا ابا الحسنلو نذرت على ولديك نذرا ؟ فنذر صوم ثلاثة ايام ان شفاهما الله سبحانه ، و نذرت فاطمة (عليها السلام) و كذلك فضة ، فبرءا و ليس عندهم شيء ، فاستقرض علي - عليه السلام - ثلاثة أصوع من شعير من يهودي ، و روي : انه أخذها ليغزل له صوفا ، و جاء به الى فاطمة فطحنت صاعا منها فاختبزته و صلى علي (ع) المغرب و قربته اليهم فاتاهم مسكين يدعوهم و سألهم فأعطوه و لم يذوقوا الا الماء ، فلما كان اليوم الثاني أخذت صاعا و طحنته و اختبزته و قدمته الى علي (ع) فاذا يتيم بالباب يستطعم فأعطوه و لم يذوقوا الا الماء ، فلماكان اليوم الثالث عمدت الباقي فطحنته و اختبزته و قدمته الى علي (ع) فاذا أسير بالباب يستطعم فأعطوه و لم يذوقوا الا الماء ، فلما كان اليوم الرابع و قد قضوا(١) الجامع لاحكام القرآن / ج ١٩ / ص ١٣٥ .

(2)المصدر.

نذورهم اتى علي و معه الحسن و الحسين - عليهم السلام - الى النبي - صلى الله عليه وآله - و بهما ضعف فبكى رسول الله (ص) و نزل جبرئيل بسورة : " هل أتى. (1) "

] [11]فوقاهم الله شر ذلك اليوم و لقاهم نضرة و سرورا [قال الحسن و مجاهد : نضرة في وجوههم و سرورا في قلوبهم ، وقوله " فوقاهم "يدل على ان النجاة من عذاب ذلك اليوم و الفوز بجنة الله و رضوانه نتيجة لأمرين هما : الخوف من الاخرة و العمل الخالص لوجه الله : و في الرواية عن الامام الباقر (ع) ؛ قال: " قال رسول الله (ص) يؤتى يوم القيامة برجل فيقال له : احتج ، فيقول : يا رب خلقتني و هديتني فاوسعت علي، فلم أزل أوسع على خلقك و أيسر عليهم لكي تنشر علي هذا اليوم رحمتك و تيسره ؟ فيقول الرب جل ثناؤه و تعالى ذكره : صدق عبدي أدخلوه الجنة "(٢. (

[12]و هكذا يؤكد ربنا - سبحانه - على ان ثمن نعيم الآخرة الصبر في الدنيا فيقول:

]و جزاهم بما صبروا[

على الطاعة ، و عن المعصية ، و عند المصائب و النوائب.

]جنة و حريرا[

و لعل في الآية إشارة الى ان أخلاص الانسان في عمله ، و خروجه من حب(١) مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٤٠٥ بنقل صاحب نور الثقلين.

(2)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٤٧٩.

الذات (حب التظاهر و الاطراء) عند الانفاق بالذات ، بحاجة الى إرادة عالية و صبر عظيم يقاوم بهما تحديات النفس و الشيطان.

[19 - 13]و يفصل القرآن في بيان نعيم جنة الآبرار تشويقا لنا في الرغبة اليها و العمل على الفوز بها.

]متكئين فيها على الارائك[

جمع أريكة ، و هي الأسرة المحشوة على أفضل وجه.

]لا يرون فيها شمسا و لا زمهريرا [

و الشمس كناية عن الحر ، اما الزمهرير فهو البرد الشديد ، قال الامام الرضا)ع) : " ان الشمس و القمر آيتان من آيات الله ، يجريان بأمره ، مطيعان له ، و ضوؤهما من نور عرشه ، و حرهما من جهنم ، فاذا كانت القيامة عاد الى العرش نورهما ، و عاد الى النار حرها ، فلا يكون شمس و لا قمر " (١ (، فالجنة اذا مكيفة أجواؤها بربيع دائم.

]و دانية عليهم ظلالها[

ليس لان فيها شمسا و حرا ، بل هي كناية عن تناسب أشجار الجنة و حالة الرفاه المهياة لاهلها بحيث تغطي فوقهم . و لكنها في نفس الوقت قريبة ثمارها اليهم ، ميسرة عليهم تناولها.

]و ذللت قطوفها تذليلا[

(1)المصدر / ص ٤٨٠.

و المفعول المطلق " تذليلا " يفيد التاكيد و المبالغة ، اي انها مذللة ايما تذليل ، قال رسول الله (ص) : " من قربها منهم يتناول المؤمن من النوع الذي يشتهيه من الثمار بفيه و هو متكىء ، و ان الانواع من الفاكهة ليقلن لولي الله : يا ولي الله كلني قبل ان تاكل هذه قبلي " (١. (

و حيث تغمر الأبرار فرحة الفوز و البهجة بما في حياتهم من النعيم يتقدم اليهم خدمهم من الولدان بأواني و أكواب في غاية الروعة معدنا و منظرا و شرابا.

]و يطاف عليهم بآنية من فضة و اكواب كانت قواريرا]و لعل الآنية المطاف بها هي التي يستقل الولدان فيها اكواب الشراب ، او التي يكون فيها الشراب الذي يصب في الاكواب بعدئذ ، او هي أواني الاكل و الفواكه التي يحملها الولدان الى اولياء الله عز وجل . بينما الاكواب هي الكؤوس التي لها مقبض و عروة ، و في صنعتها الرائعة تتجلى قدرة الله و كرامته لاوليائه.

]قوريرا من فضة[

قال الامام الصادق (ع) : " ينفذ البصر في فضة الجنة كما ينفذ في الزجاج (2) " ، و عن قتادة قال : صفاء القوارير في بياض الفضة (٣) وقال ابن عباس : لو اخذت فضة فضربتها حتى جعلتها مثل جناح الذباب لم ير الماء من ورائها ، و لكن قوارير الجنة بياض الفضة في صفاء القوارير (٤) ولن يستطيع بشر تصور شيء من نعيم الجنة على حقيقتها ابدا.

(1)المصدر / ٤٨١.

(2)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٤١٠.

(3)الدر المنثور / ج ٦ / ص ٣٠٠.

(4)المصدر.

ثم يشير القرآن الى صفة اخرى في الاكواب التي يطاف بها على المؤمنين فيقول:

]قدروها تقديرا[

قال ابن عباس : أتوا بها على قدرهم ، لا يفضلون شيئا ، و لا يشتهون شيئا بعدها ، و عن مجاهد : انها ليست بالملأى التي تفيض ، و لا ناقصة بقدر ، و قال ابن عباس : قدرتها السقاة (١) ، و قيل : قدروها في انفسهم قبل مجيئها على صفة فجاءت على ما قدروا ، و الضمير في قدروها للشاربين (٢) . و الذي يبدو لي ان المراد من الاية هنا ان الاكواب التي يطاف بها مقدرة و محكمة من كل جوانبها ، في شكلها و حجمها و شرابها و عددها و كل شيء . قال الزمخشري : فان قلت ما معنى كانت في قوله : " كانت قواريرا " ؟ قلت : هو منيكون في قوله : " كن فيكون " اي تكونت قواريرا بتكوين الله ، تفخيما لتلك الخلقة العجيبة الشأن ، الجامعة بين صفتي الجوهرين المتباينين (٣. (

]و يسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا[

و الزنجبيل يعطي ما يمزج اليه نكهة طيبة ، كما انه بذاته فيه فؤائد كثيرة ، قال في التبيان : الزنجيل ضرب من القرفة ، طيب الطعام ، يلذع اللسان ، يربى بالعسل ، يستدفع به المضار ، اذا مزج به الشراب فاق في الإلذاذ ، و العرب تستطيب الزنجبيل جدا (٤) . و ربنا يقول:

(1)المصدر / ٣٠١.

(2)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٤١٠.

(3)الكشاف / ج ٤ / ص ٦٧٠.

(4)التبيان / ج ١٠ / ص ٢١٤.

]عينا فيها[

قيل : " فيها " عائدة الى الكأس ، و قيل : يعني في الجنة.

]تسمى سلسبيلا[

قال في المجمع : و السلسبيل الشراب السهل اللذيذ ، يقال : شراب سلس و سلسال و سلسبيل ، قال ابن الاعرابي : لم اسمع السلسبيل الا في القرآن ، و قال الزجاج : هو صفة لما كان في غاية السلاسة (١) ، و في الكشاف : يعني انها في طعم الزنجبيل ، و فيه لذعة ، و لكننقيض اللذع وهو السلاسة (٢. (

]و يطوف عليهم ولدان مخلدون[

قيل :يعني ملبسون الخلدة و هي ضرب من القرط من الذهب او الفضة ، و يبدو لي ان "مخلدون " بمعنى انهم يبقون على نضارة الغلام دائما لا يتداركهم شباب و لا هرم ، و انما يبقيهم الله كذلك لان خدمة الصغار على هذا السن ألذ لأهل الجنة من خدمة غيرهم ،و الولدان في تطواف دائم يترقبون أمر المؤمنين لهم ، على استعداد تام لخدمتهم ، بل ان مجرد تطوافهم امامهم يبعث فيهم البهجة و السرور ، لما يمثله الولدان من نعمة الخدمة ، و لمنظرهم الانيق و الجميل.

]اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا [

قال العلامة الطبرسي : انما شبههم بالمنثور لانتثارهم (و توزعهم) في الخدمة ، فلو كانوا صفا لشبهوا بالمنظوم (٣) . كما ان للؤلؤ حينما ينثر منظرا رائعا في الجمال(١) مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٤١٠.

(2)الكشاف / ج ٤ / ص ٦٧٢.

(3)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٤١١.

و الجاذبية خصوصا في المروج الخضراء ، و تنقل الولدان للخدمة من موقع لآخر يعطي المنظر روعة جديدة كما يتجلى اللؤلؤ بتحريكه.

[22 - 20]و لا ينتهي نعيم الأبرار الى هذا الحد فهو كبير جدا ، و واسع بحيث لا يستطيع بشر ان يستوعب تعداده و بيانه ، و الى هذه الحقيقة يهدينا القرآن الكريم.

]و اذا رأيت ثم رأيت نعيما و ملكا كبيرا[

وحتى نفهم معنى كلمة " كبيرا " يجب ان ننظر اليها على أساس انها تعبير عن أربعة أمور ، هي : الكثرة ، و الحجم ، و التنوع ، و العظمة . و تكرار كلمة " رأيت " يأتي لبيان انك مهما تكرر بنظرك و تعيد الرؤية فانك لا تستطيع ان تصل الى حد ملك الأبرار من النعيم في الجنة ، و انما تعلم بصورة مجملة انه نعيم و ملك كبير . و كفى به عظمة وسعة انه يزداد مع الزمن بفضل الله و كرمه المتتابع على أهل الجنة (٤) . قد أشار الامام الصادق (ع) في حديث له الى تفسير الكبير بالعظمة ، قال عباس بن يزيد :

قلتلابي عبد الله - عليه السلام - و كنت عنده ذات يوم : أخبرني عن قول الله عز وجل : " الآية "ما هذا الملك الذي كبر الله عز وجل حتى سماه " كبيرا " ؟ ! قال : " اذا ادخل الله اهل الجنة الجنة ارسل رسولا الى ولي من اوليائه ، فيجد الحجبعلى بابه ، فتقول له : قف حتى نستاذن لك ، فما يصل اليه رسول ربه الا باذن ، فهو قوله عز وجل : " الآية " (١) ، وقال - عليه السلام - مبينا معنى الآية " :لا يزول و لا يفنى " (٢) ، و قيل : هو انهم : لا يريدون شيئا الا قدروا عليه (٣)، و عن الحسن البصري عن رسول الله (ص) انه

(1)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٤٨١.

(2)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٤١١.

(3)المصدر.

قال " :أدنى أهل الجنة منزلة الذي يركب في ألف ألف من الخدمة من الولدان المخلدين على خيل من ياقوتة حمراء لها أجنحة من ذهب " (١. (

و عن ابي جعفر (الامام الباقر) - عليه السلام - قال : " ان رسول الله (ص (سئل عن قول الله عز وجل : " يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا " فقال : يا علي ان الوفد لا يكون الا ركبانا " الى قوله : " فقال علي - عليه السلام - يا رسول الله أخبرنا عن قول الله عز وجل : " غرف مبنية من فوقها غرف " بماذا بنيت يا رسول الله ؟ فقال : يا علي تلك غرف بناها الله عز وجل لاوليائه بالدر و الياقوت و الزبرجد ، سقوفها الذهب محبوكة بالفضة ، لكل غرفة منها الف باب من ذهب . على كل باب منها ملك موكل به ، فيها فرش مرفوعة بعضها فوق بعض من الحرير و الديباج بألوان مختلفة و حشوها الكافور و العنبر ، و ذلك قول الله عز وجل : " وفرش مرفوعة " . اذا أدخل المؤمن الى منازله في الجنة ، و وضع على رأسه تاج الملك و الكرامة ، البس حلل الذهب والفضة و الياقوت و الدر منظومة في الاكليل تحت التاج ، قال : فالبس سبعين حلة حرير بألوان مختلفة و ضروب مختلفة منسوجة بالذهب و الفضة و اللؤلؤ و الياقوت الاحمر ، فذلك قوله عز وجل : " يحلون فيها من اساور من ذهب و لؤلؤا و لباسهم فيها حرير " ، فاذا جلس المؤمن على سريره اهتز سريره فرحا ، فاذا استقر لولي الله عز وجل منازله في الجنان استأذن عليه الموكل بجنانه ليهنئه بكرامة الله عز وجل إياه ، فيقول له خدام المؤمن من الوصفاء و الوصائف : مكانك فان ولي الله قد اتكى على أريكته ، و زوجته الحوراء تهيأ له فاصبر لولي الله " (٢. (

]عاليهم ثياب سندس خضر و إستبرق[

(1)الدر المنثور / ج ٦ / ص ٣٠١.

(2)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٤٨٢.

قال شيخ الطائفة : السندس الديباج (الحرير) الرقيق الفاخر الحسن ، و الاستبرق : الديباج الغليظ الذي له بريق (١) . و في "عاليهم " اختلفوا ، فمنهم من جعلها ظرفا بمنزلة قولك : فوقهم ثياب سندس ، و منهم من جعلها حالا فهو بمنزلة قولك : يعلوهم ثياب سندس ، و روي عن الامام الصادق (ع " : (تعلوهم الثياب فيلبسونها " (٢. (

]وحلوا أساور من فضة[

و التحلية بمعنى الزينة ، اي زينوا بإلباسهم حللا أساور من فضة ، و يعلم الله كم هو جمال تلك الاساور التي صنعتها يد القدرة الالهية و ابدعتها ، و كم هو الرونق و الجمال الذي تعطيه للابسها حينما يتزين بها .

]و سقاهم ربهم شرابا طهورا[

قال في المجمع : اي طاهرا من الاقذاء ، لم تدنسها الايدي ، و لم تدسها الارجل كخمر الدنيا ، و قيل : طهورا لا يصير بولا نجسا ، و لكنه يصير رشحا في أبدانهم كريح المسك ، و ان الرجل من أهل الجنة يقسم له شهوة مائة رجل من أهل الدنيا ، و أكلهم و نهمتهم ، فاذا أكل ما شاء سقي شرابا طهورا فيطهر بطنه ، و يصير ما أكل رشحا يخرج من جلده ، أطيب ريحا من المسك الاذفر ، و يضمر بطنه ، و تعود شهوته . رواه ابو قلابه . و قيل : " يطهرهم من كل شيء سوى الله ، اذ لا طاهر من تدنس بشيء من الاكوان الا الله " عن الصادق (ع . (3) (و قد يكون هو شراب نهر الكوثر الذي يعطيه الله لأهل الجنة بيد رسوله (ص) و وليه(١) التبيان / ج ١٠ ص ٢١٧ - ٢١٨.

(2)مجمع البيان / ج ١٠ ص ٤١١.

(3)المصدر.

أمير المؤمنين (ع (قبل دخولهم الى الجنة فيطهرهم من كل عيب و دنس . و قال الرازي : و انه المطهر (١. (

و يبدو لي ان الله سبحانه و تعالى هو الذي يسقي الابرار ذلك الشراب بصورة غيبية ، لا عن طريق الولدان ، اكراما لهم منه عز وجل . و لكن ما هذا الشراب الطهور الذي يسقيهم الرب بيده ؟ هل شراب سائل كالماء و الخمر و العسل و اللبن ، أم هو شراب الود و القرب و الحب و النجوى ؟

لان الادب القرأني أدب تصويري يهدينا من ظاهر الاحداث الى غيب الحقائق فان لنا ان تصور ان الشراب الرباني ليس مجرد شراب مادي ، و حتى لو كان كذلك فانه حين يكون الساقي هو الرب الباقي فانه يتحول من نعمة مادية الى درجة معنوية دونها كل درجة ، فأي كرامة أعظممن اقامة صلة قريبة بين العبد هذا المخلوق المتضاءل المتناهي في الضعف و العجز و بين الرب العظيم المتعال ، و اي نشاط يسري في نفس العبد هذا ، و اي جمال يغمر فؤاده ، و اي سكينة تغشى نفسه ، و اي عزة تحيط كيانه .. سبحانه الله ! لا علم لنا ، و لا ندري ما نقول.

ان مثل الامام زين العابدين - عليه السلام - حري بوصف تلك اللحظات التي يقترب العبد فيها من الرب حين يقول:

"فقد انقطعت اليك همتي ، و أنصرفت نحوك رغبتي ، فانت لا غيرك مرادي ، و لك لا لسواك سهري و سهادي ، و لقاؤك قرة عيني ، و وصلك منى نفسي ، و اليك شوقي ، و في محبتك ولهي ، و الى هواك صبابتي ، و رضاك بغيتي ، و رؤيتك حاجتي ، و جوارك طلبي ، و قربك غايةسؤلي ، و في مناجاتك روحي و راحتى ، و عندك دواء علتي ، و شفاء علتي ، و برد لوعتي ، فكن انيسي في(١) التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص ٢٥٤.

وحشتي ... و لا تقطعني عنك ، و لا تبعدني منك ، يا نعيمي و جنتي ، و يا دنياي و اخرتي " (١. (

و في مناجاة كريمة أخرى يقول - عليه السلام - : " ... و غلتي لا يبردها الا وصلك ، و لوعتي لا يطفيها الا لقاؤك ، و شوقي اليك لا يبله الا النظر الى وجهك ، و قراري لا يقر دون دنوي منك ، و لهفتي لا يردها الا روحكم ، و سقمي لا يشفيه الا طبك ، و غمي لا يزيله الا قربك ... فيا منتهى أمل الاملين ، و يا غاية سؤل السائلين ، و يا اقصى طلبة الطالبين ، و يا أعلى رغبة الراغبين ... أسألك ان تنيلني من روح رضوانك ، و تديم علي نعم امتنانك " (٢. (

و نلاحظ ان ايحاء الآيات ينتهي الى هدف واحد هو بيان ان الابرار في راحة تامة عند ربهم في الآخرة ، " متكئين ، دانية ، ذللت ، يسقون ، يطوف عليهم ، و سقاهم ربهم " و ذلك لانهم في الدنيا يتعبون

انفسهم في خدمة الناس و بالاعمال الصالحة لوجه الله ، و يمسهم من ذلك الكثير من التعب ، و ليس انسب لتسكين انفسهم و أشباع تطلعاتهم من بيان ما يصيرون اليه من الراحة في الآخرة.

]ان هذا كان لكم جزاء و كان سعيكم مشكورا[

و هذا جواب نيتهم الخالصة لوجهه تعالى و قولهم : " انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء و لا شكورا " ، فحيث ترفعوا عن اي رياء و مطمع مادي من وراء عملهم الصالح و انفاقهم في سبيل الله جازاهم ربهم على ذلك خير الجزاء و شكر سعيهم بافضل الشكر.

(1)مناجاة المريدين / الامام السجاد / مفاتيح الجنان.

(2)مناجاة المفتقرين / المصدر.

و إن تحسيس المؤمن في الجنة بان كل تلك النعم العريضة الواسعة هي شكر لاعماله و جزاء أخلاصه ان هذا التحسيس بذاته كرامة جديدة لأهل الجنة و نعمة كبيرة ، اذا يجعلهم في نهاية الراحة النفسية ان اختيارهم في الدنيا كان صائبا و أعمالهم كانت مقبولة.

[26 - 23]و حيث حدثنا ربنا عن نعيم الابرار فان نفوسنا لا ريب ستتوق اليه ، و القرآن يستجيب لهذه الصفة الفطرية بتوجيه تمنيات الانسان و تطلعاته ضمن قناتها الصحيحة حيث العمل بالمنهج الحق الموصل الى ذلك النعيم ، و من هذا المنطلق تأتي الاشارة الى القرآن الكريم.

]انا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا[

اي منجما و ليس دفعة واحدة ، و ذلك يتماشى مع هدف القرآن ، و هو بناء شخصية الابرار في كل الابعاد ، حتى يرتقي الى قمة ذلك الرضوان و النعيم الالهي السامقة درجة درجة . و من اراد الوصول اليها فان الطريق واحد ، و هو ان يترك الاماني و الظنون المجردة الى السعي و الاجتهاد على هدى كتاب الابرار و السمو عبر معراج آياته . و هذا بحاجة الى الصبر على العقبات ، فان طريق الجنة عموما محفوف بالمكاره فكيف اذا كان الهدف هو أعلى درجاتها و أفضلها)درجة الابرار) ؟

ان بلوغ هذا الهدف العظيم يستدعي الحقائق التالية:

اولا : التسليم المطلق لقضاء الله و قدره ، و سننه في الخليقة و شرائعه.

]فاصبر لحكم ربك[

و حكم الله هو تدبيره لخلقه و رسالته الى الناس ، و المؤمن بحاجة الى الاستقامةو التحمل كي يجني ثمار التوكل على ربه و التسليم لأمره و رسالته ، فقد نطبق رسالة الله و لكن ليس بالضرورة ان نحصل على النتائج مباشرة ؛ اذن يجب ان ندع الاستعجال و نفوض أمرنا الى الله سبحانه دون ان نتأفف على ما يقدره الرب او نضجر من طول الانتظار . ثم ان تطبيق القرآن يستلزم روح الصبر ، لانه يضع الانسان امام قرارات صعبة و تحديات كثيرة في ذاته و في المحيط ، و تجرع مرارة الصبر على كل ذلك ضرورة أساسية لبلوغ أهداف الرسالة و تطلعاتها.

ثانيا : الاستقامة امام الضغوط ، لان الانسان حينما يقرر العمل بالقرآن و تغيير نفسه و واقعه على هدى آياته فسوف تتوالى عليه الضغوط المختلفة من قبل الآخرين الذين لا يريدون الاصلاح و لا التغيير اجتماعيا و سياسيا ، و بالذات اولئك الذين تقوم مصالحهم على أساس الواقع المتخلف و الفاسد كالمترفين و اصحاب السلطة ، او الذين تتعارض افكارهم و ثقافتهم المبدئية مع خط الرسالة وقيمها.

اما وسائلهم في الضغط فهي تختلف فقد تكون مباشرة ، كما يفعل الحكام و الطغاة ضد المؤمنين تارة

بالترغيب و تارة بالترهيب ، و قد تكون عبر الاعلام و المواقف الاجتماعية و الاقتصادية و .. و ... ، و لا بد لكل مؤمن يختار طريق الحق ان تكون هذه الصورة الواقعيةحاضرة في وعيه ، حتى لا يتفاجأ من جهة ، و لكي يستعد نفسيا و عمليا لمواجهتها.

]و لا تطع منهم اثما او كفورا[

قال الزمخشري : معناه : و لا تطع منهم راكبا لما هو اثم داعيا لك اليه ، او فاعلا لما هو كفر داعيا لك اليه ، لانهم اما ان يدعوه لمساعدتهم على فعل ما هو اثم او كفر ، او غير اثم و لا كفر ، فنهي ان يساعدهم على الاثنين دون الثالث (١. (

(1)الكشاف / ج ٤ / ص . 674

و الذي يظهر لي ان الآية تشمل المنافقين الذين يتظاهرون بالاسلام و لكنهم يرتكبون الاثم و يريدون الباطل ، كما تشمل الكفار الذين يبالغون في الكفر و يعادون الحق بصورة صريحة و ظاهرة.

ثالثا : الروحية العالية ، و ذلك لان هزيمة الانسان و انتصاره و استقامته و تراجعه كل اولئك يرتكز على قوة إرادته و صلابة شخصيته ، فعلى المؤمنين ان يشحذوا عزائمهم ، و يوفروا ارادتهم ، و ينموا قوة شخصياتهم ، حتى يرتفعوا الى مستوى الالتزام بالرسالة و مقاومة التحديات في الدنيا ، و الى مستوى الابرار و نعيمهم في الاخرة . و ذكر الله الدائم و صلاتهم بالليل هما معراج المؤمنين الى تلك الفضيلة و المنزلة ، لذا يدعو القرآن رسول الله و كل فرد مؤمن الى الذكر و الصلاة.

]و اذكر اسم ربك بكرة و أصيلا * و من اليل فاسجد له و سبحه ليلا طويلا]و البكور هو أول الصباح ، و الاصيل هو اول الليل و أصله ، و المراد هو المداومة على الذكر نهارا و ليلا . و قيل : " بكرة " يعني صلاة الصبح ، و " أصيلا " يعني صلاتي الظهر و العصر ، " و من الليل " اشارة الى صلاتي المغرب و العشاء اللتان تقعان في بعض الليل من اوله ، " و سبحه ليلا طويلا " يعني " صلاة الليل " (١) روي ذلك عن الامام الرضا (ع . (و تأكيد الله على مفردات معينة في الايتين لحكمة ، فقد قال الله) : اذكر ، اسجد ، و سبح) و كلها تتمحور حول قيمةالتوحيد و تأكيد العبودية لله ، و ذلك هو سر الفضيلة و التسامي على الضغوط و التحديات التي تدعو الانسان الى الشرك.

[31 - 27]و بعد ان فصل لنا القرآن الحديث عن الابرار الذين يختارون(١) نور الثقلين / ج ٥ ص ٤٨٩.

سبيل الشكر و الهدى ، و ان ايمانهم باليوم الآخر و خوفهم منه عامل رئيس في اختيارهم طريق الحق و سلوكهم السليم في الحياة ، يؤكد لنا بان مشكلة الكفار التي دعتهم الى الاثم و الضلال تتمثل في حبهم الشديد للدنيا و كفرهم بالاخرة.

]ان هؤلاء يحبون العاجلة و يذرون وراءهم يوما ثقيلا]ومن الآية نفهم ان حب الدنيا هو الحجاب الذي يحول بين الانسان و بين الايمان بالآخرة ، و ان الطريق لخرق هذا الحجاب هو حضور يوم القيامة العصيب في وعيه بتذكر مواقفه الرهيبة و مشاهدة الثقيلة.

]نحن خلقناهم و شددنا أسرهم[

قال صاحب المجمع : الاسر اصله الشد ، و منه قتب مأسور : اي مشدود ، و منه الاسير : لانهم كانوا يشدونه بالقيد ، و قولهم : خذ بأسره بشده (١) ، " و شددنا أسرهم " اي قوينا و احكمنا خلقهم عن قتادة و مجاهد ، و قيل : أسرهم :اي مفاصلهم عن الربيع ،و قيل : اوصالهم بعضها الى بعض بالعروق و العصب ، و لولا أحكامه إياها على هذا الترتيب لما امكن العمل بها و الانتفاع منها ، و قيل : جعلناهم اقوياء عن الجبائي ، و قيل معناه : كلفناهم و شددناهم بالأمر و النهي كيلا يجاوزوا حدود الله ، كما يشد الاسير بالقيد لئلا يهرب . (2)

و لعل المعنى هو ظاهر الاسر ، فان ذلك يتناسب مع الشطر الثاني للآية ، و ينسجم مع السياق ، فحيث بين الله حب الكفار للعاجلة ، و من ثم تركهم الآخرة و الالتزام بأوامر الله و نواهيه ، و اطلاقهم العنان لانفسهم في الاهواء و الشهوات ، اراد(١) مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٤١٢.

(2)المصدر / ص ٤١٣.

ان يؤكد بأنه لا يعصى عن غلبة ابدا . و هذا ما يستدعي التأكيد عى حاكمية الله في الانسان و هيمنته عليه ، و ان حوله منه و قوته به ، و انه لا حول و لا قوة له ذاتية.

و لعل استخدام كلمة الاسر هنا للايحاء بان الانسان مقيد بقدرة الله و قوته حيث ان شد أسره بيده (و بهذا تجتمع معاني الاسر في الآية. (

و الذي يتفكر في وجود الانسان يجد انه أسير لله تكوينيا و عمليا ، فهو من جهة محكوم بقوانين تكوينية كالنمو و التنقل من مرحلة الى أخرى قسرا عنه ، و الدورة الدموية و دقات القلب و حركة الجهاز الهضمي و الكبد و .. و .. ، و من جهة أخرى هو أسير تدبير الله وسننه في الحياة ، لا يستطيع ان يقاوم الموت مثلا .. و قد وجدت أشارة الى هذا التفسير لدى العلامة الطباطبائي اذ قال : و الآية في معنى دفع الدخل ، كان متوهما يتوهم انهم بحبهم للدنيا و اعراضهم عن الاخرة يعجزونه تعالى ، و يفسدون عليه ارادته منهم ان يؤمنوا ويطيعوا ، فاجيب بانهم مخلوقون لله ، خلقهم و شد أسرهم اذا شاء اذهبهم و جاء بآخرين ، فكيف يعجزونه و خلقهم و أمرهم و حياتهم وقوتهم بيده ؟ ! (١) . و اظهر آيات أسر الله للبشر هو الموت الذي قهرهم به ، فهو يميتهم حيثما شاء و كيفما اراد ، و يأتي بغيرهم دون انيقدر احد على رد ارادته ، اذ توحد بالبقاء " و قهر عباده بالموت و الفناء " (٢. (

]و اذا شئنا بدلنا امثالهم تبديلا [

اي جئنا باخرين امثالهم بديلا عنهم ، باهلاكهم ، او بجعلهم الحاكمين . و انما ذكرت كلمة الامثال هنا - و في موارد متشابهة - للاشارة الى صفاتهم و ان من كان بصفة العجز و الضعف و المحدودية - امثال هؤلاء - لا يعجزون الله شيئا ، (1)الميزان / ج ٢٠ / ص ١٢٣.

(2)دعاء الصباح (مفاتيح الجنان. (

لان بيده أسرهم و هو قادر على تبديلهم.

علما بان كلمة المثل تدل على الشبيه و لكن بلحاظ مواصفاته و طبائعه ، و الله العالم.

و حري بالانسان الذي يأتي عليه الموت ان يفكر فيما بعده من مستقبل ، و يستعد له ، باتباع الحق و الصراط المستقيم الذي هو السبيل الى رضوان الله ، الذي بيده الامر و الحكم و اليه المصير.

]ان هذه تذكرة[

اي التي طرحتها الاية السابقة و كل آيات السورة . و الموقف السليم منها ان يهتدي بها البشر الى الايمان بربه ، و اتباع سبيله المتمثل في رسالته و اوليائه و حزبه.

]فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا[

و تأكيد مشيئة الانسان هنا هو تقرير لحرية الاختيار عنده ، و مسؤوليته عن مصيره ، فالاختبار بيده يتبع اي سبيل شاء سبيل الشكر او سبيل الكفر ، و له الغنم و عليه الغرم.

]و ما تشاءون الا ان يشاء الله[

لان المخلوقين لا يمكنهم ان يملكوا ارادة ذاتية ابدا ، فهم حيث يشاؤون فوسائل مشيئتهم من عقل و ارادة و جوارح كلها من عند الله ، و لا تنشأ لمخلوق مشيئة بدون اذنه ، فيسلب البعض توفيق الهداية و يهبه لآخرين . و لكن ليس اعتباطا ، بل على أساس علمه بحال المخلوق و حكمته البالغة.

]ان الله كان عليما حكيما[

فتعليقه لمشيئة المخلوق على مشيئته لا يعني الجبر ، لان ذلك يلغي دور الانسان و مسؤوليته ، كما ينفي حكمة الله حين خلقه و ابتلاه ، فتعالى الله عما يصفون .و لكن اعطاءه المشيئة لهم لا يعني استطالتهم على ربهم و استقلالهم عنه ، فان هذا من التفويض الباطل ،انما أعطاهم المشيئة و هو المدبر المحيط بهم علما و قدرة.

]يدخل من يشاء في رحمته[

و لكنه حين علق مشيئته بعلمه و حكمته فلن يدخل في رحمته من ليس أهلها انما الذي سعى و عمل صالحا . و هذا ما يبرر عدم ذكر النقيض للظالمين ، و اقتصار القران على ذكرهم ، لانه لا يدخل رحمة الله الا من كان مؤمنا و طاهرا من دنس الضلال و الظلم.

]و الظالمين اعد لهم عذابا اليما [

جزاء لظلمهم ، كما ان النعيم و الملك الكبير كان للابرار جزاء و كان سعيهم مشكورا.

سورة المرسلات

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الاعمال باسناده عن ابي عبد الله - عليه السلام - قال : " من قرا " و المرسلات عرفا " عرف الله بينه و بين محمد صلى الله عليه وآله. "

نور الثقلين / ج ٥ / ص ٤٨٧

الاطار العام

ويل يومئذ للمكذبين

بينات من الآيات

[10 - 1]أرأيت الذي يكذب بوعد الله يلغيه ؟ كلا .. انه يرتكب أكبر جريمة بتكذيبه بالحق ، فله الويل ثم له الويل .

و انى له التكذيب بما تواترت شواهده ، و تظافرت آياته ، بوعد الله الواقع الذي تكررت مصاديقه على امتداد التاريخ ، و هذه الرياح التي يرسلها ربها بالعذاب حينا و يالخيرات أحيانا ؛ انها بعض آيات الوعد الالهي . قسما بها و بالملائكة الموكلين بها و بما تقدمهلنا من الاعذار و الانذار : ان وعد الله لواقع.

"هكذا تترى كلمات القسم التي اختلف في تفسيرها و تأويلها ، الا انها تتصل - أنى كان تاويلها - بتلك الحقيقة العظمى : وقوع وعد الله ، كأتصال الشاهد الحضار بالغائب المنتظر ، و كأتصال الحجج بالحقائق ، و الارهاصات بالوقائع .. و هكذا سائر ما في الذكرالحكيم من قسم يتصل بما يقسم عليه اتصالا

واقعيا . بلى . قد نجهل علاقة بعضه ببعض ، و لكنا نعرفها عند التدبر العميق فيها.

]و المرسلات عرفا[

اختلفوا في تأويل " المرسلات "الى رأيين أساسيين:

الاول :انها الرياح ، قال في المجمع : و المرسلات يعني الرياح ، أرسلت متتابعة كعرف الفرس عن ابن مسعود و ابن عباس و مجاهد و قتادة و ابي صالح ، فعلى هذا يكون " عرفا " نصبا على الحال من قولهم : جاؤوا اليه عرفا واحدا ، اي متتابعين (١) . و قد استدل أصحاب هذا الراي بقول رسول الله (ص " : (الرياح ثمان : أربع منها عذاب ، و اربع منها رحمة ، فالعذاب منها : العاصف ، و الصرصر ، و العقيم ، و القاصف ، و الرحمة منها : الناشرات ، و المبشرات ، و المرسلات ، و الذاريات . فيرسل الله المرسلات فتثيرالسحاب ، ثم يرسل المبشرات فتقلع السحاب ، ثم يرسل الذاريات فتحمل السحاب فتدر كما تدر اللقحة ، ثم تمطر و هي اللواقح ، ثم يرسل الناشرات فتنشر ما أراد (2) " ، و في نفس المصدر : قام رجل الى علي (ع) فقال : ما العاصفات عصفا ؟ قال : " الرياح " (٣. (

الثاني : انها الملائكة ، وفسرت " عرفا " على انها أرسلت بالمعروف من أمر الله و نهيه (٤) ، و قيل : انهم الانبياء و الرسل ، الذين أرسلوا بالوحي المشتمل على كل خير و معروف ، فانه لا شك انهم ارسلوا بلا اله الا الله ، و هو مفتاح كل خير و معروف(٥. (

(1)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٤١٥.

(2)الدر المنثور /ج ٦ / ص ٣٠٣.

(3)المصدر.

(4)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٤١٥.

(5)التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص ٢٦٧.

و الذي يبدو لي إمكانية الجمع بين القولين ، اذا عرفنا ان للرياح ملائكة موكلة بها ترسلها و تزجرها بأمر الله ، بالذات و ان الصيغة جاءت للمبني للمجهول . و من هذا المنطلق نستطيع القول بان الآيات ظاهرها الرياح و باطنها الملائكة ، اما عن القاء الذكر الذينتلوه في السياق فيمكن تأويله بالرياح و الملائكة معا ، فاذا اولنا " المرسلات " بالملائكة فانها تلقي وحي الله و آياته الى الانبياء ثم الى الناس . و اذا اولناها بالرياح فانها الاخرى تلقي الغيث الذي يعد تذكرة للناس.

و يمكن ان يقال بان " المرسلات عرفا " تعني الرياح التي تكون في صالح الناس و خيرهم ، اي المرسلات بما يعرفه الناس و يستسيغونه من غيث و بشارة.

و انى كان فان اجمال مثل هذه الكلمات يجعلنا نوصل الحقائق ببعضها ، فلا نميز بين الرياح المرسلات

بالغيث و البركة و بين الملائكة الموكلين بها او المرسلين بالوحي و الرسالة ، فان فائدة القسم تتحقق بهما ، كما انهما معا من شواهد وعد الله ، و يصح القسم بهما، و هذا من روائع النهج القرآني في الادب .

]فالعاصفات عصفا[

في التبيان : يعني الرياح الهابة بشدة ، و العصوف مرور الريح بشدة ، و عصفت الريح تعصف عصفا و عصوفا اذا اشتد هبوبها (١) ، و اذا صرفنا المعنى الى الملائكة فللعصف وجهان : أحدهما : السرعة ، فان العرب تقول : فرس عصوف اي سريع الحركة ، قال العلامة الطباطبائي : و المراد بالعصف سرعة السير ، استعارة من عصف الرياح اي سرعة هبوبها ، اشارة الى سرعة سيرها الى ما أرسلت اليه (٢) ، و الوجه الاخر : الاهلاك و التدمير ، قال الرازي : يعني ان الله لما ارسل اولئك(١) التبيان / ج ١٠ / ص ٢٢٣.

(2)الميزان / ج ٢٠ / ص ١٤٦.

الملائكة فهم يعصفون بروح الكافر ، يقال : عصف بالشيء اذا أباده و أهلكه (١ (، وعصفت الحرب بالقوم اي ذهبت بهم و أهلكتهم ، و يقال : عصف الدهر بهم اي أبادهم (٢. (

و يبدو ان الاقرب الى السياق تاويل العصف بسرعة الرياح في حمل الغيث ، و ليس في سرعتها في الاهلاك.

]و الناشرات نشرا[

اذا قلنا انها الرياح فهي تنشر السحاب في الآفاق ، و تنشر الغيث و الرحمة الالهية من زرع و غيره ، كما انها تنشر الحبوب و اللقاح في بقاع الارض المختلفة ، كما ان الملائكة ينشرن أجنحتهن في الجو عند انحطاطهن بالوحي (3)، و تنشر الكتب عن الله (٤) ، او تنشرالرحمة و العذاب ، او تنشر الكتب يوم الحساب (٥. (

]فالفارقات فرقا[

قيل : انها الرياح التي تفرق بين السحاب فتبدده (بعد اجتماع ، ليقف المطر ، و تطلع الشمس ، و يظهر وجه السماء بعد الغيب) عن مجاهد (٦) ، كما تفرق الملائكة بين الحق و الباطل بما تتنزل به من الآيات و الوحي عن الله على رسله . هكذا في التبيان (٧) و التفسير الكبير (٨. (

(1)التفسير الكبير / ج ٣٠ ص ٢٦٤.

(2)المنجد / مادة عصف.

(3)الكشاف / ج ٤ / ص ٤١٠.

(4)التبيان / ج ١٠ / ص ٢٢٣.

(5)التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص ٢٦٤.

(6)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٢٦٦.

(7)التبيان / ج ١٠ / ص ٢٢٤.

(8)التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص ٢٦٦.

]فالملقيات ذكرا[

الملائكة تلقي رسالات الله على الانبياء ، و لكن الملائكة ليست وحدها التي تذكرنا بالله انذارا و اعذارا فان الرياح تفعل ذلك ايضا ، لا فرق ان كانت رياح عذاب او رياح رحمة ، و الغيث النازل منها هو الآخر ذكر عظيم باعتباره يذكرنا بالبعث و الخروج عندما يسقيالارض فتراها اهتزت و ربت و أنبتت من كل زوج بهيج ، و هذه الفكرة تفسر لنا اقتران الكلام عن القران و رسلات الله كثيرا بالحديث عن منظر الغيث و ما يتلوه من ظواهر طبيعية على الارض.

]عذرا[

عذرا باقامة الحجة حيث القى الله الذكر عبر الملائكة ، او حذرهم و ذكرهم بالرياح العاصفة .. كل ذلك قبل ان ينزل عليهم العذاب.

]او نذرا[

و الانذار معروف ، و لكن نتساءل عن الفرق بينه و بين الاعذار ، و لعل الجواب :ان الاعذار يأتي عندما لا يستجيب الانسان للانذار ، بينما الانذار أعم ، و ربما يكون عند الاستجابة اذا قورن بالاعذار ، و قد قيل : لقد أعذر من أنذر ، و ربما يعود الى هذا المعنىجملة ما ذكره المفسرون ، قال شيخ الطائفة : و قيل : إعذارا من الله ، و إنذارا الى خلقه ما القته الملائكة من الذكر الى انبيائه ، و اضاف : فالعقاب على القبيح بعد الانذار يوجب العذر في وقوعه ، و ان كان بخلاف مراد العبد الذي استحقه (١) . و قيل : عذرا يعتذر الله به الى عباده في العقاب انه لم يكن الا على وجه الحكمة ، و نذرا : اي اعلاما بموضوع المخافة ، عن الحسن (٢. (

(1)التبيان / ج ١٠ / ص ٢٢٤.

(2)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٤١٥.

و ان اهم ما تلقيه المرسلات ملائكة و رياحا تذكيرها بالآخرة و بان وعد الله صادق . او ليس تتلاحق الظواهر الطبيعية في الكائنات فتاتي الرياح مرسلات عاصفات ناشرات فارقات ، و تأتي بعدها المواسم الخيرة و السنين المباركة ، او تأتي العواصف الهوج و يأتي من بعدها الدمار ؟ او ليست هذه الظواهر يشهد اولها على اخرها ؟ كذلك شواهد العذاب تنذرنا بوعد الله الواقع به ، كما شواهد الرحمة تبشرنا بوعد الله الواقع بها.

]انما توعدون لواقع[

و هذا جواب القسم المتقدم في الآيات السابقة ، و هو مدعوم بثلاثة تأكيدات : ان ، و الحصر ، و اللام في : " لواقع " . و مع ان البعض حصر الوعد في القيامة و احتج : بانه تعالى ذكر عقيب هذه الآيات علامات يوم القيامة (١ (، الا انني اختار الاطلاق الشامل لكل وعد الهي ، كوعده بنصر المؤمنين و دحر الظلمة ، و احياء الارض بعد موتها بالمؤمنين ، و غلبة دينه و رسله و المؤمنين على الدين كله في اخر الزمان بظهور منقذ البشرية الامام الحجة المنتظر - عجل الله فرجه - و الذي يهدينا الى هذا التفسير الشامل هو انالقرآن حمال ذو وجوه ، و تفسيره يكون أصحا كلما كان اشمل ، و قد وجدت من قال باطلاق الوعد من المتقدمين الكلبي الذي قال : المراد ان كل ما توعدون به من الخير و الشر لواقع (٢) . و حيث ان وعد الله بالبعث و الحساب و الجزاء هو اظهر مصاديق الوعد و أقربها الى الاذهان كما الى دلالة السياق فانه الاظهر تأويلا من اي مصداق آخر.

و ان اطمئنان الانسان لوعد ربه - و بالذات الاخرة - أمر في غاية الأهمية ، باعتباره يبعث روح التسليم لله في كل ابعاد الحياة ، و يبعث فاعلية العمل و تقوى(١) التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص ٢٦٨.

(2)

الالتزام بشرائعه و مناهجه .. فلو يئس المؤمنون من الانتصار و التغيير لما أكملوا مسيرة الجهاد و الاصلاح ، ولو كفر الانسان بالآخرة (البعث و الحساب و الجزاء) لما التزم بالنظم و الشرائع الالهية ، ذلك ان الايمان بسنة الجزاء الممتدة من الدنيا الى الاخرة هوالذي يحرك فيه روح الانضباط و المسؤولية.

و الذي يتدبر آيات القرآن في موضوع الآخرة يلاحظ انها اصبحت من الكثرة و التفصيل و التأكيد من ابرز خصائص هذا الكتاب مما يبعث السؤال عن سبب ذلك و خلفياته.

لعل أهم الاسباب هي التالية:

اولا :أهمية موضوع الآخرة ، فان الآخرة - كما سبق و ان قلنا في مواضع كثيرة - تعتبر حجر الاساس في تفكير الانسان المؤمن و ايمانه.

ثانيا : ان الآخرة غيب في المستقبل و الاسلام يريدها حاضرة في وعي المؤمنين ، من هنا يفصل الحديث فيها و ينوعه و يكرره حتى يوصل ذلك الغيب الى مستوى الشهود عندهم ، لذا نجد القرآن بعد الاشارة الى الآخرة يبين الأمر و يفصل في توجيهنا الى مشاهدها العظيمة.

]فاذا النجوم طمست[

قال القمي : يذهب نورها و تسقط (١) ، و قال العلامة الطوسي : و الطمس محو الاثر الدال على الشيء ، و الطمس على النجوم كالطمس على الكتاب ، لانه يذهب نورها و العلامات التي كانت تعرف بها (٢) ، و قال الفخر الرازي : يحتمل ان يكون(١) تفسير القمي / ج ٢ / ص ٤٠٠.

(2)التبيان / ج ١٠ / ص ٢٢٥.

المراد محقت ذاتها ، وهو موافق لقوله " انتثرت " و " انكدرت " و ان يكون المراد : محقت انوارها ، و الاول اولى لانه لا حاجة فيه الى الاضمار (١) . و الاقرب عندي ما قاله الرازي لان أصل الطمس من المحو و غياب المطموس.

كما يظهر من ملاحظة الآيات القرآنية التي تناولت موضوع القيامة من زاوية حال النجوم يومئذ انها كما الجبال تمر بمراحل حتى تنتهي و تزول ، فهي تنتثر عن بعضها و نسقها بسبب اختلال نظامها الكوني اولا ، ثم تنكدر واحدة واحدة ، ثم تطمس تماما فلا يبقى منها شعاعيدل عليها.

]و اذا السماء فرجت[

في تفسير القمي : " تنفرج و تنشق " هكذا جاء في رواية عن ابي الجارود عن الامام الباقر (ع) (٢) ، و في مجمع البيان : اي صارت فيها فروج (٣ (، بعد ان كانت محبوكة محكمة لا ثغرة في نظامها و لا منفذ في بنيانها ابدا) لا تفاوت و لا فطورا) ، ولعل هذه مرحلة أولية تعقبها مراحل متتالية أخرى .و حسبما يظهر من آيات كريمة أخرى: ان مراد القرآن من ذكر تبدل نظام الخليقة سلب اعتماد الانسان عليه ، ليصبح وجها لوجه امام مسؤولياته ، فالسماء التي كانت سقفا محفوظا تصبح يومئذ واهية ، والجبال التي كانت ملاذا و كهفا تصبح كثيبا مهيلا ، و الارض التي كانت مهدا مطمئنا تميد بزلزال عظيم ، و هكذا .

]و اذا الجبال نسفت[

قالوا : نسف البناء : قلعه من أصله ، و الجبال : دكها .. و نحن ندرك ماذا يعني(١) التفسير الكبير / ج ٣٠ /ص ٢٦٩.

(2)تفسير القمي / ج ٢ / ص ٤٠٠.

(3)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٤١٥ بتصرف

نسف الجبال التي جعلها الله أوتاد الارض ، فلا تستقر و تميد بأهلها و يتحطم نظامها بحيث لا تصلح للعيش.

و تلك كلها بعض مشاهد القيامة الرهيبة ، و لك ان تتصور هذا المخلوق الضعيف كيف يعاصر تلك الاهوال الكونية ، و انى له بركن يأوي اليه منها ؟ الا ان يكون قد سعى سعيا صالحا يخلصه منها.

[19 - 11]و يبقى المشهد الاهم من ذلك و الموقف العصيب حينما يحين ميعاد الشهادة فيأتي الرسل شهداء على المكذبين من أممهم.

]و اذا الرسل أقتت[

جعل لها ميعاد محدد في وقت معلوم للابتعاث و في ارض معلومة و لهم وقت معلوم للشهادة ، و ذلك يهدينا الى ان حركة الانبياء و بعثهم ليست اعتباطية بل هم في الدنيا و الاخرة يسيرون على أساس حكمة الهية ، فلو اننا درسنا حركتهم التاريخية من جميع جهاتها و حيثياتها لوجدنا ان بعثهم قائم على مجموعة من القوانين الاجتماعية و الحضارية ، بحيث ان زمن بعث نبينا محمد (ص) و مكان بعثته مثلا كانا مناسبين تماما لرسالته و دوره ، و ربما اشار الى ذلك الامام الباقر (ع) في رواية ابي الجارود عنه قال : " بعثت في اوقاتمختلفة " (١) . كما ان شهاداتهم في الآخرة لا تبدا في اي وقت او بمجرد ان تقوم القيامة بالبعث ، كلا .. بل للرسل ميقات معلوم لا تؤدي دورها المناسب الا فيه.

]لاي يوم أجلت[

قال العلامة الطباطبائي : الاجل المدة المضروبة للشيء ، و التأجيل جعل(١) تفسير القمي / ج ٢ / ص ٤٠٠.

الاجل للشيء ، و يستعمل في لازمه وهو التاخير ، كقولهم : دين مؤجل اي له مدة بخلاف الحال ، و هذا المعنى هو الانسب للآية (١) . و قد اختلف في الشيء الذي يعود عليه الضمير من " اجلت " ، فقال صاحب الميزان انه : للأمور المذكورة قبلا ، من طمس النجوم، و فرج السماء ، و نسف الجبال ، و تأقيت الرسل ، و المعنى : لاي يوم أخرت هذه الامور (٢) ، و قيل : هو عائد الى الرسل فقط . و مع ان لرأي صاحب الميزان محمل في الايات حيث تفيد " اذا " الواردة في الآيات كلها معنى التأجيل ، الا ان الاقرب هو عودة الضمير الى الرسل باعتبار التصاق كلمة " أقتت " بهم دون النجوم و السماء و الجبال ، و لانهم اصحاب الشهادة و ميزان الفصل بين الناس عند رب العزة ، الذي جعل لهم شهادتين متكاملتين : أحداهما في الدنيا بقيامهم شهداء لله بالقسط و قد تقدمت ، و الاخرى فيالآخرة ، و بجعلهم الحجة و المعيار في محكمة القيامة ، و قد اجلها ربنا لذلك اليوم.

]ليوم الفصل[

بين الناس في اختلافهم من كل الجهات ، و بين أهل الجنة و أهل النار ، و سميت القيامة بيوم الفصل لانها اليوم الذي يفصل فيه الخطاب و يحكم الناس في مصائرهم . و اذا كانت الاخرة مقسمة اياما و مراحل فان الرسل يدلون بشهاداتهم ليس في يوم البعث عموما - حسبما يبدو - بل في ساعات الفصل

عند الميزان.

]وما أدراك ما يوم الفصل[

انه يوم رهيب لا يمكن لبشر ان يستوعب احداثه و وقائعه على طبيعتها و بحجمها(١) تفسير الميزان / ج ٢٠ / ص ١٤٩.

(2)المصدر.

ابدا مهما عرف له ، و ذلك لان تلك الحقائق كبيرة ليست بحجم معارفنا ، فهل نقدر ان نستوعب - مثلا - معنى انفجار الف قنبلة نووية في لحظة واحدة ؟ كلا .. من هنا يؤكد ربنا في مواضع كثيرة بعد الحديث عن الآخرة القول : " و ما ادراك " تارة و ما يدريك تارة أخرى.

و لا يفصل السياق في بيان أحوال الناس و مصائرهم يومئذ ، بل يكتفي بأشارة تتضمن الوعيد و الانذار بمصير اولئك المكذبين بالاخرة ، الذين ابعدوا عن افكارهم مشاهد الحساب و حقائق الجزاء الاكبر فيها ، فاطلقوا لانفسهم عنان الهوى و الشهوة ، و تخبطوا في الجريمةو الفاحشة خبط عشواء ، دون ادنى حساب او احساس بالمسؤولية.

]ويل يومئذ للمكذبين[

و كلمة " ويل " كما تكرر القول مطلقة تشمل الوان العذاب المادي و المعنوي ، والتي تتجسد في واد من اشد اودية جهنم خزيا و عذابا ، و لهذا تخصص الويل بقوله تعالى " : يومئذ " حيث لا يعني انهم لا ويل لهم هنا في الدنيا ، و لكنه يحمل على أشد الوان الويل هناك ، باعتبار ذلك اليوم اظهر مصاديق ورطتهم في الويلات و الثبور.

و اي ويل هذا الذي يهدد به القرآن المكذبين ؟ لكي نعرفه دعنا نتذكر نموذجا صغيرا منه يتمثل في عذاب المكذبين في الدنيا.

و هكذا يذكرنا القرآن بعاقبة المكذبين في الدنيا عبر ارقام و حقائق مادية محسوسة لا تقل حقيقة الآخرة عنها وضوحا لدى العقلاء ان لم تكن اشد و اصفى ، فيتساءل السياق سؤال مستثير لاولي الالباب نحو التفكير في مصائر المكذبين من خلال دراسةالتجارب التي خلفها الاخرون.

]الم نهلك الاولين * ثم نتبعهم الاخرين[

و يمكننا حمل الهلاك على محملين:

الاول :انه الهلاك بالموت ، و نحن لا نكاد نقرأ ايات تحدثنا عن سنة الجزاء وحقيقة الاخرة الا و نقرأ الى جانبها حديثا عن سنة الموت ، و السبب انه تعالى يريد هدايتنا الى ان الآخرة و الجزاء حق كما الموت حق ، و ان تكذيب احد بهما لا يمكن ان يغير من واقعهماشيئا ، كما لا يغير تكذيبه بوعد الله الواقع بالموت ذلك الحق ، و الدليل واضح في مسيرة البشرية حيث أهلك الله الاولين و اتبعهم بالآخرين و الحبل على الجرار حتى لا يبقى احد الا وجهه عز وجل.

الثاني : الهلاك بالاخذ و العذاب المتأسس على سنة الجزاء الالهي في الحياة ، و هذا أقرب الى السياق الذي يتوعد بالمكذبين و لا يزال بالويل و يؤكد على الجزاء ، كما تؤيده الآية التالية:

]كذلك نفعل بالمجرمين[

فهي اذن سنة جارية في الحياة لا تتغير مع الزمن ، و هكذا تضع الآية الانسان في كل عصر و مكان امام تلك السنة لكي لا يتصور انها محدودة في المجرمين التاريخيين وحدهم . و يعود السياق يوصل حقائق

الماضي بالمستقبل من خلال سنة الجزاء في الاخرة ، اذ انها اشد وقعا على المجرمين من أخذهم في الدنيا .

]ويل يومئذ للمكذبين[

و كفى باهلاك المجرمين في الدنيا دليلا الى عذابهم في الآخرة . و انما يصيرون البالويل كنتيجة طبيعية لتكذيبهم بقيادة الحق و نهجه في الحياة ، و انصرافهم عنهما الى قيادة ضالة و منهج خاطىء يقودان الانسان الى الويل بعد الويل.

[24 - 20]و لماذا يكذب الانسان بآيات ربه و بالذات حقيقة الآخرة ؟ لماذ يكذب بالبعث و النشور بعد الموت ؟ هل لان الآيات الهادية الى ذلك غير قائمة ، و لان معرفته بربه و بقدرته الواسعة التي لا تحد ناقصة ؟ كلا .. فلنتفكر في أصل خلقتنا ، و كيف انها آيةبينة تهدي الى الايمان بقدرته تعالى على كل شيء ، فلقد انطلقنا في الحياة الدنيا من حويمن صغير و حقير و مستقذر لا يرى الا بالمجاهر المكبرة ، استقر ليس بارادتنا بل بمشيئة الله في رحم امهاتنا ، ثم نماه الله ضمن ملايين القوانين و السنن التي نجهل اكثرها فضلاعن ادعاء التحكم فيها ، حتى خلقنا بشرا سويا ذكرا او انثى . و ربنا يضعنا امام هذه الحقائق الفطرية التي لا سبيل لاحد الى انكارها.

]الم نخلقكم من ماء مهين[

قال القمي : منتن (١) ، و قيل : حقير ، و عليه اكثر المفسرين ، و ان المتأمل ليرى كل اسباب الهوان في ذلك الماء ، فحجمه صغير ، و رائحته منتنة ، و هو مستقذر عند الانسان نفسه فلا يقيم له وزنا ، و لك ان تعجب اذا عدبت من البشر حينما يتكبر و يركب مطية الغرور ، ليس في مقابل بني جنسه و حسب ، بل في مقابل ربه العظيم ايضا !! و حق لأمير المؤمنين علي (ع) ان يعجب فيقول : " و عجبت للمتكبر الذي كان بالامس نطفة ، و يكون غدا جيفة (الى ان يقول) : و عجبت لمن انكر النشاة الاخرى وهو يرى النشاة الاولى " (٢ (، و انه لعجب حقا ان ينسى الانسان فضل ربه عليه و اكرامه له بعد ان كان مهينا ، فاذا به وهو المخلوق الضعيف يكذب رب(١) تفسير القمي / ج ٢ / ص ٤٠٠ .

(2)نهج البلاغة / حكمة ١٢٦.

العزة جبار السماوات و الارض! !

ثم انه تعالى جعل ذلك الماء المهين في رحم الام يحفظه و ينشأ فيه ناميا صفة بعد صفة و مرحلة بعد الاخرى ، تحوطه و ترعاه يد الغيب بما يعجز الانسان نفسه عن احصائه من السنن و القوانين المحكمة التي تثبته في الرحم ، و تمكنه من العيش و النمو فيه ، دون ان يكون للابوين شأن في ذلك الحمل.

]فجعلناه في قرار مكين[

في التبيان : القرار : المكان الذي يمكن ان يطول مكث الشيء فيه ، و منه قولهم :قر في المكان اذا ثبت على طول المكث فيه (١) و استقر . و غض أكثر المفسرين الطرف عن المكين ، بينما ذكر صاحب المنجد انه المتمكن : و المكين ذو المكانة ، و استمكن استولى ، و تمكن من الشيء قدر عليه (٢) ، و وجدت في الميزان هذا النص : و المكين : المتمكن ، وصفت به الرحم لتمكنها في حفظ النطفة من الضيعة و الفساد ، او لكون النطفة مستقرة متمكنة فيها ، و المعنى : ثم جعلنا الانسان نطفة في مستقر متمكن وهي الرحم (٣) . و قوله تعالى : " فجعلنا " تأكيد على الفعل الالهي في الامر اذ هو بعيد عن كل فاعل و مريد سواه سبحانه ، و ذلك ما يؤكده الامام علي (ع) في واحدة من خطبة التي تطرق فيها الى هذا الأمر ، قال : " ايها المخلوق السوي ، و المنشأ المرعي في ظلمات الارحام ، و مضاعفات الاستار ، بدئت من سلالة من طين ، و وضعت " في قرار مكين الى قدر معلوم " ، و اجل مقسوم ، تمور في بطن امك جنينا لا تحير دعاء ، و لا تسمع نداء ، ثم أخرجت من مقرك الى دار لم تشهدها ، و لم تعر سبل منافعها ، فمن هداك لاجترار الغذاء من ثدي أمك ،

(1)التبيان / ج ١٠ / ص ٢٢٨.

(2)المنجد / مادة مكن.

(3)الميزان / ج ١٥ / ص ٢٠.

و عرفك عند الحاجة مواضع طلبك وارادتك ؟ ؟ " (١) ، و الملاحظ استخدام الامام في الافعال صيغة البناء للمجهول (المنشأ ، بدئت ، وضعت ، اخرجت) و كذلك هداك و عرفك ، و الهدف هو التأكيد على الارادة الالهية في الخلق.

ثم ان خلقة الانسان لا تتحرك في الفراغ و لا على أساس الصدفة ، انما هي قائمة على الحكمة الدقيقة ، و التدبير الالهي المتين ، حيث القوانين التي تجلي ارادة الله و حكمته للمتدبر ، فالجنين لا ينمو و لا يمكث بلا قدر و لا قانون في بطن امه ، بل كما وصف اللهتعالى:

]الى قدر معلوم[

و حيث يخرج يكون مهيئا لممارسة الحياة خارج الرحم ، و تكون امه مستعدة نفسيا و بدنيا لاستقباله و هكذا عائلته . قال الزمخشري : الى مقدار معلوم ، قد علمه الله و حكم به وهو تسعة أشهر او ما دونها او ما فوقها (٢) ، و قال القمي : منتهى الاجل (٣) . و حين يحلالاجل فان الام لا تستطيع ان توقف التحويل النفسي و البيولوجي الذي يحدث في كيانها و توقف حركة الجنين باتجاه الخروج ، كما لا يملك الجنين نفسه من أمره شيئا ، بل هي الارادة الالهية وحدها تصنع ما تشاء و تتسع كلمة القدر الى معاني عدة نجملها في اثنين:

الاول : المقدار و الحد ، فيكون المعنى ان الجنين من الناحية النفسية و العضوية و هكذا الزمنية محدد بمقادير و مقاييس إلهية حكيمة يعلمها عز وجل.

الثاني : القدر و المصير ، فقد جعل الماء في قرار مكين لكي ينتهي الى قدر الهي(١) نهج البلاغة / خ ١٦٣.

(2)الكشاف / ج ٤ / ص ٦٧٩.

(3)تفسير القمي / ج ٢ / ص ٤٠٠.

يعلمه تعالى ، فقد يكون قدره ان يصبح ذكرا او انثى او بينهما ، او يخرج تاما او معيبا ، او حيا او ميتا ، ثم اذا خرج الى الحياة الدنيا فانه يتحرك وفق اقدار يعلمها الله ، و الى مصير محدد ، ربما يكون السعادة و الجنة ، و ربما يكون الشقاء و النار ، او يكون الفقر و الصحة ، او الغنى والمرض ، او ..او .. ، و لا تعني الآية ان كل انسان يأتي الى الحياة الدنيا ليعيش ضمن اقدار محددة يجبر عليها ، بل هي تكشف عن علم الله المطلق بما يؤول اليه من خير او شر . وقوله : " معلوم " يفيد التحديد من جهة ، و الاطلاقمن جهة ثانية ، فأما التحديد فان مسيرة الانسان في وضعها الطبيعي و النسبي محكومة بمعطيات و اقدار محددة يمكن لنا معرفتها عبر العلم و التجربة ، كميعاد الولادة و ما اشبه .. ، و اما الاطلاق فان العلم اليقين بكل شيء و بالذات بعض الامور فهو لله وحده يقدره ويعلمه ، بحيث لا يستطيع بشر تحديده و معرفته.

]فقدرنا فنعم القادرون[

قال ابن جرير : فملكنا فنعم المالكون ، و عن الضحاك قال: فخلقنا فنعم المالكون (١) ، و في التبيان : معناه فقدرنا من القدرة فنعم القادرون على تدبيره (٢) ، و في مجمع البيان : اي قدرنا خلقه كيف يكون

قصيرا او طويلا ، ذكرا أم اثنى ، فنعم المقدرون نحن ، و يجوز ان يكون المعنى اذا خفف (لان المفسرين قرؤوها بالتخفيف و التثقيل) من القدرة ، اي قدرنا على جميع ذلك فنعم القادرون على تدبير ذلك ، و على ما لا يقدر عليه احد الا نحن ، فحذف المخصوص بالمدح (3)، و هذا ما احتمله العلامة الطباطبائي في الميزان و قال:
من القدرة مقابل العجز ، و المراد فقدرنا على جميع ذلك (٤. (

(1)الدر المنثور / ج ٦ / ص ٣٠٦.

(2)التبيان / ج ١٠ / ص ٢٢٨.

(3)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٤١٧.

(4)الميزان / ج ٢٠ / ص ١٥٣.

]الم نجعل الارض كفاتا * احياء و أمواتا[

و الكفات السكن والوعاء ، ففي الخبر نظر أمير المؤمنين (ع) في رجوعه من صفين الى المقابر فقال : " هذه كفات الاموات " اي مساكنهم ، ثم نظر الى بيوت الكوفةو الذي اختاره ان الكلمتين : " فقدرنا " و " القادرون " مشربتين اثنين من المعاني في ان واحد : احدهما التقدير بالحكمة و العلم ، و الآخر القدرة بالقوة و المشيئة ، و لعمري ان المتفكر في خلقة البشر يجد اسمي الحكيم و القادر متجليين فيها بما لا يقبل ذرة من الشك ، لولا ان الانسان يجعل بينه و بين الحقيقة حجاب التكذيب بالحق للهروب من المسؤولية ، فله الويل من الله اذا فعل ذلك.

]و يل يومئذ للمكذبين[

و في الآية ملاحظة لطيفة عند قوله " يومئذ " فتلك ينبغي ان تكون اشارة الى يوم الفصل الذي اشار اليه السياق في السورة ، و هو كذلك ، بالاضافة الى ايحاء الكلمة بمعنى آخر ، هو ان تلك الآيات الالهية المتجلية في الخلقة تهدينا الى ان الويل للمكذبين، فأي جريمة كبرى هي التكذيب بحقيقة عظمى كحقيقة الغيب و قدرته و حكمته ! و الاشارة الى ذلك بـ " يومئذ " هو ترتيب على تلك النتيجة الحاصلة ، اذ لا يعقل ان الخالق الحكيم لا يقدر آخرة بعد الدنيا و ذلك من مسلمات الحكمة الاولية.

[37 - 25]من التفكر في آفاق النفس الذي يقود الانسان الى التسليم لله و الايمان بيوم الفصل تنطلق الآيات موجهة ابصارنا الى آفاق الطبيعة من حولنا ، فهي الاخرى تعكس اسماء الله و آياته الهادية الى الحقائق.

فقال : " هذه كفات الاحياء "ثم تلا قوله : " الايتين " (١) ، و في مجمع البيان : كفت الشيء يكفته كفتا و كفاتا اذا ضمنه ، و منه الحديث : " اكفتوا صبيانكم " اي ضموهم الى انفسكم ، و يقال للوعاء : كفت و كفيت ، و قال ابو عبيده كفاتا : اي اوعية (2)، و عن قتادة و مجاهد و الشعبي : اي تحوزهم و تضمهم (٣) ، و الارض وعاء و سكن للخلائق تضم الناس و الاحياء و الاموات ، سواء بالمعنى الظاهر او بالمعنى المجازي للكلمة حيث المؤمنين و الكفار ، و العلماء و الجهلة.

]و جعلنا فيها رواسي شامخات[

قال القمي : جبال مرتفعة (٤) ، و لعل الآية تبين حقيقة جيولوجية و هي ان للجبال قمتين : قمة راسية في اعماق الارض كقاعدة البناء ، و قمة صاعدة شامخة في آفاق السماء.

]و اسقيناكم ماء فراتا[

و هناك علاقة بين الحديث عن الجبال و بين الحديث عن الماء الفرات ، فان أفضل المياه و اعذبها ما تتفجر به ينابيع الجبال ، و ما ينحدر منها الى جوف الارض و سفوحها و انهارها.

قال الامام علي - عليه السلام - يصف الارض : " فلما سكن هيج الماء من تحت اكنافها ، و حمل شواهق الجبال الشمخ البذخ (الطاغية في الارتفاع) على اكتافها ، فجر ينابيع العيون من عرانين انوفها (العرنين : ما صلب من عظم(١) تفسير القمي / ج ٢ / ص ٤٠٠.

(2)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٤١٦.

(3)المصدر / ص ٤١٧.

(4)تفسير القمي / ج ٢ / ص ١٣٢.

الانف ، و المراد اعالي الجبال) ، و فرقها في سهوب بيدها (جمع بيداء و هي الصحاري) و اخاديدها ، و عدل حركاتها (يعني الارض) بالراسيات من جلاميدها و ذوات الشناخيب (القمم) الشم من صياخيدها ، فسكنت من الميدان لرسوب الجبال في قطع اديمها ، و تغلغلها متسربة في جوبات خياشيمها (الجوب :الحفر ، و الخياشيم : منفذ التنفس) ، و ركوبها اعناق سهول الارضين و جراثيمها (المنحدرات) ، و فسح بين الجو و بينها ، ثم لم يدع جرز الارض التي تقصر مياه العيون عن روابيها ، و لا تجد جداول الانهار ذريعة الى بلوغها ، حتانشأ لها ناشئة سحاب تحيي مواتها ، و تستخرج نباتها .. " (١ (، و قال الامام الصادق (ع) : " انظر يا مفضل الى هذه الجبال المركومة من الطين و الحجارة ، التي يحسبها الغافلون فاضلا لا حاجة اليها ، و المنافع فيها كثيرة ، فمن ذلك ان يسقط عليها الثلوج فيبقى في قلالها لمن يحتاج اليه ، و يذوب ما ذاب منه فتجري منه العيون الغزيرة التي تجتمع منها الانهار العظام .. " (٢. (

و جعل الله الارض كفاتا ، و جعله فيها الجبال الراسية الشامخة ، و سقينا بها الماء الفرات من ينابيع مخازنها ، و ذوبان ما تقله من الثلوج ، كلها نعم الهية تستوجب الشكر و الحمد له ، و من شكره اتباع رسله و رسالاته ، الا ان الانسان غالبا ما لا يفعل ذلك ، بل تراه كفورا مكذبا ، و يل له يوم القيامة من شديد العذاب على قلة حمده ، و مقابلته احسان ربه بالتكذيب.

]ويل يومئذ للمكذبين[

من غضب الله و عذابه ، فان غضبه عليهم و تكذيبهم لرسله و كتبه يستحيلان في الاخرة الوانا من العذاب الذي لا يطاق ، ينطلقون اليه بزجر خزنة جهنم و مقامع من(١) نهج البلاغة / خ ٩١ / ص ١٣٢.

(2)موسوعة بحار الانوار / ج ٣ / ص ١٣٦.

نار تلظى ، و لسان الحال قولا و فعلا ما حكى رب العزة:

]انطلقوا الى ما كنتم به تكذبون[

قال العلامة الطبرسي : يعني من العقاب على الكفر ، و دخول النار جزاء على المعاصي (١) ، و علق الرازي بالقول : و الظاهر ان القائلين هم خزنة النار (2)، و الذين يكذبون به هو الجزاء و النار ، و التكذيب بذلك يعني انكاره ، و انكار الحقائق الاخرى بسبب هذا التكذيب.

]انطلقوا الى ظل ذي ثلاث شعب[

و لعل الظل بسبب الدخان الذي يحجب النور ، او هو الظلام الحالك ، و قد اختلف المفسرون في معنى " ثلاث شعب " ، فقيل معناه : يتشعب من النار ثلاث شعب : شعبة فوقه ، و شعبة عن يمينه ، و شعبة

عن شماله فتحيط بالكافر (٣) ، و قيل :يخرج من النار لسانفيحيط بالكافر كالسرداق ، فينشعب ثلاث شعب فيكون فيها حتى يفرغ من الحساب (٤) ، و في اللغة : الشعبة جمعها شعب و شعاب : الفرقة و الطائفة من الشيء ، يقال : اشعب لي شعبة من المال اي اعطني قطعة من مالك ، و يسمى الغصن من الشجرة شعبة (٥) ، و نفهم من ذلك ان الظل ينشعب الى ثلاثة اقسام ، ولعل المكذب يلقى في كل شعبة الوانا من العذاب تختلف عما في الشعبتين الآخريين شدة و نوعا.

(1)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٢٣٠.

(2)التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص ٢٧٤.

(3)التبيان / ج ١٠ / ص ٢٣٠.

(4)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٤١٨.

(5)المنجد / مادة شعب بتصرف.

و يختلف ذلك الظل عن ظل الدنيا بصورة تامة ، فاننا نأوي الى الظلال فيها طلبا للراحة ، و هربا من حر الشمس و لفحها ، اما الظل المقصود في الآية فانه قطعة من عذاب جهنم.

]لا ظليل[

معناه : غير مانع من الاذى يستر عنه .. فالظليل من الظلة و هي السترة (١) ، و سمي الظلال بذلك لانه يحجب الشمس و يسترها و يمنع الحر . و ليس الظلال المشار اليه في الآية يسبب الراحة لاهله.

]و لا يغنى من اللهب[

و اللهب ما يعلوا من السنة النار و حر لفحها ، و ليس ذلك الظل يدفع عنهم حر لهب جهنم.

]انها ترمى بشرر كالقصر[

قيل :مثل القصور و الجبال (٢) ، و في حديث طويل عن النبي (ص) في شأن النار :قال : " تزفر النار بمثل الجبال شررا " (٣) ، و قيل : مثل اصول الاشجار المتشعبة الجذور ، قال ابن عباس : كجذور الشجرة ، و عن مجاهد قال : حزم الشجر ، و عن الضحاكقال : اصول الشجر العظام (٤) . و العرب تشبه الابل بالقصور (٥) ، و المهم ان التشبيه بالقصر كناية عن الضخامة و التشعب معا و هما(١) التبيان / ج ١٠ / ص ٢٣٠.

(2)في القمي و التبيان و مجمع البيان و الكشاف و التبيان و الدر المنثور و التفسير الكبير.

(3)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٤٩٠.

(4)الدر المنثور / ج ٦ / ص ٣٠٤.

(5)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٤١٨.

مجتمعتين في مثل القصور.

]كانه جمالت صفر[

و قد ذهب اغلب المفسرين الى القول بأنها الجمال ، و قيل : هي قطع النحاس و هو مروي عن الامام علي (ع) (١) ، و النحاس يسمى صفرا عند العرب ، و بناء على هذا القول ينبغي حمل الجمالة على انها جمع جمل وهو الحبل و السلك العظيم ، لقوله تعالى : " حتى يلجالجمل في سم الخياط " (٢. (

و هذه الالوان من العذاب هي بعض ما يلقاه المكذبون من الويل في الآخرة ، و الذي يشيره اليه القرآن بتكرار الآية الكريمة:

]ويل يومئذ للمكذبين[

و من و يلاتهم يوم الفصل انهم تسلب حرياتهم التي طالما اساؤوا استخدامها و فهمها في الدنيا ، الى حد لا يستطيعون النطق ، و لا يؤذن لهم من قبل الله عز وجل . و لعل ذلك جزاء اطلاقهم العنان لانفسهم في الاهواء و الشهوات ، و عدم التزامهم بحدود الله و شرائعه.

]هذا يوم لا ينطقون[

و في الاحاديث : ان أهل جهنم يلجمون بلجم من نار ، و تحبس السنتهم التي سخروها لحرب رسالة الله و حزبه ، بل لا يستطيعون النطق للحجج الالهية البالغة التي لا تدع لهم مجالا للتبرير و لا قدرة على الكلام في محضر رب العزة.

(1)التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص ٢٧٦.

(2)الاعراف / ٤٠.

ان النفس اللوامة توخز ضمير الكاذب المنحرف ، و ان عقله يهديه الى الاعتبار بمصير الغابرين ، و لكن نفسه الامارة بالسوء تلح عليه بأتباع الشهوات و امتطاء مركب الغرور و الجحود ، و هنا يقدم الشيطان بالحل الوسط ، هو التسويل و التزيين ، فيؤول آيات الذكر ،و يعتذر للدعاة اليها ، و يبرر للناصحين ، و يخادع نفسه .. و هكذا تجد أكثر المكذبين و المجرمين يعدون تبريرات و اعذار لانفسهم كما للآخرين بما يزعمون انها سبب انحرافهم و فسادهم ، و لكن في يوم القيامة ليس لا تقبل منهم تلك المعاذير الباطلة بل و لا يسمح لهمبسردها لانها محكومة سلفا بالسفاهة و الدجل ، مما يدعونا الى اعادة النظر و بصورة جدية فيما نعتذر به للآخرين او نخدع به انفسنا انطلاقا من الثقة بانها لا تغني عنا شيئا في يوم القيامة .

]و لا يؤذن لهم فيعتذرون[

لان الاعتذار النافع هو اعتذار الانسان لربه في الدنيا عن الخطيئات بالتوبة الخالصة ، اما الآخرة فهي للفصل و الجزاء فقط ، من هنا لا يؤذن لهم للاعتذار ، و الامام الصادق (ع) يهدينا الى فكرة دقيقة في الآية فيقول " : الله أجل و أعدل و أعظم من ان يكون لعبده عذر و لا يدعه يعتذر به ، و لكنه فلج فلم يكن له عذر " (١) ، بلى . انهم لا يريدون الجدال عن حقهم بالمنطق السليم ، و انما يريدون التوسل بالاعذار الواهية ، و لذلك لا يؤذن لهم . و هذا من حكمة الله عز وجل اذ لو كان يترك الانسان يفعل ما يشاء في الحياة الدنيا ، ثم يفتح له يوم الفصل باب التبرير لفسدت حكمة الخلق ، كلا ..بل لهم الويل بعد الويل.

]ويل يومئذ للمكذبين[

ومن هذه الآية نكتشف ان الاعذار الواهية هي بدورها كذب و لصاحبها(١) نور الثقلين / ج ٥ / ص ٤٩٠.

الويل.

[44 - 38]و بعد ان عرض القرآن مشاهد من يوم الفصل يضع النفوس المكذبة في موقف الشاهد لذلك المستقبل بزمانه ، و لكنه حاضر بحقائقه و شواهده و مواقفه و لحظاته الحرجة ، لعلها ترجع عن غيها و ضلالها.

]هذا يوم الفصل جمعناكم و الاولين [

و للجمع هنا معنيان:

الاول :هو البعث بجمع الاوصال و العظام و جمعها مع الروح ليكون بشرا سويا بعد الموت ، و قد أشار القرآن الى هذا المعنى في آيات عديدة منها قوله في سورة القيامة : " ايحسب الانسان الن نجمع عظامه " (١) . و انما ذكر الاولين لان المشركين عادة ما كانوا يستبعدون البعث ، و بالذات بعث اولئك الاولين الذين اضمحلت ابدانهم و تبددت اوصالهم.

الثاني : ان يكون الجمع بالمعنى الظاهر للكلمة ، فان الناس (أولين و آخرين) يجمعون في عرصة القيامة للفصل بينهم و في مصائرهم . و انما ذكر الاولين و الاخرين من المكذبين تمهيدا لتحديهم في الآية اللاحقة ، اذ لا يريد الله ان يتحدى بعض المكذبين وحسب بل كلهم مجموعين الى بعضهم عددا و عدة.

]فان كان لكم كيد[

تدعون الغلبة به و تعتمدون عليه.

(1)القيامة / ٣.

]فكيدون[

و هذا رد على ما اجمعوا عليه و توارثوه من الخبرة في الكيد ضد الحق (قيما و قيادة و حزبا) في الحياة الدنيا . و ما عسى ان يبلغ كيد هذا الانسان الضعيف و الجاهل حتى يبارز ربه عز وجل ؟ ! ولكن يتكبر و يأخذه الغرور فيلقي بنفسه في مهلكة المكايدة مع الله ،فالويل للمكذبين مما يصيرون اليه نتيجة حربهم لله الملك الجبار المتكبر.

]ويل يومئذ للمكذبين[

و هل ثمة ويل اعظم من كيد الله العظيم باحد ؟ ! كلا .. فهو حق بكل ما تتسع له الكلمة من معنى . و هكذا يسفه السياق القرآني الظن الذي يبعثهم نحو التكذيب وهو انهم قادرون على مقاومة جزاء اعمالهم بكيدهم و ما يستخدمونه من خطط و اساليب . اما المتقون الذين امنوا بالله ، و صدقوا رسالاته ، و اتبعوا رسله و اولياءه ، فمصيرهم الى رضوانه و جزائه الحسن.

]ان المتقين في ظلال و عيون[

و ليس الظلال كالظل " ذي ثلاث شعب * لا ظليل و لا يغني من اللهب " بل هو ظلال رضوان الله الذي يلقى فيه المتقون غاية الأمن و السعادة ، حيث اللذة ببرد لطف الله و رحمته ، و حيث التمتع بنعيم الجنة كالمناظر البديعة للعيون التي تستريح العين لرؤيةمائها المتفجر.

]وفواكه مما يشتهون[

بكل ما تنطوي عليه كلمة الاشتهاء من معنى ، ففي الجنة يطلق الله بفضلهو مشيئته عنان الشهوة

لاولئك الذين عقلوها بعقال أحكام الله و حدوده ، فالمتقون هناك يجدون ما يحبونه من الفواكه في كل مكان و زمان ، اذ تسقط معادلة الفصول و المواسم ، كما يبلغون شهوتهم كيفما يريدون ، اذ تأتي الفواكه بالحجم و اللون و الطعم و الشكل الذي يتخيله واحدهم و أحسن منه.

و العلاقة واضحة بين هذه النعم الثلاث ، فان الظل و العيون و الفواكه المتنوعة هي أبرز معالم الجنة ، و انما ذكرها الله كناية عن الجنة ، و تفصيلا في المعنى للمزيد من التشويق و الترغيب للمتقين في نعيمها.

و من سمات المنهج الاسلامي انه يوصل بين السعي و الجزاء ، و ذلك لكي لا يتحول الشوق الى جنات الله و رضوانه الى مجرد اماني و ظنون ، و انما تكون الرغبة لبلوغها نهج عمل و سعيا حثيث من أجل الوصول اليها و تحقيقها في الواقع . هذا على صعيد الدنيا ، اما على صعيد الاخرة فان بيان الله للمتقين علاقة عملهم بجزائهم نوع من الاكرام لهم ، و الا فان ما يلقاه المتقون في جنات الله من الناحية المادية و الموضوعية أعظم من ان يبلغه بشر بسعيه ، انما هو فضل من الله و رحمة . و من هذا المنطلق يخاطب المتقون في الآخرة:

]كلوا و اشربوا هنيئا[

خاليا من كل اسباب النكد و النغص يمكن ان يكون في طعام او شراب.

]بما كنتم تعملون * انا كذلك نجزي المحسنين[

الذين يحسنون الصنع (الالتزام بالقيم ، و التعامل مع الآخرين ، و الاستفادة من نعم الله عليهم) ، و قد ذكر الله صفة الاحسان في المتقين كسبب لاستحقاقهم الفضيلة و الرضوان عنده تاكيدا على انها ارفع درجة يبلغها احد في القرب من الله ،و العروج في افاق الايمان و العمل الصالح ، و ذلك لما يشتمل عليه الاحسان:

الاول : انه من أعظم صفات الله و اخلاقه.

الثاني : انه مرتبة رفيعة في الكمال البشري ، اذ يعني خروج الانسان من شح النفس الى حب الآخرين و ايثارهم.

[50 - 45]و في ختام السورة التي تهدف علاج موقف التكذيب عند الانسان من خلال توجيهه الى آيات الله ، و تخويفه من عذابه ، يؤكد القرآن عاقبة الويل لكل مكذب ، مبينا لهم بان متعتهم لن تمتد الا قليلا ثم يعقبها مصير سيء نتيجة اجرامهم و عدم استجابتهم لداعيةالحق.

]ويل يومئذ للمكذبين[

و كفى بتكرار هذه الآية عشر مرات في السورة تأكيدا للحقيقة الهادية اليها) ان الويل للمكذبين) . و المكذبون يختلفون عن المتقين في المصير يوم الفصل ، فبينما يصير هؤلاء في ظل و عيون و فواكة مما يشتهون ، يصير اولئك الى الويل و الثبور " ظل ذي ثلاث شعب * لا ظليل و لا يغني من اللهب " ، كما يتهنا المتقون بأكلهم و شربهم حيث لا يساورهم خوف انقطاعه او انقطاعهم عنه ، اما المكذبون المجرمون فلا تطول بهم المتعة الا قليلا ثم تنتهي راحتهم الى عذاب مقيم.

]كلوا و تمتعوا قليلا انكم مجرمون [

و اذا كان المكذبون مترفين ، و في ايديهم نعم الله و الوان المتع ، فانه لا يعني حضوتهم برضوان الله ، لانهم مجرمون ، فلا جريمة أكبر من تكذيب الانسان بالحق و ممارسته الباطل في الحياة ، سواء فعل ذلك الفقير او صاحب الثروة والاتباع.

و الاية تهدينا من جهة اخرى الى ان لهث البشر وراء حطام الدنيا و متعها هو العامل الرئيسي في ضلاله و اقتحامه كل جريمة .. و ليس لهذا الأمر من علاج في نفس المكذب المجرم الا بالتفكير في العاقبة يوم الفصل ، لان ذلك مدعاة للعاقل ان يترك المتع القليلة في ذاتهاو مدتها و الموجبة للويل المقيم يومذاك ، و هذا ما يفسر علاقة الاية (46)بقول الله بعدها:

]ويل يومئذ للمكذبين[

و حينما يستحضر الانسان في وعيه و تصوره حقائق ذلك اليوم فسوف يجد نفسه مدفوعا لترك الجريمة و كل أكله و متعه لا ترضي الله ، و من ثم ترك التكذيب الى الاحسان ، و الطمع في نعيم الآخرة ، و التسليم لله و لرسله و رسالاته ، لان جاذبية شهوات الدنيا لا تقاوم الا بمثل جاذبية الجنة و خشية مصير المكذبين و المجرمين ، و وعي العذاب الشديد الذي ينتظر المكذبين.

و يبين القرآن صفة اخرى للمكذبين اضافة الى لهثهم وراء حطام الدنيا و متعها ، و اضافة الى كونهم مجرمين ، الا و هي عدم تسليمهم لاوامر الله و عدم خضوعهم لها.

]و اذا قيل لهم اركعوا لا يركعون [

قال مقاتل : نزلت في ثقيف حين أمرهم رسوله الله (ص) بالصلاة فقالوا : لا ننحني ، و اضاف العلامة الطبرسي : و الرواية لا ننحني فان ذلك سبة علينا ، فقال رسول الله : " لا خير في دين ليس فيه ركوع و سجود " (١) ، ذكر ذلك اغلب المفسرين . و قد ذكرالركوع بالذات لأمرين رئيسين:

(1)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٤١٩.

الاول :انه ذكر كناية عن الصلاة ، لان الركوع ابرز ما فيها ، و لذلك تسمى وحدات الصلاة بالركعات ، و الصلاة تمثل عمود الدين ، و ذكر مخالفتهم و عصيانهم لله في ابلغ اوامره و شرائعه اوضح دلالة على عصيانهم و تكذيبهم.

الثاني :لان الصلاة هي مظهر العبودية لله ، و الركوع منها رمز الخضوع و التسليم و مظهره العملي ، و بيان تكذيب المكذبين و تمردهم عن التسليم لله و للقيادة الرسالية يكون اجلى عند التمثيل له بالركوع و السجود من التمثيل له باي شيء آخر ، و على هذا الاساس نستطيع حمل الركوع هنا على انه رمز للتسليم بكل مفرداته لا كونه محصورا في ركوع الصلاة فقط ، و لذلك فان رفض التسليم - بجميع معانيه - يستلزم الويل للمكذبين.

]ويل يومئذ للمكذبين[

الذين يكذبون بالحقائق ، و من أبرزها و أهمها:

اولا : الآخرة ، فان الايمان بها اساس ايمان الانسان بسائر القيم و الحقائق الالهية ، و أساس التزامه بكل مفردات الدين في الحياة.

ثانيا :القرآن الكريم وهو حديث الله للناس ، و الذي لا يصلحه حديث ربه ، و لا تداوي ادواءه آياته ، فلن تجد له علاجا ابدا ، و هكذا فان من لا يؤمن به و يسلم له على ظهور حججه و دلائله فبماذا يؤمن بعده ؟ !

]فباى حديث بعده يؤمنون[

لان الاحاديث غيره كلها لا تصل الى مستواه في الصدع بالحق ، و اشتمالها عليه ، و لا في بيانها و

هدايتها له ، و كيف يرتفع حديث مخلوق الى صحة حديثالخالق و بلاغته ؟!

و من الآية نهتدي الى ان من لا يؤمن بحديث القرآن ، و منه بالذات حديث الآخرة ، فانه يبقى في شك من كل شيء و حديث ، بل يبقى في التباس من وجوده و وجود اوضح الموجودات كالشمس الساطعة في الآفاق!

اما عن راي المفسرين في الآية الكريمة فقد اتفقوا على ان الحديث هو القرآن ، و يمكن حمله على انه حديث الآخرة ، و بتعبير اصح نقول : هو القرآن الذي من ابرز احاديثه بعد تعريف الانسان بربه حديثه عن الآخرة ، التي يحتل موضوعها أهمية كبيرة في القرآن كما و كيفا ، و في الثقافة الاسلامية بصورة عامة

سورة النبا

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

روي عن النبي - صلى الله عليه واله وسلم - انه قال : " من قرأ هذه السورة و حفظها لم يكن حسابه يوم القيامة الا بمقدار سورة مكتوبة حتى يدخل الجنة "البرهان في تفسير القرآن / ج ٤ / ص ٤١٩

الاطار العام

الحقائق الكبرى تحيط بلب البشر احاطة السوار بالمعصم ، كلما اراد منها هروبا و جدها امامه ، و لا ريب ان النشور للحساب ، و الولاية من تلك الحقائق ، فبالرغم من محاولات الفرار منها تراهم يتساءلون عنها ، لانها من النبأ العظيم ، و النبأ العظيم يجده الانساناامامه انى اتجه ، و لأهميته يختلفون فيه ، في تفاصيله مرة و في محاولات التهرب منه احيانا.

كلا .. انه يفرض نفسه عليهم حتى يعلموه علم اليقين ، ثم كلا سيعلمونه حين يرون عواقب تكذيبهم به .

بعد هذه الفاتحة الصاعقة تمضي السورة تذكرنا بآيات الله في الخليقة و التي تهدينا الى انه عليم حكيم ، و انه لم يخلق العباد سدى ، و انما بحكمة بالغة تتجلى في المسؤولية . لقد خلق ما في الارض للانسان فلاي شيء خلق الانسان نفسه ؟ الم يجعل الارض مهادا ، و الجبال اوتادا ، بل و جعل في ذات الانسان ما يدل على بديعالصنع ، و بالغ الحكمة ؟ لقد خلقنا ازواجا ، و جعل لنا النوم استراحة عن العمل ، وجعل الليل لنا سترا و النهار معاشا للنشاط و الحركة ، اما السماء فقد جعلها سقفا محفوظا بسبع طبقات شداد ، و علق فيها لاهل الارض سراجا و هاجا ، ثم انزل منها ماء متواصلا مندفعا، ثم جعل هذا النظام مترابطا ببعضه فانبت من الارض حبا و نباتا ، و جنات الفافا ، كل ذلك من أجل الانسان ، و الانسان من أجل المسؤولية ، و لكي يقدم للمحاكمة غدا في يوم الفصل الذي كان ميقاتا للحساب ، يوم ينفخ في الصور فيتوافد الخلائق افواجا افواجا . اما السماء فانها تتحول الى أبواب لتنزل الملائكة بالعذاب او الثواب . اما الجبال التي أكنت البشر فتكون سرابا.

هنالك الحساب ، فبينما يساق الطغاة الى جهنم ليبقوا فيها احقابا بلا برد و لا شراب تجد المتقين في مفاز ، حيث يدخلون الجنة ليتمتعوا بنعيمها و امنها و خلودها ، و هذا وذاك يكون تجسيدا لمسؤوليتهم في الدنيا ، و جزاء وفاقا لاعمالهم.

و تختم السورة بتصوير مشهد من مشاهد القيامة حيث يقوم الروح و الملائكة صفا لا يتكلمون ، و يذكرنا ربنا بان فرصة الاختيار السليم لا تزال قائمة فقد انذرنا عذابا قريبا ، يوم يرى المرء أعماله التي قدمها

متجسدة امامه . اما المؤمن فيفرح بها ، و اما الكافر فيقول : ياليتني كنت ترابا و لم اقدم مثل هذه الاعمال او اتحمل تلك المسؤوليات.

بينات من الايات

[1]يعرض البشر عادة عن التفكير الجدي في الحقائق الكبرى التي ترسم الخطوط العريضة في حياته ، لماذا ؟ هل لانها غامضة ؟ كلا .. بل لان في نفسه نزوعا عنها ، اوليست معرفتها تحمله مسؤوليات كبيرة . اذا لماذا يكلف نفسه عناء ذلك ؟ دعه يمر على آياتها غافلا عساه يتهرب من مسؤولياتها . و لكن هل الاعراض عنها يغنيه شيئا ؟ كلا .. انه بالغها فمواقعها شاء ام ابى ، آمن ام عاند و كفر.

من تلك الحقائق يوم الفصل و ميقاته ، و ما فيه من أهوال عظيمة تدع الولدان شيبا ، و ما يفرضه علينا من مسؤولية التسليم للحق و لقيادته ، فهل يمكن الاعراض عن كل ذلك ؟ كلا .. لان آياته ملأت آفاق حياتنا ، و اننا لازلنا نتساءل عنها و نختلف فيها و لكن ليس بصورة جدية ، و غدا حين نواجهه نعلم مدى الخسارة في هذا التساهل ، و لا يسعفنا الندم يومئذ شيئا.

]عم يتساءلون[

[2]و اذا كان الانسان يعرض عن النبأ العظيم فلماذا يتساءل عنه ؟ ربما لان شواهده تفرض عليه التساؤل ، فهو من جهة يتهرب من التسليم له لانه يحمله مسؤولية التسليم للحق و لقيادته ، و من جهة ثانية لا يستطيع الفرار من آياته التي تحيط به ، فيظل يتساءل عنه:
كيف و متى و اين و لماذا ! ؟ و مراده من كل ذلك الفرار منه ، و في الذكر الحكيم بيان لتساؤلاتهم عن يوم الفصل : انى هو ، و متى هو ، و كيف يحيي الله فيه الاموات ، و ما اشبه.

]عن النبأ العظيم[

فما هو ذا النبأ العظيم ؟ هل هو مجمل الحقائق العظيمة كالتوحيد و الرسالات و البعث و الجزاء ، ام انه يوم الفصل الذي يذكره السياق لاحقا ، ام انه ولاية الامام علي - عليه السلام - حسبما ذكر في رواية مأثورة عن النبي - صلى الله عليه واله - ؟

كل ذلك محتمل ، لا سيما و نحن نعرف ان الحديث عن موضوعات الرسالة متواصل بعضها مع بعض ، فمن تساءل عن يوم الفصل فانما يتساءل عنه ليعرف هل عليه ان يسلم للنذير به وهو الرسول و لمن يأمره الرسول باتباعه.

و اذا كان الفرار من المسؤولية هو الباعث نحو جحد يوم الفصل فان اعظم المسؤوليات التسليم للقيادة الشرعية و التي تمثلت في ولاية ائمة الهدى و في طليعتهم الامام علي عليه السلام.

و هكذا روي عن الحافظ ابي بكر محمد بن المؤمن الشيرازي عن رسول الله - صلى الله عليه واله - في تفسير هذه الآية انه قال : " المراد ولاية علي الذي يسأل عنها في القبر " (١. (

و روي عن الامام الصادق - عليه السلام - انه قال : " النبأ العظيم الولاية " (٢. (

و قال الامام علي بن موسى الرضا - عليه السلام - : " قال أمير المؤمنين(١ (عن رسالة الاعتقاد للحافظ ابو بكر محمد بن المؤمن الشيرازي في تفسير نمونه /ج ٢٦ / ص ١٠.

(2)المصدر / ص ١١.

-عليه السلام - : ما لله نبأ أعظم مني ، و ما لله آية أكبر مني " (١. (

و روي عن الامام الحسين بن علي - عليه السلام - انه قال : " قال رسول الله - صلى الله عليه واله -

لعلي - عليه السلام - : يا علي ! انت حجة الله ، و انت باب الله ، و انت الطريق الى الله ، و انت النبأ العظيم ، و انت الصراط المستقيم ، و انت المثل الاعلى " (٢. (

[3]و اختلافهم في النبأ العظيم دليل على انهم لا يملكون حجة دامغة لنفيه فاذا بهم يترددون في أمره ، تدعوهم آياته للايمان به بينما تدعوهم اهواؤهم الى الجحود.

]الذي هم فيه مختلفون[

و لعل اختلافهم يكون ايضا في تفسير دلائله و كيف يتهربون منها . الا تجد كيف ضربوا للرسول الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا فقالوا انه مجنون بل هو شاعر بل افتراه ، و هكذا يكون الاختلاف دليل عجزهم عن تفسير آيات الحقيقة التي ينكرونها.

[4]و هل انكارهم للحقيقة يلغيها او اختلافهم فيها يخفف عنهم وطأتها حين تنزل بهم ! ؟

]كلا سيعلمون[

يوم يساقون الى الجزاء فلا يجدون عنه محيصا.

[5]بل انهم سيجدون الجزاء في الدنيا قبل الآخرة.

(1)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٤٩١.

(2)المصدر.

]ثم كلا سيعلمون[

و قال بعضهم : ان هذه الآية تشير الى انهم سيعلمون الحق في الاخرة بينما الاية السابقة تشير الى ما يعلمونه في الدنيا . و يحتمل ان يكون الاتيان بمفهوم واحد للتاكيد.

[6]او لا يبصرون ايات الله في الخلق فيعرفون حكمته و انه لم يخلقهم عبثا و لن يتركهم سدى ؟

]الم نجعل الارض مهادا[

اولا تراها كيف ذلك لمعاشك تذليلا ؟ انبسطت عليها طبقة من التراب تستخدمه للسكنى و الزراعة ، و تسويه لحركتك ، و يحتضن اجسادنا بعد الموت ، و يستوعب سائر انشطتنا في الحياة.

و اذا امعنا النظر راينا ان سائر ما في الارض هيء لحياة الانسان ، و لا نعرف مدى أهمية الانظمة التي أجراها الرب في الارض الا بعد قياسها بسائر الكرات القريبة التي لم نعهد في اي منها اثرا للحياة و لا فرصة للعيش . او ليس في كل ذلك دليل على التدبير و الحكمة ؟ او لا نهتدي بها الى ان الله لم يخلقنا عبثا ؟

[7]و لكي تستقر الارض و ما فيها ، و لا تتعرض لامواج الاعاصير التي تحيط بها ، و لا لتناوب المد و الجزر الناشئين من جاذبية القمر كما البحر ، و لكي تتحصن قشرة الارض من اخطار الزلازل و البراكين و الانهيارات بسبب الغازات التي تتفاعل في نواتها الداخلية، لكل ذلك و لاسباب اخرى عديدة نعرف بعضها و نجهل الكثير جعل الله للارض واوتادا هي الجبال.

]و الجبال اوتادا[

هذه القمم السامقة ، و تلك السفوح المنبسطة ، و هذه الشبكة من الصخور التي تتصل ببعضها من فوق الارض و من تحتها . انها تحصن الارض كما الدروع السابغة . افلا نبصر اثار القدرة و لمسات الحكمة على الطبيعة من حولنا ؟ فسبحان الله و تعالى عن العبث و اللغو.

[8]و اذا عدنا الى الانظمة التي تسود حياتنا ابصرنا المزيد من اثار القدرة و الحكمة فيها ، فهذه سنة الزوجية التي تكشف من جهة مدى حاجتنا الى بعضنا ، كما تعكس من جهة ثانية حسن تدبير الخالق ، و دقة تنظيمه.

]و خلقناكم ازواجا[

لو كنا قد خلقنا لكنا جعلناها اكمل و اقوى منها الان ، مثلا ربما لم نوجد فيها حاجة الى الجنس الاخر او الى الطعام و الشراب و الراحة و السكن و ما اشبه . ولو اوجدتنا الصدفة لم نجد فيها هذا التكامل مما نجده مثلا بين الزوجين ، تكاملا في الروح و الجسد ، فيالغرائز و الشهوات و الحاجات حتى اغتدى كل جنس سكنا للجنس الآخر يجد فيه ما يفتقر اليه ، قال سبحانه : " و من آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها و جعل بينكم مودة و رحمة " (١. (

[9]و بمناسبة الحديث عن الزوجة و عن السكن الذي توفره يذكرنا الرب بنعمة النوم الذي هو نوع من السكن ، يهيمن على ذرات وجودنا و يقطعها عن التفاعل المجهد مع المحيط ، و يبسط على ارجاء الجسد غلالة من الهدوء و الراحة.

]و جلعنا نومكم سباتا[

و يبدو ان معنى السبات هو الفراغ الموقت او التعطيل وقطع تيار النشاط.

(1)الروم / ٢١.

ماهو النوم ، و كيف يحدث ، و ما اسراره ؟ ان العلم الحديث لا يزال يتوغل في رحاب هذه الظاهرة العامة من حياة الانسان و يكشف المزيد من أسراره ، الا ان الثابت أهمية دور النوم في تهدئة اعصاب البشر ، و مساعدة مخه على تنظيم المعلومات وتخزينها ، و عودة الجسمالى انظمته الذاتية بعد تعرضه للمؤثرات الخارجية ، و بسط قدر من الهدوء الى مختلف الاعضاء ، و بكلمة : النوم استراحة الجسم بعد جهد متواصل.

[10]و يتم النوم عادة في الليل حيث يسدل استاره على الطبيعة ، و يضفي عليها جو الهدوء و السكينة.

]و جعلنا الليل لباسا[

ارايت لو كانت الارض بمن فيها و ما فيها تتعرض لاشعة الشمس باستمرار افلم تكن تؤثر الاشعة فيها و تجهدها ؟ هكذا نظم الله الارض بحيث يتناوب عليها الليل و النهار لضمان استمرار الحياة فيها.

و التعبير بـ (لباس) بالغ في الروعة و الدقة . او ليس اللباس يستر الشيء عما يشينه و يضره ، كذلك ظلام الليل يستر الطبيعة و الاحياء عن استمرار تعرضهما للاشعة.

[11]و بعد ان تسترخي الطبيعة فوق فراش الظلام ، يستنهضها النهار لمسيرة متجددة ، فها هي خيوط اشعة الشمس توقظ الروابي و السهول ، و تبعث في النبات و الاحياء النشاط و الحيوية لتجديد نفسها ، و تواصل حركتها.

]و جعلنا النهار معاشا[

اي ميعادا للعيش ، و وقتا مناسبا للاسترزاق ، و هكذا جعل الله في كل حي حاجة الى النمو و الاستمرار ، و اودع فيه أحساس بهذه الحاجة لكي يسعى اليها ، و وفر له فرص تحقيقها . افلا يهدينا ذلك الى انه المدبر العليم ، و انه قادر على نشرهم الى يوم الفصل و محاسبتهم ؟

[12]و هكذا جعل الله الارض دارا مهيأة لحياتنا و بنى فوقها سقفا محفوظا لكي لا تتساقط علينا النيازك و الاحجار السابحة في الفضاء و لا ينزل علينا ما يضرنا من اشعة النجوم الضارة ومن حرارة الشمس المهلكة.

]و بنينا فوقكم سبعا شدادا[

ما هي هذه السبع الشداد ؟ هل هي المجرات المحيطة بمجرتنا او المنظومات الشمسية القريبة منا ، ام هي السماوات التي زينت واحدة منها بالنجوم و هي التي نعرف عنها شيئا قليلا اما الست الباقيات فعلمها عند الله .. ام ماذا ؟

لعل اقرب المعاني هو ذلك الغلاف الجوي المحيط بالارض ذو الطبقات المختلفة التي تمتد في عمق مائة كيلومتر ، و تشكل سقفا متينا للارض ، يحفظها من الاجرام التائهة في رحب الفضاء و من الاشعة الضارة .

[13]من اين تستقي الارض قدراتها ؟ انها أمنا فمن هي أمها التي تغدق عليها بالطاقة ؟ انها الشمس التي ترضعها عبر مسافة مائة و خمسين مليون كيلومترا تقريبا بالنور و الحرارة ، و من خلال اشعة الشمس تتغذى النباتات و الاحياء و تتكون في الارض المعادن المختلفة.

]و جعلنا سراجا و هاجا[

و يبدو ان المراد من الوهج هو الاشعة حسب الراغب في مفرداته.

افلا نهتدي الى اسماء ربنا الحسنى من خلال آياته التي ذكرنا بها القرآن ، فاذا لم نتعرف على قدرة ربنا و حكمته و علمه و تدبيره من خلال آية الشمس فبماذا نهتدي ؟ لقد سخر الله الشمس لحياة البشر ، و اشعل هذه الكرة الملتهبة في الفضاء.

ان درجة حرارة الشمس تناهز ستة الاف درجة فهرنهايت . هذا عن سطحها ، اما العمق فان درجة حرارتها تبلغ الملايين ، و هكذا تنفث هذه الكرة اللاهبة اشعة قد تمتد اكثر من مائة الف كيلومتر و ذلك بسبب التفاعلات الذرية التي تلتهم من جرمها في كل ثانية زهاء أربعةملايين طن(1) .

و قد جعل الله بين الشمس و الارض هذه المسافة المحدودة لكي تستفيد منها الارض دون ان تضربها ، ولو كانت المسافة ابعد لتجمدت أو أقرب لاحترقت.

[14]و اذا كانت الارض تتغذى بأشعة الشمس ككل فان حياة البشر تعتمد عليها ايضا ، و أقرب مثل لذلك دورة الماء . او ليست اشعة الشمس التي تشرق على المحيطات هي التي تسبب في تصاعد الغيوم عنها ، ثم انها تكون الرياح التي تحملها ، ثم تتمخض السحب عن الغيث الذي يرزقنا الله به كل خير ؟

]و انزلنا من المعصارات ماء ثجاجا [

لماذا سميت السحب معصرات ؟ هل لانها تتراكم على بعضها فتسبب الامطار ، ام لان نظاما طبيعيا

يسودها حين هطول المطر بسبب اعتصارها (كما قالوا) ام ان ذلك اشارة الى حالة نزول الغيث الشبيهة بعصر الثياب ؟ كل ذلك محتمل.

اما الثجاج فقد قالوا انه المتتالي في السقوط.

(1)تفسير نمونه / ج ٢٦ / ص ١٨٦ نقلا عن طائفة من الكتب العلمية.

[16 - 15]هكذا يرفع الله مياه البحر بعد تحليتها الى عنان السماء ، و يبسطها في صورة السحب المتراكمة فوق مساحات شاسعة ، ثم يسوقها الى حيث يشاء من الارض فيسقيها ، لكي لا يبقى سهل او جبل الا و تشمله بركاتها .. ثم انها تصفي الجو من الادران و الغبار ،و تساعد في قتل الجراثيم . اما على الارض فينبت الله بها الوانا من المواد الغذائية كالحبوب التي تشكل اهم مصدر للغذاء عند البشر الخضروات ثم الثمار.

]لنخرج به حبا و نباتا و جنات الفافا[

ارايت البساتين و الغابات كيف تلتف اشجارها ببعضها ؟ انها من بركات الغيث.

ان هذا النظام الذي لا نجد فيه ثغرة او فراغا ، و يمتد من اعماق الفضاء حيث تشع الشمس بوهجها ، الى كف المحيطات حيث تتبخر بفعل الحرارة ، و الى الصحاري المترامية حيث تنبت الارض زرعا و شجرا . اليس يهدينا هذا النظام الى وحدة التدبير و حكمة المدبر ؟ ! افلا نؤمن بقدرته على ان يعيدنا للحساب ؟ و هل من المعقول ان يترك ربنا الحكيم خلقه سدى ؟

[17]لا نجد في اي بقعة من اطراف الخليقة ثغرة او تفاوتا الا فيما يتصل بهذا الانسان الذي سلطه الله على الطبيعة ، و اكرمه بالعقل و الحرية ، فقد اخذ يعيث في الارض فسادا ، فهل يعقل ان يكون ذلك من عجز ؟ و هل يعجز رب السماوات و الارض شيء ؟ ام سوء تدبير ؟
و لا نجد في تدبيره شينا او نقصا . ام ماذا ؟ يهدينا التفكر في كل ذلك الى ان هذا الانسان الذي هو محور حكمة الخلق و هدف سائر ما في العالم لم يكن ليخلق بلا حكمة ، فما هي حكمة خلقه ؟ فاذا لا نجد ذلك في الدنيا نهتدي (بنور العقل) الى انها تتحقق في يوم الفصل.

]ان يوم الفصل كان ميقاتا[

عندما يلتقي الانسان بجزائه ، و يجتمع الاولون بالآخرين ، و تنصب موازين القسط ، و يحاكم الظلمة و المجرمون ، و يقوم الاشهاد بالحق ، عندئذ تتجلى حكمة خلقه.

في ذلك اليوم يتزيل المؤمنون عن المجرمين ، و تتميز الاعمال الخالصة لله عن افعال الرياء و النفاق ، و تنفصم عرى الارحام و وشائج الصداقات و الولاءات ، و لا تنفع شفاعة الأحبة و الاولياء.

[18]و يتقاطر الناس على صحراء المحشر زمرا ، كل وفد يقودهم امامهم الذي اتبعوه في الدنيا.

]يوم ينفخ في الصور[

تلك النفخة الثانية التي يحيي بها الله العباد جميعا.

]فتاتون افواجا[

كل فوج يأتون تحت راية امامهم.

و في الحديث عن البراء بن عازب قال : كان معاذ بن جبل جالسا قريبا من رسول الله في منزل ابي ايوب الانصاري فقال معاذ : يا رسول ارايت قول الله تعالى " :يوم ينفخ في الصور فتاتون افواجا ... الآيات " فقال : " يا معاذ سألت عن عظيم من الامر ،ثم ارسل عينيه ، ثم قال : يحشر عشرة اصناف من أمتي اشتاتا قد ميزهم الله تعالى من المسلمين و بدل صورهم : بعضهم على صورة القردة ، و بعضهم على صورة الخنازير ، و بعضهم منكسون ، ارجلهم من فوق ، و وجوههممن تحت ، ثم يسحبون عليها ، و بعضهم عمي يترددون ، و بعضهم صم و بكم لا يعقلون ، و بعضهم يمضغون السنتهم فيسيل القيح من افواههم لعابا يتقذرهم أهل الجمع ، و بعضهم مقطعة ايديهم و ارجلهم ، و بعضهم مصلبون على جذوع من نار ، و بعضهم أشد نتنا من الجيف ، و بعضهميلبسون جبابا سابغة من قطران لازقة بجلودهم ، فاما الذين بصورة القردة فالقتات من الناس (اي النمامون (و اما الذين على صورة الخنازير فأهل السحت ، و اما المنكسون على رؤوسهم فاكلة الربا ، و العمي الجائرون في الحكم ، و الصم و البكم المعجبون بأعمالهم ، و الذين يمضغون بالسنتهم العلماء و القضاة الذين خالف أعمالهم أقوالهم ، و المقطعة أيديهم و أرجلهم الذين يؤذون الجيران ، و المصلبون على جذوع من نار فالسعاة بالناس الى السلطان ، و الذين اشد نتنا من الجيف فالذين يتمتعون بالشهوات و اللذات ، و يمنعون حق الله تعالى في أموالهم ، و الذين هم يلبسون الجباب فأهل الفخر و الخيلاء " (١. (

[19]و لان الانسان محور خلق عالمنا فان سائر ما في الخليقة يتصل به و يتغير معه ، فترى الارض و السماء المحيطة بها تخضع لتطورات هائلة.

]و فتحت السماء فكانت ابوابا[

فتلك السماء التي جعلها الله سقفا محفوظا غدت منفطرة منشقة ، و لعل تلك الابواب تكون مهبطا ظاهرا للملائكة ، و معراجا للمؤمنين الى الجنة ، و مخرجا للكفار الى النار.

[20]اما الجبال التي كانت تحافظ على توازن الارض فانها تفقد وزنها و تسير ، و تنبث كما الهباء في الفضاء الارحب ، ثم تتلاشى و تصبح سرابا.

(1)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٤٢٣.

]و سيرت الجبال فكانت سرابا[

و هكذا ينهار نظام عالمنا ، ذلك انه اذا كانت الخليقة قد نظمت لمصلحة الانسان و سخرت لحياته و فرضت عليها السنن اكراما له فها هو يسحب الى قاعة المحاكمة للحساب و الجزاء ، فلم يعد هنالك سبب لاستمرار النظام السائد في الطبيعة.

بينات من الآيات

[21]يتعامل الانسان مع سنن الله العاجلة في الطبيعة من حوله ، فتراه يتجنب النار ان يحترق بها ، و الحيات ان تلدغه ، و الجراثيم ان تغزوا جسده فتهلكه ، فلماذا يا ترى لا يتجنب تلك السنن الآجلة ، و ما الفرق بين نار تحرقه اليوم و اخرى تحرقه غدا ، أو حيةتلدغه من جحر في الصحراء و أخرى يصنعها بعمله لتلدغه غدا في الاخرة ، و من ميكروب يتكاثر في جسمه اليوم و آخر يزرعه في حياته الدنيا ليحصده في تلك الدار الحق ؟!

ان سنن الله في الدنيا تذكر بما يماثلها في الآخرة و لكن الإنسان يؤمن بواحدة و يترك أخرى . لماذا ؟

يبدو من آيات القرآن عموما ، و هذا السياق بالذات ، ان الجزاء يوم النشور نوعان :الاول : هو ذات العمل الذي يرتكبه اليوم و يتجسد له جزاء وفاقا في الآخرة ، كمثل نار يوقدها الانسان في بيته فتحرقه ، او ثمرة يغرسها في ارضه فيتمتع بثمراتها . النوع الثاني:
الجزاء الذي يقدره الرب للصالحين في الجنة من فضله

و يحسب الحسنة بعشرة . و الآية التالية تشير الى النوع الأول:

]ان جهنم كانت مرصادا[

فهذه كانت مركز رصد و مرتع الجزاء في الآخرة . انها سنة إلهية و نظام مقدر لن يفلت منها من يكذب بها ، قال أمير المؤمنين علي بن ابي طالب - عليه وآله السلام: -

"ولئن امهل (الله) الظالم فلن يفوت أخذه ، وهو له بالمرصاد على مجاز طريقه ، و بموضع الشجا من مساغ ريقه . (1) "

[22]و الطغاة الذين يتجاوزون حدهم ، و لا يتجنبون ما يقربهم الى النار ، سوف يعودون الى النار التي صنعوها بافعالهم.

]للطاغين مآبا[

و لعل كلمة مآب توحي بانهم سبب ايقاد النار التي عادوا اليها ، لانها منزلهم الذي بنوه و وطنهم الذي اختاروه لانفسهم.

[23]كم يبقون في هذه النار ؟

]لابثين فيها أحقابا[

جاء في روايات أهل البيت ان الآية تخص المذنبين الذين يقضون في النار فترة من الوقت بقدر ذنوبهم ، و على هذا فمعنى الاحقاب الدهور المتتالية او السنين المتلاحقة.

(1)نهج البلاغة / خ ٩٧.

و قال بعض المفسرين : معنى الآية انهم يلبثون في النار احقابا متتالية لا تنقطع ، فكلما مضى حقب أدركهم حقب آخر . قالوا : و انما استعاضت الآية بالاحقاب عن السنين لانها أهول في القلوب و أدل على الخلود ، و انما كان الحقب ابعد شيء عندهم ، و قالوا : الحقب ثمانون سنة . و اذا كانت السنة ثلاثمائة و خمسة و ستين يوما و كان اليوم في الآخرة كالف سنة مما نعده من سني الدنيا فلك ان تتصور أيام الطغاة في جهنم!

و جاء في الحديث عن رسول الله -صلى الله عليه واله - انه قال : " لا يخرج من النار من دخلها حتى يمكث فيها احقابا ، و الحقب بضع و ستون سنة ، و السنة ثلاثمائة و ستون يوما ، كل يوم الف سنة مما تعدون ، فلا يتكلن احد على ان يخرج من النار " (١. (

[24]خلال هذه الاحقاب المتتالية و الدهور المتطاولة لا يجد الطغاة هنالك سوى العذاب الذي لا يفتر عنهم ابدا.

]لا يذوقون فيها بردا و لا شرابا [

فلا يجدون طعم البرد و برد الشراب ، و لا لحظة واحدة و لا بقدر بسيط.

قالوا :البرد هنا بمعنى النوم ، و استشهدوا بما تقوله العرب : منع البرد البرد ، اي منع النوم البرد ، و قال بعضهم : بل هو عام يشمل برد ريح او ظل او نوم ، و انشدوا:

فلا الظل من برد الضحى تستطيعه و لا الفيء اوقات العشي تذوق (٢)[٢٥] انما يتواصل لهم شراب يغلي و ماء نتن.

(1)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٤٢٤.

(2)راجع القرطبي / ج ١٩ / ص ١٨٠.

]الا حميما و غساقا[

الحميم : الماء الحار . اما الغساق فهو ماء نتن ، و قيل : صديد اهل النار وقيحهم.

[26]أترى هل ظلمهم ربهم حين اوقعهم في النار ؟ كلا .. لقد ظلموا أنفسهم . اوليس قد واتر عليهم رسله ؟ ان هذا جزاء اعمالهم ، و نهاية مسيرتهم.

]جزاء وفاقا[

اي جزاء موافقا لاعمالهم بلا زيادة او تغيير.

[27]لماذا انتهى بهم المطاف الى هذه العاقبة السوئي ؟ لانهم لم يتوقعوا الحساب فافرطوا في السيئات ، كما المجرم حين لا يفكر في العدالة يتوغل في اقتراف الموبقات.

]انهم كانوا لا يرجون حسابا[

[28]و اذا انذرهم الرسل و الدعاة بالحساب و اذا جاءتهم آيات النشور تترى ، كذبوا به و بآياته.

]و كذبوا بآياتنا كذابا[

[29]بلى . كان الحساب قائما ، و كانت اعمالهم و انفاسهم و لحظات حياتهم و هواجس نياتهم كل اولئك كانت محسوبة عليهم .

]و كل شيء أحصيناه كتابا[

فلم يغادر كتاب ربنا صغيرة و لاكبيرة الا احصاها.

[30]و اليوم جاء يوم الجزاء بعد الاحصاء الشامل.

]فذوقوا فلن نزيدكم الا عذابا[

انها النهاية المريعة ، و معرفة الانسان في الدنيا بهذه الحقيقة : ان عذاب جهنم يزداد كما ان نعيم الجنة في اضطراد ، هذه المعرفة تجعل هذه الزيادة حكيمة و عادلة لان الانسان باختياره الحر بلغ هذه العاقبة.

حقا : ان تصور هذه الحقيقة يجعلنا اكثر حذرا من جهنم و اشد شوقا الى الجنة ، و قد روي عن النبي - صلى الله عليه وآله - : " هذه الآية اشد ما في القرآن على أهل النار " (١. (

[31]بإزاء ذلك نجد المتقين الذين تحذروا موجبات النار في الدنيا ، و تجنبوا السيئات التي تدخلهم جهنم ، نجدهم بعيدين عنها بعدهم عنها في الدنيا.

]ان للمتقين مفازا[

و أعظم فوز لهم نجاتهم من نار جهنم .او لا ترى قول الله سبحانه : " فمن زحزح عن النار و ادخل الجنة فقد فاز "؟

[32]و بالاضافة الى النجاة من النار فانهم يحظون بنعيم الابد.

]حدائق و أعنابا[

و لعل ذكر العنب بين سائر الثمار لانه طعام و فاكهة و فيه من الفوائد ما ليس في غيره ، حتى جاء في الحديث : " خير فواكهكم العنب " . (٢)(١) عن تفسير الكشاف / ج ٤ / ص ٦٩٠.

(2)تفسير نمونه / ج ٢٦ / ص ٤٨.

[33]الزوجة الموافقة تكمل السعادة ، ليس لانها فقط للتمتع الجنسي ، و انما ايضا لحاجة الروح الى تفاعل مع روح اخرى ، تكون لها كالمرآة تنظر فيها نفسها و العكس ، و قد وفر الله لعباده الصالحين الحور العين في الجنة ، بأفضل ما يتصوره البشر ، بل و افضل ماقد يتصوره جمال قمة في الروعة و الجمال الظاهري ، و مثل اعلى لجمال الروح ، و الخلق الفاضل و الادب الرفيع حتى يصلحن للمؤمنين و مستواهم السامي.

]و كواعب اترابا[

الكاعب :البنت عند استدارة صدرها ، و تفتح انوثتها مما تكون الذ للرجل و اشهى ، فهن كواعب ، ثم هن اتراب موافقات لروح الرجل خلقا و عقلا و شهوات . و يملك المؤمن أكثر من واحدة منهن حسب اعماله الصالحة مما يستحيل مثل ذلك في الحياة الدنيا.

[34]جلسات الانس لا تصفوا بدون شراب منشط ، و قد وفره الله للصالحين بأحسن ما يشتهون.

]و كأسا دهاقا[

قالوا : الدهاق ما امتلأت من الشراب ، و قيل : ما تواصلت ، و قيل : ما صفت و كلها تصدق في شراب الجنة.

[35]و لا تكتمل نعم الحياة بسوى الأمن ، و الجنة دار السلام فلا اعتداء و لا ظلم و لا مرض و لا سبات و لاخشية فناء النعم و زوالها .. و حتى الكلمات الجارحة التي تبعث الرعب و القلق و الالم في النفس لا وجود لها.

]لا يسمعون فيها لغوا و لا كذبا[

و انما يتبادلون العلم و المحبة و ذكريات الماضي و يحمدون ربهم كذبا على النعم . و لماذا قول اللغو من غيبة و تهمة و فحش ما دامت نفوسهم طيبة و الخيرات متوافرة لهم ؟ و لماذا الكذب وهو لا يكون الا لخبث او خوف او طمع و أهل الجنة مبرأون من كل ذلك ؟

[36]كل هذه النعم تترى عليهم بفضل الله لانهم اختاروا الصراط المستقيم و العمل الصالح.

]جزاء من ربك عطاء حسابا[

يبدو ان معناه ان هذا العطاء العظيم يكون حسب أعمالهم حيث ان درجات المؤمنين تختلف هناك حسب درجاتهم هنا.

و قيل : " حسابا " بمعنى الجزاء الوافي بحيث يقول المجزي : حسبي ، يقال : احسبت فلانا اي كثرت له العطاء حتى قال حسبي.

و قيل : " حسابا " لما علموا ، فالحساب بمعنى العد اي بقدر ما وجب له في وعد الرب ، فانه وعد للحسنة عشرا ، و وعد لقوم بسبعمائة ضعف ، و قد وعد لقوم جزاء لا نهاية له و لا مقدار ، كما قال تعالى : " انما يوفي الصابرون اجرهم بغير حساب."

و تعود الاقوال جميعا الى حقيقة واحدة هي العطاء الجزيل.

[37]و لكي لا يستكثر الانسان هذه النعم بين الله انها من عند الرب العظيم ، الذي له ملك السموات و الارض وهو الرحمن ؟

]رب السماوات و الارض و ما بينهما الرحمن[

و ما ظنك بالرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء اذا شاء ان يجزل العطاء ؟

]لا يملكون منه خطابا[

انه عظيم الى درجة تعاليه عن تخاطب خلقه ، لولا رحمانيته التي ينزل بها وحيه على عباده عبر رسول او من وراء حجاب.

ولولا ان الله سبحانه اذن لعباده بدعائه ، و القى في قلوب مريديه انوار محبته و مناجاته ، لما استطاع الانسان - اي انسان - ان يسموا الى درجة مخاطبته . اليس الخطاب بحاجة الى توافق طرفين ، او فرض طرف على آخر ؟ و الله ليس بمستوى خلقه حتى يتوافق معه ، و لنيفرض عليه شيء . و هكذا تشير الآية الى ان البشر و سائر الخلق ليسوا بمستواه ، و انهم لا يملكون منه شيئا فلا يفرضون عليه شيئا ، و هو يملكهم و برحمته يتفضل عليهم بمخاطبتهم ، و قد ياذن لبعضهم إذنا تكوينيا و تشريعيا بمخاطبته ، و ذلك حين يعرفهم نفسه و يلهمهم مناجاته.

و قد اختلفوا فيمن لا يملك الخطاب ، هل المؤمنون الذين ذكروا انفا ، ام الكفار باعتبارهم المطرودون عن باب رحمته ، ام كلا الفريقين ؟ يبدو ان الضمير ليس يعم المؤمنين و الكفار فحسب بل و يشمل سائر الخلائق (الجن و الملك و الروح) بشهادة الآية التالية التيجاءت تفصيلا لهذه الآية ، و مثلا ظاهرا .. بالرغم من ان هذه الآية - فيما يبدو لي - لا تخص يوم القيامة ، بلى . يوم القيامة تتجلى هذه الحقيقة بوضوح اكبر.

[38]تتجلى عظمة ربنا لعباده يوم البعث الاكبر حين يقوم الروح بكل عظمته و جلاله بين يديه ، و الملائكة صفا لا يتكلمون ، و قد خشعت اصوات الخلائقلعظمة الرب ؟ ثم ياذن الله برحمانيته لبعضهم بالكلام شريطة الا يتكلم الا صوابا.

]يوم يقوم الروح[

وما الروح ؟ اختلفوا في ذلك ، فقال البعض : انه خلق أكبر من سائر الخلق حتى من الملائكة المقربين جبرائيل و ميكائيل ، جاء في حديث مأثور عن الامام الصادق - عليه السلام - : " ملك اعظم من جبرائيل و ميكائيل " (١. (

و على هذا فان الروح هو روح القدس الذي يؤيد به الله انبيائه ، قال سبحانه " نزله روح القدس من ربك بالحق " (٢) ، و هو حسب تفسيرنا المراد بقوله سبحانه " : يسالونك عن الروح قل الروح من أمر ربي و

ما اوتيتم من العلم الا قليلا (3) " ، وقوله سبحانه : " تنزل الملائكة فيها باذن ربهم من كل أمر " (٤. (

و قال البعض : انه جند من جنود الرحمن كما الملائكة ، و روي عن رسول الله - صلى الله عليه واله - انه قال:

"الروح جند من جنود الله ليسوا بملائكة لهم رؤوس و ايدي و ارجل ، ثم قرا " : يوم يقوم الروح و الملائكة صفا " ، قال : هؤلاء جند وهؤلاء جند " . (٥)و قال بعضهم : انه جبرئيل اليس يقول ربنا عنه : " نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المرسلين " (٦. (

(1)عن تفسير مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٤٢٧ راجع تفسير نمونه / ج ٢٦ / ص ٥٨.

(2)النحل / ١٠٢.

(3)الاسراء /٨٥

(4)القدر / ٤.

(5)عن الدر المنثور / ج ٦ / ص ٣٠٩ تفسير نمونه / ج ٢٦ / ص ٥٨ و مثله القرطبي /ج ١٩ / ص ١٨٧.

(6)الشعراء / ١٩٣.

و قال بعضهم : المراد أرواح الخلائق ، و قال آخرون : المراد القرآن ، و قالوا : اشراف الملائكة ، و قالوا ، بنو ادم و المعنى ذووا الروح (١. (

و يبدو لي ان الروح في الاصل خلق نوراني أعظم من الملائكة و له جنود و امتدادات ، فمنه تستمد ارواح الناس قوتهم و حياتهم ، و به يؤيد الله انبياءه و اولياءه ، وهو الذي يتنزل في ليلة القدر ، و هو الذي يقوم بين يدي الله يوم القيام مع صفوف الملائكة.

]و الملائكة صفا لا يتكلمون[

لان هيبة الله تقفل ألسنتهم ، و لانهم محكومون مربوبون ، فمن السفه ان يتخذ احد منهم إلها لان كل ما لديهم من الله سبحانه ، و حتى الشفاعة لا يقدرون عليها الا بعد ان ياذن الله لهم بها ، و الله لا ياذن بها الا لمن يشاء و بحكمة اي بحساب دقيق.

]الا من اذن له الرحمن و قال صوابا[

و هذه الآية تذكرنا بقوله سبحانه : " يومئذ لا تنفع الشفاعة الا لمن اذن له الرحمن و رضي له قولا " و التي قلنا فيها : ان للشفاعة شرطين : اذن الله ، و ان تكون مرضية اي عبر مقياس الثواب و العقاب و ليس بلا اي ميزان و مقياس ، و يبدو ان قولهسبحانه هنا : " و قال صوابا " يشير الى ذلك.

[39]كما تتجلى عظمة الله في ذلك اليوم ، يتجلى كذلك الحق ، فلا شفاعة بالباطل و لا كذب و لا دجل و لا احكام جائرة .

(1)تفصيل هذه الاقوال مذكور في تفسير القرطبي / ج ١٩ / ص ١٨٦ - ١٨٧ فراجع.

]ذلك اليوم الحق[

فهو حق لا ريب فيه ، و لانه رهيب بأحداثه التي تنوابها السماوات و الارض فكيف بهذا الانسان المسكين ؟ ! لذلك فانه يستحق ان يسمى بالحق.

و فيه لا ينفع الا الحق ، و هو ابتغاء مرضاة الرب.

]فمن شاء اتخذ الى ربه مآبا[

اي طريقا للعودة اليه . اولسنا قد فطرنا على الايمان ثم انحرفت بنا الدنيا و شهواتها ؟ تعالوا نعود الى الطريق الاول ، الى سبيل الله ، الى الرب الودود.

[40]و قبل يوم القيامة عذاب قريب يقع قبل الموت و بعد الموت ، فاذا مات ابن ادم قامت قيامته الصغرى فيرى عمله ان خير فخير و ان شرا فشر.

]انا انذرناكم عذابا قريبا[

قال بعضهم : المراد الحساب بعد الموت ، و قال البعض : انه يوم القيامة ذاته باعتباره حقا لا ريب فيه و انه يأتي و ان كل آت قريب ، او باعتبار الانسان اذا مات انعدم احساسه حتى يبعث للحساب ففي حسابه يتصل يوم موته بيوم بعثه ، الا اذا محض الايمان او محض الكفر فانه يحس بالثواب او بالعقاب.

و سواء بعد الموت او بعد النشور فان اعمال الانسان تتجسد ثوابا او عقابا ينظر اليها.

]يوم ينظر المرء ما قدمت يداه[

من خير او شر ، و المراد من اليد مجمل ما يقوم به الانسان . و حين يرى المؤمنعمله يفرح كثيرا ، و لكن حين يرى الكافر عمله يتمنى لو كان ترابا و لم يرتكب ذلك العمل السيء.

]و يقول الكافر يا ليتني كنت ترابا[

ما اشد هذا الانسان ندما ان يصل الى هذه الدرجة فيتمنى لو كان ترابا و لم يقترف تلك الجرائم!

هذا الانسان الذي خلقه الله سبحانه ليكون ضيفا عنده في جنات الخلد بلغ به الحال ان يكون أرذل من التراب . فكيف و التراب ينتفع به و هو لا ينتفع به ؟ ! بل يستحق المزيد من الهوان و الاذى.

سورة النازعات

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الاعمال باسناده عن ابي عبد الله - عليه السلام - قال : " من قرا و النازعات لم يمت الا ريانا ، و لم يبعثه الله الا ريانا "نور الثقلين / ج ٥ / ص ٤٩٧

الاطار العام

يبدو ان سورة النازعات تنزع من نفس المهتدين بها طغيانها ، و لكن كيف ؟

اولا : بتلاحق كلمات القسم الصاعقة ، و بما هو مجهول عندنا ، من ملائكة لموت او حالة الموت او خيل الغزاة.

ثانيا :تنذر بيوم الراجفة و يوم الرادفة حيث تكون القلوب واجفة ، أبصارها خاشعة .من هم اولئك ؟ انهم الذين يقولون في الدنيا : انا لمردودون الى الحياة كما نحن الان حتى ولو كنا عظاما نخرة ؟ ! فيقول لهم القرآن : بلى و بزجرة واحدة تخرجكم الارض الى ظهرهاالمستوي ، لا يرون فيها أمتا و لا عوجا.

ثالثا : تقص علينا حديث موسى و فرعون ، و كيف ان فرعون طغى و لم يستمع الى انذار رسول الله اليه فأخذه الله نكال الآخرة و الدنيا.

رابعا :ترينا آيات الله في السماوات و الارض ، و حكمته البالغة التي تتجلى فينظام الخلقة . كيف مسك السماء و سواها كيف أغطش ليلها و اخرج ضحاها ، و كيف دحى الارض و اخرج منها ماءها و مرعاها ، و كيف أرسى جنباتها . كل ذلك لحياة الانسان و البهائم التي تساعد الانسان.

خامسا : بعد ذلك يذكرنا بالطامة الكبرى حيث يتذكر الانسان ما سعى ، و يبين ان حكمة الخلق تتجلى في الجزاء النهائي ، عندما يلقى في الجحيم من طغى ، بينما تكون الجنة مأوى الخائفين مقام ربهم.

و في خاتمة السورة يذكرنا السياق بتبرير يتشبث به الجاحدون عبثا حيث يتساءلون عن الساعة : أيان مرساها ؟ و لكن اين انت و الساعة ؟ ان علمها عند الله واليه منتهاها . انما انت منذر .دعنا نخشاها ، ففي ذلك اليوم تعم الحسرة كل ابعاد وجودنا لاننا نحتسب عمرنافي الدنيا عشية أو ضحاها.

و هكذا تحقق آيات السورة هدفها لمن يشاء ، وهو معالجة طغيان النفس و غرورها.

و عرفك عند الحاجة مواضع طلبك وارادتك ؟ ؟ " (١) ، و الملاحظ استخدام الامام في الافعال صيغة البناء للمجهول (المنشأ ، بدئت ، وضعت ، اخرجت) و كذلك هداك و عرفك ، و الهدف هو التأكيد على الارادة الالهية في الخلق.

ثم ان خلقة الانسان لا تتحرك في الفراغ و لا على أساس الصدفة ، انما هي قائمة على الحكمة الدقيقة ، و التدبير الالهي المتين ، حيث القوانين التي تجلي ارادة الله و حكمته للمتدبر ، فالجنين لا ينمو و لا يمكث بلا قدر و لا قانون في بطن امه ، بل كما وصف اللهتعالى:

]الى قدر معلوم[

و حيث يخرج يكون مهيئا لممارسة الحياة خارج الرحم ، و تكون امه مستعدة نفسيا و بدنيا لاستقباله و هكذا عائلته . قال الزمخشري : الى مقدار معلوم ، قد علمه الله و حكم به وهو تسعة أشهر او ما دونها او ما فوقها (٢) ، و قال القمي : منتهى الاجل (٣) . و حين يحلالاجل فان الام لا تستطيع ان توقف التحويل النفسي و البيولوجي الذي يحدث في كيانها و توقف حركة الجنين باتجاه الخروج ، كما لا يملك الجنين نفسه من أمره شيئا ، بل هي الارادة الالهية وحدها تصنع ما تشاء و تتسع كلمة القدر الى معاني عدة نجملها في اثنين:

الاول : المقدار و الحد ، فيكون المعنى ان الجنين من الناحية النفسية و العضوية و هكذا الزمنية محدد بمقادير و مقاييس إلهية حكيمة يعلمها عز وجل.

الثاني : القدر و المصير ، فقد جعل الماء في قرار مكين لكي ينتهي الى قدر الهي(١) نهج البلاغة / خ ١٦٣.

(2)الكشاف / ج ٤ / ص ٦٧٩.

(3)تفسير القمي / ج ٢ / ص ٤٠٠.

يعلمه تعالى ، فقد يكون قدره ان يصبح ذكرا او انثى او بينهما ، او يخرج تاما او معيبا ، او حيا او ميتا ، ثم اذا خرج الى الحياة الدنيا فانه يتحرك وفق اقدار يعلمها الله ، و الى مصير محدد ، ربما يكون السعادة و الجنة ، و ربما يكون الشقاء و النار ، او يكون الفقر و الصحة ، او الغنى والمرض ، او ..او .. ، و لا تعني الآية ان كل انسان يأتي الى الحياة الدنيا ليعيش ضمن اقدار محددة يجبر عليها ، بل هي تكشف عن علم الله المطلق بما يؤول اليه من خير او شر . وقوله : " معلوم " يفيد التحديد من جهة ، و الاطلاقمن جهة ثانية ، فأما التحديد فان مسيرة الانسان في وضعها الطبيعي و النسبي محكومة بمعطيات و اقدار محددة يمكن لنا معرفتها عبر العلم و التجربة ، كميعاد الولادة و ما اشبه .. ، و اما الاطلاق فان العلم اليقين بكل شيء و بالذات بعض الامور فهو لله وحده يقدره ويعلمه ، بحيث لا يستطيع بشر تحديده و معرفته.

]فقدرنا فنعم القادرون[

قال ابن جرير : فملكنا فنعم المالكون ، و عن الضحاك قال: فخلقنا فنعم المالكون (١) ، و في التبيان : معناه فقدرنا من القدرة فنعم القادرون على تدبيره (٢) ، و في مجمع البيان : اي قدرنا خلقه كيف يكون قصيرا او طويلا ، ذكرا أم اثنى ، فنعم المقدرون نحن ، و يجوز ان يكون المعنى اذا خفف (لان المفسرين قرؤوها بالتخفيف و التثقيل) من القدرة ، اي قدرنا على جميع ذلك فنعم القادرون على تدبير ذلك ، و على ما لا يقدر عليه احد الا نحن ، فحذف المخصوص بالمدح (3)، و هذا ما احتمله العلامة الطباطبائي في الميزان و قال:
من القدرة مقابل العجز ، و المراد فقدرنا على جميع ذلك (٤. (

(1)الدر المنثور / ج ٦ / ص ٣٠٦.

(2)التبيان / ج ١٠ / ص ٢٢٨.

(3)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٤١٧.

(4)الميزان / ج ٢٠ / ص ١٥٣.

]الم نجعل الارض كفاتا * احياء و أمواتا[

و الكفات السكن والوعاء ، ففي الخبر نظر أمير المؤمنين (ع) في رجوعه من صفين الى المقابر فقال : " هذه كفات الاموات " اي مساكنهم ، ثم نظر الى بيوت الكوفةو الذي اختاره ان الكلمتين : " فقدرنا " و " القادرون " مشربتين اثنين من المعاني في ان واحد : احدهما التقدير بالحكمة و العلم ، و الآخر القدرة بالقوة و المشيئة ، و لعمري ان المتفكر في خلقة البشر يجد اسمي الحكيم و القادر متجليين فيها بما لا يقبل ذرة من الشك ، لولا ان الانسان يجعل بينه و بين الحقيقة حجاب التكذيب بالحق للهروب من المسؤولية ، فله الويل من الله اذا فعل ذلك.

]و يل يومئذ للمكذبين[

و في الآية ملاحظة لطيفة عند قوله " يومئذ " فتلك ينبغي ان تكون اشارة الى يوم الفصل الذي اشار اليه السياق في السورة ، و هو كذلك ، بالاضافة الى ايحاء الكلمة بمعنى آخر ، هو ان تلك الآيات الالهية المتجلية في الخلقة تهدينا الى ان الويل للمكذبين، فأي جريمة كبرى هي التكذيب بحقيقة عظمى كحقيقة الغيب و قدرته و حكمته ! و الاشارة الى ذلك بـ " يومئذ " هو ترتيب على تلك النتيجة الحاصلة ، اذ لا يعقل ان الخالق الحكيم لا يقدر آخرة بعد الدنيا و ذلك من مسلمات الحكمة الاولية.

[37 - 25]من التفكر في آفاق النفس الذي يقود الانسان الى التسليم لله و الايمان بيوم الفصل تنطلق الآيات موجهة ابصارنا الى آفاق الطبيعة من حولنا ، فهي الاخرى تعكس اسماء الله و آياته الهادية الى الحقائق.

فقال : " هذه كفات الاحياء "ثم تلا قوله : " الايتين " (١) ، و في مجمع البيان : كفت الشيء يكفته كفتا و كفاتا اذا ضمنه ، و منه الحديث : " اكفتوا صبيانكم " اي ضموهم الى انفسكم ، و يقال للوعاء : كفت و كفيت ، و قال ابو عبيده كفاتا : اي اوعية (2)، و عن قتادة و مجاهد و الشعبي : اي تحوزهم و تضمهم (٣) ، و الارض وعاء و سكن للخلائق تضم الناس و الاحياء و الاموات ، سواء بالمعنى الظاهر او بالمعنى المجازي للكلمة حيث المؤمنين و الكفار ، و العلماء و الجهلة.

]و جعلنا فيها رواسي شامخات[

قال القمي : جبال مرتفعة (٤) ، و لعل الآية تبين حقيقة جيولوجية و هي ان للجبال قمتين : قمة راسية في اعماق الارض كقاعدة البناء ، و قمة صاعدة شامخة في آفاق السماء.

]و اسقيناكم ماء فراتا[

و هناك علاقة بين الحديث عن الجبال و بين الحديث عن الماء الفرات ، فان أفضل المياه و اعذبها ما تتفجر به ينابيع الجبال ، و ما ينحدر منها الى جوف الارض و سفوحها و انهارها.

قال الامام علي - عليه السلام - يصف الارض : " فلما سكن هيج الماء من تحت اكنافها ، و حمل شواهق الجبال الشمخ البذخ (الطاغية في الارتفاع) على اكتافها ، فجر ينابيع العيون من عرانين انوفها (العرنين : ما صلب من عظم(١) تفسير القمي / ج ٢ / ص ٤٠٠.

(2)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٤١٦.

(3)المصدر / ص ٤١٧.

(4)تفسير القمي / ج ٢ / ص ١٣٢.

الانف ، و المراد اعالي الجبال) ، و فرقها في سهوب بيدها (جمع بيداء و هي الصحاري) و اخاديدها ، و عدل حركاتها (يعني الارض) بالراسيات من جلاميدها و ذوات الشناخيب (القمم) الشم من صياخيدها ، فسكنت من الميدان لرسوب الجبال في قطع اديمها ، و تغلغلها متسربة في جوبات خياشيمها (الجوب :الحفر ، و الخياشيم : منفذ التنفس) ، و ركوبها اعناق سهول الارضين و جراثيمها (المنحدرات) ، و فسح بين الجو و بينها ، ثم لم يدع جرز الارض التي تقصر مياه العيون عن روابيها ، و لا تجد جداول الانهار ذريعة الى بلوغها ، حتانشأ لها ناشئة سحاب تحيي مواتها ، و تستخرج نباتها .. " (١ (، و قال الامام الصادق (ع) : " انظر يا مفضل الى هذه الجبال المركومة من الطين و الحجارة ، التي يحسبها الغافلون فاضلا لا حاجة اليها ، و المنافع فيها كثيرة ، فمن ذلك ان يسقط عليها الثلوج فيبقى في قلالها لمن يحتاج اليه ، و يذوب ما ذاب منه فتجري منه العيون الغزيرة التي تجتمع منها الانهار العظام .. " (٢. (

و جعل الله الارض كفاتا ، و جعله فيها الجبال الراسية الشامخة ، و سقينا بها الماء الفرات من ينابيع مخازنها ، و ذوبان ما تقله من الثلوج ، كلها نعم الهية تستوجب الشكر و الحمد له ، و من شكره اتباع رسله و رسالاته ، الا ان الانسان غالبا ما لا يفعل ذلك ، بل تراه كفورا مكذبا ، و يل له يوم القيامة من شديد العذاب على قلة حمده ، و مقابلته احسان ربه بالتكذيب.

]ويل يومئذ للمكذبين[

من غضب الله و عذابه ، فان غضبه عليهم و تكذيبهم لرسله و كتبه يستحيلان في الاخرة الوانا من

العذاب الذي لا يطاق ، ينطلقون اليه بزجر خزنة جهنم و مقامع من(١) نهج البلاغة / خ ٩١ / ص ١٣٢.

(2)موسوعة بحار الانوار / ج ٣ / ص ١٢٦.

نار تلظى ، و لسان الحال قولا و فعلا ما حكى رب العزة:

]انطلقوا الى ما كنتم به تكذبون[

قال العلامة الطبرسي : يعني من العقاب على الكفر ، و دخول النار جزاء على المعاصي (١) ، و علق الرازي بالقول : و الظاهر ان القائلين هم خزنة النار (2)، و الذين يكذبون به هو الجزاء و النار ، و التكذيب بذلك يعني انكاره ، و انكار الحقائق الاخرى بسبب هذا التكذيب.

]انطلقوا الى ظل ذي ثلاث شعب[

و لعل الظل بسبب الدخان الذي يحجب النور ، او هو الظلام الحالك ، و قد اختلف المفسرون في معنى " ثلاث شعب " ، فقيل معناه : يتشعب من النار ثلاث شعب : شعبة فوقه ، و شعبة عن يمينه ، و شعبة عن شماله فتحيط بالكافر (٣) ، و قيل :يخرج من النار لسانفيحيط بالكافر كالسرداق ، فينشعب ثلاث شعب فيكون فيها حتى يفرغ من الحساب (٤) ، و في اللغة : الشعبة جمعها شعب و شعاب : الفرقة و الطائفة من الشيء ، يقال : اشعب لي شعبة من المال اي اعطني قطعة من مالك ، و يسمى الغصن من الشجرة شعبة (٥) ، و نفهم من ذلك ان الظل ينشعب الى ثلاثة اقسام ، ولعل المكذب يلقى في كل شعبة الوانا من العذاب تختلف عما في الشعبتين الآخريين شدة و نوعا.

(1)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٢٣٠.

(2)التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص ٢٧٤.

(3)التبيان / ج ١٠ / ص ٢٣٠.

(4)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٤١٨.

(5)المنجد / مادة شعب بتصرف.

و يختلف ذلك الظل عن ظل الدنيا بصورة تامة ، فاننا نأوي الى الظلال فيها طلبا للراحة ، و هربا من حر الشمس و لفحها ، اما الظل المقصود في الآية فانه قطعة من عذاب جهنم.

]لا ظليل[

معناه : غير مانع من الاذى يستر عنه .. فالظليل من الظلة و هي السترة (١) ، و سمي الظلال بذلك لانه يحجب الشمس و يسترها و يمنع الحر . و ليس الظلال المشار اليه في الآية يسبب الراحة لاهله.

]و لا يغنى من اللهب[

و اللهب ما يعلوا من السنة النار و حر لفحها ، و ليس ذلك الظل يدفع عنهم حر لهب جهنم.

]انها ترمى بشرر كالقصر[

قيل :مثل القصور و الجبال (٢) ، و في حديث طويل عن النبي (ص) في شأن النار :قال : " تزفر النار

بمثل الجبال شررا " (٣) ، و قيل : مثل اصول الاشجار المتشعبة الجذور ، قال ابن عباس : كجذور الشجرة ، و عن مجاهد قال : حزم الشجر ، و عن الضحاكقال : اصول الشجر العظام (٤) . و العرب تشبه الابل بالقصور (٥) ، و المهم ان التشبيه بالقصر كناية عن الضخامة و التشعب معا و هما(١) التبيان / ج ١٠ / ص ٢٣٠.

(2)في القمي و التبيان و مجمع البيان و الكشاف و التبيان و الدر المنثور و التفسير الكبير.

(3)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٤٩٠.

(4)الدر المنثور / ج ٦ / ص ٣٠٤.

(5)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٤١٨.

مجتمعتين في مثل القصور.

]كانه جمالت صفر[

و قد ذهب اغلب المفسرين الى القول بأنها الجمال ، و قيل : هي قطع النحاس و هو مروي عن الامام علي (ع) (١) ، و النحاس يسمى صفرا عند العرب ، و بناء على هذا القول ينبغي حمل الجمالة على انها جمع جمل وهو الحبل و السلك العظيم ، لقوله تعالى : " حتى يلجالجمل في سم الخياط " (٢. (

و هذه الالوان من العذاب هي بعض ما يلقاه المكذبون من الويل في الآخرة ، و الذي يشيره اليه القرآن بتكرار الآية الكريمة:

]ويل يومئذ للمكذبين[

و من و يلاتهم يوم الفصل انهم تسلب حرياتهم التي طالما اساؤوا استخدامها و فهمها في الدنيا ، الى حد لا يستطيعون النطق ، و لا يؤذن لهم من قبل الله عز وجل . و لعل ذلك جزاء اطلاقهم العنان لانفسهم في الاهواء و الشهوات ، و عدم التزامهم بحدود الله و شرائعه.

]هذا يوم لا ينطقون[

و في الاحاديث : ان أهل جهنم يلجمون بلجم من نار ، و تحبس السنتهم التي سخروها لحرب رسالة الله و حزبه ، بل لا يستطيعون النطق للحجج الالهية البالغة التي لا تدع لهم مجالا للتبرير و لا قدرة على الكلام في محضر رب العزة.

(1)التفسير الكبير / ج ٣٠ / ص ٢٧٦.

(2)الاعراف / ٤٠.

ان النفس اللوامة توخز ضمير الكاذب المنحرف ، و ان عقله يهديه الى الاعتبار بمصير الغابرين ، و لكن نفسه الامارة بالسوء تلح عليه بأتباع الشهوات و امتطاء مركب الغرور و الجحود ، و هنا يقدم الشيطان بالحل الوسط ، هو التسويل و التزيين ، فيؤول آيات الذكر ،و يعتذر للدعاة اليها ، و يبرر للناصحين ، و يخادع نفسه .. و هكذا تجد أكثر المكذبين و المجرمين يعدون تبريرات و اعذار لانفسهم كما للآخرين بما يزعمون انها سبب انحرافهم و فسادهم ، و لكن في يوم القيامة ليس لا تقبل منهم تلك المعاذير الباطلة بل و لا يسمح لهمبسردها لانها محكومة سلفا بالسفاهة و الدجل ، مما يدعونا الى اعادة النظر و بصورة جدية فيما نعتذر به للآخرين او نخدع به انفسنا انطلاقا من الثقة بانها لا تغني عنا شيئا في يوم القيامة

.

]و لا يؤذن لهم فيعتذرون[

لان الاعتذار النافع هو اعتذار الانسان لربه في الدنيا عن الخطيئات بالتوبة الخالصة ، اما الآخرة فهي للفصل و الجزاء فقط ، من هنا لا يؤذن لهم للاعتذار ، و الامام الصادق (ع) يهدينا الى فكرة دقيقة في الآية فيقول " : الله أجل و أعدل و أعظم من ان يكون لعبده عذر و لا يدعه يعتذر به ، و لكنه فلج فلم يكن له عذر " (١) ، بلى . انهم لا يريدون الجدال عن حقهم بالمنطق السليم ، و انما يريدون التوسل بالاعذار الواهية ، و لذلك لا يؤذن لهم . و هذا من حكمة الله عز وجل اذ لو كان يترك الانسان يفعل ما يشاء في الحياة الدنيا ، ثم يفتح له يوم الفصل باب التبرير لفسدت حكمة الخلق ، كلا ..بل لهم الويل بعد الويل.

]ويل يومئذ للمكذبين[

ومن هذه الآية نكتشف ان الاعذار الواهية هي بدورها كذب و لصاحبها(١) نور الثقلين / ج ٥ / ص ٤٩٠.

الويل.

[44 - 38]و بعد ان عرض القرآن مشاهد من يوم الفصل يضع النفوس المكذبة في موقف الشاهد لذلك المستقبل بزمانه ، و لكنه حاضر بحقائقه و شواهده و مواقفه و لحظاته الحرجة ، لعلها ترجع عن غيها و ضلالها.

]هذا يوم الفصل جمعناكم و الاولين [

و للجمع هنا معنيان:

الاول :هو البعث بجمع الاوصال و العظام و جمعها مع الروح ليكون بشرا سويا بعد الموت ، و قد أشار القرآن الى هذا المعنى في آيات عديدة منها قوله في سورة القيامة : " ايحسب الانسان الن نجمع عظامه " (١) . و انما ذكر الاولين لان المشركين عادة ما كانوا يستبعدون البعث ، و بالذات بعث اولئك الاولين الذين اضمحلت ابدانهم و تبددت اوصالهم.

الثاني : ان يكون الجمع بالمعنى الظاهر للكلمة ، فان الناس (أولين و آخرين) يجمعون في عرصة القيامة للفصل بينهم و في مصائرهم . و انما ذكر الاولين و الاخرين من المكذبين تمهيدا لتحديهم في الآية اللاحقة ، اذ لا يريد الله ان يتحدى بعض المكذبين وحسب بل كلهم مجموعين الى بعضهم عددا و عدة.

]فان كان لكم كيد[

تدعون الغلبة به و تعتمدون عليه.

(1)القيامة / ٣.

]فكيدون[

و هذا رد على ما اجمعوا عليه و توارثوه من الخبرة في الكيد ضد الحق (قيما و قيادة و حزبا) في الحياة الدنيا . و ما عسى ان يبلغ كيد هذا الانسان الضعيف و الجاهل حتى يبارز ربه عز وجل ؟ ! ولكن يتكبر و يأخذه الغرور فيلقي بنفسه في مهلكة المكايدة مع الله ،فالويل للمكذبين مما يصيرون اليه نتيجة حربهم لله الملك الجبار المتكبر.

]ويل يومئذ للمكذبين[

و هل ثمة ويل اعظم من كيد الله العظيم باحد ؟ ! كلا .. فهو حق بكل ما تتسع له الكلمة من معنى . و هكذا يسفه السياق القرآني الظن الذي يبعثهم نحو التكذيب وهو انهم قادرون على مقاومة جزاء اعمالهم بكيدهم و ما يستخدمونه من خطط و اساليب . اما المتقون الذين امنوا بالله ، و صدقوا رسالاته ، و اتبعوا رسله و اولياءه ، فمصيرهم الى رضوانه و جزائه الحسن.

]ان المتقين في ظلال و عيون[

و ليس الظلال كالظل " ذي ثلاث شعب * لا ظليل و لا يغني من اللهب " بل هو ظلال رضوان الله الذي يلقى فيه المتقون غاية الأمن و السعادة ، حيث اللذة ببرد لطف الله و رحمته ، و حيث التمتع بنعيم الجنة كالمناظر البديعة للعيون التي تستريح العين لرؤيةمائها المتفجر.

]وفواكه مما يشتهون[

بكل ما تنطوي عليه كلمة الاشتهاء من معنى ، ففي الجنة يطلق الله بفضلهو مشيئته عنان الشهوة لاولئك الذين عقلوها بعقال أحكام الله و حدوده ، فالمتقون هناك يجدون ما يحبونه من الفواكه في كل مكان و زمان ، اذ تسقط معادلة الفصول و المواسم ، كما يبلغون شهوتهم كيفما يريدون ، اذ تأتي الفواكه بالحجم و اللون و الطعم و الشكل الذي يتخيله واحدهم و أحسن منه.

و العلاقة واضحة بين هذه النعم الثلاث ، فان الظل و العيون و الفواكه المتنوعة هي أبرز معالم الجنة ، و انما ذكرها الله كناية عن الجنة ، و تفصيلا في المعنى للمزيد من التشويق و الترغيب للمتقين في نعيمها.

و من سمات المنهج الاسلامي انه يوصل بين السعي و الجزاء ، و ذلك لكي لا يتحول الشوق الى جنات الله و رضوانه الى مجرد اماني و ظنون ، و انما تكون الرغبة لبلوغها نهج عمل و سعيا حثيث من أجل الوصول اليها و تحقيقها في الواقع . هذا على صعيد الدنيا ، اما على صعيد الاخرة فان بيان الله للمتقين علاقة عملهم بجزائهم نوع من الاكرام لهم ، و الا فان ما يلقاه المتقون في جنات الله من الناحية المادية و الموضوعية أعظم من ان يبلغه بشر بسعيه ، انما هو فضل من الله و رحمة . و من هذا المنطلق يخاطب المتقون في الآخرة:

]كلوا و اشربوا هنيئا[

خاليا من كل اسباب النكد و النغص يمكن ان يكون في طعام او شراب.

]بما كنتم تعملون * انا كذلك نجزي المحسنين[

الذين يحسنون الصنع (الالتزام بالقيم ، و التعامل مع الآخرين ، و الاستفادة من نعم الله عليهم) ، و قد ذكر الله صفة الاحسان في المتقين كسبب لاستحقاقهم الفضيلة و الرضوان عنده تاكيدا على انها ارفع درجة يبلغها احد في القرب من الله ،و العروج في افاق الايمان و العمل الصالح ، و ذلك لما يشتمل عليه الاحسان:

الاول : انه من أعظم صفات الله و اخلاقه.

الثاني : انه مرتبة رفيعة في الكمال البشري ، اذ يعني خروج الانسان من شح النفس الى حب الآخرين و ايثارهم.

[50 - 45]و في ختام السورة التي تهدف علاج موقف التكذيب عند الانسان من خلال توجيهه الى آيات الله ، و تخويفه من عذابه ، يؤكد القرآن عاقبة الويل لكل مكذب ، مبينا لهم بان متعتهم لن تمتد الا قليلا

ثم يعقبها مصير سيء نتيجة اجرامهم و عدم استجابتهم لداعيةالحق.

]ويل يومئذ للمكذبين[

و كفى بتكرار هذه الآية عشر مرات في السورة تأكيدا للحقيقة الهادية اليها) ان الويل للمكذبين) . و المكذبون يختلفون عن المتقين في المصير يوم الفصل ، فبينما يصير هؤلاء في ظل و عيون و فواكة مما يشتهون ، يصير اولئك الى الويل و الثبور " ظل ذي ثلاث شعب * لا ظليل و لا يغني من اللهب " ، كما يتهنا المتقون بأكلهم و شربهم حيث لا يساورهم خوف انقطاعه او انقطاعهم عنه ، اما المكذبون المجرمون فلا تطول بهم المتعة الا قليلا ثم تنتهي راحتهم الى عذاب مقيم.

]كلوا و تمتعوا قليلا انكم مجرمون [

و اذا كان المكذبون مترفين ، و في ايديهم نعم الله و الوان المتع ، فانه لا يعني حضوتهم برضوان الله ، لانهم مجرمون ، فلا جريمة أكبر من تكذيب الانسان بالحق و ممارسته الباطل في الحياة ، سواء فعل ذلك الفقير او صاحب الثروة والاتباع.

و الاية تهدينا من جهة اخرى الى ان لهث البشر وراء حطام الدنيا و متعها هو العامل الرئيسي في ضلاله و اقتحامه كل جريمة .. و ليس لهذا الأمر من علاج في نفس المكذب المجرم الا بالتفكير في العاقبة يوم الفصل ، لان ذلك مدعاة للعاقل ان يترك المتع القليلة في ذاتهاو مدتها و الموجبة للويل المقيم يومذاك ، و هذا ما يفسر علاقة الاية (46)بقول الله بعدها:

]ويل يومئذ للمكذبين[

و حينما يستحضر الانسان في وعيه و تصوره حقائق ذلك اليوم فسوف يجد نفسه مدفوعا لترك الجريمة و كل أكله و متعه لا ترضي الله ، و من ثم ترك التكذيب الى الاحسان ، و الطمع في نعيم الآخرة ، و التسليم لله و لرسله و رسالاته ، لان جاذبية شهوات الدنيا لا تقاوم الا بمثل جاذبية الجنة و خشية مصير المكذبين و المجرمين ، و وعي العذاب الشديد الذي ينتظر المكذبين.

و يبين القرآن صفة اخرى للمكذبين اضافة الى لهثهم وراء حطام الدنيا و متعها ، و اضافة الى كونهم مجرمين ، الا و هي عدم تسليمهم لاوامر الله و عدم خضوعهم لها.

]و اذا قيل لهم اركعوا لا يركعون [

قال مقاتل : نزلت في ثقيف حين أمرهم رسوله الله (ص) بالصلاة فقالوا : لا ننحني ، و اضاف العلامة الطبرسي : و الرواية لا ننحني فان ذلك سبة علينا ، فقال رسول الله : " لا خير في دين ليس فيه ركوع و سجود " (١) ، ذكر ذلك اغلب المفسرين . و قد ذكرالركوع بالذات لأمرين رئيسين:

(1)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٤١٩.

الاول :انه ذكر كناية عن الصلاة ، لان الركوع ابرز ما فيها ، و لذلك تسمى وحدات الصلاة بالركعات ، و الصلاة تمثل عمود الدين ، و ذكر مخالفتهم و عصيانهم لله في ابلغ اوامره و شرائعه اوضح دلالة على عصيانهم و تكذيبهم.

الثاني :لان الصلاة هي مظهر العبودية لله ، و الركوع منها رمز الخضوع و التسليم و مظهره العملي ، و بيان تكذيب المكذبين و تمردهم عن التسليم لله و للقيادة الرسالية يكون اجلى عند التمثيل له بالركوع و السجود من التمثيل له باي شيء آخر ، و على هذا الاساس نستطيع حمل الركوع هنا على انه رمز للتسليم بكل مفرداته لا كونه محصورا في ركوع الصلاة فقط ، و لذلك فان رفض التسليم - بجميع معانيه

- يستلزم الويل للمكذبين.

]ويل يومئذ للمكذبين[

الذين يكذبون بالحقائق ، و من أبرزها و أهمها:

اولا : الآخرة ، فان الايمان بها اساس ايمان الانسان بسائر القيم و الحقائق الالهية ، و أساس التزامه بكل مفردات الدين في الحياة.

ثانيا :القرآن الكريم وهو حديث الله للناس ، و الذي لا يصلحه حديث ربه ، و لا تداوي ادواءه آياته ، فلن تجد له علاجا ابدا ، و هكذا فان من لا يؤمن به و يسلم له على ظهور حججه و دلائله فبماذا يؤمن بعده ؟ !

]فبای حدیث بعده یؤمنون[

لان الاحاديث غيره كلها لا تصل الى مستواه في الصدع بالحق ، و اشتمالها عليه ، و لا في بيانها و هدايتها له ، و كيف يرتفع حديث مخلوق الى صحة حديثالخالق و بلاغته ؟!

و من الآية نهتدي الى ان من لا يؤمن بحديث القرآن ، و منه بالذات حديث الآخرة ، فانه يبقى في شك من كل شيء و حديث ، بل يبقى في التباس من وجوده و وجود اوضح الموجودات كالشمس الساطعة في الآفاق!

اما عن راي المفسرين في الآية الكريمة فقد اتفقوا على ان الحديث هو القرآن ، و يمكن حمله على انه حديث الآخرة ، و بتعبير اصح نقول : هو القرآن الذي من ابرز احاديثه بعد تعريف الانسان بربه حديثه عن الآخرة ، التي يحتل موضوعها أهمية كبيرة في القرآن كما و كيفا ، و في الثقافة الاسلامية بصورة عامة.

سورة النبا

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

روي عن النبي - صلى الله عليه واله وسلم - انه قال : " من قرأ هذه السورة و حفظها لم يكن حسابه يوم القيامة الا بمقدار سورة مكتوبة حتى يدخل الجنة "البرهان في تفسير القرآن / ج ٤ / ص ٤١٩

الاطار العام

الحقائق الكبرى تحيط بلب البشر احاطة السوار بالمعصم ، كلما اراد منها هروبا و جدها امامه ، و لا ريب ان النشور للحساب ، و الولاية من تلك الحقائق ، فبالرغم من محاولات الفرار منها تراهم يتساءلون عنها ، لانها من النبأ العظيم ، و النبأ العظيم يجده الانساناامامه انى اتجه ، و لأهميته يختلفون فيه ، في تفاصيله مرة و في محاولات التهرب منه احيانا.

كلا .. انه يفرض نفسه عليهم حتى يعلموه علم اليقين ، ثم كلا سيعلمونه حين يرون عواقب تكذيبهم به .

بعد هذه الفاتحة الصاعقة تمضي السورة تذكرنا بآيات الله في الخليقة و التي تهدينا الى انه عليم حكيم

، و انه لم يخلق العباد سدى ، و انما بحكمة بالغة تتجلى في المسؤولية . لقد خلق ما في الارض للانسان فلاي شيء خلق الانسان نفسه ؟ الم يجعل الارض مهادا ، و الجبال اوتادا ، بل و جعل في ذات الانسان ما يدل على بديعالصنع ، و بالغ الحكمة ؟ لقد خلقنا ازواجا ، و جعل لنا النوم استراحة عن العمل ، وجعل الليل لنا سترا و النهار معاشا للنشاط و الحركة ، اما السماء فقد جعلها سقفا محفوظا بسبع طبقات شداد ، و علق فيها لاهل الارض سراجا و هاجا ، ثم انزل منها ماء متواصلا مندفعا، ثم جعل هذا النظام مترابطا ببعضه فانبت من الارض حبا و نباتا ، و جنات الفافا ، كل ذلك من أجل الانسان ، و الانسان من أجل المسؤولية ، و لكي يقدم للمحاكمة غدا في يوم الفصل الذي كان ميقاتا للحساب ، يوم ينفخ في الصور فيتوافد الخلائق افواجا افواجا . اما السماء فانها تتحول الى أبواب لتنزل الملائكة بالعذاب او الثواب . اما الجبال التي أكنت البشر فتكون سرابا.

هنالك الحساب ، فبينما يساق الطغاة الى جهنم ليبقوا فيها احقابا بلا برد و لا شراب تجد المتقين في مفاز ، حيث يدخلون الجنة ليتمتعوا بنعيمها و امنها و خلودها ، و هذا وذاك يكون تجسيدا لمسؤوليتهم في الدنيا ، و جزاء وفاقا لاعمالهم.

و تختم السورة بتصوير مشهد من مشاهد القيامة حيث يقوم الروح و الملائكة صفا لا يتكلمون ، و يذكرنا ربنا بان فرصة الاختيار السليم لا تزال قائمة فقد انذرنا عذابا قريبا ، يوم يرى المرء أعماله التي قدمها متجسدة امامه . اما المؤمن فيفرح بها ، و اما الكافر فيقول : ياليتني كنت ترابا و لم اقدم مثل هذه الاعمال او اتحمل تلك المسؤوليات.

ان يوم الفصل كان ميقاتا

هدى من الآيات

اتراهم يتساءلون عن النبأ العظيم ، عن يوم الجزاء (عن مسؤولية الولاية) و يختلفون فيه (ثم لا يبحثون بجد عن الاجابة الصحيحة) ؟ كلا .. (دعهم في غيهم) فسوف يعلمون ، ثم كلا .. (ليس الأمر بهذه البساطة) فسيعلمون.

افلا يبصرون شواهد التدبير و الحكمة : في الارض التي مهدت لهم و وتدت بالراسيات ، في خلقهم ازواجا تتكامل ابعاد و جودهم ببعضهم ، في حياتهم كيف نظمت فجعل الليل لهم سكنا و جعل النهار لمعاشهم مبصرا ، و في السماوات التي تحفظهم عن الطوارق ، و كيف جعل الله فيها سراجا و هاجا ، و في تدبير رزقهم بالغيث الذي ينزل عليهم ماء ثجاجا فيخرج الله به حبا و نباتا و جنات الفافا ؟!

بلى .لو انهم ابصروا شواهد الخلقة و آيات الحكمة لعلموا ان يوم الفصل ات و انهم لمجموعون اليه عندما ينفخ في الصور فيتوافدون على ربهم أفواجا .. و يومئذتفتح ابواب السماء فتنزل الملائكة بالجزاء . اما الجبال فتسير ثم تتلاشى كما السراب!

بينات من الايات:

[1]يعرض البشر عادة عن التفكير الجدي في الحقائق الكبرى التي ترسم الخطوط العريضة في حياته ، لماذا ؟ هل لانها غامضة ؟ كلا .. بل لان في نفسه نزوعا عنها ، اوليست معرفتها تحمله مسؤوليات كبيرة . اذا لماذا يكلف نفسه عناء ذلك ؟ دعه يمر على آياتها غافلا عساه يتهرب من مسؤولياتها . و لكن هل الاعراض عنها يغنيه شيئا ؟ كلا .. انه بالغها فمواقعها شاء ام ابى ، آمن ام عاند و كفر.

من تلك الحقائق يوم الفصل و ميقاته ، و ما فيه من أهوال عظيمة تدع الولدان شيبا ، و ما يفرضه علينا من مسؤولية التسليم للحق و لقيادته ، فهل يمكن الاعراض عن كل ذلك ؟ كلا .. لان آياته ملأت آفاق حياتنا ، و اننا لازلنا نتساءل عنها و نختلف فيها و لكن ليس بصورة جدية ، و غدا حين نواجهه نعلم مدى الخسارة في هذا التساهل ، و لا يسعفنا الندم يومئذ شيئا.

]عم يتساءلون[

[2]و اذا كان الانسان يعرض عن النبأ العظيم فلماذا يتساءل عنه ؟ ربما لان شواهده تفرض عليه

التساؤل ، فهو من جهة يتهرب من التسليم له لانه يحمله مسؤولية التسليم للحق و لقيادته ، و من جهة ثانية لا يستطيع الفرار من آياته التي تحيط به ، فيظل يتساءل عنه:
كيف و متى و اين و لماذا ! ؟ و مراده من كل ذلك الفرار منه ، و في الذكر الحكيم بيان لتساؤلاتهم عن يوم الفصل : انى هو ، و متى هو ، و كيف يحيي الله فيه الاموات ، و ما اشبه.

]عن النبأ العظيم[

فما هو ذا النبأ العظيم ؟ هل هو مجمل الحقائق العظيمة كالتوحيد و الرسالات و البعث و الجزاء ، ام انه يوم الفصل الذي يذكره السياق لاحقا ، ام انه ولاية الامام علي - عليه السلام - حسبما ذكر في رواية مأثورة عن النبي - صلى الله عليه واله - ؟

كل ذلك محتمل ، لا سيما و نحن نعرف ان الحديث عن موضوعات الرسالة متواصل بعضها مع بعض ، فمن تساءل عن يوم الفصل فانما يتساءل عنه ليعرف هل عليه ان يسلم للنذير به وهو الرسول و لمن يأمره الرسول باتباعه.

و اذا كان الفرار من المسؤولية هو الباعث نحو جحد يوم الفصل فان اعظم المسؤوليات التسليم للقيادة الشرعية و التي تمثلت في ولاية ائمة الهدى و في طليعتهم الامام علي عليه السلام.

و هكذا روي عن الحافظ ابي بكر محمد بن المؤمن الشيرازي عن رسول الله - صلى الله عليه واله - في تفسير هذه الآية انه قال : " المراد ولاية علي الذي يسأل عنها في القبر " (١. (

و روي عن الامام الصادق - عليه السلام - انه قال : " النبأ العظيم الولاية " (٢. (

و قال الامام علي بن موسى الرضا - عليه السلام - : " قال أمير المؤمنين(١ (عن رسالة الاعتقاد للحافظ ابو بكر محمد بن المؤمن الشيرازي في تفسير نمونه /ج ٢٦ / ص ١٠.

(2)المصدر / ص ١١.

-عليه السلام - : ما لله نبأ أعظم مني ، و ما لله آية أكبر مني " (١. (

و روي عن الامام الحسين بن علي - عليه السلام - انه قال : " قال رسول الله - صلى الله عليه واله - لعلي - عليه السلام - : يا علي ! انت حجة الله ، و انت باب الله ، و انت الطريق الى الله ، و انت النبأ العظيم ، و انت الصراط المستقيم ، و انت المثل الاعلى " (٢. (

[3]و اختلافهم في النبأ العظيم دليل على انهم لا يملكون حجة دامغة لنفيه فاذا بهم يترددون في أمره ، تدعوهم آياته للايمان به بينما تدعوهم اهواؤهم الى الجحود.

]الذي هم فيه مختلفون[

و لعل اختلافهم يكون ايضا في تفسير دلائله و كيف يتهربون منها . الا تجد كيف ضربوا للرسول الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا فقالوا انه مجنون بل هو شاعر بل افتراه ، و هكذا يكون الاختلاف دليل عجزهم عن تفسير آيات الحقيقة التي ينكرونها.

[4]و هل انكارهم للحقيقة يلغيها او اختلافهم فيها يخفف عنهم وطأتها حين تنزل بهم ! ؟

]كلا سيعلمون[

يوم يساقون الى الجزاء فلا يجدون عنه محيصا.

[5]بل انهم سيجدون الجزاء في الدنيا قبل الآخرة.

(1)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٤٩١.

(2)المصدر.

]ثم كلا سيعلمون[

و قال بعضهم : ان هذه الآية تشير الى انهم سيعلمون الحق في الاخرة بينما الاية السابقة تشير الى ما يعلمونه في الدنيا . و يحتمل ان يكون الاتيان بمفهوم واحد للتاكيد.

[6]او لا يبصرون ايات الله في الخلق فيعرفون حكمته و انه لم يخلقهم عبثا و لن يتركهم سدى ؟

]الم نجعل الارض مهادا[

اولا تراها كيف ذلك لمعاشك تذليلا ؟ انبسطت عليها طبقة من التراب تستخدمه للسكنى و الزراعة ، و تسويه لحركتك ، و يحتضن اجسادنا بعد الموت ، و يستوعب سائر انشطتنا في الحياة.

و اذا امعنا النظر راينا ان سائر ما في الارض هيء لحياة الانسان ، و لا نعرف مدى أهمية الانظمة التي أجراها الرب في الارض الا بعد قياسها بسائر الكرات القريبة التي لم نعهد في اي منها اثرا للحياة و لا فرصة للعيش . او ليس في كل ذلك دليل على التدبير و الحكمة ؟ او لا نهتدي بها الى ان الله لم يخلقنا عبثا ؟

[7]و لكي تستقر الارض و ما فيها ، و لا تتعرض لامواج الاعاصير التي تحيط بها ، و لا لتناوب المد و الجزر الناشئين من جاذبية القمر كما البحر ، و لكي تتحصن قشرة الارض من اخطار الزلازل و البراكين و الانهيارات بسبب الغازات التي تتفاعل في نواتها الداخلية، لكل ذلك و لاسباب اخرى عديدة نعرف بعضها و نجهل الكثير جعل الله للارض واوتادا هي الجبال.

]و الجبال اوتادا[

هذه القمم السامقة ، و تلك السفوح المنبسطة ، و هذه الشبكة من الصخور التي تتصل ببعضها من فوق الارض و من تحتها . انها تحصن الارض كما الدروع السابغة . افلا نبصر اثار القدرة و لمسات الحكمة على الطبيعة من حولنا ؟ فسبحان الله و تعالى عن العبث و اللغو.

[8]و اذا عدنا الى الانظمة التي تسود حياتنا ابصرنا المزيد من اثار القدرة و الحكمة فيها ، فهذه سنة الزوجية التي تكشف من جهة مدى حاجتنا الى بعضنا ، كما تعكس من جهة ثانية حسن تدبير الخالق ، و دقة تنظيمه.

]و خلقناكم ازواجا[

لو كنا قد خلقنا لكنا جعلناها اكمل و اقوى منها الان ، مثلا ربما لم نوجد فيها حاجة الى الجنس الاخر او الى الطعام و الشراب و الراحة و السكن و ما اشبه . ولو اوجدتنا الصدفة لم نجد فيها هذا التكامل مما نجده مثلا بين الزوجين ، تكاملا في الروح و الجسد ، فيالغرائز و الشهوات و الحاجات حتى اغتدى كل جنس سكنا للجنس الآخر يجد فيه ما يفتقر اليه ، قال سبحانه : " و من آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها و جعل بينكم مودة و رحمة " (١. (

[9]و بمناسبة الحديث عن الزوجة و عن السكن الذي توفره يذكرنا الرب بنعمة النوم الذي هو نوع من السكن ، يهيمن على ذرات وجودنا و يقطعها عن التفاعل المجهد مع المحيط ، و يبسط على ارجاء الجسد غلالة من الهدوء و الراحة.

]و جلعنا نومكم سباتا[

و يبدو ان معنى السبات هو الفراغ الموقت او التعطيل وقطع تيار النشاط.

(1)الروم / ٢١.

ماهو النوم ، و كيف يحدث ، و ما اسراره ؟ ان العلم الحديث لا يزال يتوغل في رحاب هذه الظاهرة العامة من حياة الانسان و يكشف المزيد من أسراره ، الا ان الثابت أهمية دور النوم في تهدئة اعصاب البشر ، و مساعدة مخه على تنظيم المعلومات وتخزينها ، و عودة الجسمالى انظمته الذاتية بعد تعرضه للمؤثرات الخارجية ، و بسط قدر من الهدوء الى مختلف الاعضاء ، و بكلمة : النوم استراحة الجسم بعد جهد متواصل.

[10]و يتم النوم عادة في الليل حيث يسدل استاره على الطبيعة ، و يضفي عليها جو الهدوء و السكينة.

]و جعلنا الليل لباسا[

ارايت لو كانت الارض بمن فيها و ما فيها تتعرض لاشعة الشمس باستمرار افلم تكن تؤثر الاشعة فيها و تجهدها ؟ هكذا نظم الله الارض بحيث يتناوب عليها الليل و النهار لضمان استمرار الحياة فيها.

و التعبير بـ (لباس) بالغ في الروعة و الدقة . او ليس اللباس يستر الشيء عما يشينه و يضره ، كذلك ظلام الليل يستر الطبيعة و الاحياء عن استمرار تعرضهما للاشعة.

[11]و بعد ان تسترخي الطبيعة فوق فراش الظلام ، يستنهضها النهار لمسيرة متجددة ، فها هي خيوط اشعة الشمس توقظ الروابي و السهول ، و تبعث في النبات و الاحياء النشاط و الحيوية لتجديد نفسها ، و تواصل حركتها.

]و جعلنا النهار معاشا[

اي ميعادا للعيش ، و وقتا مناسبا للاسترزاق ، و هكذا جعل الله في كل حي حاجة الى النمو و الاستمرار ، و اودع فيه أحساس بهذه الحاجة لكي يسعى اليها ، و وفر له فرص تحقيقها . افلا يهدينا ذلك الى انه المدبر العليم ، و انه قادر على نشرهم الى يوم الفصل و محاسبتهم ؟

[12]و هكذا جعل الله الارض دارا مهيأة لحياتنا و بنى فوقها سقفا محفوظا لكي لا تتساقط علينا النيازك و الاحجار السابحة في الفضاء و لا ينزل علينا ما يضرنا من اشعة النجوم الضارة ومن حرارة الشمس المهلكة.

]و بنينا فوقكم سبعا شدادا[

ما هي هذه السبع الشداد ؟ هل هي المجرات المحيطة بمجرتنا او المنظومات الشمسية القريبة منا ، ام هي السماوات التي زينت واحدة منها بالنجوم و هي التي نعرف عنها شيئا قليلا اما الست الباقيات فعلمها عند الله .. ام ماذا ؟

لعل اقرب المعاني هو ذلك الغلاف الجوي المحيط بالارض ذو الطبقات المختلفة التي تمتد في عمق مائة كيلومتر ، و تشكل سقفا متينا للارض ، يحفظها من الاجرام التائهة في رحب الفضاء و من الاشعة الضارة .

[13]من اين تستقي الارض قدراتها ؟ انها أمنا فمن هي أمها التي تغدق عليها بالطاقة ؟ انها الشمس التي ترضعها عبر مسافة مائة و خمسين مليون كيلومترا تقريبا بالنور و الحرارة ، و من خلال اشعة الشمس تتغذى النباتات و الاحياء و تتكون في الارض المعادن المختلفة.

]و جعلنا سراجا و هاجا[

و يبدو ان المراد من الوهج هو الاشعة حسب الراغب في مفرداته.

افلا نهتدي الى اسماء ربنا الحسنى من خلال آياته التي ذكرنا بها القرآن ، فاذا لم نتعرف على قدرة ربنا و حكمته و علمه و تدبيره من خلال آية الشمس فبماذا نهتدي ؟ لقد سخر الله الشمس لحياة البشر ، و اشعل هذه الكرة الملتهبة في الفضاء.

ان درجة حرارة الشمس تناهز ستة الاف درجة فهرنهايت . هذا عن سطحها ، اما العمق فان درجة حرارتها تبلغ الملايين ، و هكذا تنفث هذه الكرة اللاهبة اشعة قد تمتد اكثر من مائة الف كيلومتر و ذلك بسبب التفاعلات الذرية التي تلتهم من جرمها في كل ثانية زهاء أربعةملايين طن(1) .

و قد جعل الله بين الشمس و الارض هذه المسافة المحدودة لكي تستفيد منها الارض دون ان تضربها ، ولو كانت المسافة ابعد لتجمدت أو أقرب لاحترقت.

[14]و اذا كانت الارض تتغذى بأشعة الشمس ككل فان حياة البشر تعتمد عليها ايضا ، و أقرب مثل لذلك دورة الماء . او ليست اشعة الشمس التي تشرق على المحيطات هي التي تسبب في تصاعد الغيوم عنها ، ثم انها تكون الرياح التي تحملها ، ثم تتمخض السحب عن الغيث الذي يرزقنا الله به كل خير ؟

]و انزلنا من المعصارات ماء ثجاجا [

لماذا سميت السحب معصرات ؟ هل لانها تتراكم على بعضها فتسبب الامطار ، ام لان نظاما طبيعيا يسودها حين هطول المطر بسبب اعتصارها (كما قالوا) ام ان ذلك اشارة الى حالة نزول الغيث الشبيهة بعصر الثياب ؟ كل ذلك محتمل.

اما الثجاج فقد قالوا انه المتتالي في السقوط.

(1)تفسير نمونه / ج ٢٦ / ص ١٨٦ نقلا عن طائفة من الكتب العلمية.

[16 - 15]هكذا يرفع الله مياه البحر بعد تحليتها الى عنان السماء ، و يبسطها في صورة السحب المتراكمة فوق مساحات شاسعة ، ثم يسوقها الى حيث يشاء من الارض فيسقيها ، لكي لا يبقى سهل او جبل الا و تشمله بركاتها .. ثم انها تصفي الجو من الادران و الغبار ،و تساعد في قتل الجراثيم . اما على الارض فينبت الله بها الوانا من المواد الغذائية كالحبوب التي تشكل اهم مصدر للغذاء عند البشر الخضروات ثم الثمار.

]لنخرج به حبا و نباتا و جنات الفافا[

ارايت البساتين و الغابات كيف تلتف اشجارها ببعضها ؟ انها من بركات الغيث.

ان هذا النظام الذي لا نجد فيه ثغرة او فراغا ، و يمتد من اعماق الفضاء حيث تشع الشمس بوهجها ، الى كف المحيطات حيث تتبخر بفعل الحرارة ، و الى الصحاري المترامية حيث تنبت الارض زرعا و شجرا . اليس يهدينا هذا النظام الى وحدة التدبير و حكمة المدبر ؟ ! افلا نؤمن بقدرته على ان يعيدنا للحساب ؟ و هل من المعقول ان يترك ربنا الحكيم خلقه سدى ؟

[17]لا نجد في اي بقعة من اطراف الخليقة ثغرة او تفاوتا الا فيما يتصل بهذا الانسان الذي سلطه الله على الطبيعة ، و اكرمه بالعقل و الحرية ، فقد اخذ يعيث في الارض فسادا ، فهل يعقل ان يكون ذلك من عجز ؟ و هل يعجز رب السماوات و الارض شيء ؟ ام سوء تدبير ؟
و لا نجد في تدبيره شينا او نقصا . ام ماذا ؟ يهدينا التفكر في كل ذلك الى ان هذا الانسان الذي هو محور حكمة الخلق و هدف سائر ما في العالم لم يكن ليخلق بلا حكمة ، فما هي حكمة خلقه ؟ فاذا لا نجد ذلك في الدنيا نهتدي (بنور العقل) الى انها تتحقق في يوم الفصل.

]ان يوم الفصل كان ميقاتا[

عندما يلتقي الانسان بجزائه ، و يجتمع الاولون بالآخرين ، و تنصب موازين القسط ، و يحاكم الظلمة و المجرمون ، و يقوم الاشهاد بالحق ، عندئذ تتجلى حكمة خلقه.

في ذلك اليوم يتزيل المؤمنون عن المجرمين ، و تتميز الاعمال الخالصة لله عن افعال الرياء و النفاق ، و تنفصم عرى الارحام و وشائج الصداقات و الولاءات ، و لا تنفع شفاعة الأحبة و الاولياء.

[18]و يتقاطر الناس على صحراء المحشر زمرا ، كل وفد يقودهم امامهم الذي اتبعوه في الدنيا.

]يوم ينفخ في الصور[

تلك النفخة الثانية التي يحيي بها الله العباد جميعا.

]فتاتون افواجا[

كل فوج يأتون تحت راية امامهم.

و في الحديث عن البراء بن عازب قال : كان معاذ بن جبل جالسا قريبا من رسول الله في منزل ابي ايوب الانصاري فقال معاذ : يا رسول ارايت قول الله تعالى " :يوم ينفخ في الصور فتاتون افواجا ... الآيات " فقال : " يا معاذ سألت عن عظيم من الامر ،ثم ارسل عينيه ، ثم قال : يحشر عشرة اصناف من أمتي اشتاتا قد ميزهم الله تعالى من المسلمين و بدل صورهم : بعضهم على صورة القردة ، و بعضهم على صورة الخنازير ، و بعضهم منكسون ، ارجلهم من فوق ، و وجوههممن تحت ، ثم يسحبون عليها ، و بعضهم عمي يترددون ، و بعضهم صم و بكم لا يعقلون ، و بعضهم يمضغون السنتهم فيسيل القيح من افواههم لعابا يتقذرهم أهل الجمع ، و بعضهم مقطعة ايديهم و ارجلهم ، و بعضهم مصلبون على جذوع من نار ، و بعضهم أشد نتنا من الجيف ، و بعضهميلبسون جبابا سابغة من قطران لازقة بجلودهم ، فاما الذين بصورة القردة فالقتات من الناس (اي النمامون (و اما الذين على صورة الخنازير فأهل السحت ، و اما المنكسون على رؤوسهم فاكلة الربا ، و العمي الجائرون في الحكم ، و الصم و البكم المعجبون بأعمالهم ، و الذين يمضغون بالسنتهم العلماء و القضاة الذين خالف أعمالهم أقوالهم ، و المقطعة أيديهم و أرجلهم الذين يؤذون الجيران ، و المصلبون على جذوع من نار فالسعاة بالناس الى السلطان ، و الذين اشد نتنا من الجيف فالذين يتمتعون بالشهوات و اللذات ، و يمنعون حق الله تعالى في أموالهم ، و الذين هم يلبسون الجباب فأهل الفخر و الخيلاء " (١. (

[19]و لان الانسان محور خلق عالمنا فان سائر ما في الخليقة يتصل به و يتغير معه ، فترى الارض و السماء المحيطة بها تخضع لتطورات هائلة.

]و فتحت السماء فكانت ابوابا[

فتلك السماء التي جعلها الله سقفا محفوظا غدت منفطرة منشقة ، و لعل تلك الابواب تكون مهبطا ظاهرا للملائكة ، و معراجا للمؤمنين الى الجنة ، و مخرجا للكفار الى النار.

[20]اما الجبال التي كانت تحافظ على توازن الارض فانها تفقد وزنها و تسير ، و تنبث كما الهباء في الفضاء الارحب ، ثم تتلاشى و تصبح سرابا.

(1)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٤٢٣.

]و سيرت الجبال فكانت سرابا[

و هكذا ينهار نظام عالمنا ، ذلك انه اذا كانت الخليقة قد نظمت لمصلحة الانسان و سخرت لحياته و فرضت عليها السنن اكراما له فها هو يسحب الى قاعة المحاكمة للحساب و الجزاء ، فلم يعد هنالك سبب لاستمرار النظام السائد في الطبيعة.

ان جهنم كانت مرصادا

هدى من الآيات

هل وراء ذلك اليوم الرهيب أمر آخر ؟ بلى . ما هو اخطر منه النار او الجنة . او ليست جهنم مرصاد الطاغين ، و الجنة مفازة كريمة للمؤمنين ؟ و لكن لماذا يلبث الطغاة في جهنم احقابا متمادية قد تصل الى درجة الخلود ؟ لانها سنة إلهية كما هي سنة ان النار تحرق والماء يتبخر ، و حيث انهم لم يعوا هذه السنة ، بل و كذبوا بها و بآيات الله التي حذرتهم منها ، فانهم انتهوا اليها ، بينما المتقون (الذين وعوا هذه السنة فاتقوا النار و تجنبوا ما يؤدي بهم اليها) فانهم فازوا بالجنة التي استقبلتهم بحدائقها و فواكهها و كواعبها و أمنها و سلامها . انها ايضا الجزاء المناسب الذي اعده الله لهم.

و يمضي السياق في تحذير الانسان من يوم النشور ، و يصور بعض مواقفه بعد ان يذكرنا بالله سبحانه رب السموات و الارض و ما بينهما ، ففي ذلك اليوم تخشع اصوات العباد و اصوات الروح و الملائكة الذين يقفون صفا لا يتكلمون الا من اذن لهالرحمن.

في ذلك اليوم يتساقط زيف الباطل ، و يتجلى الحق بكل ابعاده ، و لا تزال فرصة الاختيار للانسان في هذه الدنيا قائمة ، فمن شاء عاد الى ربه تائبا خشية ذلك اليوم . اما من يكفر فان الله ينذره بعذاب قريب (بالرغم من ان الشيطان يبعده عن ذهن البشر) يقع في ذلكاليوم الرهيب الذي يرى الانسان ما قدمت يداه من خير و شر (متجسدين في جزاء حسن او عذاب شديد) ، و حين يرى الكافر حقائق أعماله يتمنى لو بقي ترابا و لم يحشر لمثل ذلك الجزاء.

بينات من الآيات

[21]يتعامل الانسان مع سنن الله العاجلة في الطبيعة من حوله ، فتراه يتجنب النار ان يحترق بها ، و الحيات ان تلدغه ، و الجراثيم ان تغزوا جسده فتهلكه ، فلماذا يا ترى لا يتجنب تلك السنن الآجلة ، و ما الفرق بين نار تحرقه اليوم و اخرى تحرقه غدا ، أو حيةتلدغه من جحر في الصحراء و أخرى يصنعها بعمله لتلدغه غدا في الاخرة ، و من ميكروب يتكاثر في جسمه اليوم و آخر يزرعه في حياته الدنيا ليحصده في تلك الدار الحق ؟!

ان سنن الله في الدنيا تذكر بما يماثلها في الآخرة و لكن الإنسان يؤمن بواحدة و يترك أخرى . لماذا ؟

يبدو من آيات القرآن عموما ، و هذا السياق بالذات ، ان الجزاء يوم النشور نوعان :الاول : هو ذات العمل الذي يرتكبه اليوم و يتجسد له جزاء وفاقا في الآخرة ، كمثل نار يوقدها الانسان في بيته فتحرقه ، او ثمرة يغرسها في ارضه فيتمتع بثمراتها . النوع الثاني:

الجزاء الذي يقدره الرب للصالحين في الجنة من فضله

و يحسب الحسنة بعشرة . و الآية التالية تشير الى النوع الأول:

]ان جهنم كانت مرصادا[

فهذه كانت مركز رصد و مرتع الجزاء في الآخرة . انها سنة إلهية و نظام مقدر لن يفلت منها من يكذب بها ، قال أمير المؤمنين علي بن ابي طالب - عليه وآله السلام: -

"ولئن امهل (الله) الظالم فلن يفوت أخذه ، وهو له بالمرصاد على مجاز طريقه ، و بموضع الشجا من مساغ ريقه . (1) "

[22]و الطغاة الذين يتجاوزون حدهم ، و لا يتجنبون ما يقربهم الى النار ، سوف يعودون الى النار التي صنعوها بافعالهم.

]للطاغين مآبا[

و لعل كلمة مآب توحي بانهم سبب ايقاد النار التي عادوا اليها ، لانها منزلهم الذي بنوه و وطنهم الذي اختاروه لانفسهم.

[23]كم يبقون في هذه النار ؟

]لابثين فيها أحقابا[

جاء في روايات أهل البيت ان الآية تخص المذنبين الذين يقضون في النار فترة من الوقت بقدر ذنوبهم ، و على هذا فمعنى الاحقاب الدهور المتتالية او السنين المتلاحقة.

(1)نهج البلاغة / خ ٩٧.

و قال بعض المفسرين : معنى الآية انهم يلبثون في النار احقابا متتالية لا تنقطع ، فكلما مضى حقب أدركهم حقب آخر . قالوا : و انما استعاضت الآية بالاحقاب عن السنين لانها أهول في القلوب و أدل على الخلود ، و انما كان الحقب ابعد شيء عندهم ، و قالوا : الحقب ثمانون سنة . و اذا كانت السنة ثلاثمائة و خمسة و ستين يوما و كان اليوم في الآخرة كالف سنة مما نعده من سني الدنيا فلك ان تتصور أيام الطغاة في جهنم!

و جاء في الحديث عن رسول الله -صلى الله عليه واله - انه قال : " لا يخرج من النار من دخلها حتى يمكث فيها احقابا ، و الحقب بضع و ستون سنة ، و السنة ثلاثمائة و ستون يوما ، كل يوم الف سنة مما تعدون ، فلا يتكلن احد على ان يخرج من النار " (١. (

[24]خلال هذه الاحقاب المتتالية و الدهور المتطاولة لا يجد الطغاة هنالك سوى العذاب الذي لا يفتر عنهم ابدا.

]لا يذوقون فيها بردا و لا شرابا [

فلا يجدون طعم البرد و برد الشراب ، و لا لحظة واحدة و لا بقدر بسيط.

قالوا :البرد هنا بمعنى النوم ، و استشهدوا بما تقوله العرب : منع البرد البرد ، اي منع النوم البرد ، و قال بعضهم : بل هو عام يشمل برد ريح او ظل او نوم ، و انشدوا:

فلا الظل من برد الضحى تستطيعه و لا الفيء اوقات العشي تذوق (٢)[٢٥] انما يتواصل لهم شراب يغلي و ماء نتن.

(1)مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٤٢٤.

(2)راجع القرطبي / ج ١٩ / ص ١٨٠.

]الا حميما و غساقا[

الحميم : الماء الحار . اما الغساق فهو ماء نتن ، و قيل : صديد اهل النار وقيحهم.

[26]أترى هل ظلمهم ربهم حين اوقعهم في النار ؟ كلا .. لقد ظلموا أنفسهم . اوليس قد واتر عليهم رسله ؟ ان هذا جزاء اعمالهم ، و نهاية مسيرتهم.

]جزاء وفاقا[

اي جزاء موافقا لاعمالهم بلا زيادة او تغيير.

[27]لماذا انتهى بهم المطاف الى هذه العاقبة السوئي ؟ لانهم لم يتوقعوا الحساب فافرطوا في السيئات ، كما المجرم حين لا يفكر في العدالة يتوغل في اقتراف الموبقات.

]انهم كانوا لا يرجون حسابا[

[28]و اذا انذرهم الرسل و الدعاة بالحساب و اذا جاءتهم آيات النشور تترى ، كذبوا به و بآياته.

]و كذبوا بآياتنا كذابا[

[29]بلى . كان الحساب قائما ، و كانت اعمالهم و انفاسهم و لحظات حياتهم و هواجس نياتهم كل اولئك كانت محسوبة عليهم .

]و كل شيء أحصيناه كتابا[

فلم يغادر كتاب ربنا صغيرة و لاكبيرة الا احصاها.

[30]و اليوم جاء يوم الجزاء بعد الاحصاء الشامل.

]فذوقوا فلن نزيدكم الا عذابا[

انها النهاية المريعة ، و معرفة الانسان في الدنيا بهذه الحقيقة : ان عذاب جهنم يزداد كما ان نعيم الجنة في اضطراد ، هذه المعرفة تجعل هذه الزيادة حكيمة و عادلة لان الانسان باختياره الحر بلغ هذه العاقبة.

حقا : ان تصور هذه الحقيقة يجعلنا اكثر حذرا من جهنم و اشد شوقا الى الجنة ، و قد روي عن النبي - صلى الله عليه وآله - : " هذه الآية اشد ما في القرآن على أهل النار " (١. (

[31]بإزاء ذلك نجد المتقين الذين تحذروا موجبات النار في الدنيا ، و تجنبوا السيئات التي تدخلهم جهنم ، نجدهم بعيدين عنها بعدهم عنها في الدنيا.

]ان للمتقين مفازا[

و أعظم فوز لهم نجاتهم من نار جهنم .او لا ترى قول الله سبحانه : " فمن زحزح عن النار و ادخل الجنة فقد فاز "؟

[32]و بالاضافة الى النجاة من النار فانهم يحظون بنعيم الابد.

]حدائق و أعنابا[

و لعل ذكر العنب بين سائر الثمار لانه طعام و فاكهة و فيه من الفوائد ما ليس في غيره ، حتى جاء في الحديث : " خير فواكهكم العنب " . (٢)(١) عن تفسير الكشاف / ج ٤ / ص ٦٩٠.

(2)تفسير نمونه / ج ٢٦ / ص ٤٨.

[33]الزوجة الموافقة تكمل السعادة ، ليس لانها فقط للتمتع الجنسي ، و انما ايضا لحاجة الروح الى تفاعل مع روح اخرى ، تكون لها كالمرآة تنظر فيها نفسها و العكس ، و قد وفر الله لعباده الصالحين الحور العين في الجنة ، بأفضل ما يتصوره البشر ، بل و افضل ماقد يتصوره جمال قمة في الروعة و الجمال الظاهري ، و مثل اعلى لجمال الروح ، و الخلق الفاضل و الادب الرفيع حتى يصلحن للمؤمنين و مستواهم السامي.

]و كواعب اترابا[

الكاعب :البنت عند استدارة صدرها ، و تفتح انوثتها مما تكون الذ للرجل و اشهى ، فهن كواعب ، ثم هن اتراب موافقات لروح الرجل خلقا و عقلا و شهوات . و يملك المؤمن أكثر من واحدة منهن حسب اعماله الصالحة مما يستحيل مثل ذلك في الحياة الدنيا.

[34]جلسات الانس لا تصفوا بدون شراب منشط ، و قد وفره الله للصالحين بأحسن ما يشتهون.

]و كأسا دهاقا[

قالوا : الدهاق ما امتلأت من الشراب ، و قيل : ما تواصلت ، و قيل : ما صفت و كلها تصدق في شراب الجنة.

[35]و لا تكتمل نعم الحياة بسوى الأمن ، و الجنة دار السلام فلا اعتداء و لا ظلم و لا مرض و لا سبات و لاخشية فناء النعم و زوالها .. و حتى الكلمات الجارحة التي تبعث الرعب و القلق و الالم في النفس لا وجود لها.

]لا يسمعون فيها لغوا و لا كذبا[

و انما يتبادلون العلم و المحبة و ذكريات الماضي و يحمدون ربهم كذبا على النعم . و لماذا قول اللغو من غيبة و تهمة و فحش ما دامت نفوسهم طيبة و الخيرات متوافرة لهم ؟ و لماذا الكذب وهو لا يكون الا لخبث او خوف او طمع و أهل الجنة مبرأون من كل ذلك ؟

[36]كل هذه النعم تترى عليهم بفضل الله لانهم اختاروا الصراط المستقيم و العمل الصالح.

]جزاء من ربك عطاء حسابا[

يبدو ان معناه ان هذا العطاء العظيم يكون حسب أعمالهم حيث ان درجات المؤمنين تختلف هناك حسب درجاتهم هنا.

و قيل : " حسابا " بمعنى الجزاء الوافي بحيث يقول المجزي : حسبي ، يقال : احسبت فلانا اي كثرت له العطاء حتى قال حسبي.

و قيل : " حسابا " لما علموا ، فالحساب بمعنى العد اي بقدر ما وجب له في وعد الرب ، فانه وعد للحسنة عشرا ، و وعد لقوم بسبعمائة ضعف ، و قد وعد لقوم جزاء لا نهاية له و لا مقدار ، كما قال تعالى : " انما يوفي الصابرون اجرهم بغير حساب."

و تعود الاقوال جميعا الى حقيقة واحدة هي العطاء الجزيل.

[37]و لكي لا يستكثر الانسان هذه النعم بين الله انها من عند الرب العظيم ، الذي له ملك السموات و الارض وهو الرحمن ؟

]رب السماوات و الارض و ما بينهما الرحمن[

و ما ظنك بالرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء اذا شاء ان يجزل العطاء ؟

]لا يملكون منه خطابا[

انه عظيم الى درجة تعاليه عن تخاطب خلقه ، لولا رحمانيته التي ينزل بها وحيه على عباده عبر رسول او من وراء حجاب.

ولولا ان الله سبحانه اذن لعباده بدعائه ، و القى في قلوب مريديه انوار محبته و مناجاته ، لما استطاع الانسان - اي انسان - ان يسموا الى درجة مخاطبته . اليس الخطاب بحاجة الى توافق طرفين ، او فرض طرف على آخر ؟ و الله ليس بمستوى خلقه حتى يتوافق معه ، و لنيفرض عليه شيء . و هكذا تشير الآية الى ان البشر و سائر الخلق ليسوا بمستواه ، و انهم لا يملكون منه شيئا فلا يفرضون عليه شيئا ، و هو يملكهم و برحمته يتفضل عليهم بمخاطبتهم ، و قد ياذن لبعضهم إذنا تكوينيا و تشريعيا بمخاطبته ، و ذلك حين يعرفهم نفسه و يلهمهم مناجاته.

و قد اختلفوا فيمن لا يملك الخطاب ، هل المؤمنون الذين ذكروا انفا ، ام الكفار باعتبارهم المطرودون عن باب رحمته ، ام كلا الفريقين ؟ يبدو ان الضمير ليس يعم المؤمنين و الكفار فحسب بل و يشمل سائر الخلائق (الجن و الملك و الروح) بشهادة الآية التالية التيجاءت تفصيلا لهذه الآية ، و مثلا ظاهرا .. بالرغم من ان هذه الآية - فيما يبدو لي - لا تخص يوم القيامة ، بلى . يوم القيامة تتجلى هذه الحقيقة بوضوح اكبر.

[38]تتجلى عظمة ربنا لعباده يوم البعث الاكبر حين يقوم الروح بكل عظمته و جلاله بين يديه ، و الملائكة صفا لا يتكلمون ، و قد خشعت اصوات الخلائقلعظمة الرب ؟ ثم ياذن الله برحمانيته لبعضهم بالكلام شريطة الا يتكلم الا صوابا.

]يوم يقوم الروح[

وما الروح ؟ اختلفوا في ذلك ، فقال البعض : انه خلق أكبر من سائر الخلق حتى من الملائكة المقربين جبرائيل و ميكائيل ، جاء في حديث مأثور عن الامام الصادق - عليه السلام - : " ملك اعظم من جبرائيل و ميكائيل " (١. (

و على هذا فان الروح هو روح القدس الذي يؤيد به الله انبيائه ، قال سبحانه " نزله روح القدس من ربك بالحق " (٢) ، و هو حسب تفسيرنا المراد بقوله سبحانه " : يسالونك عن الروح قل الروح من أمر ربي و ما اوتيتم من العلم الا قليلا (3) " ، وقوله سبحانه : " تنزل الملائكة فيها باذن ربهم من كل أمر " (٤. (

و قال البعض : انه جند من جنود الرحمن كما الملائكة ، و روي عن رسول الله - صلى الله عليه واله - انه قال:

"الروح جند من جنود الله ليسوا بملائكة لهم رؤوس و ايدي و ارجل ، ثم قرا " : يوم يقوم الروح و الملائكة صفا " ، قال : هؤلاء جند وهؤلاء جند " . (٥)و قال بعضهم : انه جبرئيل اليس يقول ربنا عنه : " نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المرسلين " (٦. (

(1)عن تفسير مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٤٢٧ راجع تفسير نمونه / ج ٢٦ / ص ٥٨.

(2)النحل / ١٠٢.

(3)الاسراء /٨٥

(4)القدر / ٤.

(5)عن الدر المنثور / ج ٦ / ص ٣٠٩ تفسير نمونه / ج ٢٦ / ص ٥٨ و مثله القرطبي /ج ١٩ / ص ١٨٧.

(6)الشعراء / ١٩٣.

و قال بعضهم : المراد أرواح الخلائق ، و قال آخرون : المراد القرآن ، و قالوا : اشراف الملائكة ، و قالوا ، بنو ادم و المعنى ذووا الروح (١. (

و يبدو لي ان الروح في الاصل خلق نوراني أعظم من الملائكة و له جنود و امتدادات ، فمنه تستمد ارواح الناس قوتهم و حياتهم ، و به يؤيد الله انبياءه و اولياءه ، وهو الذي يتنزل في ليلة القدر ، و هو الذي يقوم بين يدي الله يوم القيام مع صفوف الملائكة.

]و الملائكة صفا لا يتكلمون[

لان هيبة الله تقفل ألسنتهم ، و لانهم محكومون مربوبون ، فمن السفه ان يتخذ احد منهم إلها لان كل ما لديهم من الله سبحانه ، و حتى الشفاعة لا يقدرون عليها الا بعد ان ياذن الله لهم بها ، و الله لا ياذن بها الا لمن يشاء و بحكمة اي بحساب دقيق.

]الا من اذن له الرحمن و قال صوابا[

و هذه الآية تذكرنا بقوله سبحانه : " يومئذ لا تنفع الشفاعة الا لمن اذن له الرحمن و رضي له قولا " و التي قلنا فيها : ان للشفاعة شرطين : اذن الله ، و ان تكون مرضية اي عبر مقياس الثواب و العقاب و ليس بلا اي ميزان و مقياس ، و يبدو ان قولهسبحانه هنا : " و قال صوابا " يشير الى ذلك.

[39]كما تتجلى عظمة الله في ذلك اليوم ، يتجلى كذلك الحق ، فلا شفاعة بالباطل و لا كذب و لا دجل و لا احكام جائرة .

(1)تفصيل هذه الاقوال مذكور في تفسير القرطبي / ج ١٩ / ص ١٨٦ - ١٨٧ فراجع.

]ذلك اليوم الحق[

فهو حق لا ريب فيه ، و لانه رهيب بأحداثه التي تنوابها السماوات و الارض فكيف بهذا الانسان المسكين ؟ ! لذلك فانه يستحق ان يسمى بالحق.

و فيه لا ينفع الا الحق ، و هو ابتغاء مرضاة الرب.

]فمن شاء اتخذ الى ربه مآبا[

اي طريقا للعودة اليه . اولسنا قد فطرنا على الايمان ثم انحرفت بنا الدنيا و شهواتها ؟ تعالوا نعود الى الطريق الاول ، الى سبيل الله ، الى الرب الودود.

[40]و قبل يوم القيامة عذاب قريب يقع قبل الموت و بعد الموت ، فاذا مات ابن ادم قامت قيامته الصغرى فيرى عمله ان خير فخير و ان شرا فشر.

]انا انذرناكم عذابا قريبا[

قال بعضهم : المراد الحساب بعد الموت ، و قال البعض : انه يوم القيامة ذاته باعتباره حقا لا ريب فيه و انه يأتي و ان كل آت قريب ، او باعتبار الانسان اذا مات انعدم احساسه حتى يبعث للحساب ففي حسابه يتصل يوم موته بيوم بعثه ، الا اذا محض الايمان او محض الكفر فانه يحس بالثواب او بالعقاب.

و سواء بعد الموت او بعد النشور فان اعمال الانسان تتجسد ثوابا او عقابا ينظر اليها.

]يوم ينظر المرء ما قدمت يداه[

من خير او شر ، و المراد من اليد مجمل ما يقوم به الانسان . و حين يرى المؤمنعمله يفرح كثيرا ، و لكن حين يرى الكافر عمله يتمنى لو كان ترابا و لم يرتكب ذلك العمل السيء.

]و يقول الكافر يا ليتني كنت ترابا[

ما اشد هذا الانسان ندما ان يصل الى هذه الدرجة فيتمنى لو كان ترابا و لم يقترف تلك الجرائم!

هذا الانسان الذي خلقه الله سبحانه ليكون ضيفا عنده في جنات الخلد بلغ به الحال ان يكون أرذل من التراب . فكيف و التراب ينتفع به و هو لا ينتفع به ؟ ! بل يستحق المزيد من الهوان و الاذى.

سورة النازعات

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الاعمال باسناده عن ابي عبد الله - عليه السلام - قال : " من قرا و النازعات لم يمت الا ريانا ، و لم يبعثه الله الا ريانا "نور الثقلين / ج ٥ / ص ٤٩٧

الاطار العام

يبدو ان سورة النازعات تنزع من نفس المهتدين بها طغيانها ، و لكن كيف ؟

اولا : بتلاحق كلمات القسم الصاعقة ، و بما هو مجهول عندنا ، من ملائكة لموت او حالة الموت او خيل الغزاة.

ثانيا :تنذر بيوم الراجفة و يوم الرادفة حيث تكون القلوب واجفة ، أبصارها خاشعة .من هم اولئك ؟ انهم الذين يقولون في الدنيا : انا لمردودون الى الحياة كما نحن الان حتى ولو كنا عظاما نخرة ؟ ! فيقول لهم القرآن : بلى و بزجرة واحدة تخرجكم الارض الى ظهرهاالمستوي ، لا يرون فيها أمتا و لا عوجا.

ثالثا : تقص علينا حديث موسى و فرعون ، و كيف ان فرعون طغى و لم يستمع الى انذار رسول الله اليه فأخذه الله نكال الآخرة و الدنيا.

رابعا :ترينا آيات الله في السماوات و الارض ، و حكمته البالغة التي تتجلى فينظام الخلقة . كيف مسك السماء و سواها كيف أغطش ليلها و اخرج ضحاها ، و كيف دحى الارض و اخرج منها ماءها و مرعاها ، و كيف أرسى جنباتها . كل ذلك لحياة الانسان و البهائم التي تساعد الانسان.

خامسا : بعد ذلك يذكرنا بالطامة الكبرى حيث يتذكر الانسان ما سعى ، و يبين ان حكمة الخلق تتجلى في الجزاء النهائي ، عندما يلقى في الجحيم من طغى ، بينما تكون الجنة مأوى الخائفين مقام ربهم.

و في خاتمة السورة يذكرنا السياق بتبرير يتشبث به الجاحدون عبثا حيث يتساءلون عن الساعة : أيان مرساها ؟ و لكن اين انت و الساعة ؟ ان علمها عند الله واليه منتهاها . انما انت منذر .دعنا نخشاها ، ففي ذلك اليوم تعم الحسرة كل ابعاد وجودنا لاننا نحتسب عمرنافي الدنيا عشية أو ضحاها.

و هكذا تحقق آيات السورة هدفها لمن يشاء ، وهو معالجة طغيان النفس و غرورها.

قلوب يومئذ واجفة

هدى من الآيات

لكي لا تغمر النفس الغفلة عن ذكر الله يذكرنا السياق بما ينتظرنا من حالات النزع و النشط و السبح و السبق ، ثم بيوم القيامة حيث الصيحة التي تفنى بها الخلائق ، و الصيحة التي تحيى بها . في ذلك اليوم تتسارع نبضات القلوب ، و تخشع الابصار ، لماذا ؟ لانهم كانوا لا يرجونه ، و كانوا يقولون : هل نعود كما نحن اليوم ، او بعد ان نصبح عظاما نخرة ؟ ! ثم قالوا : تلك اذا كرة خاسرة . بلى . انهم يعودون و بصيحة واحدة تنقلهم من رحم قبورهم الى ظاهر الأرض المستوية.

ثم ينقلنا السياق الى حديث موسى الذي ناداه ربه و أمره بانذار فرعون الطاغية لعله يتذكر او يخشى ، و لكنه ابى و تحدى حين حشر الناس و نادى فيهم : انا ربكم الاعلى ، فاهلكه الله في الدنيا بعذاب و الحقه بعذاب الاخرة . كل ذلك ليبقى عبرة لمن يخشى.

و هكذا تواصلت رسالات الله لانذار البشر بذلك اليوم الرهيب الذي ينتظر الجميع.

بينات من الآيات

[1]في حياة المرء لحظات حاسمة لو وعاها و نظم مسيرته و فقها تجاوز خطرها ، و من أبرزها عند نزع الروح ، عندما يودع حياة طالما عمل لها ، و يدخل في حياة مجهولة تماما لديه ، و عندما يقسم القرآن بمثل هذه اللحظات فلكي نعيد النظر في تصوراتنا عن انفسنا ، ونكبح منها جماح الغرور و الطيش.

]و النازعات غرقا[

قسما بتلك القوى التي تنزع الارواح من ابداننا بقوة كما ينزع القوس فيغرق فيه حتى يبلغ غاية مداه.

و يبدو ان المراد منها الملائكة الذين يقومون بهذا الدور.

[2]ثم قسما بالقوى التي تنشط في هذا الأمر نشطا.

]و الناشطات نشطا[

قالوا :النشط هو الجذب بسهولة و يسر ، فالمعنى هنا ان الملائكة تنشط أرواح المؤمنين ، كما ينشط العقال من يد البعير اذا حل عنها . من هنا يعتقد ان القسمين هما بملك الموت و أعوانه في حالتين : عند نزع ارواح الكفار غرقا اي بقوة و شدة ، و عند نزع ارواح المؤمنين بنشط و رفق.

و قد روي عن الامام علي - عليه السلام - معنى معاكسا في هذه الآية حيثقال انها " : الملائكة تنشط ارواح الكفار بين الجلد و الاظفار حتى تخرجها من أجوافهم بالكرب و الغم " (١. (

[3]ثم تحمل الملائكة أرواح المؤمنين الى السماء فتسبح فيها سبحا .. كما تسبح النجوم في افلاكها.

]و السابحات سبحا[

[4]ثم تتسابق بسرعة لتبلغ غاية الروح النار او الجنة .. فقسما باولئك الكرام.

]فالسابقات سبقا[

[5]و قسما بأولئك الملائكة الذين يدبرون أمر الارواح و غيرها من أمور عالمنا باذن ربهم.

]فالمدبرات أمرا[

قسما بهم جميعا : ان يوم الفصل آت ، و ان الجزاء واقع لا ريب فيه.

كان هذا احد التفاسير في معنى هذه الآيات ، و هناك تفسيرات أخرى:

/ 1ان المراد بالنازعات فانها تنزع من افق لآخر ، و تنشط في سيرها ، و تسبح في الفضاء ، و تساءلوا عن معنى تدبيرها الامر فقالوا معناه ان الله يدبر الأمر بها.

/ 2ان النازعات هي الارواح التي تنزع كما يقال لابن و تأمر لمن يملك اللبن و التمر ، و هي ايضا التي تنشط اي تخرج ثم تسبحس في الفضاء ، و تساءلوا مرة اخرى عن تفسير المدبرات أمرا فقالوا : ان ارواح بني ادم تدبر عبر الاحلام لبعض الامور بعد(١) تفسير مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٤٢٩.

فراقها من الدنيا ، و هذا تفسير غريب.

/ 3و قال بعضهم : انها صفة خيل الغزاة او الغزاة انفسهم ، لانها تنزع في اعناقها نزعا تغرق فيه الأعنة لطول لانها عراب ، و هي ناشطات لانها تخرج من دار الامان الى جبهات الحرب ، و هي سابحات لان العرب تشبه الخيل الاصيل بالسفينة التي تجري بيسر و سرعة ، وقالوا : انها تدبر أمر الغلبة و النصر.

و ان هذا التفسير يبدو مقبولا اذا لاحظنا ان ربنا اقسم بخيل الغزاة او عموما بالخيل في قوله سبحانه : " و العاديات ضبحا ، فالموريات قدحا " (١) ، و كانت للعرب علاقة حميمة مع الخيل ، كما انه كان رمزا للشجاعة و الفروسية.

الا ان تفسير " المدبرات أمرا " بها يبقى غريبا ، لذلك قال بعضهم : انه لا خلاف في تفسير هذه الآية بالملائكة انى فسروا سائر الآيات ، بينما يبدو ان المراد بكل هذه الكلمات نوعا واحدا من الخلائق ، و الله العالم.

[6]و انى كان تفسير هذه الكلمات الصاعقة فانها تهز الضمير ، بل و يزداد المرء هلعا حين لا يعلم المراد منها بالضبط ، و هنا يقول الرب:

]يوم ترجف الراجفة[

حين تزلزل الارض زلزالها ، حين تعم الصيحة أرجاء الكون ، حين تهتز كل الثوابت فلا يبقى ما يعتمد عليه الانسان سوى الحق . و سواء كانت الرجفة بمعنى الحركة كقوله سبحانه : " يوم ترجف الارض و الجبال " ، ام بمعنى الصيحة كما قال سبحانه : " فاخذتهم الرجفة " ، فانها تخلع القلوب هلعا ، و تبعثنا نحو التفكير الجدي فيما يفعل بنا غدا.

(1)التفسير الكبير / ج ٣٢ / ص ٦٣.

[7]و بعد الرجفة هناك صاعقة أخرى يدعها السياق مجهولة.

]تتبعها الرادفة[

الرادفة الشيء يقع بعد شيء آخر ، فهل هي الصيحة الثانية التي يحيى بها الله الناس بعد ان يميتهم بالاولى ، ام ان عند الاولى يموت أهل الارض بينما يموت عند الثانية أهل السماوات ؟ ! انى كانت فانها صاعقة فظيعة تبعث الهيبة في انفسنا.

[9 - 8]تتسارع نبضات قلوب الفجار فأنى لهم الفرار من أهوال الساعة و قد ضيعوا فرصهم في الدنيا فلم يدخروا لانفسهم ما ينجيهم منها ؟

]قلوب يومئذ واجفة * ابصارها خاشعة[

اما المؤمنون فانهم آمنون من فزع يومئذ ، لانهم قد و فروا لانفسهم من صالح الاعمال ما يبعث في انفسهم السكينة.

[10]طالما كفروا بالنشور ، و بنوا كل مواقفهم على أساس هذا الكفر ، فاذا بهم يكتشفون خطاهم.

]يقولون أءنا لمردودون في الحافرة [

قالوا :رجع فلان في حافرته اي في طريقته التي جاء فيها فحفرها اي اثر فيها بمشيه . و هكذا يبعدون البعث لانفسهم حتى لا يتحملوا مسؤولياته.

[11]و يحاولون تبرير استعبادهم للبعث بانه كيف يمكن اعادة هذه الاعظم البالية التي تنخر فيها الرياح لما فيها من ثقوب كثيرة.

]أءذا كنا عظاما نخرة[

حكي عن كتاب الخليل : نخرت الخشبة اذا بليت فاسترخت حتى تفتت اذا مست ، و كذلك العظم الناخر (١) و قيل : الناخرة من العظم ما فرغت و خرج منها صوت بسبب هبوب الرياح.

[12]ثم عادوا الى الواقع و قيموا موقفهم الجاحد فقالوا اذا كانت القيامة حقا فانهم الخاسرون لكفرهم بها.

]قالوا تلك اذا كرة خاسرة[

و لعل هذا القول كان اعترافا منهم يدانون به يوم القيامة ، او جحودا بعد اليقين و عنادا بعد الاذعان . و قيل : انما هو استهزاء و سخرية.

[13]دعهم يقولوا ما يشاؤون فان القيامة واقعة ، و بزجرة واحدة تراهم قياما في الساهرة.

]فانما هي زجرة واحدة[

زجر البعير اذا صاح عليه ، و يبدو ان المراد منها النفخة الثانية التي يحيي بها الله من في القبور.

] [14]فاذا هم بالساهرة[

الساهرة الارض المستوية سميت بذلك لان سالكها لا ينام فيها خوفا منها.

و يبدو ان الساهرة هي وجه الارض في مقابل باطنها حيث انهم كانوا في باطن الارض فتحولوا الى ظاهرها.

(1)تفسير الجامع لاحكام القرآن / ج ١٩ / ص ١٩٨.

[15]حقيقة كيوم القيامة ، عندما تدق ساعة الحساب الرهيب ، جديرة بان نتذكرها ، بل نجعلها نصب اعيننا ابدا حتى نكيف على أساسها كل ابعاد سلوكنا و كل جوانب تفكيرنا ، و من اجل هذا بعث الله الرسل لكي ينذروا الطغاة لعلهم يخشون من تلك العاقبة ، و لكنهم تمادوا في غيهم حتى أهلكهم الله و عجل بهم الله النار ، فهل لنا ان نعتبر بتاريخهم المأساوي ؟

]هل أتاك حديث موسى[

بلى . و لكن هل اعتبرت بهذا الحديث ؟ فان لم تكن اعتبرت به فكانك لم تسمعه ابدا.

[16]لقد بدات قصته بدعاء ربه ، عندما صار في الواد المقدس طوى.

]اذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى [

لقد تقدست تلك الارض بالوحي . و لعل اسمها كان طوى او ان هذه صفة الارض من الطي كانها طويت بالقداسة او طويت بموسى حيث قربته الى الرسالة . و لعل طوى صفة لكل ارض مباركة حيث ان سالكها يتمتع بالسير فيها حتى و كانها تطوى له.

[17]ثم أمره الرب بان يذهب الى رأس الطغيان و الفساد فرعون.

]اذهب الى فرعون انه طغى[

و بالرغم من طغيانه لم يدعه الله بلا نذر ، و لم يهلكه قبل ان يبعث اليه رسولا ، ليتم الحجة عليه.

[18]و تلخصت رسالة الوحي اليه في دعوته الى التزكية و اصلاح نفسه ، و عدم هلاكها بالاستمرار في الطغيان . سبحانك يا رب ما ارحمك بعبادك ، و كيف تريد لهم الفلاح و يأبون الا التمادي في الفساد.

]فقل هل لك الى ان تزكى[

[19]فاذا تزكى المرء ، و تطهر من العناد و الغرور و الكبر ، كانت نفسه مهيأة لاستقبال نور الايمان عبر رسول الله ، فاذا هداه الله اليه بالرسول خشعت نفسه و تخلص جذريا من حالة الطغيان.

]و أهديك الى ربك فتخشى[

[20]و طالب فرعون موسى بالآية ، لعله يتهرب عن الهداية عندما لا يأتيه بها لحكمة بالغة ، ولكن الله اظهر له الآية على يد نبيه اتماما لحجته.

]فأراه الاية الكبرى[

متمثلة في العصا و اليد البيضاء.

[21]و اذا نزلت الآية الواضحة ثم كفر المرء فان العقوبة تعجل له ، لان الكفر انْئذ يكون تحديا صارخا لسلطان الرب ، و لعله يكون ايضا سببا لضلالة سائر الناس ، و هكذا تتابعت حلقات النهاية.

]فكذب و عصى[

كذب بالآية ، و عصى الرب تعالى حين عصى موسى نبيه عليه السلام.

[22]و تمادى في التكذيب و العصيان حين راح يسعى في الارض فسادا.

]ثم ادبر يسعى[

[23]و اخذ يضلل الناس ، و يجند الضالين ضد رسالة الله.

]فحشر فنادى[

اي جمع الناس و نادى فيهم بضلالاته .

[24]و أعظم تلك الضلالات دعوته بانه الرب الاعلى ، و استكباره في الارض ، و فرض قانونه الوضعي على الناس في مقابل شريعة الله سبحانه.

روي عن ابي جعفر (الباقر) عليه السلام انه قال : " قال جبرئيل - عليه السلام : -نازلت ربي في فرعون منازلة شديدة فقلت : يا رب تدعه و قد قال : انا ربكم الاعلى ؟ ! فقال : انما يقول هذا عبد مثلك " (١) ، و في رواية أخرى قال ربنا : " انمايقول هذا مثلك من يخاف الفوت " (٢. (

]فقال انا ربكم الاعلى[

جاء عن ابن عباس ان جبرئيل قال لرسول الله - صلى الله عليه وآله - : " يا محمد لو رايتني و فرعون يدعو بكلمة الاخلاص : " آمنت انه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل و انا من المسلمين " و انا أرسه في الماء و الطين لشدة غضبي عليه مخافة انيتوب فيتوب الله عز وجل عليه ! قال رسول الله : ما كان شدة غضبك عليه يا جبرئيل ؟ قال : لقوله " انا ربكم الاعلى " ، و هي كلمته الأخرى منهما قالها حين انتهى الى البحر و كلمته الاولى : " ما علمت لكم من إله غيري "(١) تفسير نور الثقلين / ج ٥ / ص ٥٠٠.

(2)المصدر.

فكان بين لأولى و الآخرة أربعون سنة ، و انما قال ذلك لقومه " انا ربكم الأعلى "حين انتهى الى البحر فرأه قد يبست فيه الطريق فقال لقومه : ترون البحر قد يبس من فرقي ، فصدقوه لما راوا ، و ذلك قوله عز وجل : " و اضل فرعون قومه و ما هدى "(١. (

[25]و جاءت النهاية المريعة حيث أخذه الله أخذا و بيلا ، و الزمه عذاب الدنيا فالاخرة.

]فأخذه الله نكال الآخرة و الأولى [

قالوا :النكال من النكل و أصله الامتناع ، و منه النكول عن اليمين ، و النكل : القيد ، و معناه هنا : العاقبة السيئة للعمل و التي تبقى عبره لمن بعده ، لان النكال اسم لما جعل نكالا للغير اي عقوبة له حتى يعتبر به . ثم قالوا :انه بمعنى أخذه الله أخذا وبيلا فجعل النكال محل " أخذ و بيلا " ، و هذا كثير في العربية حيث يوضع مصدر آخر قريب من مصدر الكلمة محل مصدرها ، وقال بعضهم : إنه بمعنى : أخذه بنكال الآخرة و الأولى . و يبقى السؤال : ما هو معنى نكال الآخرة ؟ يبدو لي ان معناه نكالا (اي عقوبةعلى عمل سيء) يوجد في الحياة لآاخرة ، و عقوبة وجدت في الحياة الدنيا.

[26]و هذا النكال - عاقبة العمل السيء و جزاؤه - بقي عبرة لكل معتبر ، فمن هو المعتبر ؟ الذي يخشى ، و لا يخشى الا من أهتدى ، و لا يهتدي الا من تزكى.

]ان في ذلك لعبرة لمن يخشى[

(1)المصدر.

انما انت منذر من يخشاها

هدى من الايات

لكي نتقي طغيان النفس ننظر مرة الى تاريخ الغابرين ، و نتساءل : ما الذي ارداهم ؟ اليس طغيان فرعون على موسى اوجب له تلك العاقبة السوئى ؟ و ننظر مرة اخرى الى الخليقة فنرى السماء كيف بناها ربنا المقتدر الحكيم ، و كيف رفع سمكها فسواها ، و كيف الزمها قوانينها من اختلاف الليل و النهار ، و الغطش و الضحى ، ثم ننظر الى الارض كيف سواها ، و اجرى فيها روافد الماء العذب ، و اودعها مواد الزراعة ، و وتد ميدانها بالجبال الراسيات ، لتتهيا لحياة البشر و الانعام ، افليس الله بقادر على ان يعيدنا ؟ بلى . وهو حكيم لميخلق كل هذا سدى ، فلا بد اذا من يوم الحساب ، في ذلك اليوم الرهيب يتذكر الانسان سعيه ، و يرى كل ذي عين الجحيم تلتهب ، و تدعو الطغاة الذين اثروا الحياة الدنيا ، بينما الخائفون مقام ربهم يؤويهم ربهم في الجنة لانهم خالفوا اهواءهم.

و في نهاية السورة يعالج القران الكريم التشكيك في وقت الساعة ، بان وقتها عندالله ، و ان المهم تذكرها ، و ليس معرفة وقتها.

بينات من الآيات

[27]لماذا يطغى الانسان ؟ اوليس لانه لم يستوعب او يعترف بالنشور و الحساب ؟ و لكن كيف يؤمن بذلك و وساوس الشيطان تبعده عنه و تطرح في روحه التساؤلات المتلاحقة : كيف و متى و انى ؟

من اجل ان يتجاوز الانسان هذه الوساوس و لا يقع في شرك الشيطان يذكره الرب سبحانه بما يحيط به من خلق السماوات و الارض ، و ذلك لأمرين:

اولا : لكي نؤمن بعظيم قدرة الله التي تتجلى في هذا الخلق مما يهدينا الى انه لا يعجزه شيء.

ثانيا : لكي نزداد وعيا بحكمة الخلق ، و ان له هدفا محددا ، و ان الانسان لن يشذ عن هذه السنة العامة.

و اذا وعى الانسان هاتين البصيرتين فانه يستطيع مقاومة وساوس الشيطان.

]ءأنتم اشد خلقا ام السماء بناها [

فقدرة الرب التي بنت هذه الاجرام التي لا يبلغ حتى خيال اعظم العلماء مداها لا تعجزه اعادة الانسان الى الحياة مرة اخرى ، و قال الله سبحانه : " لخلق السماوات و الارض اكبر من خلق الناس و لكن اكثر الناس لا يعلمون " (١. (

[28]و اذا كان خلق السماوت شاهدا على قدرة الرب فان نظامها الدقيق شاهد(١) غافر / ٥٧.

على حكمته . أنظر الى السماء كيف ارتفعت بلا عمد نراها ، و كيف استوت ضمن سلسلة لا تحصى من السنن و الانظمة الحكيمة.

]رفع سمكها فسواها[

قالوا :اذا نظرت من فوق الجبل الى الوادي قلت عمق الوادي ، و اذا نظرت من الوادي الى قمة الجبل قلت سمك السماء ، هكذا رفع الله السماء و جعلها عالية ، و ألزم اجرامها و غازاتها و اشعتها قوانين لا تحيد عنها قيد شعرة ، و لعل هذا معنى التسوية.

[29]و تهيئة نظام الطبيعة للحياة بدوره شاهد على مدى القدرة و الحكمة في الخلق ، فاختلاف الليل و النهار ، و بالتالي الظلام و النور و السبات و الحركة يهدينا الى مدى عمق الحكمة التي وراء الخلق.

]و اغطش ليلها و أخرج ضحاها[

قالوا : الغطش : الظلام . و الضحى : وقت انتشار نور الشمس ، هكذا دبر القدير الحكيم أمر الارض و السماء لتتوفر فرصة الحياة على الارض بما لا نجد مثيلا لها في الكرات القريبة منا . او كان كل ذلك بلا هدف ؟

[30]و بعد خلق السماء و الارض تم دحو الارض و تمهيدها و تسويتها..

]و الارض بعد ذلك دحاها[

قالوا :ان ذلك اشارة الى العوامل الطبيعية التي تتابعت على الارض حتى تهيات للعيش ، ثم تعرضها للامطار الغزيرة و السيول العظيمة ، ثم انحسار المياه عن بعض المناطق دون غيرها.

[31]ثم اعد الله الارض بما اودع فيها من مواد تساعد على زراعتها ، و بما جعل في باطنها و ظاهرها من مخازن و مجاري للمياه لسقيها طوال العام.

]اخرج منها ماءها و مرعاها[

و لذلك فان المناطق القاحلة لا تصلح للزراعة ، اما بسبب فقر التربة او قلة الماء.

[32]و لان الزلازل و البراكين و جاذبية القمر و العواصف الهوج التي قد تعترض الارض كانت تهدد حياة الانسان فوق البسيطة خلق الله الجبال و ارسى بها دعائم الارض.

]و الجبال ارساها[

اي اثبتها بقدرته ، و جعلها درعا حصينة للارض ، يقول الامام علي - عليه السلام - " بعد ان تحدث عن السماوات و الارض و كيف انهما دليل على اقتدار جبروت ربنا و بديع لطف صنعته " : " و جبل جلاميدها "

اي الارض " و نشوز متونها و أطوادها فأرساها في مراسيها ، و الزمها قراراتها ، فمضت رؤوسها في الهواء ، و رست أصولها في الماء ، فأنهد جبالها عن سهولها ، و أساخ قواعدها في متون اقطارها و مواضع انصابها ، فاشهق قلالها ، و طال انشازها ، و جعلها للارض عمادا ، و أرزها فيها أوتادا ، فسكنت علىحركتها من ان تميد بأهلها او تسيخ بحملها او تزول عن مواضعها " (١. (

[33]كل ذلك لكي تتوفر فرص الحياة للانسان و البهائم التي تخدم الانسان بصورة مباشرة او غير مباشرة.

(1)نهج البلاغة / خطبة ٢١١.

]متاعا لكم و لانعامكم[

او ليس كل ذلك دليلا على ان لوجودنا حكمة بالغة ، فلماذا ننكر المسؤولية ؟

[34]ان للكفر بيوم المعاد سببا نفسيا هو التمادي في الغفلة ، و القرآن يخرق باياته الصاعقة حجب الغفلة لمن تدبر فيها.

]فاذا جاءت الطامة الكبرى[

فأي شيء ينقذنا من تلك الطامة ؟ هل الغفلة تبرر عدم الاعداد لها ؟ و الطامة من الطم بمعنى ردم الفجوة ، و تسمى المآسي المروعة بها لانها تملا النفس رعبا او لانها قد بلغت منتهى المأساة . و القرآن يضيف كلمة " الكبرى " لعلنا نتصور تلك الساعة التيثقلت في السماوات و الارض و نحن عنها غافلون.

[35]في ذلك اليوم يمر شريط أعمال المرء أمام عينيه . اوليس يرى جزاء كل صغيرة و كبيرة من أعماله ؟ اولا يقرؤها في طائره الذي علق في رقبته ، فلا أحد يستطيع التكذيب او الفرار من مغبة اعماله ؟

]يوم يتذكر الانسان ما سعى[

و في يوم القيامة تتساقط الحجب من عين الانسان و عقله فاذا هو يتذكر و باستمرار كل مساعيه.

[36]كما ان الجحيم التي هي معتقل الطغاة و المجرمين تبرز امام الجميع بما فيها من نيران تكاد تتميز من الغيظ ، و من عقارب و حيات تتربص بالقادمين ، و من شياطين و عفاريت ينتظرون الفتك بقرنائهم.

]و برزت الجحيم لمن يرى[

فكل ذي عين بصيرة يرى الجحيم بلا حجاب ، فيكون المذنبون في حسرة عظمى و خوف لا يوصف.

[37]هنالك الجزاء الاوفي للطغاة ، الذين كفروا بالنشور ، و اغرقوا في شهوات الدنيا ، و لم يخافوا ربهم .

]فأما من طغى[

و أعظم الطغيان مخالفة القيادة الشرعية ، فقد جاء في الحديث المأثور عن الامام علي - عليه السلام - :

"ومن طغى ضل على عمل بلا حجة . (1) "

و انما تطغى النفس باتباع الهوى لانه يصد الانسان عن الحق ، قال الامام أمير المؤمنين - عليه السلام : -

"ان أخوف ما أخاف عليكم اثنان : اتباع الهوى ، و طول الامل ، فاما اتباع الهوى فيصد عن الحق ، و اما طول الامل فينسي الآخرة " (٢. (

] [38]وءاثر الحياة الدنيا[

فقدمها على الآخرة.

] [39]فان الجحيم هي المأوى[

انها النهاية التي اختارها بنفسه ، و يبدو ان هذه الجملة هي جواب اذا الشرطية(١) تفسير نمونه / ج ٢٦ / ص ١٠٧ عن نور الثقلين / ج ٥ / ص ٥٠٦.

(2)نهج البلاغة / الخطبة ٤٢.

في قوله : " فاذا جاءت " كما هي جواب لقوله : " فأما من طغى " فيكون الأمر مركبا على شرطين ، كما لو قال احدهم : اذا كان رمضان و كنت حاضرا صمت.

[40]كيف نتقي طغيان النفس و غرورها ؟ بمخافة الله ، و يبدو ان السورة تعالج هذه الحالة المتجذرة في نفس البشر . و لكن من ذا الذي يخشى ربه ؟ الذي يعرف مقامه . اولم يقل ربنا : " انما يخشى الله من عباده العلماء. "

ان معرفة اسماء الله ، و انه احاط بنا علما و قدرة ، و انه مليك السماوات و الارض ، و انه الجبار المقتدر .. انها تجعل أقسى القلوب خاشعة ، و من هنا تزيغ وساوس الشيطان بنا عن معرفة ربنا سبحانه.

]و اما من خاف مقام ربه[

ليتقي طغيان نفسه.

]و نهى النفس عن الهوى[

لكي لا يؤثر على الآخرة شهوات الدنيا الزائلة ، و لا يذهب طيباته في الحياة الاولى ، و لكي ينظر لما قدمت يداه لغده و لدار اقامته التي هي الحيوان حقا.

] [41]فان الجنة هي المأوى[

يعود اليها ، لانه اصبح في الدنيا من أهلها ، و كل امرء يعود الى مأواه الاصيل و وطنه الدائم .فالميزان اذا ثمة ليس الانتماءات الظاهرة في الدنيا ، و ليس التسجيل في حفيظة التقوى انما مخالفة الهوى ، و اتباع الحق ، أرأيت كيف أصبح مصعب بن عمير - الذي قيلان الآية نزلت فيه - من صفوة اهل الجنة ، بينما كان اخوه عامر بن عمير في الدرك الاسفل من النار ؟ بماذا ؟ اليس لانعامر طغى و خالف الحق و اتبع هواه ، بينما اتبع مصعب رسول الله ، و جاهد بين يديه ، و قيل انه قتل اخاه في احد ، و وقى الرسول بنفسه حتى نفذت المشاقص في جوفه ؟

[42]و حين يقرر الانسان الكفر بشيء يبرر ذلك لنفسه بالتشكيك فيه و بانه لا يعرف كيف يقع و بأية صورة و متى .. و هكذا طفق الكفار يرتابون في الاخرة ، و يتساءلون : كيف يبعث الله العظام البالية ، و

متى ، و لماذا تاجلت هذه المدة الطويلة ؟ لماذا لم يبعث حتى الان الذين ماتوا في اول الزمان ؟ و هكذا ..

و لكن كل هذه التساؤلات لا تنفي حقيقة الساعة ، و انها واقعة لا ريب فيها.

]يسئلونك عن الساعة أيان مرساها[

متى تستقر كما تستقر السفينة في النهاية على شاطئها ؟

[43]و لكن الله اخفى علمها عن العالمين ، بل لم يحدد لها وقتا انما يقررها متى ما شاء ، و حسب حديث مروي عن رسول الله (ص) انه قال : " لا تقوم الساعة الا بغضبة يغضبها ربك " (١. (

و لكن معرفة ميعاد الساعة او الجهل بها لا يغير من واقعها شيئا . انها عظيمة الى درجة تشقق السماوات من وقعها ! افلا نتذكرها و نعد لها عدة ؟

]فيم انت من ذكراها[

يبدو لي ان معنى هذه الآية : اين انت من قصتها و حديثها ، و لماذا لا تتذكرها ، و ليس معناها كما قالوا : ليس لك السؤال عنها ، او فيم انت من ذلك حتى يسالونك(١) القرطبي / ج ١٩ / ص ٢٠٩.

بيانه ، و لست ممن يعلم.

و قال بعضهم : يحتمل ان يكون الوقف عند " فيم " و كانه قيل فيم تسأل و انت من ذكراها اي ان رسول الله ، من اشراط الساعة (١. (

بيد ان تفسيرنا اقرب الى السياق الذي يهدف التذكرة بالساعة و أهوالها.

[44]الله سبحانه الذي يأمر بها متى شاء و كيف شاء . انها مما لم يطلع عليه الرب احدا من خلقه.

]الى ربك منتهاها[

فاليه المرجع في امرها ، كما قال سبحانه : " انما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها الا هو " ، و قال : " ان الله عنده علم الساعة. "

[45]بلى . حري بنا ان نترك السؤال عن الساعة الى العمل من اجلها ، و الى تذكرها لحظة بلحظة لانها آتية لا ريب فيها ، و قد توفرت اشراطها ، و من اشراطها النذير المبين رسول الله.

]انما انت منذر من يخشاها[

فبدل ان نعاود السؤال عن وقت الساعة تعالوا نخشاها بعد ان جاءنا النذير.

[46]و ماذا ينفع المجرمين لو تأخرت الساعة عنهم ، هل يخفف عنهم شيئا من عذاب ربهم ؟ كلا..

]كانهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية اوضاحها[

(1)انظر القرطبي / ج ١٩ / ص ٢٠٩ و الرازي / ج ٣١ / ص ٥٢.

ما قيمة سبعين عاما من العمر جلها سبات النوم و غفلة الجهل و الانشغال بالدنيا و ضروراتها ، ما قيمتها اذا قيست بخمسين الف عام مدة اليوم الاول من ايام الاخرة ؟ ! هناك يتذكر الانسان ان عمره في الدنيا كان يوما او بعض يوم ، و انه قصر فيه تقصيرا كبيرا حيثلم يستعد ليوم الاهوال.

و لعل معنى " عشية اوضحاها " : النهار الذي يتصل بالعشية او ينصرم بالضحى ، و ذلك على عادة العرب في قولهم : اتيك العشية او غداتها .. فأهل القيامة قالوا في البدء : كاننا عشنا في الدنيا نهارا كاملا ، ثم اكثروا النهار فقالوا : بل نصف نهار ، كماقال ربنا سبحانه : " ان لبثتم الا عشرا " و قوله : " و قال امثلهم طريقة ان لبثتم الا يوما " و قال : " كانهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار. "

نسأل الله سبحانه ان يجعلنا ممن وعى رسالة النذير ، و استعد للرحيل و لم ينس الساعة و أهوالها.

سورة عبس

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الاعمال باسناده عن ابي عبد الله - عليه السلام - قال : " من قرا " عبس و تولى " و " اذا الشمس كورت " كان تحت جناح الله من الجنان ، و في ظل الله و كرامته ، و في جنانه ، و لا يعظم ذلك على الله. "

نور الثقلين / ج ٥ / ص ٥٠٨.

الاطار العام

لكي تصلح نظرة الانسان الى نفسه جاءت رسالات الله ، قبل ان يكون الانسان غنيا او فقيرا ، شريفا في النسب او وضيعا ، عربيا في اللغة و العنصر او اعجميا ، ابيضا او احمرا او اسودا .. قبل كل ذلك فهو انسان ، و من نظر اليه من خلال ملابساته المادية فقد كفر بلبه و جوهرته السامية.

و هنا تتميز الجاهلية عن الاسلام دين الفطرة السليمة و العقل المستنير ، فالجاهلية تقيم الناس على اساس الملابسات المادية ، بينما الدين الحق يقيمهم على اساس درجات ايمانهم مما يتصل بكل واحد منهم كانسان ، اوليس اصل الانسان عقله ؟

و حامل رسالات الله لا يجوز ان يتنازل عن هذه الميزة الهامة فاذا به يميز الناس على اسس مادية ، فما قيمة الرسالة اذا ، و كيف يمكنه اصلاحهم يومئذ و تغيير مفاهيمهم الخاطئة و هو الذي يخضع لها ؟ !

و يبدو ان هذه السورة الكريمة تبصرنا بهذه الحقيقة فاذا بفاتحتها عتاب شديد ، لمن عبس و بسر في وجه الاعمى و تولى بينما تصدى لمن استغنى . ثم يبين السياق سمو قيمة الايمان ، و قيمة القرآن ، و يهدينا الى صفات حملته بحق ، و هم الكرام البررة الذين ينبغي انيصبحوا محور التجمع الايماني (لا اصحاب الغنى و الجاه و الشرف الزائف. (

ثم ينعطف السياق نحو التذكرة بالايمان عبر تعداد نعم الله على الانسان و تقلباته منذ ان كان نطفة الى ان اصبح بشرا سويا و تيسر لسبل الخير و السلام و حتى يموت فيدفن ، و يذكرنا بواحدة من اعظم نعم الله علينا و هي نعمة الطعام ، و يدعونا الى النظر فيها ، وكيف يوفرها الله لنا بالغيث ؟ كل ذلك لان الايمان بالله و نبذ الكفر بكل الوانه هو السبيل لبناء مجتمع القيم الذي يسمو عن الخضوع لاصحاب المال

و الجاه.

و في الختام ينذرنا الرب بيوم الصاخة ، و يذكرنا بانه في ذلك اليوم لا تنفع هذه العلاقات المادية فحتى الارحام تنقطع ، انما القيمة الحق يومئذ هي العمل الصالح . الا نجعله ايضا قيمة تجمعنا اليوم ؟

عبس و تولى ان جاءه الاعمى
بينات من الآيات

[1]اثارت الايات الاولى في هذه السورة المباركة التساؤل فيمن نزلت ؟ علما بان مثل القران مثل الشمس ، و انه لا ينبغي البحث عن اسباب نزول أية آية منه ، فلم يكن القرآن كتاب حقبة خاصة من الزمن حتى نفتش فيها عن تطبيقاته ، بل لعل تأويل اية كريمة لا يتاتي الا بعد قرون و قرون ، بلى . كانت آيات كثيرة تجد تطبيقها في حياة الرسول (ص) و قد اعتقد أهل التفسير انها نزلت في تلك الموارد بينما الحقيقة انها تاولت فيها فقط و لم تكن سوى مصداق من مصاديق القرآن ، و لعل التعبير التالي عند المفسرين الاوائل " نزلت في فلان مثلا " كان يعني انها طبقت عليه واولت فيه وليس نزولها لهذه الحادثة ، و الدليل على ذلك اننا نجد آيات كثيرة ذكر لها المفسرون موارد متأخرة عن نزولها او متقدمة ، مثلا : نجد آيات مكية يذكر المفسرون من الجيل الاول انها نزلت في اشخاص لم يكونوافي مكة (و لعل الآيات الاولى من سورة عبس منها) او بالعكس او حتى انهم يؤولونها فيمن لم يكن فيعهد الرسول (ص. (1) . (

بلى . عند الاجيال التالية من المفسرين اصبح التعبير " نزلت في كذا " يوحي بان الآية نزلت بتلك المناسبة.

و فيما يتصل بالآيات في هذه السورة فقد قال القرطبي : روى أهل التفسير اجمع :ان قوما من اشراف قريش كانوا عند النبي - صلى الله عليه وسلم - و قد طمع في اسلامهم فاقبل عبد الله بن ام مكتوم ، فكره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ان يقطع عبد الله عليه كلامه ، فاعرض عنه ، ففيه نزلت الآية (٢. (

و قال الشيخ المكارم في تفسيره " نمونه " مايلي : المشهور بين المفسرين) السنة و الشيعة) ذلك ، و لكنه روى حديثا عن الامام الصادق - عليه السلام -يقول : " انها نزلت في شخص من بني امية " و اضاف : انه ليس من شأن الرسول ان يعبس في وجه احد من الناس ، كيف وهو الذي قال عنه ربنا سبحانه " : و انك لعلى خلق عظيم " (٣. (

و يبدو لي ان الآية لم تنزل في شان النبي ، و ان المفسرين ذهبوا الى ذلك بسبب ما توهموه من دلالة الآية ، و من بعض الروايات المتشابهة المختلفة ، فمثلا : نجد في بعضها : ان النبي كان مع الوليد بن المغيرة ، و في بعضها انه كان مع امية بن خلف ، و قال مجاهد: كانوا ثلاثة : عتبة و شيبة - ابنا ربيعة - و ابي بن خلف ، و قال سفيان الثوري : كان النبي مع عمه العباس.

(1)و الى مثل هذا الراي ذهب الدهلوي في كتابه الفوز الكبير في اصول التفسير / ص ١٠٧ / ١٠٨ الطبعة الثانية دار البشائر الاسلامية.

(2)القرطبي / ج ١٩ / ص ٢١١.

(3)تفسير نمونه.

و على افتراض ان القصة كانت صحيحة ، فمن يقول ان المراد ان النبي قد عبس ، فلعل واحدا من المسلمين كان حاضرا وهو الذي فعل ذلك ، و الشاهد انه لم يقل ربنا : عبست و توليت ، و من ثم يكون السياق بلغة الخطاب ، و لكن اليس من الممكن ان يكون ذلك من باب تحويل الكلام الى الخطاب بعد ذكر الغائب ، و كانه قد اصبح بذكره حاضرا كما نجد في سورة الحمد ، حيث يقول تحول الخطاب الى الحضور بعد ذكر الله سبحانه و قال : " اياك نعبد و اياك نستعين. "

ثم ان السورة مكية بالاتفاق و كان ابن ام مكتوم في المدينة حسبما يقول ابن العربي على حسب ما نقل القرطبي . دعنا نستمع الى نصه : اما قول علماؤنا انه الوليد ابن المغيرة ، فقد قال آخرون انه امية بن خلف ، و العباس و هذا كله باطل ، و جهل من المفسرين الذين لم يتحققوا من الدين ، ذلك ان امية بن خلف والوليد كانا بمكة ، و ابن ام مكتوم كان بالمدينة ، ما حضر معهما و لا حضرا معه ، و كان موتهما كافرين ، احدهما قبل الهجرة ، و الاخر ببدر ، و لم يقصد قط امية المدينة ، و لا حضر عنده منفردا و لا مع احد . (١)و ينبغي ان نتساءل : اذا كان ابن ام مكتوم في المدينة فكيف نزلت السورة بمكة تروي قصته ؟ !

و ايا كان سبب نزول الآية ، فان علينا التدبر في كلماتها المشعة ، و التعرض لامواج نورها المتدفق.

]عبس و تولى[

لقد بسر بوجهه ، فانعكست حالته النفسية تجاه الرجل على ملامح وجهه التي.

(1)القرطبي / ج ١٩ / ص ٢١٢.

تفضح تقلبات فؤاده انى حاول اخفاءها ، ثم تولى بركنه عنه عمليا ، و هكذا تكاملت ملامح الموقف السلبي.

] [2]ان جاءه الاعمى[

اي بسبب زيارة الاعمى له ، و هذا يتنافى مع ما ذكر في بعض النصوص : ان الرسول)ص) انه انما انزعج عندما سأله ابن ام مكتوم و ليس من زيارته.

[3]لقد جاءه الاعمى زائرا و ربما ساعيا نحو الهداية ، و اذا عوض الاعمى او اي معوق آخر نقص جوارحه بتزكية نفسه فانه يسمو فوق كل بصير و سليم.

]و ما يدريك لعله يزكى[

و هكذا تكون تزكية النفس اهم غاية يسعى نحوها الانسان.

[4]و قد لا يسمو الفرد الى التزكية و لكنه يبلغ مستوى التذكرة التي تنفعه في اصلاح بعض جوانب سلوكه و هكذا الاعمى الفقير الذي تقدم الى ذلك المجلس.

]او يذكر فتنفعه الذكرى[

[5]الغنى مطلوب و لكن الاستغناء مرفوض ، فالغني المتواضع الذي يمتلك الثروة دون ان تمتلكه قريب من الله ، قريب من الناس ، و لكن الذي تقوده ثروته ، بل يذوب في ثروته الى درجة العبادة فانه بعيد عن الله ، بعيد عن الناس ، قريب من النار . و لا بد ان تتخذ القيادة الالهية موقفا حازما منه .

]اما من استغنى[

و معروف ان الاستغناء يؤدي الى الطغيان ، او لم يقل ربنا الحكيم : " كلا انالانسان ليطغى * ان رآه استغنى " (١. (

[6]مثل هذا الانسان ينبغي طرده لكي لا يتسلل الى قيادة المجتمع عبر ثروته .ان مثله مثل قارون الذي خرج على الناس بزينته ، فانبهر الناس بها ؛ فاذا خضع رجال الدعوة لهم او مالؤوهم فمن ينقذ

الناس من شرورهم و استطالتهم على الفقراء و المحرومين ، و من يأخذحق المستضعفين و البؤساء منهم ؟ لذلك يعيب السياق على صاحب الدعوة ترك الفقير الاعمى و التوجه تلقاء المستغنين.

]فانت له تصدى[

قالوا : التصدي : الاصغاء ، و يبدو ان معناه : الاقبال عليه ، و الاهتمام به.

[7]و قد يزعم حملة الدعوة و امناء الرسالة انهم مسؤولون عن الاغنياء ، و ان عليهم ان يجتذبوهم بأية وسيلة ممكنة ، فيقدمون لهم التنازلات ، بينما يحرمون الفقراء من عطفهم و حنانهم ، بينما مسؤولية الداعية تنتهي عند ابلاغ الرسالة.

]و ما عليك الا يزكى[

فهو ولست انت المسؤول عن تزكيته.

[10 - 8]من الذي يتصدى له صاحب الدعوة ؟ هل الذي يتولى بركنه ، و كلا .. حتى ولو كان شريفا في قومه ، غنيا قويا . لماذا ؟ لان الرسالة الالهية جاءت لاصلاح نظرة الانسان الى نفسه من خلال مركزه او ماله او لغته او ما اشبه ، فاذا تأثرت الرسالة بهذه القيم المادية فانها لا تستطيع اصلاحه ، لذلك جاء في الحديث عن الامام الصادق (ع) قال : " اذا رايتم العالم محبا للدنيا فاتهموه(١) العلق / ٦ - ٧.

على دينكم ، فان كل محب يحوط ما احب " (١. (

و الرسالة تنظر الى الانسان كأنسان بعيدا عن سائر الاعتبارات المادية ، فمن سعى الى الرسول بلا تردد..

]و اما من جاءك يسعى[

نحو الهداية او تعلم الدين.

]وهو يخشى[

و الخشية هي التي تساعده على قبول الدين.

]فانت عنه تلهى[

تنشغل عنه و كانه لا يهمك.

[12 - 11]قيم الوحي ، و جاهلية المادة في صراع قديم ، و لا يجوز المهادنة مع الباطل لكسب المزيد من الاتباع ؛ لان حكمة الوحي ضبط المادة ، فاذا خضع له لم يبق للرسالة مبرر ، و من هنا لا ينظر الرسول الى الاشخاص الا من زاوية رسالته.

]كلا[

فان للغنى اعتبار زائف.

]انها تذكرة[

(1)موسوعة بحار الانوار ج ٢ / ١٠٧.

آيات الله تذكرة لكل الناس ، و لا يختلف الناس الا بقدر استجابتهم للوحي.

]فمن شاء ذكره[

العقل اصل الانسان ، او ليس به يتميز عن سائر الاحياء ، او لم يكرمه الله به على كثير ممن خلق ؟ ! ان العقل يغط في سبات الغفلة فلا ينتفع به صاحبه ، و تأتي ايات القران توقضه من سباته . اذلك خير ام بعض الدراهم و الدنانير ، كلا .. انى كانت الثروة كبيرة فان العقل اسمى ؛ لان الثروة لا تحصل الا بالعقل ، و اذا لم يكتمل العقل فان الثروة تضر صاحبها قبل ان تنفعه ، و قد تكون الثروة وسيلة لتكريس التخلف ، و الفقر ، و بسط الفساد ، و نشر الرذيلة ، بيد ان العقل يجعل الانسان على طريق ثروة نافعة كما يوفر له سائر عوامل السعادة كالخلق الرفيع ، و الحرية ، و السلام.

و لا تعني التذكرة ان الناس يهتدون بها حتى ولو لم يشاؤوا ذلك كلا .. ان التذكرة لا تتم بدون ان يشاء الانسان نفسه ، و هكذا جعل الله حرية الانسان اصلا ثابتا في شريعته و في سننه الحاكمة على الخليقة ، و حتى الايمان به جعله منوطا بارادة الانسان و لم يجعلهكرها عليه.

[14 - 13]و بعد ان ينسف السياق القيم الجاهلية يرسي دعائم قيم الوحي التي ينبغي ترسيخها في المجتمع ، فيشرع في بيان عظمة القرآن حتى يكون القرآن هو محور المجتمع ، و ميزان التفاضل بين الناس ، ثم يبين كرامة السفرة الذين يحملونه ، و بذلك يوحي بان عليكم ان تعظموا القرآن و الدعاة اليه و ليس المال و الجاه و اصحابهما.

]في صحف مكرمة[

قالوا : ان كتاب الله مكتوبا في الواح تكرمت به ، و تسامت مجدا ، و قال البعض : بل المراد انه كان مكتوبا في اللوح المحفوظ قبل ان يتنزل على قلب الرسول - صلى الله عليه واله - و انى كانت الصحف فان الآية تدل على ان القرآن محفوظ في صحف لا تنالها ايدي التحريف و التزوير و لا يسمو اليها الكذب و الدجل ، كما تدل على ان الله اكرم هذه الصحف بانها تكشف الحق ، و اكرمها باعلاء درجة من يتبعها في الدنيا و الاخرة ، ذلك ان كرامة كل شيء بحسبه ، و كرامة الصحيفة صدقها ، و سمو مجدها ، و تعاليها عمن يريد بها عبثا ، و لذلك قال ربنا بعدئذ:

]مرفوعة مطهرة[

و هذا في الواقع تفسير لكرامة الصحيفة ، فان الله يرفع بها من يعمل بها و يحمل رسالتها اولم يقل ربنا : "في بيوت اذن الله لها ان ترفع و يذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو و الاصال رجال لا تلهيهم تجارة و لا بيع عن ذكر الله . . " (١) و قال سبحانه " :يرفع الله الذين آمنوا منكم و الذين اوتوا العلم درجات و الله بما تعملون خبير " (٢. (

ثم انها مطهرة من الباطل و الكذب ، و من دس الدجالين و المنافقين و قد قال سبحانه : " انا نحن نزلنا الذكر و انا له لحافظون " (٣) و قال : " لا يمسه الا المطهرون " (٤. (

و هي مطهرة عن نيل اصحاب الهوى و البدع ، و الرياء و الشرك وحملة الدعوات(١ (النور / ٣٦.

(2)المجادلة / ١١.

(3)الحجر / ٩.

(4)الواقعة / ٧٩.

الضالة ، و الثقافات الجاهلية . ان هؤلاء جميعا لا يبلغون فقه الكتاب و لا يحصلون على علمه و معارفه.

[16 - 15]و هكذا يكون حملة القرآن هم فقط السفراء الصادقون ، المكرمون من الهوى و النفاق ، و اتباع المصالح ، و عبادة الطغاة.

]بايدي سفرة[

السفرة هم حملة الكتاب ، و الداعون اليه.

]كرام بررة[

كرام لانهم اكرموا انفسهم عن الاثم و الفحشاء ، و اتباع اولي الثروة و القوة ، و السعي وراء شهوات الدنيا الزائلة . و هم بررة يبرون بالناس و يؤثرون المؤمنين على انفسهم ، و يسارعون الى الخيرات.

و هذه الآيات توضح لنا الفئة التي يجب ان نرفعها و نتبع هديها ، و هم حملة القران الصادقين ، الزاهدين في درجات الدنيا ، و المكرمين من اوساخها ، و من الاهواء و البدع و الثقافات الدخيلة ، و لا يجوز اتباع كل من يدعو بلسانه الى كتاب الله بينما تراه قد ولغفي الشبهات ، و سعى نحو الجاه و الشهرة و تقرب الى السلاطين ، و قرب اليه المترفين و المستكبرين.

قتل الانسان ما اكفره

بينات من الآيات

[17]نعم الله تترى على الانسان ، و لكنه لا يزال يطمع لما في ايدي الآخرين ، بدل ان يسلم وجهه لله الذي اسبغ عليه نعمه ظاهرة و باطنة ، تراه يروح يعبد الطغاة ، او يخضع للمترفين لما يعطونه من فتات الرزق.

لماذا لا يطرق باب رحمة الله التي وسعت كل شيء ؟ ! او غير عليه الرب عادات امتنانه و تفضله ؟ ! اوليس الله بقادر على ان يغنيه عما في ايدي العباد ؟!

انه اعظم نعم الله الكتاب الذي يذكره سبيل سعادته ، و يغنيه ليس في اموال الدنيا فحسب ، بل في كل شيء من الدنيا الى الآخرة ، و لكنه لا يزال يكفر ، قتله الله بكفره!

]قتل الانسان ما اكفره[

و كلمة " قتل " لعنة عليه ، و تعبير عن منتهى الغضب ، و في نفس الوقت فيها ايحاء بان الكفر يقتل الانسان ، يقتل مواهبه و فضائله و فرص سعادته ، و حتى ينتهي بقتله تماما ! اليس القتل درجات ، و الكفر باية نعمة الهية يؤدي الى قتل فرصة من فرص الحياة عند الانسان ، و بالتالي فهو يعتبر درجة من القتل و مستوى منه ؟ ! ارايت الذي يملك رصيدا عظيما في البنك و لكنه لا يؤمن بذلك ، و كلما قيل له عنه كذب و ابى ! اليس يعدم موهبة الهية ؟ ! كذلك الذي يملك رصيدا عظيما في القرآن يستطيع ان يتخذه لنفسه سعادة و فلاحا ثم يكفر به.

و التعبير بـ " ما اكفره " يوحي بمدى كفره ؛ انه كفر واسع المدى ، متعدد الابعاد ، و من هنا قال بعضهم : الكفر هنا جاء بمعناه اللغوي الذي يعني الستر ، و يشمل الكفر بالله او بنعمة او حتى الكفر بنعمة واحدة ، و لذلك فان كلمة " الانسان " هنا تسع كل الناس لانه ما من انسان الا و يكفر بقدر ما بنعمة الله .

[19 - 18]ثم يعدد السياق نعم الله على الانسان و التي يقابلها بالكفر و اولها نعمة خلقه من النطفة و يقول:

]من اي شيء خلقه * من نطفة خلقه فقدره[

هذه القطرة من الماء التي تخرج من الصلب و تلك القطرة التي تتدفق من الترائب ، تلتقيان فيخلق الله بهما الانسان في ظلمات الارحام ، حيث لا يعرف حتى ابواه ماذا يجري هنالك ، فلا تزال عين الله ترعاه ، و يده تقلبه من طور الى طور ، حتى يخرج انسانا سويا ، كيفقدر الله مواد جسمه من انواع العناصر ، و بعض من هذه العناصر استقدمه الرب من نجوم تبعد عنا الاف البلايين من الاميال ، ثم قدر حجم كل عنصر و مقداره في بنيته ، و يصوره بأحسن تصوير ، و قدر جوارحه بانظمة معقدة لا نزال لا نعرف الا جانبا منها هو الذي نجده فيالغدد المنظمة لنمو الاعضاء ،

و قدر مجمل وزنه ، فلا يصبح اطنانا و لا يبقى عند الوزن الذي اخرج من بطن امه انما يتراوح بين الستين و التسعين غالبا ، كما يحدد طوله فلا نجد من ارتفع امتارا متطاولة ، كما لا نجد الاقزام الا قليلا.

كما يقدر رغبات نفسه ، و شهوات جسده ، و يكيفها وفق ظروفه ، كل ذلك لا يهديه الى ربه و لا يجعله يسلم وجهه اليه !بلى ما اكفره ما اكفره! !

[20]و هداه الى ما ينفعه و ما يضره ، و الى ما يسعده و يشقيه ، و الى رزقه من اين يأتيه و كيف يصرفه . ان الانسان مزود بفطرته و عقله ، بمنظومة من الغرائز و الافكار تهديه الى سبل العيش.

]ثم السبيل يسره[

بلى . الهمه فجوره و تقواه ، و ارسل الانبياء ليذكروه بتقواه ، و ينذروه من الفجور ، و زودهم بشرائع تفصيلية تبين له سبل السلام.

[21]و بعد ان انقضت دورته قهره بالموت ليكون عبرة لمن بعده ، و ينقله الى حياة اخرى ، و يسعده فيها ان عمل صالحا ، و لم يدع جسمه عرضة لنهش الحشرات و الجوارح و السباع ، و انما هيا له قبرا يوارى فيه كرامة له.

]ثم اماته فأقبره[

[22]و ان الله الذي قلب الانسان بين يدي قدرته في مختلف الاطوار قادر على ان يعيده متى شاء.

]ثم اذا شاء انشره[

[23]و لكن الانسان الذي اسبغ عليه الرب كل هذه النعم لا يزال متحديا قدرته و سلطانه ، و لا يزال يتمرد على اوامره و لا يقضيها.

]كلا لما يقض ما امره[

ماذا تعني " كلا " ؟ يبدو ان معناها هنا و في سائر مواقع استخدامها الايذان بوقوع مالا ينبغي ، و لا يتوقع العقل بعد سرد تلك النعم الا ان يكون الانسان في منتهى التسليم لربه وفاء لبعض دينه ، و لكن العكس تماما هو الذي يقع.

اما كلمة " لما " فتعني النفي مع التوقع ، او نفي ما كان متوقعا ، و كلاهما صحيح في هذا السياق ، اذ يرجى تطبيق الانسان لاوامر الرب ، و كما ان عدم التطبيق خلاف ما كان منتظرا.

[24]و يعود السياق الى جملة نعم الله على الانسان التي تهديه الى قدرته و حكمته و رحمته ، فهذا الماء تحمله سحب الخير الى عنان السماء ثم تصبه على الارض بسهلها و حزنها ليسقيها ، ثم تنشق الارض عما يطعم الانسان من الوان الحبوب و الثمار.

]فلينظر الانسان الى طعامه[

ليس فقط يعرف كيف وفره الله له ، و انما ايضا ليتعلم من مدرسة الخليقة كيف يستفيد منه . اليس كل هذه الطبيعة مسخرة لاطعامك ، الا ترى في ذلك حكمة بالغة ، و قدرة قاهرة ، او لا يعني ان وراء هذه الطبيعة تقديرا و تدبيرا و حكمة ، و ان مراد ربك ان يسعدك ثميهديك ثم يعدك لجنته ؟ ! بلى . و صدق الامام الحسين عليه السلام حينما خاطب ربه قائلا:

"عميت عين لا تراك عليها رقيبا ، و خسرت صفقة عبد لم تجعل له في حبكقسما " (١. (

فاذا نظرت الى الطعام بهذه الرؤية فانك تسمو من درجة التهام الطعام بشهية حيوانية الى مستوى التمتع به براحة نفسية ، و بشكر و امتنان ، و انئذ لا يتغذى به جسدك فقط ، و انما روحك و نفسك ايضا . اليس الشكر و الرضا غذاء النفس ؟ و قد سن الاسلام اداب الطعام لهذا السبب ، فانك من قبل الطعام تقول : " الحمد لله الذي يطعم و لا يطعم ، و يجير و لا يجار عليه ، و يستغنى و يفتقر اليه ، اللهم لك الحمد على ما رزقتني من طعام و ادام ، في يسر و عافية من غير كد مني و لا مشقة " و بعد الانتهاء من الطعام تقول " : الحمد لله الذي اطعمني فاشبعني ، و سقاني فأرواني ، و صانني و حماني ، الحمد لله الذي عرفني البركة ، و اليمن بما اصبته و تركته منه ، اللهم اجعله هنيئا مريئا ، لا و بيا و لا دويا ، و ابقني بعده سويا ، قائما بشكرك ، محافظا على طاعتك ، و ارزقني رزقا دارا و اعشني عيشا قارا ، و اجعلني ناسكا بارا ، و اجعل ما يتلقاني في المعاد مبهجا سارا ، برحمتك يا ارحم الراحمين " (٢. (

و حين ينظر الانسان الى الطعام نظر عميقا يعرف ان ليس كل الطعام صالحا لكل وقت ، فلا بد ان يميز بين الضار منه و النافع ، الجيد و الرديء ، و الحلال و الحرام ، فلا ياكل الا ما ينفعه و ما يحل له ، و بقدر انتفاع جسده منه ، لذلك قال رسول الله - صلى الله عليه وآله - : " لا تموتوا القلوب بكثرة الطعام و الشراب ، فان القلوب تموت كالزرع اذا كثر عليه الماء " (٣. (

و في الحديث عن الامام علي - عليه السلام - : " من اكل الطعام على النقاء ، و اجاد تمضغا ، و ترك الطعام وهو يشتهيه ، و لم يحبس الغائط اذا اتى لم يمرض الا(١) مفاتيح الجنان - دعاء عرفة.

(2)مكارم الاخلاق / ص ١٤٢ ، و نقله مستدرك وسائل الشيعة / ج ٣ / ص ٩٣.

(3)مكارم الاخلاق / ص ١٥٠.

مرض الموت " (١. (

و روي عن الامام الصادق - عليه السلام - انه قال : " كان رسول الله (ص (اذا اتي بفاكهة حديثة قبلها و وضعها على عينه و يقول : اللهم اريتنا اولها في عافية ، فارنا اخرها في عافية " (٢. (

و روي عن رسول الله - صلى الله عليه واله - انه قال : " النفخ في الطعام يذهب بالبركة " (٣. (

و هناك عشرات الاداب الاخرى للطعام يبينها الاسلام و غيرها في الكتب الفقهية ، و اذا كان الطعام وهو غذاء البدن اولاه الدين هذا الاهتمام فكيف بالعلم ، اوليس هو غذاء الفكر ، فهل يجدر ان يأخذه من اي مصدر ؟ ! كلا .. لابد ان ننظر ممن نتعلم ، و ما هي مصادرالمعلومات التي توجهنا فان كثيرا منها خاطئة و وراءها الجناة الذين لا هم لهم سوى تضليل الانسان عن الصراط السوي .ان هذه المعلومات اشد ضررا على الانسان من السم الزعاف.

كذلك جاء في الحديث في تفسير هذه الآية الكريمة : " علمه الذي يأخذه عمن يأخذه " (٤. (

[25]كيف وفر الله لك الطعام ؟

]انا صببنا الماء صبا[

(1)المصدر / ص ١٤٦.

(2)المصدر.

(3)المصدر.

(4)تفسير البرهان / ج ٤ / ص ٤٢٩.

فجاء الماء امل الحياة من فوق و بانصباب و وفرة ، حتى يكفينا النظر الى نظام الغيث ايمانا بربنا العزيز.

[26]و الارض كيف جعلها الله صالحة للزراعة ! بان لم يجعلها صلبة قاسية ، و لا رخوة مائعة (كالرمل المتحرك) و اودع فيها مواد الزراعة.

]ثم شققنا الارض شقا[

ما اروع انفلاق الارض عن النبتة التي تشق طريقها الى الظهور ، ربما عبر الصخور الصلدة ، و قال بعضهم : الاية تشير الى العصور الاولى من عمر الارض ، حيث كانت قشرتها صماء لا تصلح للزراعة فذللها الرب بفعل السيول المستمرة و الله العالم.

عن ابي جعفر - عليهما السلام - في حديث طويل يقول فيه : " فان قول الله عزوجل : " كانتا رتقا " يقول : كانت السماء رتقا لا تنزل المطر ، و كانت الارض رتقا لا تنبت الحب ، فلما خلق الله تبارك و تعالى الخلق ، و بث فيهما من كل دابة فتق السماءبالمطر ، و الارض بنبات الحب " (١. (

[27]ثم اعد ربنا الارض للزراعة ، و اودع فيها الوفا من انواع النبات التي يقوم كل نوع منها بدور عظيم في تكاملية الخلقة.

]فانبتنا فيها حبا[

قال بعضهم انها الحنطة و الشعير ، و قال اخرون :بل سائر انواع الحبوب كالذرة و الفاصوليا و العدس و الحمص ، و معروف ان الحب لا يزال يشكل المصدر الاول(١) نور الثقلين / ج ٥ / ص ٥٠٤.

للطعام في العالم وهو الطعام الطبيعي المناسب ، الذي لا ينافسه غذاء اخر لما فيه من السلامة و التكاثر و الفائدة ، و بالرغم من تضاعف سكان الارض عدة مرات خلال القرون الاخيرة فان الارض لا تزال تفي بواجبها في اطعام المزيد من الافواه الفاغرة ، و اذا راينا مجاعة هنا ، و نقصا في المواد الغذائية هناك فانما بسبب كوارث الطبيعة او سوء في التوزيع ، او سوء في الادارة ، و الا فان ما في الارض من القمح يكفي لاهلها و يزيد حسب الاحصاءات الدقيقة.

] [28]و عنبا و قضبا[

يشير القران الى نوعين اخرين من الطعام ميسورين و اساسيين للغذاء يتدرجان معا من فصيلة الخضروات و النباتات الارضية ، و هما العنب و القضب ، و القضب : هو النبتة التي تجزر و تقطع كانواع الخضروات و البقليات كالباذنجان و الطماطم و اليقطين و اللفت و ما اشبه، مما تحمل الينا اعظم الفوائد و لعل هذا الترتيب يدل على التدرج في الفائدة ، و قد كشف العلم عما في الخضروات من منافع عظيمة.

[29]و من نعم الله الزيتون الغني بمواد غذائية ، و بالدهن و الذي يكون عادة صبغا للاكلين ، و هكذا

النخل التي يستفاد من جذعه و سعفه و ليفه في مختلف الصناعات ، اما ثمرته ففيه غذاء كامل لا يدانيه طعام.

]و زيتونا و نخلا[

[30]و الاشجار التي تلتف الى بعضها و تتغالب للوصول الى اشعة الشمس و تغلظ سيقانها ، و تتحدى الاعاصير و الافات . انها نعمة الهية اخرى يسبغها علينا الرب بالغيث.

]وحدائق غلبا[

قال البعض الاغلب ذا الرقبة الغليظة ، و قيل : انه من التغالب و الالتفاف الى بعضهما ، كما قال ربنا سبحانه و تعالى : " و جنات الفافا " (١. (

ان هذه الحدائق تضيف الى ارضنا بهجة و صفاء ، و تلطف الجو ، و تصلح البيئة ، و تستمطر السماء ، و تساهم في تكون احواض طبيعية في الارض لحفظ المياه ، و تعطي الثمرات المختلفة ، و تتربى الطيور الجميلة في احضانها ، و تؤوي الحيوانات اللاليفة اليها ، فقد جعلت ضرورة لبقاء الانسان و سعادته (٢. (

[31]و من ثمار هذه الحدائق يتمتع الانسان بفواكه كثيرة تختلف الوانها و احجامها و متعتها و فائدتها ، و هي جميعا تنتزع من حديقة واحدة يسقى بماء واحد ، هل لاحظت الفرق بين الفستق و اللوز و الجوز و بين الطلح (الموز (و الاناناس و جوز الهند ، ان جوزة واحدة من الهند تكون بحجم مئات الحبات من الفستق ، على ان كلا منهما لذيذ و مفيد و رائع الجمال سبحان الله ، و بالاضافة الى الفاكهة خلق الله علف الحيوانات الاهلة.

]و فاكهة و أبا[

قالوا : الاب علف الحيوانات سمي بذلك لان الحيوان يعود اليه.

و قيل : بل الاب هي الفواكه اليابسة و قال ابن عباس : الاب ما تنبت الارض مما ياكل الناس و الانعام.

(1)النبا / ١٦.

(2)اكتب هذه الكلمات في يوم ربيعي متميز و في ظل اشجار بالغة الجمال ، و منظر خلاب لشتيلات الازهار المنظمة ، و في حديقة زاهية تمتد على مسافة ٢٤٠ هكتارا الى جنب بحيرة رائعة في مدينة بنكلور الهندية و ارى واحدا من تجليات الجمال الالهي على الارض و اقوال:
سبحانك ما اعظمك ، سبحانك ما ارحمك ، غفرانك اللهم و اليك المصير.

ورد :ان ابا بكر سئل عن قوله تعالى : " و فاكهة و ابا " فلم يعرف معنى الاب من القران فقال : اي سماء تظلني ، ام اي ارض تقلني ، ام كيف اصنع ان قلت في كتاب الله بما لا اعلم ، اما الفاكهة فنعرفها ، و اما الاب فالله اعلم به ، فبلغ امير المؤمنين(ع) مقاله فقال : " يا سبحان الله ! اما علم ان الاب هو الكلا و المرعى ، و ان قوله تعالى : " و فاكهة و ابا " اعتداد من الله تعالى بانعامه على خلقه بما غذاهم به ، و خلقهم لهم و لانعامهم مما تحيي انفسهم ، و تقوم به اجسادهم " (١. (

و في الدر المنثور : عن انس : ان عمر قرا على المنبر : " فانبتنا فيها حبا * و عنبا و قضبا * و زيتونا و نخلا * و حدائق غلبا * و فاكهة و ابا " قال : كل هذا عرفناه فما الاب ؟ ثم رفض عصا كانت في يده ، فقال : هذا لعمر الله هو التكلف ، فما عليك ان لا تدري ما الاب ، اتبعوا ما بين لكم هداه من الكتاب فاعلموا به ، و ما لم تعرفوا فكلوه الى ربه (٢. (

[32]و الذي خلق الفاكهة خلق في الانسان الحاجة اليها ، و التلذذ بها و الاستفادة منها ، و الذي خلق الاب (على ان يكون معناه علف الحيوانات) خلق في الانعام ما ينسجم معه ، او تدري مثلا : ان جسد الانعام قادرة على استخراج بروتين الحشائش ، بينما لا يستطيعه جسم الانسان ، و لذلك ترى الحيوانات تحول ما لا ينتفع الانسان به من قشور الفاكهة و بقايا النبات الى بروتين و لحم ليعود بالتالي طعاما للانسان ؟

]متاعا لكم و لانعامكم[

[33]كل هذه النعم المتواصلة التي اسبغها الرب على الانسان بين سائر(١) الارشاد للمفيد / ص ١٠٧ .

(2)الدر المنثور / ج ٦ / ٣١٧.

الاحياء و النبات تحمله مسؤولية اضافية ، فهو المسؤول الوحيد بين سائر الاحياء ، و هكذا يبعث بعد موته للحساب و الجزاء في يوم الصيحة الكبرى.

]فاذا جاءت الصاخة[

قالوا :الصاخة : الصيحة ، و انها النفخة الثانية ، تصخ الاسماع اي تصمها ، و قيل : بل تصخ لها الاسماع ، و هي بالتالي ماخوذة من صخه بالحجر اي صكه ، و من هذا الباب قالت العرب : صختهم الصاخة و باءتهم البائنة و هي الداهية.

[34]يومئذ تكاد تصم الصيحة اذان الخلائق بقوتها ، و لكن الاذان يومئذ غيرها في الدنيا فان الله جعلها بحيث تستوعب المزيد من الاثارة ، كما ان الاجسام تستوعب الالام و اسباب الموت دون ان تعدم.

يومئذ تنقطع الارحام ، و تنفصم عرى العلاقات ، و تتلاشى الاحساب و الانساب التي كانت وسيلة للتفاخر في الدنيا ، و لا يبقى اثر لهذه القيم ابتة.

]يوم يفر المرء من اخيه[

و الاخ هو اقرب معين للانسان و قد قال الشاعر:

اخاك اخاك فمن لا اخ له كساع الى الهيجاء بغير سلاحو لكن الانسان يهرب منه . لماذا ؟ لانه يخشى ان يلحق به عذابه ، او يطالبه بحق له في الدنيا ، او يستعين به على العذاب فلا يستطيعه.

بل انه يفر منه لان مجرد رؤيته تشكل له حرجا فكيف بالتعاون معه ، و هذه لا تكون الا عند اعظم الشدائد حيث يركز فكر الانسان في نفسه دون احد سواه.

و قد جاء في الروايات :ان الذي يفر من اخيه : قابيل من هابيل ، و قيل : بل هابيل يفر من قابيل لكي لا يطلب منه الشفاعة ، و لعلهما جميعا يفران من بعضهما.

[35]و بعد العلاقة الاخوية تأتي علاقة الولد بوالديه و التي تنفصم يومئذ الى درجة ترى المرء يهرب من والديه فكيف يستطيع الوالدان الاعتماد عليه يومئذ.

]و امه و ابيه[

افلا ينبغي الا نترك ديننا لرضا ابائنا الذين قد لا ينفعوننا في الدنيا فكيف بالاخرة و كم منا من تنازل عن

قيمه و لم يميز الحلال و الحرام من اجل ابويه فهل ينفعونه غدا شيئا ؟!

[36]اما صلة الانسان بزوجته او ابنائه فهي الاخرى لا تغنيه يومئذ عن عذاب الله فلا يهلك نفسه اليوم لهذه الصلة الزائلة.

]و صاحبته و بنيه[

قالوا : الذي يفر من صاحبته لوط ، و من ابنه نوح.

عن الرضا (ع) من قصة الشامي مع امير المؤمنين (ع) في مسجد الكوفة قال:

"و قام رجل يساله ، فقال يا امير المؤمنين ! اخبرنا عن قول الله تعالى " : يوم يفر المرء من اخيه * و امه و ابيه * و صاحبته و بنيه " من هم ؟ قال : قابيل و هابيل ، و الذي يفر من امه موسى ، و الذي يفر من ابيه ابراهيم - يعني الاب المربي لا الوالد - و الذي يفر من صاحبته لوط ، و الذي يفر من ابنه نوح و ابنه كنعان " (١. (

(1)راجع نور الثقلين / ج ٥ / ٥١١.

[37]لماذا يفرون من بعضهم ؟ انما لهول الحساب و خشية العذاب ، لذلك فان كل لهثهم في انقاذ انفسهم.

]لكل امرىء منهم يومئذ شان يغنيه [

و انما يصرف الانسان المزيد من جهده للاخرين ، اما في الاخرة فلا يبقى لفكره و جهده و وقته فضل حتى يوفر لغيره حتى ولو كانوا الاقربين.

[39 - 38]و هكذا الانسان اكرم في الدنيا بهذه الكرامة العظيمة ليحاسب غدا بذلك الحساب العظيم ، و تكون عاقبته - لو تحمل مسؤوليته كاملة هنا - النعيم ، تنعكس على روحهم بالبشارة ، و على ملامح و جوههم بالبشر و البشاشة.

]وجوه يومئذ مسفرة[

قالوا يعني : مضيئة متهللة ، من اسفر الصبح اذا اضاء ، و يبدو لي ان معناه : منشرحة منبسطة ، و قيل : كل ذلك من صلاة الليل ، بل و ايضا من سائر اعمالهم الصالحة.

]ضاحكة مستبشرة[

و انبساط وجوه المؤمنين انعكاس لانعدام الهم ، اما ضحكهم فدليل انبهارهم بالنعم ، بينما استبشارهم يعكس رجاءهم في نعيم ربهم او بشاشتهم برضوان ربهم ، و هو اغلى منى يبحث عنه المؤمنون.

[40]اما الذين لم يتحملوا مسؤولياتهم فانهم يصابون باحباط شديد ، تعلو و جوههم سيئاتهم في صورة غبار الذل و الهوان.

]و وجوه يومئذ عليها غبرة[

[41]و الى جانب الغبار ترى الدخان الاسود على وجوههم جزاء تقصيرهم في تطهير انفسهم و تزكيتها في الدنيا.

]ترهقها قترة[

قالوا : " ترهقها " تدركها عن قرب كقولك : رهقت الجمل اذا لحقته بسرعة ، اما القتار فقالوا : سواد كالدخان.

[42]بلى . غبار الكفر يعلو و جوههم بما ستروا من الحق ، و قتار الفجور يلحقهم بما عملوه من الفواحش.

]اولئك هم الكفرة الفجرة[

فلا ينفعهم المال و السلطان ، و لا تشفع لهم العلاقات الحميمة.

اعاذنا الله من هذه العاقبة السوئى .

سورة التكوير

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن ابن عمر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : " من أحب ان ينظر الي يوم القيامة ، فليقرأ " : اذا الشمس كورت. "

تفسير نور الثقلين / ج ٥ / ص ٥١٣

و في مجمع البيان : روي ان ابا بكر سأل الرسول فقال : يا رسول الله ! اسرع اليك الشيب ؟ فقال : " شيبتني هود ، و الواقعة ، و المرسلات ، و عم يتساءلون ، و اذا الشمس كورت. "

المصدر

الاطار العام

عندما تغور النفوس في لجة عميقة من السبات ، و عندما تتحجر القلوب فتمسي اشد قسوة من الجلاميد ، و حينما ينساب الانسان بلا وعي و لا ارادة مع التقاليد الباطلة لا يرضى تطويرا و لا تحويلا .. هنالك تشتد حاجة الانسان الى صعقات النذر ، كما الرعود الهادرة توقظ القلب من سباته ، و تستثير العقل من تحت ركام الخرافات.

و جاء الوحي يصدع به النبي النذير - صلى الله عليه وآله - اضاءات متواصلة في محيط من الظلام الدامس ، و صعقات بالغة الشدة في بيئة السكوت و الجمود ، و براكين حارقة للمقدسات المزيفة ، و الخرافات الجاهلية المتوارثة.

و سورة التكوير واحدة من تلك الصعقات ، فاذا انفتح عليها القلب كاد يتصدع هولا ، لانها تفتح نافذة واسعة على جيشان الحقيقة ، و طوفان التطورات فيها ، انها مفتاح التطوير و الابداع في القلب و العقل و السلوك.

و تحدثنا آياتها الفاتحة عن الشمس اذ كورت ..بلى . الشمس التي هي محور منظومتنا هي الاخرى تتكور في يوم رهيب . فلماذا الاسترسال مع السكون القاتل ، و النجوم كذلك تنكدر ، و العشار تتعطل ، و تمضي آياتها الصاعقة ترسم صورة رهيبة لذلك اليوم لعل قلوبنا تتساءل : ماذا عنا في ذلك اليوم ؟ فيأتي الجواب مهولا : " علمت نفس ما احضرت " عظيم حقا ان نعود الى اعمالنا التي تتجسد امامنا و نعلم بها انها المسؤولية بكل ثقلها ، و تنقلنا الصورة فورا الى النجوم اذ تخنس ، و الكواكب اذ تكنس ، و الليل اذ يعسعس ، و الصبح اذ يتنفس . اوليست تلك آيات الله الاكثر اثارة لنفوسنا ، و التي تهدينا الى حكمة الرب و قدرته ؟ بلى . فان القران قول رسول كريم ، لانه و بشهادة العقل و الضمير تعبير عن تلك الآيات ؛ انه كتاب ينطق عن رب الكائنات ، و تنطق الكائنات بحقانيته.

و في الختام يصور القرآن لنا تنزل الوحي عبر افق مبين ، و يتساءل : فاين تذهبون عن هذا الوحي الحق ؟ انه ذكر من الله للعالمين ، لمن شاء ان يستقيم .

انها ثلاث صور عظيمة : صورة رهيبة عن الساعة ، و صورة جذابة عن الطبيعة ، و صورة رائعة عن الوحي .. سبحان الله الذي انزل هذه السورة سبحانه سبحانه! !

ان هو الا ذكر للعالمين

بينات من الآيات

[1]عند الساعة تحدث تغييرات رهيبة و هائلة في الطبيعة . اليست الطبيعة قد سخرت للانسان ؟ فها هو الانسان يجر للحساب الدقيق ، فلا كرامة اذا للشمس ، و لا مبرر لوجودها ، فماذا يصنع بها ؟ انها تفقد ضياءها ، و تلف على بعضها)كما العمامة اذ تكور) و يرمسبها في نار جهنم مع من كان يعبدها من البشر .

]اذا الشمس كورت[

قالوا : اصل التكوير من الجمع ، يقال كار العمامة على رأسه يكورها : اي لاثها و جمعها . ماذا يصنع بهذه الكرة العملاقة التي هي اكبر من ارضنا زهاء مليون مرة ؟ هل انها تفقد عمرها الطبيعي الذي هي في منتصفه حسب ما يقول العلماء الذين يقولون : انها اليوم فيعمر الكهولة ، فنحن البشر اذا في منتصف المسافة بين اصل تكونها و يوم تكورها ، ام انها تصاب بآفة كونية فيمحى ضوؤها ، كما الشمعةاذا غمست في ماء المحيط او تعرضت لاعصار شديد ؟ فلا يبقى لها الا ان تنطوي على نفسها ، و تلملم امتدادات ضوئها ، و زفرات شعلتها ، و انسيابات اشعتها ، من هنا جاء في لسان العرب : كورت الشمس جمع ضوؤها ، و لفت كما تلف العمامة . ايا كان امر فانها ساعة رهيبة.

[2]هل القيامة ساعة المنظومة الشمسية ام المجرة ام العالم كله ؟ لا ادري ، و لكن لآاية تؤكد ان النجوم تنكدر وتؤكد آية اخرى انها تنتثر فهل هي تنصب و تتساقط في اتجاهات متباعدة ، ام انها تعود كما كانت اول الخلق كتلة واحدة متراصة ، ام ماذا ؟ ام لا يكونكل ذلك ، و انما بسبب اختلال نظام منظومتنا فاننا نرى النجوم بهذه الصورة ؟ الله العالم.

]و اذا النجوم انكدرت[

قالوا : يعني تهافتت و تناثرت ، و قال بعضهم انصبت كما ينصب العقاب ، و حكي عن الخليل قوله : انكدر عليهم القوم : اذا جاؤوا ارسالا فانصبوا عليهم.

[3]و اما الجبال الراسيات التي اعتمد عليها الانسان قانها تسير ثم تتبدد ثم تتلاشى فتكون سرابا.

]و اذا الجبال سيرت[

[4]اما الانسان فيلهو عما حوله ، و حتى عن انفس ما يملك.

]و اذا العشار عطلت[

قالوا :العشار جمع عشراء كالنفاس جمع نفساء ، و هي الابل التي اتى على حملها عشرة اشهر ثم هو اسمها الى ان تضع لتمام السنة ، و هي انفس ما يكون عندأهلها و اعزها عليهم.

اما تعطيلها فبمعنى الالتهاء عنها و تركها ؛ لان للانسان يومئذ شأنا اخر يغنيه عما حوله . انه يريد التخلص من أهوال الساعة المتلاحقة عليه.

و قال بعضهم : العشار هي السحب تعطل ، و قيل : انها الاراضي المزروعة تترك.

[5]في ذلك اليوم تتجمع الوحوش من كل ناحية ، كانها تحس بالوحشة من شدة الهول فتلوذ ببعضها ، و تقترب من بني ادم دون ان تنفر منهم او ينفر بعضها من بعض . ما اعظم ذلك اليوم على قلب الكائنات !

]و اذا الوحوش حشرت[

و الحشر - حسب هذا التفسير - بمعنى الجمع ، و قيل : ان الحشر بمعنى اعادتها الى الحياة حتى يتم اجراء العدالة عليها حسب مستواها الشعوري ، فاذا كانت القرناء طعنت الجماء اعيدتا حتى يقتص للجماء من القرناء ثم تموتا معا . و الله العالم.

عن امير المؤمنين - عليه السلام - قال : " و اما الذنب الذي لا يغفر فمظالم العباد بعضهم لبعض . ان الله تبارك و تعالى اذا برز لخلقه أقسم قسما على نفسه فقال : و عزتي و جلالي لا يجوزني ظلم ظالم ولو كف بكف ، و مسحة بكف ، او نطحة ما بين القرناء الى الجماء ، فيقتص للعباد بعضهم من بعض ، حتى لا يبقى لاحد على احد مظلمة ، ثم يبعثهم للحساب . (1) "

[6]و مذا عن البحار و هذه المحيطات العظيمة ؟ هل يمكن ان يلوذ بها الناس(١) تفسير نور الثقلين / ج ٥ / ص ٥١٥.

خشية النيران ؟ كلا .. انها بدورها تسجر كما يسجر التنور ، و تشتعل نارا لاهبة.

]و اذا البحار سجرت[

و كان المفسرون سابقا يبحثون عن تفسير لهذه الآية حتى قال بعضهم : تكون جهنم في قعر البحار فياذن الله لها ان تحرق البحار بنيرانها ، و قال آخرون : ان الله يلقي بالشمس و القمر و سائر الاجرام في البحار فتسجر ، او انه يخلق فيها نيرانا عظيمة فيحرقها ، و قال الرازي بعد نقل هذه الاقوال و غيرها : هذه الوجوه متكلفة ، لا حاجة الى شيء منها ، لان القادر على تخريب الدنيا و اقامة القيامة لا بد ان يكون قادرا على ان يفعل بالبحار ما شاء ، من تسخين و من قلب مياهها نيرانا ، من غير حاجة منه الى ان يلقي فيها الشمس والقمر او ان يكون تحتها نار جهنم . (١(

بلى . و قد اثبت العلم ان في الماء مادتين (اوكسجين + هيدروجين) و هما شديدان الاشتعال لو انفصلا ، و قد اخترعوا سيارات تعمل على الماء بعد تجزئته ، فهل تعجز قدرة الرب عن فصلهما يوم القيامة بفعل ضغط جوي هائل او اما اشبه حتى تتسجر ؟!

ان عدم معرفة البشر بكيفية وقوع الشيء قد يدعوه الى الكفر بوقوعه راسا ، و هذا من اعظم تبريرات الكفار بيوم القيامة ، و لكن هل احاط البشر بكل شيء علما ، حتى ينكر اي شيء لا يعلم تفصيل وقوعه ؟ ! اليس في هذا جهل مركب ؟!

و لعل الكفار بيوم البعث كانوا يسخرون من كيفية تحول البحار نيرانا ، و يقولون : ان الماء يطفىء النار فكيف يشعلها ؟ ! و لكن ثبت علميا ان الماء اساسا مركب من نارين . اولا يهدينا ذلك الى ان جهلنا بكثر

من الحقائق لا يبرر كفرنا(١) تفسير الرازي / ج ٣١ / ص ٦٨.

بها راسا ؟!

[7]في ذلك اليوم لا تترك النفوس و شأنها ، بل و تقارن باعمالها ، ثم تحلق -حسب مقياس العمل - باقرانها ، فاصحاب الميمنة مع اصحاب الميمنة ، و اصحاب المشامة مع اصحاب المشامة ، و السابقون مع السابقين.

]و اذا النفوس زوجت[

و قيل : تقرن نفوس المؤمنين بازواجها من الحور العين ، بينما تقرن نفوس الكفار بالشياطين و الجن ، و الله العالم.

[8]و حيث ينصب الميزان العدل يرفع المظلوم ظلامته امام الملأ ، و يسمح الحاكم العدل بان تتحدث الموؤدة عن نفسها حين يسألها : باي ذنب قتلت ؟!

]و اذا الموءدة سئلت[

اليس قد جعل الله للمظلوم سلطانا على الظالم في محكمة العدل ، و هو اول من يستنطق فينطق ، فلذلك هي التي تسأل حتى تشرح ظلامتها ، و قرا بعضهم (سالت (و يحتمل ان يكون ذلك نوعا من التفسير ، و قد روى ابن عباس عن النبي - صلى الله عليه واله - : " ان المراة التي تقتل ولدها تأتي يوم القيامة متعلقا ولدها بثديها ملطخا بدمائه ، فيقول : يا رب ! هذه امي و هذه قتلتني . (1) "

و يبدو من هذا الحديث و من نصوص و آيات عديدة و وثائق تاريخية ان عادة الواد كانت منتشرة في العرب ، و قد حاربتها الرسالة الالهية بقوة حتى اقلعوا عنها ، و لعل الحديث الثاني يكشف جانبا من تلك العادة الخبيثة ، فقد روي : انه جاء(١) القرطبي / ج ١٩ / ص ٢٣٤.

قيس بن عاصم الى النبي - صلى الله عليه واله - فقال : يا رسول الله ! اني وادت ثمان بنات كن لي في الجاهلية ، قال : " فاعتق عن كل واحدة منهن رقبة " قال :يا رسول الله ! اني صاحب ابل ، قال : " فاهد عن كل واحدة منهن بدنة ان شئت " (٢. (

]بأي ذنب قتلت[

و هذا التساؤل العريض يجعل الجاهلية كلها في ازمة حادة ، فهب انها بررت كفرها بالرسالة ، او سكوتها عن ظلم الاغنياء للفقراء ، او حروبها الداخلية ، فهل لقتل البنات و بهذه الصورة البشعة اي تبرير ؟ ! ان هذا العمل القبيح يكشف زيف الفلسفة التي وراءه ، و بالتالي زيف كل القيم الجاهلية ، و ذلك لان فطرة الانسان قد تحجب عن معرفة بعض الحقائق الخفية ، و لكنها لا يمكنها ان تتغافل عن مثل هذه الحقيقة الواضحة انه لا يجوز المخاطرة بحياة الطفلة التي وهبها الله لوالديها ، و جعلهما حماة لها ، و اودع في انفسهما الحنانو العطف نحوها ، بل جعلها حاجة نفيسة ملحة لهما ، فكيف يجوز لهما دسها في التراب ، بل كيف مسخت شخصية هذا الاب او تلك الام اللذين يقومان بوادها ، و كيف يسمح المجتمع لهما بارتكاب هذه الجريمة ، و اين ضمير المجتمع عنهما ، اين دعاة الخير و الصلاح ، اين أهل الدين و التقوى ، اين الرحمة و الحب و الحنان ، اين أهل الثقافة و الفكر ؟!

ان وقوع هذه الجريمة النكراء في المجتمع الجاهلي كان شاهدا على انه قد هبط الى اسفل درك ، و هكذا نطقت الموؤدة حين سئلت بادانة كل المجتمع الجاهلي ، و كل قيمه الزائفة.

و قصة وأد البنات من اشد قصص الجاهلية بشاعة و الما معا ، و هي كما قلنا:

(1)تفسير الدر المنثور / ج ٦ / ص ٣٢٠.

تكشف عن جوانب عديدة من الضعف في الفكر الجاهلي ، فقد حكي عن ابن عباس .. كانت المرأة في الجاهلية اذا حملت حفرت حفرة ، و تمخضت على رأسها ، فان ولدت جارية رمت بها في الحفرة ، و وارتها التراب ، و ان ولدت غلاما حبسته ، و كان بعضهم يفتخر بذلك فيقول قائلهم:

سميتها اذ ولدت تموت و القبر صهر ضامن زميت (١)و قد كان في الجاهلية من يمنع الواد ، و يسعى لنجاة الموؤدات ، مثل صعصعة جد الفرزدق حيث يقال انه كان يشتري البنات من ابائهن ، و جاء الاسلام و قد احيا سبعين موؤدة ، حتى افتخر حفيده الشاعر المعروف بذلك فقال:

ومنا الذي منع الوائدات فاحيا الوئيد فلم يوادو جاء في الدر المنثور : عن صعصعة بن ناجية المجاشي و هو جد الفرزدق ، قال : قلت : يا رسول الله ! اني عملت اعمالا في الجاهلية فهل لي من اجر قال : " و ما عملت ؟ " قال : احييت ثلثمائة و ستين موؤدة ، اشتري كل واحدة منهم بناقتين عشراوين و جمل، فهل لي في ذلك من أجر ، فقال النبي - صلى الله عليه و سلم - : " لك اجره اذ من الله عليك بالاسلام " (٢. (

حقا ان تردي البشر الى هاوية الفساد و الجريمة رهيب و لولا ان تداركه رحمة الله فانه يبلغ مستوى من الرذالة ان يدفن ابناءه احياء ، و لعل الاشارة الى البنات في هذه الاية ليست للحصر بل لانهن الحلقة الاضعف و الاكثر اثارة للشفقة ، اذ تدل آيات اخرى على ان الاولاد ايضا كانوا يقتلون حيث يقول ربنا : " و لا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقهم و اياكم " (٣. (

(1)اي سماها تموت بازاء ما يسمى الاولاد ب (يحيى) و الزميت بمعنى : الوقور و المتزمت.

(2)تفسير الدر المنثور / ج ٦ / ص ٣٢٠.

(3)الاسراء / ٣١.

و اذا كنا نرى اليوم القوانين الرادعة لقتل الاولاد ، بل العواطف الرقيقة التي تحوط الاولاد بسياج من الرعاية الفائقة فانما هو بفضل تعاليم الرسالات الالهية ، و لولاها لعادت البشرية الى سابق جاهليتها ، اذ ليست عاقبة الفلسفات المادية التي تقيم كل شيء بمنطق الفائدة و الخسارة الا مثل هذه الجرائم.

و لازال بعض الناس متورطين في مثل هذه الجرائم و اضرب لكم ثلاثة امثلة.

ا /ما يجري في العالم و بشكل واسع من المتاجرة بالاولاد ، لاستعبادهم او استخدامهم في تصدير افلام جنسية بالغة الفحش و الخلاعة ، او حتى قتلهم و استخدام اجسادهم لصناعة مواد معينة.

و بالرغم من التستر الواسع على مثل هذه الجرائم فان العالم يطلع بين الفينة و الاخرى على بعض الارقام المذهلة.

و اليك طائفة مما تناقلته بعض الصحف و وكالات الانباء:

نشرت كيها العربي (الجريدة الايرانية الصادرة في طهران) في عددها ١٦٩١:

كشف مندوبون في مؤتمر عن استعباد الاطفال امس الاول النقاب عن ان اكثر من سبعة ملايين طفل

يعملون كعبيد في دول جنوب آسيا وان بعضهم اختطفوا و تم وسمهم ليبقوا عبيدا و يعيشوا حياة اسوا من " حياة البهائم. "

و قال سوامي اجنيفيش رئيس جبهة تحرير العمال الارقاء امام المؤتمر : " يختطف الاطفال بين سن السادسة و الثانية عشرة و ينقلون الى مصانع السجاد . انهم يحملون علامات على اجسادهم بعد وسمهم بقضبان الحديد الملتهب. "

و قد رأست جبهة تحرير العمال الارقاء المؤتمر الذي انعقد في نيودلهي و حضره مندوبون من الهند و بنغلادش و باكستان و نيبال و سريلانكا.

و وصف بـ . ن . باغواتي كبير القضاة السابق في الهند هؤلاء الاطفال بأنهم لا يعيشون كآدميين بل يحيون حياة اسوا من حياة البهائم ، فالبهائم حرة على الاقل في ان تسوم كيف شاءت او تسرق طعامها متى شعرت بالجوع.

وحضر المؤتمر ايضا الاطفال الذين تم تحريرهم من العبودية.

و قال اجنيفيش ان منظمات دولية للاغاثة تعتقد انه يوجد حوالي ٧٥ مليون طفل على الاقل تحت سن الرابعة عشر يعملون في جنوب اسيا و ان عشرة في المائة عبيد.

و قد الغت الهند نظام العمل العبودي في عام ١٩٧٦.

و يعمل اكثر من ٠٠٠، ١٠٠ طفل من العبيد في صناعة السجاد و حدها و هي مصدر رئيسي للهند في الحصول على العملات الصعبة.

يوجد في سيريلانكا ١٤٦ منظمة تتاجر في بيع و شراء الاطفال الاجانب و قد باعت عام ١٩٨٥ وحده ٥٣٤٣ طفلا . نقلا عن وكالة الانباء الفرنسية ٨٥/١١/٢٥.

و نشرت جريدة الوطن الكويتية عدد ٤١٣٨ : انه يتم المتاجرة بما لا يقل عن مليون طفلا بعضهم في الثالثة و الرابعة من اعمارهم ، يباعون في سوق الفن الاباحي الدولية ، و يقتل بعضهم بالمرض او الانتحار او تمثيل الافلام.

و نشرت جريدة السفير في عددها ٤٧٨٢ : نائب وزير الداخلية الباكستاني اتهمبعض الآباء الباكستانيين ببيع ابنائهم الى دول الخليج من اجل استخدامهم في سباقات الهجن (الجمال) ، و يقول مربوا الهجن : ان السبب في استخدام الاطفال المربوطين على ظهور الجمال يعود الى كون صرخات الاطفال مهيجة للجمال مما يجعلها تعدو بسرعة.

و نشرت الوطن في عددها ٣١٣٧ ما مضمونه : ان امرأة سيريلانيكة تعمل عند احد امراء دولة الامارات عرضت طفلها للبيع بمبلغ ١١٢٢ دولارا.

ب / سوء التغذية الذي يؤدي الى وفاة الاطفال باعداد غفيرة ، دون ان يسعى احد لانقاذهم بالرغم من سهولة ذلك لعالمنا المتقدم تقنيا و ماديا.

كشف رئيس وزراء السودان) السابق) النقاب عن ان ٢٠ الف طفل قضوا جوعا في اقليم " كردفان " وسط البلاد . حيث يعاني ٢٥٠ الف شخص من سوء التغذية.

و ذكرت الامم المتحدة ان نصف سكان السودان البالغ عددهم مليون نسمة ربما يتعرضون لخطر المجاعة بسبب الجفاف.

و يقول مسؤولوا اغاثة غربيون ان (١٠٠) شخص معظمهم من الاطفال يموتون كل اسبوع في معسكر

يضم ٥٠ الف من ضاحيا الجفاف في اقليم (دار فور. (

و يقول خبراء الامم المتحدة ان ١٥ مليون سوداني - ثلثا العدد من الاطفال - يطالهم الجوع ، و ان الاطفال اصبحوا هياكل عظمية في الجزء الغربي من السودان ، اذ فقدوا ٨٠% من اوزان اجسامهم الطبيعية.

يموت ٥٠% من الاطفال في (هاييتي) قبل ان يصلوا الى سن الرابعة ، و الذينعبروا مرحلة الخطر يصابون بالهزال ، حيث تصبح اوزانهم اقل من الحد الطبيعي بنسبة ١٠ الى ٢٠. %

اوضح تقرير صادر من افريقيا بان ١٠ الاف طفلا يموتون يوميا عام ١٩٨٥ م.

ذكرت منظمة اليونسيف ان اربعة ملايين طفل يموتون كل عام في الدول النامية.

بلغت جبال الاطعمة الفائضة لدى السوق المشتركة حوالي ٨,٥ مليار دولار امريكي ، منها ١٧ مليون طن من القمح ، و ١,٢ مليون طن من الزبد ، ٧٩/٠٠٠ طن من لحم البقر ، و ٤٨٧ طن من مسحوق الحليب.

و في الوقت الذي يتعاظم الفائض الغذائي في اوربا ، و امريكا الشمالية ، في الوقت ذاته يخشى ان يلقى ٣٤ مليون شخصا حتفهم ، اكثرهم من الاطفال من جراء سوء التغذية في افريقيا . هذا و قد تنبأ مدير مسؤول في هيأة الامم المتحدة و يدعى (مورث) بان ٢٠ مليون شخصمعظمهم من الاطفال مهددون بالموت في افريقيا بسبب المجاعة.

بلغ معدل موت الاطفال في الصومال بسبب سوء التغذية ٢٠٠ الالف ، اي خمس المواليد ، و في الغابون ١٤٠ طفل في الالف.

و نقلت وكالة الانباء الفرنسية هذه الاحصائيات الغربية:

000/40 *طفل في العالم يذعنون لحتمية الموت لسوء التغذية بصورة منتظمة.

20 *مليون طفل ما بين ٦ - ١٢ سنة يحرمون من حق التعليم لسبب او لاخرو أهمها الفقر المدقع .

75 *مليون طفل ما بين ٨ - ١٥ سنة في العالم الثالث يعملون لتوطئة الظروف المعيشية القاسية.

*نسبة وفيات الاطفال في العالم النامي تزداد عشرة اضعاف عما هو عليه العالم الصناعي.

اعلى المعدلات لوفيات الاطفال في العالم في افريقيا ، فقد هلك نحو خمسة ملايين من الاطفال عام ١٩٨٤ م ، و اصيب مثلهم بعاهات مختلفة نتيجة المرض وسوء التغذية ، و هذا يتوافق مع رقم نشرته وكالة الانباء الفرنسية بان عدد الموتى من الاطفال ما بين عام ٨٣ - ٨٥يبلغ ١٠ ملايين طفل.

قال تقرير منظمة الصحة العالمية : ان ١٥ مليون طفلا يموتون سنويا بسبب سوء التغذية و هم دون الخامسة ، و هناك الكثير من الاطفال يصابون بأمراض مرتبطة بسوء التغذية كالحصبه و السل و الاسهال و العمى ، و اضافت مجلة) اطلاعات الاسبوعية في عددها ٢٢٢٥) يوجدفي الهند ٩ مليون مكفوف ، و في بنغلادش يفقد ٢٠٠ الف طفل بصرهم كل عام بسبب سوء التغذية و فيتامين (أ. (

وعن بنغلادش اضافت كيهان في عددها ١٢٤٣٥ : يموت ٤٠٠ الف طفل بسبب الاسهال و السعال و الدفتريا و الكزاز و هي مرتبطة بسوء التغذية ، و ان ٥٠% من اطفال بنغلادش يعانون من سوء التغذية.

و في جريدة كيهان عدد ١٢٣٢٢ قالت:

*في كل دقيقة و ٤٢ ثانية يموت طفل في البرازيل بسبب الجوع.

*اعلنت وزارة الصحة في البرازيل ان ٣٠٠ الف طفل ممن هم اقل من السنة و بسبب سوء التغذية لهم او لامهاتم ، و لسوء الحالة الصحية فانهم يواجهون الموت بحلول الشهر الاول من السنة القادمة.

*و حسب اقوال اليونسيف ان ٨٠ مليون من اصل ١٢٠ مليون من سكان البرازيل يعانون من سوء التغذية .

ج /ما نسمعه من فضائح تهز الضمير منها ما نقل لي من مأساة شابة هندية احرقت مع زوجها بناء على عادات جاهلية ، و قد اثار حرقها ضجة كبيرة في هذا البلد . (1)

و لعل قرى كثيرة لا تزال تدفن الارملة مع زوجها الميت رضيت ام ابت .

و عن واد البنات في الهند اليك بعض الحقائق:

يقتل في الهند كل عام ٦٥ الف طفلة جديدة في منطقة (مادوراي) في (تاميل نادو) جنوب الهند.

و يقوم الاهالي باعطاء السم الماخوذ من ثمرة الدفل للمواليد الاناث بعد ولادتهم مباشرة ، و هذه الطريقة ليست محصورة في مجتمع (كالار) الهندوكي ، بل و تمارس عند مجموعات هندوكية اخرى مثل (ثيغارس) في (مدراس) و) جاتس) في (راجبوتس) و) ليغا كاتبي باتبدراس) في (جوجارات) .

ومن الطرق الشائعة في واد البنات ان تقوم الام بوضع السم على حلمة ثديها ، و تسد انف طفلتها ، و في (راجبوتس) تلف الام طفلتها بقماشة سميكة ، او تغرقها في(١) المؤلف كان يومه في الهند.

النهر او البحر.

و من اسهل الطرق لواد البنات التخلص من الطفلة برميها في اوعية الزبالة او رميها في الصحراء.

والود هي الطريقة التي يتبعها فقراء الهند للتخلص من مهر البنت ، اذ ان اقل مهر هو خمسون الف روبية ، اي ما يعادل اربعمائة و خمسة عشر دولارا ، بالاضافة الى المجوهرات حال الزواج ، و في حال كون الزوج متعلما او موظفا حكوميا يزداد المهر على اب البنت.

و حين يعتبر الهنود الذكور موجودات ممكنة الوجود يعتبرون البنات مسؤولية ، و لان الذكور يحصلون على المهر بعد الزواج ، و هذا المفهوم مقبول حتى عند المتعلمين.

الاباء يفرقون بين الذكور و الاناث في الماكل و الملبس و العناية و التعليم ، اذ يرسل 84%من الذكور الى المدارس في مقابل ٤٥% من الاناث.

المراة التي تلد طفلة او اكثر تظل عرضة للملاحضات خاصة اذا لم تنجب ذكرا ، و المراة التي تلد طفلتين او ثلاث يجهض حملها اذا كانت حاملا ، او تعقم اذا كانت غير حامل.

و يستعين الاباء الفقراء الطب في واد البنات بالاجهاض ، و ان اختيارات تحديد النسل مستخدمة بشكل واسع في معظم مدن الهند.

و هناك اعلانات في كل مكان : في القطارات و الجدران و السيارات تقول : " نحن نعقم ... " او " لكي تتخلص ادفعي ٥٠٠ روبية بدل ان تدفعي ٥٠ الف روبية " و "تخلصي من هم البنت " او " اعرفي جنس طفلك. "

و بسبب الاجهاض تموت ما بين ٤٠٠ 500 - امرأة في المائة الف ، و هي ثاني نسبة في العالم.

و بسبب الواد و الاجهاض يموت ربع عدد مواليد الاناث سنويا البالغ ١٢ مليونا ، و على حسب ما جاء على لسان المجلس الهندي للابحاث الطبية فان عدد مواليد الاناث اقل من الاناث ففي عام - ٨١ - كان لكل الف ذكر ٩٩٣ انثى و في عام - 86 - وصل الى ٩٣٥ لكل الف ذكر.

[10]لكل واحد منا صحيفة منشورة يكتب فيها ملائكة الله ما نقدم او نؤخر من عمل ، و اذا مات ابن ادم طويت صحيفته ليوم الحشر حيث تنشر من جديد ، فاذا بها لا تغادر صغيرة و لا كبيرة الا احصاها ، فتعلق في عنقه ، و يقال له : " اقرأ كتابك كفى بنفسك اليومعليك حسيبا " (١. (

]و اذا الصحف نشرت[

في ذلك اليوم تبلو الخفايا و الجنايا ، و لا احد قادر على انكار ما فعله ، فيلزم كل بما في طائره ، و يخرج له كتابه منشورا حسبما روي عن رسول الله - صلى الله عليه واله - عن ام سلمة انه قال : " يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة " قالت : فقلت : يا رسول الله ! فكيف بالنساء ؟ قال : " شغل الناس يا ام سلمة " قلت : و ما شغلهم ؟ قال : " نشر الصحف ، فيها مثاقيل الذر و مثاقيل الخردل " (٢. (

[11]و كما تنكشف سريرة البشر ، و تسقط الحجب التي وضعت عليها ؛ فان غلاف السماء يكشط عنها كما يكشط جلد البعير عن جسده.

]و اذا السماء كشطت[

(1)الاسراء / ١٤.

(2)القرطبي / ج ١٩ / ص ٢٣٤.

قالوا : قلع عن شدة التزاق ، و كشطت البعير كشطا نزعت جلده.

ماذا يحدث ذلك اليوم ؟ هل يطوى الغلاف المحيط بالارض لتتعرض لكل واردة و شاردة ، كما قال ربنا سبحانه : " يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب " (١) و على هذا فالسماء هي السقف المباشر الذي يحفظ الارض ، ام ان الحجاب الذي لا يدعنا نرى الملائكة او عرش الله يسقط ، فاذا بابصار الناس ترى العالم الاعلى كما ترى العالم المحيط ؟

لعل التفسير الاول هو الاولى ، و اختار بعضهم التفسير الثاني ، و قال بعضهم : ان معناه ان كل اجرام السماء تطوى ، و لكن التعبير بالكشط في هذا الحال لا يبدو مناسبا ، و انى كان فان الأمن الكوني يفقد نهائيا في ذلك اليوم الرهيب.

[12]اذا كشطت السماء و طويت تبينت الجنة و النار ، اما النار فقد اعدت لاهلها اعدادا تاما اذ اوقدت حتى اسودت و زمجرت و كادت تميز غيظا.

]و اذا الجحيم سعرت[

روي عن رسول الله - صلى الله عليه واله - : " اوقد على النار الف سنة حتى احمرت ، ثم اوقد عليها الف سنة حتى ابيضت ، ثم اوقد عليها الف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة " (٢. (

و السؤال هل هذه من سني الدنيا ام من سني الاخرة التي يعادل كل يوم منها الف سنة ؟ الله اعلم.

[13]اما الجنة فقد زينت لاهلها كما العروس حين تزف الى زوجها ، تلألأت(١) الانبياء / ١٠٤.

(2)تفسير القرطبي / ج ١٩ / ص ٢٣٥.

انوارها ، و تهيأت الحور لازواجهن ، و استعد الغلمان و الجواري للخدمة ، و اعدت الموائد الطيبة التي هي الأشهى و الألذ.

]و اذا الجنة ازلفت[

اي اقربت و دنت للمتقين ، فهل تتقرب الجنة الى ارضنا كما لو كانت كرة اخرى ، ام ان اهل الجنة يقتربون منها ؟ لا ندري.

[14]ذلك يوم الجزاء الاكبر ، حيث المحكمة العادلة ، و حيث السجن الكبير يتمثل - في جهنم - و الجائزة العظمى في الجنة يمثلانه امام كل ناظر ، فيرى الانسان اعماله ماثلة امامه ، لا يستطيع من اعماله السيئة فرارا او انكارا ، انها حقا لمسؤولية و عين المسؤولية.

]علمت نفس ما احضرت[

قالوا :هذه الجملة جواب الآيات المتواصلة : " اذا الشمس كورت " و ما بعدها ، و هي اثنا عشر اية صنعت الاطار العام لصورة مسؤولية الانسان عن كل اعماله ، و التعبير بـ " علمت " للتأكيد على ان القضية يقين و ليس مجرد تخمين ، اما قوله " نفس " فلان النفس مركز الشعور و الاحساس ، فهو ابلغ مما لو قال : علم الانسان ، اما لو اننا قلنا : رات العين كان ابلغ مما لو قلنا راى الانسان.

و قوله " ما احضرت " ذروة البلاغة . اولسنا نعمل و نكدح حتى نحضر شيئا لذلك اليوم الموعود ، كما يدرس التلميذ ليوم الامتحان ، و يتدرب الرياضي ليوم المباراة ، و يستعد الجيش ليوم الحرب ، و هكذا البشر يكدحون ليوم لقاء الله ، حيث يقول ربنا : " يا ايها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه " (١. (

(1)الانشقاق / ٦.

[15]قسما بالنجوم التي تختفي و تظهر ، و بالليل حيث يخيم ظلامه ، و بالصبح حين يبسط نوره على الافق .. ان القران وحي الله الذي انزله جبرئيل على الرسول الكريم.

هذه الحقائق تتواصل في جو تلك الصورة المؤثرة لتكون ابلغ اثرا ، و اعظم وقعا.

]فلا أقسم بالخنس[

يبدو ان اللام هنا زائدة لتاكيد معنى القسم . اليس معناه التهويل ؟ فاذا نفي القسم دل على عظمة ذلك الشيء الذي يتحرز المتحدث عن القسم به ، و هذا اشد وقعا في النفس ، فما هو الخنس ؟ قالوا : خنس بالضم خنوسا : تأخر ، و اخنسه ، غيره : اذا خلفه و مضى عنه.

] [16]الجوار الكنس[

و الجوار جمع جارية ، بينما الكنس جمع الكناس اي الغيبب.

و روي عن الامام علي - عليه السلام - : " هي النجوم تخنس بالنهار و تظهر الليل ، و تكنس في وقت غروبها " و روي عنه - عليه السلام - : " هي الكواكب الخمسة الدراري : زحل و المشتري و عطارد و

المريخ و الزهرة. "

و قيل : المراد من " الخنس "البقر الوحش ، و " الكنس " الظباء.

و كما ذكر في اللغة : ان كلمة " الخنس " تشابه معنى " الكنس " و ربما يفترقان في المعنى قليلا ، و اورد الرازي الفرق بين الخنس و الكنس فقال : روي عن علي - عليه السلام - و عطاء و مقاتل و قتادة : انها هي جميع الكواكب ، و خنوسها عبارةعن غيبوبتها عن البصر في النهار ، و كنوسها عبارة عن ظهورها للبصر في الليل ، ايتظهر في اماكنها كالوحش في كنسها (١. (

و يبدو لي ان الفرق : ان هناك نجوما و كواكب ثابتة على مدار السنة ، و هناك نجوما و كواكب فصلية ربما تبقى ليلة او حتى جزء من ليلة او فصل كامل.

و لكن من ظاهر الآيتين : ان قوله : " الجوار الكنس " تفسير للخنس ، فعلى هذا التفسير نستطيع ان نفهم لماذا كلمة " الخنس " تشابه كلمة " الكنس. "

[17]الا ترى كيف تهجم جحافل الظلام جند النور فتهزمه دون ان يكون لنا سلطان به نمنع ورود الليل او نحافظ على بقية ضياء من نهار ، افلا نتذكر انئذ اننا مربوبون ، و ان لهذا العالم ربا حكيما يدبر امره و امرنا ، و انه لابد ان قد خلقنا لامر عظيم ، و انه باعث الينا رسولا من عنده ينبؤنا بذلك الامر ؟!

]و الليل اذا عسعس[

قالوا " عسعس " : ادبر بظلامه ، و قال بعضهم : اذا اقبل ، و اللفظ من الاضداد ، و السبب ان العسعس هو الظلام الخفيف الصادق في اول الليل و في اخره.

[18]فاذا استرخت الطبيعة فوق سرير الليل ، و اخذت نصيبا كافيا من الراحة ، و تجمعت قواها للوثبة الجديدة تنفس عليها الصبح بضيائها ، كما و انبلج الفجر من رحم الافق كما تنبلج الرسالة الالهية في افق الوحي.

]و الصبح اذا تنفس[

قالوا : امتد حتى يصير نهار واضحا ، و كذلك الموج اذا نضح الماء ، و معنى(١) التفسير الكبير / ج ٣١ / ص ٧١.

التنفس : خروج النسيم من الجوف.

[19]حين ينفتح القلب على بصائر الحقيقة في الخلق يهتدي الى واقع الرسالة بغير حجاب : ان الرب الذي جعل الليل و النهار ، و سخر بقدرته النجوم و الكواكب لن يترك عباده سادرين في غي الجاهلية ، يلفهم ظلام الجهل ، و يسوقهم سيف البغى ، و يغرقهم الفساد موجة بعد موجة . كلا .. انه يبعث اليهم رسولا هاديا . يهديهم الى ما انطوت عليه ضمائر قلوبهم ، و دلهم اليه نور عقولهم . بربك اليست رسالة القرآن كذلك ؟!

]انه لقول رسول كريم[

انه قول واضح الحدود ، واضح الكلمات ، و ليس مجرد تموجات في الفكر ، و أحاسيس في القلب ، و الذي جاء به رسول كريم ، تعالى عن الكذب و قول الزور.

[20]و هل يكذب الانسان الا من احساس بالضعف ، و الرسول الذي ينبيء عن الله قوي بقوة الله ، لان الله سبحانه لا يبعث سفيرا الا اذا كان مقربا منه.

]ذي قوة عند ذي العرش مكين[

و قد تجلت قوة الملك المقرب جبرائيل عندما حمل مدائن قوم لوط بقوادم جناحه ، و حينما ضرب بجانب من ريشه ابليس فرماه من بيت المقدس الى جزيرة سرنديب.

وهو مكين عند الله ذي العرش سبحانه ، و اقرب منزلة ، و هو حاكم على كثير من ملائكة الله.

] [21]مطاع ثم امين[

و قد اوكله الله بادارة الملأ الأعلى ، فهو مطاع هنالك ، كما انه امين فلولا امانته لم يوكل اليه هذا الامر العظيم ، و كان من امانته - عليه السلام - انه لم يعص الله في شيء ، كيف وهو ممن قال عنهم الرب : " لا يسبقونه بالقول و هم بأمره يعملون "(١. (

و لعل في هذا التأكيد ردا على من يزعم بان الملائكة هم بنات الله ، و بالتالي ليسوا بمسؤولين عن افعالهم ، كما كان يعتقد الجاهليون العرب قبل الاسلام ، و يزعمون انهم شفعاؤهم عند الله ، و كان ذلك منشأ عبادتهم للاصنام التي كان بعضها يرمز الى الملائكة.

[22]و اذا كانت الرسالة من الله و عبر رسول كريم تتجلى كرامته في قوته و امانته ، فان من يتلقاها يكون في ذروة الحكمة و المعرفة ، و هذا تفسير ما يقوله الرسول مما لا يحتمله الناس من حقائق مغيبة ، فيزعمون انه مجنون كلا ..انه رسول عظيم ، رفيع المجد ،سني المقام ، و الذين كفروا به لا يفقهون.

]و ما صاحبكم بمجنون[

و فرق كبير بين الرسول و المجنون ، فالمجنون يترك عادات مجتمعه الى الفوضى ، و الرسول يتركها لما هو أحسن منها ، و المجنون يتحدى سلطات مجتمعه لغير هدف ، و الرسول يتحداها لصنع مجتمع افضل ، و المجنون لا يتبع مصالحه بغير هدى ، بينما الرسول يتركها للصالح العام.

ثم اليس الرسول صاحبهم الذين عرفوه منذ نعومة اظفاره حكيما راشدا صادقا امينا ، افلم يعلموا انه ليس بمجنون ؟ ! بلى . و لكن الامم جميعا اتهمت رسلها بالجنون(١) الانبياء . 27 /

حسبما يبين القرآن الكريم و يقول : " كذلك ما اتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر او مجنون " (١. (

[23]و لم تكن العلاقة بين الرسول - صلى الله عليه واله - و جبرئيل - عليه السلام - غامضة او مشوشة . كلا .. انه راه و بوضوح كاف عبر الافق المبين.

]و لقد رآه بالافق المبين[

و ما زاغ عن البصر و ما طغى ، و ما كانت وسوسات القلب ، او احلام اليقظة او ما اشبه ، لقد كان النبي في قمة وعيه ، و كامل عقله حين تلقى الوحي من عند الله.

قالوا : الافق المبين بمطلع الشمس قبل المغرب ، و يبدو ان المراد الجهة الصافية التي لا حجاب فيها و لا غبار.

و قال البعض : ان النبي - صلى الله عليه وآله - راى جبرئيل في صورته الاصيلة ، قد سد بين المشرق و المغرب ، رأسه في السماء و رجلاه في الارض ، فلم يحتمل رؤيته ، فقال له جبرئيل : " فكيف لو رايت اسرافيل ورأسه من تحت العرش و رجلاه في تخوم الارض السابعة ، و ان العرش على كاهله ، و انه

ليضاءل احيانا من خشية الله حتى يصير مثل الوصع - يعني العصفور - حتى ما يحمل عرش ربك الا عظمته " (٢. (

[24]و من علائم الرسل انهم واضحون مع الامم يفصحون لهم عن علومهم و مفارفهم ، دون يطالبوهم باجر و ليسوا كما السحرة و الكهنة ممن يبخلون عن الناس بما يعلمون حتى يتفضلوا عليهم ، وليسوا كما سائر العلماء الذين يطالبون على(١) الذاريات / ٥٢.

(2)انظر القرطبي / ج ١٩ / ص٢٤١.

عملهم اجرا.

]و ما هو على الغيب بضنين[

قالوا : ضننت بالشيء اضن : اي بخلت ، و قرأ بعضهم بالظاء ، و قالوا معناه : بمتهم.

[25]يختلف قول الشيطان عن وحي الرحمن اختلافا كبيرا في الاهداف و الوسائل ، فبينما يدعونا الشيطان الى الفحشاء و المنكر و البغي و ينهانا عن التواد و التعاون ، و على البر و التقوى ، و يثير الضغائن و الاحقاد ، و يدفعنا نحو الشهوات العاجلة و .. و .. نجد وحي الرحمن المنبعث حينا من داخل الضمير و حينا من فم الرسول يأمر بالعدل و الاحسان ، و اداء الامانة ، و ينهى عن الفحشاء و المنكر و البغي ، و يحبذ التوبة و القصد ، و يدعونا الى التعاون على البر و التقوى ، و هكذا يهتدي القلب الى صدق الرسول برسالته التييحملها و التي لا يجد العاقل صعوبة في فرزها عن الدعوات الضالة.

]و ما هو بقول شيطان رجيم[

[26]و حين يترك الانسان نداء الرحمن لابد ان يتخطفه الشيطان بغروره و امانيه ، فهل نذهب اليه ؟!

]فأين تذهبون[

قد يرفض الانسان دعوة الخير دون ان يفكر في البديل او حتى في العاقبة ، بل لمجرد غفلته عن عواقب كفره بها ، و عما يضطر اليه من الباطل حينما يرفض الحق ، و يبدو ان هذه الكلمة اشارة الى ذلك ، كما هي صعقة عنيفة للنفوس السادرة فيالغفلة و الجهل لعلها تعود الى ذاتها و تفكر في أمرها.

[27]و في القرآن صفتان تشهدان على صدقة:

الاولى :انه يتوافق مع نور العقل لانه يقوم بايقاظه من سباته ، فاذا بالعقل يكتشف الحقيقة بنفسه ، و يكون مثله مثل من كان يعرف شيئا فنسيه ، فاذا ذكر به عاد يعرفه ، فمعرفته انئذ تكون بذاته و انما دور المذكر تنبيهه و تبصيره ، و اذا لا يحتاج الى حجة لكييعرف ان الذي ذكره كان ناصحا له و محقا.

و مثل اخر اذا كنت تبحث عن الهلال فلا تجده فاشار صاحبك اليه ، فلما نظرت اليه رايته فهل تحتاج الى دليل يهديك الى صدق صاحبك ؟ كلا .. ان اكثر برهان على انه حق هو انه هداك الى الحق فعرفته بنفسك ، كذلك القرآن ذكر ، و معنى الذكر : انه ينبه العقل الى مكنوناته فاذا به يكتشفها بنفسه ، فيعرف انه حق.

الصفة الثانية : عالمية القرآن التي تهدينا الى انه من رب العالمين ، ذ لك ان الشيطان يفرق الناس بالوانهم و لغاتهم و قومياتهم ؛ لانه يدعو الى المصالح المادية - و هي مختلفة و متضاربة - بينما الوحي الالهي يساوي بين عباد الله ، او ليسوا جميعا خلقه ، وهويدعو الى الحق ، و هو غير مختلف من ارض لارض او قوم لاخر ؟ ! هكذا قال ربنا:

]ان هو الا ذكر للعالمين[

[28]و من صفات الوحي تأكيده على حرية الانسان في اختياره . او لم يقل ربنا " : لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي " (١) ؟!

(1)البقرة / ٢٥٦.

و الحرية تبدا من حرية العقيدة ، و انه سبحانه ابى ان يفرض الحق على البشر فرضا ، و ابى لعباده ان يكرهوا بعضهم عليه ، او لم يقل سبحانه : " و لو شاء الله لهدى الناس جميعا افانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " (١) ، و انما يكرم الانسان و يستحقالجزاء الاوفى اذا أمن بحريته اما اذا اكره على الايمان فلا جزاء له و لا كرامة.

]لمن شاء منكم ان يستقيم[

على الطريقة ، استقامة تتحدى ميول النفس ، و ضغوط المجتمع ، و تضليل الشيطان و ابواقه ، و ارهاب السلطات و اغرائها.

[29]و المشيئة انفس جوهرة عند الانسان ، و هي موهبة الهية ، و لولا ان الله وهبه هذه الموهبة لم يكن البشر الا واحدا من هذه الاحياء المتواجدة على الارض ، و هكذا فلا احد يستطيع ان يفتخر بهذه الموهبة ، و يزعم انه مقتدر من دون الله ، و من جهة ثانية : انالايمان نور الهي يقذف في القلب بعد ان يشاء الفرد ذلك ، و يزكي قلبه لاستقبال نور الايمان.

]و ما تشاءون الا ان يشاء الله رب العالمين[

و هكذا تذكرنا هذه اللاية بان لا جبر و لا تفويض ، انما امر بين الامرين ، فالانسان حر مختار بما وهب الله له من قوة المشيئة ، و لكنه لا يختار الحق بالتالي الا بتوفيق الله سبحانه.

(1)يونس / ٩٩.

سورة الانفطار

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن الامام الصادق - عليه السلام - قال : " من قرأ هاتين السورتين و جعلهما نصب عينيه في صلاة الفريضة و النافلة : " اذا السماء انفطرت " و " اذا السماء انشقت " لم يحجبه من الله حاجب ، و لم يحجزه من الله حاجز ، و لم يزل ينظر اللهاليه حتى يفرغ من حساب الناس. "

تفسير نور الثقلين / ج ٥ / ص ٥٢٠

الاطار العام

لكي تنمو شجرة التقوى في النفس فتؤتي اكلها من الصالحات تذكرنا آيات هذه السورة بالساعة و اشراطها ، ثم بتضاءل البشر امام قدرة الخالق الذي خلقه فسواه ، ثم تبين ان سبب عذر الانسان تكذيبه بالجزاء ، بينما الجزاء واقع ، و اعمال الانسان مسجلة عليه بدقة ثم يوفى اجوره عليها ، باستضافة الابرار في النعيم الخالد و سوق الفجار الى الجحيم .. و ينذر القرآن في الختام بيوم الدين حيث لا تملك نفس لنفس شيئا ، و انما يومئذ لله الحكم العدل الذي لا بد ان نتقه اليوم حق تقاته.

يا ايها الانسان ما غرك برك الكريم

بينات من الايات

[1]كما سورة التكوير تنساب فاتحة السورة في بيان اشراط الساعة حيث تنهار انظمة الخليقة ، فاذا بالسماء تنفطر ، و الكواكب تنتثر ، و البحار تتفجر ، و القبور تتبعثر .. و يكفي القلب الواعي ذلك واعظا و يتساءل : لماذ كل ذلك ؟ لكي يحاسب الانسان و يجازى ، واول من يحاكم الانسان يومئذ نفسه حيث تعلم ما قدمت و اخرت من خير او شر.

]اذا السماء انفطرت[

قالوا : اي تشققت بأمر الله و تنزلت الملائكة ، كما قال ربنا العزيز : " يوم تشقق السماء بالغمام و نزل الملائكة تنزيلا " (١. (

(1)الفرقان / ٢٥.

و يبدو ان الامر اعظم من ذلك ، فالسماء التي جعلها الله سقفا محفوظا لم تعد بناء متقنا . اوليس انتهى يوم الامتحان وجاء يوم الحساب ؟ اوليس امتحان البشر هو حكمة الخلق و الان ذهبت الحكمة فليذهب ما يتصل بنا.

و اذا انفطرت السماء تقاطرت الصخور العملاقة التي جاءت من تفتت النجوم على الارض ، فويل لمن لا يحتمي اليوم بظل التقوى حتى يكون ذلك اليوم محميا بظل العرش!

[2]حوادث عظيمة في تاريخ العالم ، كالانفجار الهائل الذي ترى بعض النظريات العلمية انه وقع قبل حوالي (١٥) مليار سنة ، و الذي تلتقط بعض الاجهزة العلمية الحساسة صداه في اطراف الكون .. و لا ريب ان هذه الحوادث تتكرر لان عواملها قائمة ، و لكن متى و كيف؟ لم يبلغ علمنا حتى اليوم معرفة ذلك ، بيد ان الوحي ينبؤنا بان نظام وجود المنظومة التي نعيشها ينهار ، فهل ينهار ايضا نظام سائر المنظومات و المجرات ؟ يستوحي بعض المفسرين ذلك من هذه الآية التي تقول:

]و اذا الكواكب انتثرت[

قالوا :الكواكب كل النجوم ، و معنى انتثارها تبددها ، لان انتثرت بمعنى الانتثار و التساقط . و لكن يحتمل ان يكون الامر خاصا بهذه المنظومة و كواكبها لان الحديث يتعلق بما فيها ، و الله العالم.

[3]و ماهي علاقة انتثار الكواكب بانفطار السماء ؟ هل ان ضغطا هائلا تتعرض له منظومتنا تسبب في تبدد السماء و انتثار النجوم ، ام ان انعدام الجاذبية يسبب فقدان التوازن الدقيق الذي تعيش عليه الارض ، ام شيء اخر ؟ لا نعلم انما الذي يبدو لنا من خلال النصوصان هزة عنيفة تصيب صميم الخليقة ، حيث

ان البحار تتفجر بعد ان تسجر نارا.

]و اذا البحار فجرت[

و قال بعضهم : ان معنى فجرت تداخل بعضها في بعض حتى يكون بحرا واحدا ، كما فسروا كلمة " سجرت " في السورة السابقة بالامتلاء ، بيد ان المناسب لانفطار السماء ، و انتثار النجوم فيها تفجر البحار ، و الله العالم.

[4]و تتماوج البسيطة كما مياه البحر ، و تخرج الارض اثقالها التي في بطنها ، و منها اجساد بني آدم التي تقذف منها بعد ان يحييها الله سبحانه.

]و اذا القبور بعثرت[

قالوا : بمعنى قلبت و اخرج ما فيها من اهلها.

[5]في مثل هذا الجو يجد الانسان اعماله ماثلة امامه ، حيث لاسماء تظله ، و لا جبال تكنه ، و لا بحر و لا بر يمكنه الفرار فيه .. الله اكبر ما اصعب موقف الانسان ذلك اليوم!

]علمت نفس ما قدمت و اخرت[

قالوا :ما قدمت في حياته ، و ما بقيت منه بعد وفاته كالسنة الحسنة الباقية او البدعة المستمرة من بعده ، و قال بعضهم : ما تقدم اول عمره ، و ما تأخر في سني حياته الاخيرة .. و يبدو هذا التفسير اقرب . و انى كان فان هذه هي المسؤولية التي تتجسد ذلك اليوم ، فقد يقدم الانسان بين يدي افعاله السيئة بعض الاعذار ، و قد يلقيها على غيره او ينساها او يتناساها و يخفيها في الدنيا و لكنه في الاخرة يجدها امامه بلا نقصان ، و لا يستطيع منها فرارا "يوم تجد كل نفس ما عملت من خيرمحضرا و ما عملت من سوء تود لو ان بينها و بينه امدا بعيدا " افليس من العقل ان يراقب الانسان نفسه لكي لا يصدر منه علم سيء ، و ان يلغي الاعذار و التبريرات فلا يتشبث بها في الدنيا ما دامت لا تنفعه شيئا في تلك الدار ، و ان يتخذ من التقوى حجابا بينه وبين اهوال ذلك اليوم الرهيب ؟

[6]و تنتفض النفس من اعماقها حينما يناديها الرب بكل حنان و عطف و كبرياء:

]يايها الانسان ما غرك بربك الكريم[

لماذا تتمرد عليه ؟ هل لانك استغنيت عنه فطغيت ؟ او لم يخلقك من ماء مهين ؟ او لم يسوي خلقك حتى اصبحت متكاملا متعادل الوجود ؟ ام انك تنكر هيمنته عليك ؟ اوليس هو الذي اختار صورتك التي انت عليها من قصر وطول و قوة و ضعف و بياض او سواد او سمرة و . و ؟ امانك اغتررت بكرمه الذي واتر عليك به نعمه ظاهرة و باطنة ؟ افلم يهدك قلبك ان تتقي غضبة الحليم ؟ او لم تبعثك مروءتك ان تجازي احسانه بالاحسان ام ماذا ؟ يبدو ان الاجابة عن هذا السؤال متفاوتة من شخص لاخر ، و لكن ليس هنالك اي تبرير مقبول ، ذلك لان الغرور حالةمرفوضة اساسا باي سبب كان.

و قد جاء في حديث ماثور عن رسول الله - صلى الله عليه واله - انه قال : " غره جهله " بلى . غرهم بربهم تواتر نعمه ، و تتابع الائه ، قال الامام السجاد - عليه السلام " : - اذهلني عن شكرك تواتر نعمك " .

بيد ان ذلك ليس من مصلحة الانسان ، انما عليه ان يحارب الغرور بيقظة الضمير ، و سلاح التقوى . كذلك اوصانا امامنا امير المؤمنين علي بن ابي طالب- عليه السلام - حيث قال بعد تلاوته للآية : " يا ايها الانسان ما غرك بربك الكريم: "

"ادحض مسؤول حجة ، و اقطع مغتر معذرة ، لقد ابرح جهالة بنفسه.

يا ايها الانسان ، ما جراك على ذنبك ، و ما غرك بربك ، و ما انسك بهلكة نفسك ؟ اما من دائك بلول ، ام ليس من نومتك يقظة ؟ اما ترحم من نفسك ما ترحم من غيرك ؟ فلربما ترى الضاحي من حر الشمس فتظلة ، او ترى المتبلى بالم يمض جسده فتبكي رحمة له ! فما صبرك علىذائك ، و جلدك على مصابك ، و عزاك عن البكاء على نفسك و هي اعز الانفس عليك ! و كيف لا يوقظك خوف بيات نقمة ، و قد تورطت

بمعاصيه مدارج سطواته ! فتداو من داء الفترة في قلبك بعزيمة ، و من كرى الغفلة في نظرك بيقظة ، و كن لله مطيعا ، و بذكره انسا . و تمثل في حال توليك عنه اقباله عليك ، يدعوك الى عفوه ، و يتغمدك بفضله ، و انت متول عنه الى غيره . فتعالى من قوي ما اكرمه ! و تواضعت من ضعيف ما اجراك على معصيته ! و انت في كنف ستره مقيم ، و في سعة فضله متقلب . فلم يمنعك فضله ، و لم يهتك عنك ستره ، بل لم تخل منلطفه مطرف عين في نعمة يحدثها لك ، او سيئة يسترها عليك ، او بلية يصرفها عنك . فما ظنك به لو اطعته ! و ايم الله لو هذه الصفة كانت في متفقين في القوة ، متوازيين في القدرة ، لكنت اول حاكم على نفسك بذميم الاخلاق ، و مساوىء الاعمال ، و حقا اقول ! ما الدنيا غرتك ، و لكن بها اغتررت . و لقد كاشفتك العظات ، و اذنتك على سواء . و لهي بما تعدك من نزول البلاء بجسمك ، و النقص في قوتك ، اصدق و اوفى من ان تكذبك ، او تغرك . و لرب ناصح لها عندك متهم ، و صادق من خبرها مكذب . و لئن تعرفتها في الديار الخاوية ، و الربوع الخالية ، لتجدنها م ن حسن تذكيرك ، و بلاغ موعظتك ، بمحلة الشفيق عليك ، و الشحيح بك ! و لنعم دار من لم يرض بهادارا ، و محل من يوطنها محلا ! و ان السعداء بالدنيا غدا هم الهاربون منها اليوم.

اذا رجفت الراجفة ، و حقت بجلائلها القيامة ، و لحق بكل منسك اهله ، و بكل معبود عبدته ، و بكل مطاع أهل طاعته ، فلم يجز في عدله و قسطه يومئذ خرق بصر في الهواء ، و لا همس قدم في الارض الا بحقه ، فكم حجة يوم ذاك احضة ، و علائق عذر منقطعة!

فتحر من امرك ما يقوم به عذرك ، و تثبت به حجتك ، و خذ ما يبقى لك مما لا تبقى له ؛ و تيسر لسفرك ؛ و شم برق النجاة ؛ و ارحل مطايا التشمير " (١. (

و قد نظم بعضهم بعض هذه البصائر شعرا فقال:

يا كاتم الذنب اما تستحي و الله في الخلوة ثانيكاغرك من ربك امهاله و ستره طول مساويكاو قال اخر:

يا من علا في العجب و التيه و غره طول تماديهاملى لك لله فبارزته و لم تخف غب معاصيهو للمحقق الحلي - رحمته الله -شعرا بديعا يقول فيه:

يا راقدا و المنايا غير راقدة و غافلا و سهام الليل ترميه(١) نهج البلاغة / خطبة ٢٢٣.

بم اغترارك و الايام مرصدة و الدهر قد ملأ الاسماع داعياما ارتك الليالي قبح دخلتها و غدرها بالذي كانت تصافيهرفقا بنفسك يا مغرور ان لها يواما تشيب النواصي من دواهيه[٧] حينما يعي الانسان نفسه ، و يعرف بدايته ، و كيف تقلب في يد القدرة طورا فطورا ، و تذكر انه كان نطفة مهينة ، يقذفها مبال في مبال ، و يستقذرها صاحبها ايما استقذار ، ثم جعل الله تلك النطفة التي خلقها بعظمته رجلا سويا ذا اعضاء يكمل بعضها بعضا ، و في نظام عظيم لم يسع العلم الاحاطة به ، بالرغم من الموسوعات الكبيرة التي كتبت حوله .. هذا التكامل الذي يبدا من تكامل اليد و الرجل و الاذن و سائر الجوارح و مدى تناسق ادوارها ، و ينتهي بتكامل كل خلية في الجسم مع سائر الخلايا ، ضمن قيادة حازمة من اعصاب المخ و خلاياه و من الغدد المنتشرة في اطرافه.

ثم مضافا الى الخلق يجد الانسان ذلك التناسق بينه و بين الخليقة من حوله ، كيف يتكيف جسمه مع الحر و البرد ، و الخشونة و الليونة ، و مع مختلف الطعام و الشراب ، و كيف يتعامل مع سائر الاحياء ابتداء من الوحوش الضارية و انتهاء بالجراثيم الفتاكة .. و قد جعلالله للانسان القدرة على التكيف و التفوق ثم تسخير الطبيعة.

اقول : حينما نعي كل ذلك اوليس نرى كرم ربنا و حكمته ؟ فلماذا الغرور و التمادي في معصيته ؟!

]الذي خلقك[

افلم نكن عدما فانشانا لا من شيء كان ، بلا تعب و لا لغوب ، و لا مثل سابق يحتذى ، و خريطة تنفذ ؟

]فسواك[

فلم يجعل تقدير خلقك ناقصا ، بل زودك بما تحتاجه بافضل ما تحتاجه . الم يجعل لك عينين و لسان و شفتين ؟ و اذا انعمنا النظر راينا هذه التسوية في الخلق نافذة في كل اعضاء الجسد ، حتى قال ربنا عن البنان : " بلى قادرين على ان نسوي بنانه " ، و يأتيالعلم الحديث و يقول : ان لكل انسان بصمات مختلفة عن اي بشر اخر في العالم ، و يعتقد ان صورة بصمات بنانه منسجمة مع مجمل كيانه ، حتى انهم بداوا يكتشفون بعض الامراض من صفحة كف الانسان اوليس ذلك دليل الحكمة في الخلق ؟

و قال بعضهم في معنى التسوية : انه سوى بين طرفي جسد الانسان في كل شيء (بما يتناسب و وجوده. (

و قال البعض : انه سبحانه جعل كل عضو يتعامل مع سائر الاعضاء.

و قال اخر : انه سبحانه سخر له المكونات ، و ما جعله مسخرا لشيء ، ثم انطلق لسانه بالذكر ، و قلبه بالعقل ، و روحه بالمعرفة ، و سره بالايمان ، و شرفه بالامر و النهي ، و فضله على كثير ممن خلق تفضيلا.

و ان كل ذلك لمن بعض تجليات الاستواء في الخلق.

و قد بلغت درجة الاستواء منتهاها في خلقة البشر فكانت عدلا لا نجد فيه ثغرة او زيغا.

]فعدلك[

و يبدو لي ان الصفات الثلاث (الخلق و التسوية و التعديل) درجات في حالة واحدة ، فالخلق بمعناه اللغوي هو الترتيب ، و الاستواء تكامل الترتيب ، و العدل تناسقالتكامل مع حاجت الشيء ، و الحكمة منه فقد سوي الانسان بحيث يستطيع ان يقوم بالدور المحدد له تماما.

و قد قال بعضهم : المراد من التعديل : ان الله جعله معتدلا سوي الخلق ، و قال اخر : ان معناه ان الله اماله و حرفه في اي صورة شاء ، و يبدو ان المعنى الاول انسب و السياق .فيكون معنى الخلق الترتيب ، و معنى الاستواء التناسب بين اعضائه ، و معنى العدل التناسب مع المحيط.

[8]و بعد ان تكاملت خلقته و استوت على اساس الحكمة و العدل اختار الرب لها الصورة حسب مشيئته ، و حسب حكمة بالغة يصعب معرفة كنهها.

]في اي صورة ما شاء ركبك[

لكل واحد منا صورة ظاهرة جميلة او ذميمة او مقبولة اختارها الله لنا حسب تقسيم الارزاق الذي يتبع حكمته عليها ، قد لا يرضى ببعض مفرداتها هذا او ذاك لما في البشر من الحرص و الطمع و الاستئثار ، و لكنها من حيث المجموع مقبولة حسب شهادة فطرة كل انسان و عقله.

و كما الصور الظاهرة هناك صورة داخلية ركبت على الانسان . او لا ترى كيف فضل الله كل انسان بميزة ، و اودع في ضميره رغبة تختلف عن الاخرين ، مما يجعل كل شخص يختار طريقا مختلفا في الحياة ، يلتقي بالتالي في ايجاد حالة من التكامل في المجتمع ، فترى البعض يختار الطب و يصلح له ، و الثاني يرغب في الهندسة و تتناسب شخصيته معها ، و الثالث يطمح للقيادة او الادارة و هو لها اهل ، بينما لا يرغب البعض الا في الاعمال اليدوية .. و هكذا قال ربنا سبحانه : " ليتخذ بعضكم بعضا سخريا. "

و هذا لا يعني ان هذه الرغبات حتمية ، فان الانسان يستطيع تحويلها ، و لكن اغلب الناس يرضون بها مما يحقق الحكمة الالهية من توزيعها على البشر.

[9]ماذا ينبغي ان تكون علاقاتك بربك ؟ هل التمرد و الطغيان ام التسليم ؟ حقا : ان اغلب الناس ينحرفون نحو الطغيان الذي يبدا من التكذيب بالجزاء ، وهو اعظم اسباب الغرور ، فمن آمن بالجزاء اتقى غضب الرب.

]كلا بل تكذبون بالدين[

و ان هذا التكذيب لا يتناسب ابدا و تلك النعم الالهية التي تهدينا الى قدرة الرب و حكمته.

[10]و هل يتخلص الانسان بالتكذيب من أهوال الساعة او مسؤولية افعاله ؟ بتعبير اخر : هل اني لو كذبت بالموت لا اموت ، او كذبت بوجود المرض اعافى منه ؟ بالعكس التكذيب بذاته جريمة كبرى قدر لها عقاب عظيم ، و هو مفتاح لابواب الشر ، لانه يخدع الانسان فيسترسل في سلسلة من المعاصي دون رادع من ضمير او ناصح من عقل .. و كلها تسجل عليه فيحاسب عليها حسابا عسيرا.

]و ان عليك لحافظين[

يحفظون كل عمل يرتكبه الانسان او قول يتفوه به او هاجسة بقلبه ، قال ربنا سبحانه : " ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد. "

هكذا قال اكثر المفسرين ، و يحتمل ان يكون المراد من الحافظين الذين يحفظون البشر من المهالك حتى يأتي امر الله ، كما قال الله : " ان كل نفس لما عليها حافظ " ، و قال تعالى : " و يرسل عليكم حفظة " ، و قال : " له معقبات من بين

يديه و من خلفه يحفظونه من امر الله. "

[11]و هؤلاء الحفظة كرام عند ربهم ، تساموا عن الكذب او الغفلة او السهو ، و هم بالاضافة الى ذلك يكتبون ما يصدر من الانسان.

]كراما كاتبين[

[12]و لا يمكن للانسان ان يخفي عنهم شيئا من اعماله لانهم حضور شهود.

]يعلمون ما تفعلون[

قال امير المؤمنين علي - عليه السلام - : " اعلموا عباد الله ان عليكم رصدا من انفسكم ، و عيونا من جوارحكم ، و حفاظ صدق يحفظون اعمالكم و عدد انفاسكم ، لا تستركم منهم ظلمة ليل داج ، و لا يكنكم منهم باب ذو رتاج " (٢. (

و روي عنه - عليه السلام - انه مر برجل و هو يتكلم بفضول الكلام ، و يخوض في احاديث لا نفع فيها و لاطائل وراءها ، فقال : " يا هذا ! انك تملي على كاتبيك كتابا الى ربك فتكلم بما يعنيك ، و دع مالا يعنيك " (٢. (

و جاء في كتاب سعد السعود لابن طاووس:

دخل عثمان على رسول الله - صلى الله عليه واله وسلم - فقال : اخبرني عن العبد كم معه من ملك ؟ قال : " ملك على يمينك على حسناتك ، و واحد على الشمال ، فاذا عملت حسنة كتب عشرا ، و اذا عملت سيئة قال الذي على الشمال للذي على اليمين اكتب ؟ قال : لعله يستغفر و يتوب فاذا قال ثلاثا قال:

(1)بحار الانوار / ج ٥ / ص ٣٢٢.

(2)المصدر / ص ٣٢٧.

نعم اكتب ، اراحنا الله منه فبئس القرين ، ما اقل مراقبته لله عز وجل ! و ما اقل استحياؤه منه ! يقول الله : " ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد " و ملكان بين يديك و من خلفك ، يقول الله سبحانه : " له معقبات من بين يديه و من خلفه " و ملك قابض على ناصيتك ، فاذا تواضعت لله رفعك ، و اذا تجبرت على الله وضعك و فضحك ، و ملكان على شفتيك ليس يحفظان الا الصلاة على محمد -صلى الله عليه واله - ، و ملك قائم على فيك لا يدع ان تدخل الحية في فيك ، و ملكان على عينيك ، فهذه عشرة املاك على كل ادمي ،و ملائكة الليل سوى ملائكة النهار ، فهؤلاء عشرون ملكا على كل ادمي " (١. (

و ان وعي الانسان حضور هذا الحشد من ملائكة الله عنده افضل وسيلة لتعميق روح المسؤولية.

و تساءل البعض عن الحكمة في توكيل هؤلاء الحفظة بالانسان ، فقال : ما علة الملائكة الموكلين بعباده يكتبون عليهم و لهم و الله عالم السر و ما اخفى ؟ ، فاجاب الامام الصادق - عليهم السلام - : " استعبدهم بذلك و جعلهم شهودا على خلقه ، ليكون العباد لملازمتهم اياهم اشد على طاعته مواظبة ، و من معصيته اشد انقباضا ، و كم من عبد يهم بمعصية فذكر مكانها فارعوى و كف ، فيقول : ربي يراني و حفظتي علي بذلك تشهد ، و ان الله برافته و لطفه و كلهم بعباده يدبون عنهم مردة الشياطين ، و هوام الارض ، و افات كثيرة من حيثلا يرون باذن الله الى ان يجيء امر الله عز وجل " (٢. (

[13]و تتجلى المسؤولية عندما يستقبل رب الرحمة عباده الصالحين في النعيم الخالد.

(1)المصدر / ص ٣٢٤.

(2)المصدر / ص ٣٢٣.

]ان الابرار لفي نعيم[

[15 - 14]اما الذين خرقوا ستر الفضيلة ، و اوغلوا في الفضائح فانهم يدخلون النار.

]و ان الفجار لفي جحيم[

هل هم اليوم في الجحيم ام غدا ؟ عندما يموتون ام عندما تقوم الساعة ؟ بلى . انهم اليوم في الجحيم . اولم يقل ربنا سبحانه : " و ان جهنم لمحيطة بالكافرين " ؟ و لكنهم اليوم محجوبون عنها ، و غدا عندما يموتون و بعد الحشر يجدون انفسهم في وسطها يصلونها مباشرة ، لان الذي سترهم عنها اليوم طبيعة الدنيا التي هي دار امتحان ، فاذا نقلوا الى دار الجزاء فيما الذي يستر اجسامهم الناعمة عن النار اللاهبة ؟

]يصلونها يوم الدين[

لان ذلك اليوم فعلا يوم الجزاء الاكبر ، فالجحيم تحرقهم و تلهب جلودهم نارا.

و قال بعضهم : ان معنى الآية ان الفجار يدخلون الجحيم يوم الدين ، و انما ذكر ذلك بصورة قاطعة و كانه واقع اليوم لان الوعيد يأتي من السلطان المقتدر و الذي لا يعجزه شيء و لا يحجزه عما يريده احد.

[16]و لا يقدر احد منهم ان ينتقل من الجحيم او حتى يغيب عنها ساعة.

]وما هم عنها بغائبين[

قال بعضهم : الاية تدل على خلودهم في جنهم فاذا معنى الفجار المعاندون.

بينما الاية ليست صريحة في هذا المعنى بل في انهم عند دخلوهم الجحيم و مدة مكثهم فيه لا يغيبون عنها ، و الله العالم.

و نقل الرازي عن الامام جعفر بن محمد الصادق - عليه السلام - ما يلي " : النعيم المعرفة و المشاهدة ، و الجحيم ظلمات الشهوات " (١) و هذا ينطبق على التفسير الاول.

[17]ليست قدراتنا العلمية في مستوى الاحاطة علما باحداث ذلك اليوم الرهيب ، لانه يوم يختلف كل شيء فيه تقريبا عن هذا اليوم.

]و ما ادراك ما يوم الدين[

انه يوم رهيب ، لابد ان نسعى جاهدين لنتصوره عسانا نتقي اليوم أهواله ، و حينئذ نعرف ان الفائزين هم الذين انخلعت قلوبهم عن شهوات الدنيا و احداثها ، و عاشوا ذلك اليوم ، و عملوا له ليل نهار.

[18]قد يغيب علم شيء عنا بسبب قلة ظهوره او عدم الالتفات اليه ، بينما غياب الانسان عن علم الاخرة بسبب اخر ، هو : تسامي مستواه عن مستوى ادراكنا ، و لعل هذا هو المراد بقوله سبحانه:

]ثم ما ادراك ما يوم الدين[

ما بالك بيوم تهابه السماوات ، و تشفق منه الجبال ، و تضج من هوله الارض ، و يخشاه حتى الملائكة المقربين ، و يحذره الانبياء و الصديقون ! اولا ينبغي ان نتقيه ؟

[19]في ذلك اليوم يقف الانسان منفردا امام رب السماوات و الارض ، و لا(١) التفسير الكبير / ج ٣١ / ص ٨٥.

احد بقادر على الدفاع عنه ، او الشفاعة له الا باذنه.

]يوم لا تملك نفس لنفس شيئا[

بل الانسان مسؤول عن عمله.

]و الامر يومئذ لله[

فهناك لا يخول الله احدا شيئا كما خولهم اليوم ، و لا يملك احدا من عباده امرا ، بل الامر كله له ظاهرا و باطنا.

و في ذلك اليوم يظهر التوحيد الالهي لكل انسان ، فلا احد يستطيع ان يفكر في ان غير الله يملك من امره شيئا كما هو يزعم ذلك في الدنيا.

روي عن ابي جعفر (الباقر) عليه السلام انه قال لجابر بن يزيد الجعفي : " ان الامر يومئذ لله ، و الامر كله لله . يا جابر ! اذا كان يوم القيامة بادت الحكام فلم يبق حاكم الا الله " (١. (

(1)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٥٢٧.

سورة المطففين

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن ابي عبد الله الصادق - عليه السلام - انه قال : " من قرأ في فرائضه " ويل للمطففين " اعطاه الله الأمن يوم القيامة من النار ، و لم تره ، و لم يرها ، و لم يمر على جسر جهنم ، و لا يحاسب يوم القيامة . "

تفسير نور الثقلين / ج ٥ / ص ٥٢٧

الاطار العام

ويل للمطففين

بينات من الآيات

[1]هل انا مؤمن ؟ بلى . اولست اصلي و اصوم و انفق من اموالي في سبيل الله ؟ كلا .. هذه وحدها لا تكفي ، فلنحذر من خداع الذات ، اوليس كل الناس حتى اعتى الطغاة و المجرمين يبرؤون ساحة انفسهم ؟ ! فما الميزان اذا ؟ انه القرآن ، هكذا قال الامام ابو جعفر(الباقر) عليه السلام لجابر بن يزيد الجعفي : " و اعلم بانك لا ناس على هذا الاساس ، فلذلك يغش و يسرق و يستولي على حقوق الاخرين ، و علامة هذا الفريق من الناس انهم اذا ارادوا استيفاء حق من حقوقهم من الناس اخذوه وافيا ، و اذا طلب منهم اداء حق للناسانتقصوا منه ، و يجري هذا في كافة شؤون حياتهم . ان لهؤلاء الويل لانهم ليسوا منصفين.

]ويل للمطففين[

قالوا : الويل بمعنى :الشر و الحزن و العذاب او الهلاك ، و هو بمعنى اللعنة ، اما المطفف فانه من الطف اي جانب الشيء ، و التطفيف تنقيص الشيء من جوانبه.

و قال بعضهم : الويل واد في جهنم يجري فيه صديد اهل النار.

[2]من هم هؤلاء المطففون ؟ هناك مثل بارز لهم في اولئك الذين ينقصون المكيال لغيرهم ، اما اذا اكتالوا لانفسهم اخذوا حقهم وافيا.

]الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون[

قالوا " :على " هنا بمعنى اللام ، و يبدو لي ان على تعطي هنا ايضا ظلالها العام الذي يوحي بالضرر ، اذا ان الاستيفاء يتم على الناس اي في ضررهم.

و قال بعضهم : انه بمعنى اذا كالوا ما على الناس.

[3]و لكنهم اذا اكتالوا لغيرهم تراهم يعطونهم اقل من حقهم.

]و اذا كالوهم او وزنوهم يخسرون[

قالوا : معناه كالوا لهم او وزنوا لهم ، ثم حذف اللام ، و استشهدوا بقولالشاعر:

و لقد جنيتك اكما و عساقلا و لقد نهيتك عن بنات الأوبرحيث كان في الاصل جنيت لك ، و يبدو لي ان حذف اللام هنا من بديع بلاغة القرآن ، حيث ان اللام توحي بالفائدة و النفع ، بينما لا منفعة لمن يكال لهم لانهم يخسرونهم.

و التطفيف في المكيال و الميزان كان شائعا - حسب التواريخ - في يثرب قبل هجرة النبي - صلى الله عليه واله - و كانت هذه السورة اول سورة نزلت على قلب النبي (ص) في المدينة ، و اثرت فيهم اثرا بالغا فاقتلعوا عن هذه العادة و اصبحوا من احسن الناس مكيالا ، هكذا روي عن ابن عباس ، حيث اضاف :فلما نزلت هذه السورة انتهوا فهم اوفى الناس كيلا الى يومهم هذا.

و قد حاربت رسالات الله الفساد الاقتصادي في المجتمع بكل الوانه ، و التطفيف واحد من اسوء انواع هذا الفساد.

و قد حكى ربنا عن شعيب - عليه السلام - قوله : " اوفوا الكيل و لا تكونوا من المخسرين و زنوا بالقسطاس المستقيم و لا تبخسوا الناس اشياءهم و لا تعثوا في الارض مفسدين " (١. (

و لكن هل الفساد الاقتصادي خاص بالتطفيف في الوزن و المكيال ام انهما مجرد مثلين لما هو اعم و اشمل ؟ فالغش و الاحتكار و استغلال طاقات الضعفاء ، و استثمار ثروات البلاد المتخلفة ، و الابتزاز و سائر اساليب الكسب اللا مشروع كل(١) الشعراء / ١٨٢.

تلك من الوان الفساد الاقتصادي.

ثم ان التطفيف في الميزان لا يخص الجانب الاقتصادي ، بل يتسع للجوانب السياسية و الاجتماعية ايضا ، فلا يجوز ان تطالب الناس بكامل حقك ، ثم اذا طالبوك بحقوقهم بخستهم جاء في الحديث عن الصادق - عليه السلام - : " ليس من الانصاف مطالبة الاخوان بالانصاف" (١) لابد ان نتعامل مع الناس بمثل ما نحب ان يتعاملوا معنا . ان افضل ميزان للعدل هو ان تضع نفسك دائما في موضع الاخرين و تساءل : ماذا كنت انتظر منهم لو كنت في موقعهم ، هكذا هم ينتظرون و علي ان افي بحقهم.

هكذا توالت نصوص الدين الا فلنستمع الى بعضها:

/ 1عن ابي عبد الله - عليه السلام " : -احبوا للناس ما تحبون لانفسكم. "

/ 2عن الصادق - عليه السلام - قال : " قال رسول الله - صلى الله عليه واله وسلم - : اعدل الناس من رضي للناس ما يرضى لنفسه ، و كره لهم ما يكره لنفسه. "

/ 3عن امير المؤمنين - عليه السلام - فيما كتبه لمحمد بن ابي بكر : " احب لعامة رعيتك ما تحب لنفسك و أهل بيتك ، و اكره لهم ما تكره لنفسك و أهل بيتك ، فان ذلك اوجب للحجة ، و اصلح للرعية " .

/ 4عن ابي عبد الله - عليه السلام - قال : " ما ناصح الله عبد في نفسه فاعطى الحق منها ، و اخذ الحق لها الا اعطي خصلتين : رزق من الله يسعه ، (1)موسوعة بحار الانوار / ج ٧٥ / ص ٢٧.

و رضى عن الله ينجيه . "

/ 5و جاء في نهج البلاغة في وصية امير المؤمنين لابنه الحسن - عليهما السلام - : " يا بني ! اجعل نفسك ميزانا فيما بينك و بين غيرك ، فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك ، و اكره له ما تكره لها ، و لا تظلم كما لا تحب ان تظلم ، و احسن كما تحب ان يحسن اليك ، واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك ،

و ارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك ، و لا تقل مالا تعلم ، و قل ما تعلم ، و لا تقل مالا تحب ان يقال لك " (١. (

و نختم حديثنا برواية ماثورة عن النبي - صلى الله عليه واله - انه قال : " خمس يخمس : ما نقض قوم العهد الا سلط الله عليهم عدوهم ، و لاحكموا بغير ما انزل الله الا فشا فيهم الفقر ، و ما ظهرت الفاحشة فيهم الا ظهر الطاعون ، و ما طففوا الكيل الا منعواالنبات و اخذوا بالسنين ، و لا منعوا الزكاة الا حبس الله عنهم المطر " (٢. (

[4]من الذي يطفف ؟ انه الذي لا يعترف بالقيامة ، حيث يقف امام رب العالمين للحساب ، فلو كان الواحد ينظن مجرد ظن بذلك لما تجاوز حقه ، و اعتدى على حقوق الناس.

]الا يظن اولائك انهم مبعوثون[

قال بعضهم : ان الظن هنا بمعناه المعروف و هو ضد اليقين ، ذلك ان مجرد الظن بالبعث يكفي العاقل تحرزا و اتقاء منه ، الا ترى انك لا تسلك طريقا تظن الهلاك به ، و لا تشرب ما تخشى ان يكون سما ، و تحتاط من عمل تخاف منه الهلاك ؟

(1)المصدر / ص ٢٤ - ٥٩.

(2)القرطبي / ج ١٩ / ص ٢٥٣ ، و سائر التفاسير المعروفة.

و قال اخرون : بل الظن هنا بمعنى اليقين ، لان اصل معنى الظن ما يحدث في ذهن الانسان من الشواهد الخارجية ، فان كانت تامة احدثت يقينا و الا اثارت الظن ، من هنا يعبر عن اليقين ايضا بالظن.

و قد استشهدوا بالحديث الماثور عن الامام امير المؤمنين - عليه السلام - الذي قال في تفسير هذه الآية : " اي اليس يوقنون انهم مبعوثون " (١. (

و كذلك بالنص المروي عنه ايضا حيث يقول - عليه السلام - : " الظن ظنان : ظن شك ، و ظن يقين ، فما كان من امر المعاد من الظن فهو ظن يقين ، و ما كان من امر الدنيا فهو على الشك " (٢. (

و لعل الامام يشير الى حقيقة بينها الامام الرضا - عليه السلام - بصيغة اخرى ، حين قال : " ما خلق الله يقينا لا شك فيه اشبه بشك لا يقين فيه من الموت " (٣. (

ذلك ان كل الحقائق تشهد بان الانسان ميت و لكنه لا يتصوره ، لماذا ؟ لان مثل هذا التصور يفرض عليه الحذر و الاتقاء ، وهو لا يريد ذلك فيبقى حائرا بين شواهد علمية تكشف له حقيقة الموت ، و أهواء نفسية تحجب عنه هذه الحقيقة ، تماما كمن مني بهزيمة في المعركةيظل لفترة مترددا بين قبولها وفقا للمعلومات الصادقة او رفضها استرسالا مع هواه و غروره.

و يبدو ان الايمان بالاخرة هو الاخر يصطدم بأهواء النفس و شهواتها ، فتتحول الى ظن لا لقلة الشواهد عليها بل لصعوبة التصديق بها .. و الله العالم.

(1)تفسير نمونه عن تفسير البرهان / ج ٤ /ص ٤٣٨.

(2)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٥٢٨.

(3)الفرقان / نقلا عن الخصال للصدوق) ره. (

و قد سبق ان قلنا و بتكرار ان معنى الظن - فيما يبدو - هو : التصور ، و فسرنا الآية التالية بذلك حيث قال ربنا : " قال الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله و الله مع الصابرين " (١ (و قوله : " الذين يظنونانهم ملاقوا ربهم و انهم اليه راجعون " (٢. (

حيث ان تصور البعث و ما يعقبه من القيام للحساب امام رب العالمين يكفي الانسان رادعا عن كل سيئة ، و ربما يوحي الى ذلك قول الامام امير المؤمنين - عليه السلام - في تفسير الايمان حيث سئل عنه فقال : " الايمان على اربع دعائم ... : فمن اشتاق الى الجنةسلا عن الشهوات ، و من اشفق من النار اجتنب المحرمات " (٣. (

[5]ثلاث حقائق متصلة ببعضها لو تمثلت امام عين العاصي ارتدع و اتقى : البعث و الساعة ، و القيامة . ان حياة الانسان سجل ، يطوى اليوم و يكتب فيه بقلم الطبيعة ما يفعله ، فاذا نشر نشر معه سجله بالكامل ، فيا للفضيحة الكبرى يومئذ!

ثم الساعة و اشراطها يوم تبدل الارض غير الارض ، و تطوى السموات كطي السجل للكتب ، فاذا لم يعمل اليوم لبلوغ الامان من اهوالها فياللخسارة العظمى!

اما قيام الناس امام رب العالمين فانه رهيب عظيم ، لا يسع الفكر تصور تلك اللحظة التي يتمثل هذا المخلوق المتناهي في الضعف و المسكنة امام جبار السموات و الارض ، او لم تقرا ان اسرافيل اعظم ملائكة الله يتضاءل امام هيبة الرب حتى يصبح كالوصع - كما ذكر في سورة التكوير اية ٢٣ - ، فمن انا غير هذا العبد المسكين المستكين الضعيف الحقير امام رب العزة و العظمة ؟!

(1)البقرة / ٢٤٩.

(2)البقرة / ٤٦.

(3)نهج البلاغة / خ ٣١.

هكذا يذكرنا القرآن بهذه الحقائق ، فبعد ان يقول : " انهم مبعوثون " يذكرنا بالساعة فيقول:

]ليوم عظيم[

عظمت اثاره في السماوات و الارض حتى اشفقت منه ، فلولا اتقاء اهواله بالعمل الصالح انى نحصل فيه على امان ، و السموات تنفطر و الجبال تكون سرابا و الارض تزلزل زلزالها ؟!

[6]و اعظم من كل تلك الاهوال قيام الناس امام رب العالمين..

]يوم يقوم الناس لرب العالمين[

يكاد القلب البشري يتصدع حينما يحمله الله شيئا من نور عطفه و حنانه ، فكيف يصمد هذا القلب امام عقاب الله و زجره ؟!

جاء في الحديث الماثور عن النبي - صلى الله عليه واله - : " في يوم كان مقداره خمسين الف سنة ، فمنهم من يبلغ العرق كعبيه ، و منهم من يبلغ ركبتيه ، و منهم من يبلغ حقويه ، و منهم من يبلغ صدره ، و منهم من يلغ اذنيه حتى ان احدهم يغيب في رشحه كما يغيبالضفدع " (١. (

بيد ان المؤمنين في امان من اهوال القيامة ، هكذا ورد في حديث مأثور عن النبي - صلى الله عليه واله - " انه ليخفف عن المؤمن حتى يكون اخف عليه من صلاة المكتوبة ، يصليها في الدنيا " (٢. (

(1)القرطبي / ج ١٩ / ص ٢٥٥.

(2)المصدر.

و كلمة اخيرة : ان المؤمن ليقوم في الدنيا لله قياما يساعده في قيامه في الاخرة ، اولم يأمره ربنا سبحانه بذلك حين قال : " و قوموا لله قانتين " .. و قال : " ان تقوموا لله. "

[7]و لكن هؤلاء المجرمين لا يظنون ذلك حتى يأتيهم بغتة ، و لذلك فان كتابهم محفوظ في سجين ، حيث لا يمكن تغييره ، و هو كتاب واضح لا لبس فيه و لا تزوير.

]كلا[

يبدو ان معنى " كلا " في الاصل النفي المؤكد ، كأن تقول : ابدا لا ، و لكن تعطي في مثل هذا السياق معنى الردع و الزجر ، كما توحي بتاكيد الحقائق التي ذكرت انفا ، و كأنه نفي للتكذيب بها ، و من هنا قال بعضهم : ان معنى كلا هنا حقا ، و نقل عن ابنعباس : ان معناه الا تصدقون.

]ان كتاب الفجار لفي سجين[

ماهو سجين ؟ يبدو انه مبالغة في السجن ، اي المحل الذي لا تناله ايدي السرقة او التزوير . فما هو الكتاب ؟ بالرغم من ان هناك كتبا كثيرة تسجل فيها اعمال العباد ، الارض تكتب ، و السموات تصور ، و اشياء الطبيعة تحفظ اثار العمل ، و حتى اعضاء الجسد تشهد ،الا ان الظاهر من الكتاب هو ما يسجل على الفرد من اقواله و افعاله ، و حتى نياته مما ذكره الله بقول : " ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد " (١. (

ثم يطوى هذا الكتاب ، و يحفظ في خزانة محكمة هي سجين ، فاين تقع هذه(١) ق / ١٨.

الخزانة ؟ لقد حدد هذا النص التالي محلها:

روي عن النبي - صلى الله عليه و آله - انه قال : " ان الملك يرفع العمل للعبد يرى ان في يديه منه سرورا ، حتى ينتهي الى الميقات الذي وصفه الله له ، فيضع العمل فيه فيناديه الجبار من فوقه : ارم بما معك في سجين ، و سجين الارض السابعة ، فيقول الملك مارفعت اليك الا حقا ، فيقول : صدقت ، ارم بما معك في سجين " (١) و روي عن الامام الباقر - عليه السلام - انه قال " : السجين الارض السابعة ، و عليون السماء الرابعة " (٢. (

و قال بعضهم : سجين : صخرة في الارض السابعة ، و روى ابو هريرة عن النبي - صلى الله عليه وآله - : سجين جب في جهنم ، و هو مفتوح " و قال عكرمة : سجين خسار و ضلال ، كقولهم لمن سقط قدره قد زلق بالحضيض.

و يبدو لي ان اصلها السجن كما ذكرنا ، و انما سائر التفاسير تحديد لموقع السجن او ملابساته ، لذلك قال ابو عبيدة و غيره في تفسير الآية : لفي حبس و ضيق شديد ، فعيل من السجن كما يقول فسيق و شريب.

[8]و هناك افتراض اخر : ان يكون سجين اسما لتلك السجلات التي تحفظ الكتب ، و ان يكون معنى الكتاب هنا ما يكتب من اعمال ، فيكون المعنى هكذا : ان اعمال الفجار مكتوبة في سجين وهو كتاب مرقوم ، و يؤيد هذا المعنى السياق التالي:

]و ما ادراك ما سجين[

(1)الفرقان عن الدر المنثور / ج ٦ / ص . 325

(2)نمونه عن نور الثقلين / ج ٥ / ص ٥٣٠ .

و هذه الكلمة تأتي للايحاء بعظمة ذلك الكتاب - حسب هذا المعنى - بلى . الكتاب الذي لا يغادر صغيرة و لا كبيرة الا احصاها ، الكتاب الذي يسجل حتى انفاس الخلق و وساوس افئدتهم ، و نيات افعالهم ، الكتاب الذي يحيط بكل افعال الفجار انى كانوا ، و انى عملوا . انه كتاب عظيم.

] [9]كتاب مرقوم[

و هكذا تكون هذه الآية تفسيرا للآية السابقة : اي سجين كتاب مرقوم ، كما قال ربنا سبحانه : " انا انزلناه في ليلة القدر * و ما ادراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من الف شهر " و المرقوم بمعنى متجل بوضوح ، لان اصل معنى الرقم الكتابة الغليظة ،و قيل : معناه مختوم ، و قيل : مكتوب كالرقم في الثوب لا ينسى و لا يمحى ، كل هذا التفسير قائم على اساس الافتراض بان السجين اسم للكتاب المسجل ، و يؤيده ان بعضهم قال : ان اصل سجين سجيل.

اما في غير هذا الافتراض فيكون تفسير هذه الآية : ان الكتاب الذي هو في سجين كتاب مرقوم ، لا تتشابه خطوطه ؛ لانه كتاب واضح ، و الله العالم.

و ينبغي ان نختم حديثنا عن السجين بحديث يفيض عبرة و نصحا ، مأثور عن الامام الصادق - عليه السلام - في معنى السجين و الاعمال ، و الاشخاص الذي يهوون اليه ، قال - عليه السلام - : " مر عيسى بن مريم على قرية قد مات اهلها و طيرها و دوابها ، فقال : امانهم لم يموتوا الا بسخط ، و لو ماتوا متفرقين لتدافنوا ، فقال الحواريون : يا روح الله و كلمته ! ادع الله ان يحييهم لنا ، فيخبرونا ما كانت اعمالهم فنجتنبها ، فدعا عيسى ربه ، فنودي من الجو ان : نادهم ، فقام عيسى بالليل على شرف من الارض فقال : يا أهل هذهالقرية !فاجابه منهم مجيب : لبيك يا روح الله و كلمته ، فقال : و يحكم : ما كانت اعمالكم ؟

قال : عبادة الطاغوت ، و حب الدنيا ، مع خوف قليل ، و امل بعيد ، و غفلة في لهو ولعب ، قال : كيف كان حبكم للدنيا ؟ قال : كحب الصبي لامه اذا اقبلت علينا فرحنا و سررنا ، و اذا ادبرت بكينا و حزنا ، قال : كيف كانت عبادتكم للطاغوت ؟ قال : الطاعة لاهل المعاصي، قال : كيف كانت عاقبة أمركم ؟ قال : بتنا ليلة في عافية ، و اصبحنا في الهاوية ، فقال : و ما الهاوية ؟ فقال : سجين ، قال : و ما سجين ؟ قال : جبال من جمر توقد علينا الى يوم القيامة ؟ (١. (

[10]يتلقى الجاهل الموقف الصعب بتكذيبه ، و يزعم انه لو دفن رأسه في التراب فان الآخرين لا يرونه ، كلا .. ان الشمس لا تتلاشى اذا اغلقت نافذة غرفتك عنها ، كذلك حقيقة المسؤولية لا تنماث اذا انكرتها ، بل كلما جحد الجاهل المسؤولية بنبرة اقوى و صلافة اشدكلما ازداد بعدا عن تحملها و قربا من العذاب ، ذلك ان التكذيب جريمة ، كما انه علة لسائر الجرائم ، و تبلو عاقبة التكذيب عند قيام الساعة.

]و يل يومئذ للمكذبين[

[11]هكذا القرآن يغلق امام النفس ابواب التبرير لعلها تعي المسؤولية و تتحملها ، و اعظم التبرير التكذيب ، و لا سيما التكذيب بيوم الدين الذي يهدم أساس الفكر.

]الدين يكذبون بيوم الدين[

لهؤلاء الويل و اللعنة و الثبور لمجرد تكذيبهم ، فكيف بسائر الجرائم التي ارتكبوها ؟!

(1)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٥٣١.

[12]و لكن لماذا يكذبون بيوم الدين ؟ هل لنقص في شواهده ؟ كلا .. بل لقرار اتخذوه حاليا ، و جرائم ارتكبوها سابقا ، اما قرارهم فهو الاستمرار في الاعتداء على حقوق الاخرين ، و التواصل في ارتكاب الاثم.

]و ما يكذب به الا كل معتد اثيم[

انهم الفجار الذين لم يلتزموا لا بحقوق الاخرين فاعتدوا عليها و اكلوا اموال الناس بالباطل ، و لا بحق الله عليهم فاثموا و ارتكبوا الفواحش.

[13]و يقارن التكذيب في ألسنة هؤلاء - البذيئة - بالاستهزاء ، و محاولة حرف الاخرين عن آيات الله ، فتراهم اذا تتلى عليهم آيات الله رموها بالرجعية ، و زعموا بانها : ليست سوى الخرافات السابقة.

]اذا تتلى عليه آياتنا[

يبدو ان الذين يتلون عليهم هذه الآيات هم الدعاة الى الله ، و الآيات تهديهم الى الله و رسالاته و شرائعه ، و لكنهم ينكرونها رأسا دون ان يتفكروا قليلا ، خشية ان يتأثروا بها ، فيفقدوا نعيمهم الزائل ، و موقعهم الزائف القائم على الاثم و العدوان.

]قال اساطير الاولين[

و لعل مرادهم من هذا الحديث بيان انهم لن يتأثروا بها مستقبلا ، كما انهم لم ينتفعوا بها سابقا ، ذلك لانها مجرد تكرار لدعوات سابقة ، و هذه الآية نظير قولهم كما في آية اخرى : " و قالوا اساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة و اصيلا " (١.(

(1)الفرقان / ٥.

[14]لماذا يقف بعض الناس موقف الجاحد المعاند و بهذه الدرجة من آيات الله البينات ، او لا يحبون انفسهم ، او لا يحكم العقل بضرورة الاستماع الى النذير فلعله يكون صادقا فيقعون في خطر عظيم ؟ ! يجيب السياق عن هذا التساؤل : بان للذنب اثرا سيئا على القلبالبشري ، و كلما تراكمت الذنوب تراكمت آثارها.

]كلا[

ليست اساطير الاولين ، بل انها حقائق من عند الله.

]بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون[

قالوا :ران بمعنى غلب ، و استشهدوا على ذلك باستخدام مفرداته ، مثل : رانت به الخمرة ، و ران عليهم النعاس ، و يقال : قد رين بالرجل رينا اذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه ، و لكن - يبدو لي - ان الاصل في الرين الصدا ، و هو الغلالة الخفيفة التي تحيط بالحديدة و ما اشبه و تدل على فسادها . و لعل الفارق بينه و بين الصدا ان الصدا قد يكون في جزء ، بينما الرين يستخدم اذا احاط الصدا بالقلب تماما ، لذلك قال بعضهم : الرين ان يسود القلب من الذنوب ، و نقل عن ابن عباس : ران على قلوبهم

اي غطى عليها.

و لكن كيف يرين الذنب على القلب ؟ ان في قلب الانسان قوى تتنازعه ، و ارادة الانسان فوقها ، فاذا استسلم الانسان لقوة الشهوات ضعفت ارادته ، و كسف نور عقله ، فلا يزال كذلك حتى يخبو عقله ، و تنماث ارادته فيسترسل كليا مع الشهوات ، و من جهة اخرى : عندما يرتكب البشر جريمة او ذنبا يتهرب من وخز ضميره بتبريرهما ، و لا يزال يبرر لنفسه ما يرتكبه حتى يقتنع بذلك التبرير ، بل يتحول عنده الى ثقافة متكاملة ، فلا يكاد يعرف الحقيقة ، و من جهة ثالثة : الخيرعادة و الشر عادة ، و من عود نفسه على الشر كيف سلوكه و سائر تصرفاته مع تلك العادة ، و كان كدودة القز تنسج حول نفسها ما يقتلها ..ارايت الذي يكتسب الحرام ، اما بالسرقة او الغش او التطفيف او التعاون مع الظالمين او العمل كجاسوس محترف للطغاة او الاجانب ، ارايته يتخلص من هذه المهنة و قد كيف نفسه معها ، و اعتمد عليها في رزقه اليومي ؟!

لذلك ينبغي للرشيد ان لا يتبع الشيطان منذ الخطوة الاولى ، و لا يرتكب حتى الذنب الاول ، و اذا مر به طائف من الشيطان فخدعه عن دينه ، و ارتكب ذنبا فعليه ان يتوب عن قريب ، و لا يتابع مسيرة الذنب ؛ فان الذنب بعد الذنب يفسد القلب ، و يبعد عن الانسان توفيقالتوبة.

هكذا روي عن الامام الباقر - عليه السلام - انه قال : " ما من شيء افسد للقلب من الخطيئة . ان القلب ليواقع الخطيئة ، فما يزال به حتى تغلب عليه ، فيصير اسفله " اعلاه ، و اعلاه اسفله قال رسول الله صلى الله عليه وآله : " ان المؤمن اذا اذنبكانت نكتة سوداء في قلبه ، فان تاب و نزع و استغفر صقل قلبه منه ، و ان ازداد زادت ، فذلك الرين الذي ذكره الله تعالى في كتابه : " كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون " (١. (

من هنا ينبغي التوبة الى الله في كل يوم بل و في كل ساعة حتى يمحى اثر الذنوب التي لازلنا نمارسها قبل ان تترسخ في القلب فتفسده ، كما ينبغي التلاقي و التواصي بالحق و الصبر ، و التناصح حتى تجلى الافئدة من رينها ، هكذا اوصانا رسول الله - صلى الله عليهوآله - فيما روي عنه انه قال : " تذاكروا و تلاقوا و تحدثوا ، فان الحديث جلاء للقلوب . ان القلوب لترين كما يرين السيف(١) نور الثقلين / ج / 5ص ٥٣١.

وجلاؤه الحديث. (1) "

[15]هذه القلوب التي ترين بالذنب لا تتشرف بلقاء ربها يوم القيامة ، ذلك ان هذه الذنوب تصبح حجبا كثيفة تمنع عنه انوار الله البهية.

]كلا[

فليرتدعوا عن الاسترسال مع الذنوب و ما يسبب لهم رين القلب ؛ لان لذلك عاقبة سوأى ، و هي:

]انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون[

لقد حجبهم الذنب عن رحمة الله و عطفه و رعايته ، كما حجبهم الذنب عن نور لقائه و مشاهدته بحقيقة الايمان ، اليس اعظم نعم الله على المؤمن رضاه عنه و مناجاته له ، و لقاء قلبه بنوره ؟ ان هذا لهو النعيم المقيم الذي يسعى اليه المؤمن ، انه اعظم جائزة يتوقعهامن ربه ، فقد جاء في الحديث : " ان أهل الجنة يزورون العرش كل ليلة جمعة ، فينظرون الى نور ربهم فيقعون له ساجدين. "

و قد عبر الامام زين العابدين - عليه السلام - عن هذا اللقاء العاصف بالشوق و الوله بين العبد و الرب بقوله في مناجاته : " فقد انقطعت اليك همتي ، و انصرفت نحوك رغبتي ، فانت لا غيرك مرادي ، و لك لا لسواك سهري و سهادي ، و لقاؤك قرة عيني ، و وصلك منىنفسي ، و اليك شوقي ، و في محبتك ولهي ، و الى هواك صبابتي ، و رضاك بغيتي ، و رؤيتك حاجتي ، و جوارك طلبي ، و قربك غاية سؤلي ، و في مناجاتك روحي و راحتي ، و عندك دواء علتي ، و شفاء غلتي ، و برد لوعتي ، و كشف كربتي ..

الى ان يقول : و لا تبعدني منك يا نعيمي و جنتي ، و يا

(1)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٥٢١.

دنياي و آخرتي . يا ارحم الراحمين " (١. (

و اذا كان لقاء الله اعظم نعم المؤمنين فان حرمان الفجار منه يعد اعظم عذاب لهم ، و لا يعرفون عمق هذه المأساة الا في يوم القيامة ، لذلك ترى الامام امير المؤمنين - عليه السلام - يجأر الى ربه خشية فراقه و يقول : " فهبني يا الهي و سيدي و مولاي و ربيصبرت على عذابك فكيف اصبر على فراقك ، و هبني صبرت على حر نارك فكيف اصبر عن النظر الى كرامتك " (٢. (

[16]و العذاب الاخر تصلية النار ، فلا حجاب بينهم و بينها ، و لا ستر ، او ليسوا لم يستروا انفسهم منها في دار الدنيا ، و لم يتقوا حرها و لهيبها ؟ ! فهاهم اليوم يصلونها و يذوقون مسها مباشرة.

]ثم انهم لصالوا الجحيم[

اما المؤمنون فقد تزودوا من الدنيا بزاد التقوى فسترهم عن النار في الآخرة كما استتروا بها عن الذنوب في الدنيا ؛ لانهم عرفوا ان الذنوب تصحبهم من هناك الى هناك ، حيث تتحول نيرانا لاهبة ، و حيات و عقارب و ظلمات و الاما ، فتحصنوا عنها بحصن التقوى.

[17]اما العذاب الثالث فهو الاذلال و التحقير و الاهانة و التبكيت او ليسوا قد استهزاوا بالرسالات ، و قالو :ان هي الا اساطير الاولين ، فاليوم يشمت بهم حتى يذوقوا العذاب الروحي الذي كانوا يذيقونه الدعاة الى الله بتكذيبهم و الاستهزاء منهم.

]ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون[

(1)الصحيفة السجادية /مناجاة المريدين.

(2)دعاء كميل / مفاتيح الجنان.

هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون

بينات من الآيات

[18]من هم الابرار ؟ انهم الذين كان البر صبغة حياتهم ، و يبدو من قابلة كلمة الابرار لكلمة الفجار ان المراد من البر الذي يتبع سبيل المعروف و لا يتجاوزه ، و ان كتاب هؤلاء و مجمل اعمالهم محفوظ عند الله في مقام علي ، حيث يجتمع المقربون.

]كلا[

لا تكذب بيوم الدين ، بل اجتهد حتى تصبح من الابرار.

]ان كتاب الابرار[

وهو ديوان اعمالهم ، او ذات اعمالهم محفوظة عند الله.

]لفي عليين[

قالوا :الكلمة هذه جاءت بصيغة الجمع و لا واحد لها من لفظها مثل ثلاثون و عشرون ، و قال بعضهم : بل انها من علي و هو فعيل من العلو ، ثم قالوا معنى جمع هذه الكلمة و العلو و الارتفاع بعد الارتفاع ، كأنها أعلى الأعالي ، و قمة القمم ، فاين هذا المقام ؟ جاء في حديث مأثور عن النبي - صلى الله عليه وآله - انه قال : " عليون في السماء السابعة ، تحت العرش " (١) و روي عنه)ص) ايضا انه قال : " ان أهل الجنة يرون أهل عليين كما يرى الكوكب الدري في أفق السماء " (٢. (

و قال بعضهم : انه عند سدرة المنتهى ، و انى كان فانه مقام كريم ، يتواجد فيه المقربون ، و هم النبيون و الصديقون و الخلص من اولياء الله.

و انما يصعد العمل الى هذا المقام الكريم اذا كان صالحا خالصا لوجه الله حسب الحديث التالي : روي عن الامام الصادق -عليه السلام - عن النبي - صلى الله عليه وآله - انه قال : " ان الملك ليصعد بعمل العبد مبتهجا به ، فاذا صعد بحسناته يقول الله عز وجل: اجعلوها في سجين ، انه ليس اياي اراد فيها " (٣. (

[19]اين هذا المقام الاسمى ، و ماذا يجري فيه ، و كيف يتواجد فيه المقربون ؟ و اين توضع اعمال الابرار منه ؟ ان معرفتنا بهذه الحقائق محدودة لانها فوق مستوانا نحن البشر.

(1)القرطبي ج ١٩ / ص ٢٦٢.

(2)المصدر / ص ٢٦٣.

(3)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٥٣٠.

]و ما ادراك ما عليون[

يرى المفسرون في مثل هذا الخطاب : انه موجه الى شخص الرسول - صلى الله عليه وآله - و لكن يبدو لي انه موجه الى كل تال للقرآن ؛ فان القرآن نزل على الرسول و لكن للناس جميعا ، و أمر الناس بتلاوته و التدبر في آياته ، و في خطابات لهم جميعا ، كقول سبحانه : " يا ايها الناس " او للمؤمنين وحدهم ، كقوله : " يا ايها الذين امنوا " و قد جاء في الحديث : عن الصادق (ع " : (نزل القرآن باياك اعني و اسمعي يا جارة " (١. (

فهذه الآية لا تدل على ان النبي - صلى الله عليه وآله - لم يكن يعرف ما العليون ، كيف و قد فسره لنا ، بل اساس هذه الجملة لا تدل على نفي العلم بهذا المقام بقدر دلالته على انه مقام عظيم ، و الله العالم.

[20]في ذلك المقام الشامخ يوجد:

]كتاب مرقوم[

قالوا :ان هذه الجملة بيان لكتاب الابرار ، و انه كتاب مرقوم واضح لا لبس فيه ، و يحتمل ان تكون الجملة تفسير للعليين ، باعتبار ان الكتاب هو الاعلى و الاسمى ، لما يحمل من صالح الاعمال ، و الله العالم.

[21]و المقربون عباد الله شهود عند ذلك الكتاب الكريم ، فيستبشرون به ، و يستغفرون للصالحين لينالوا المزيد من الحسنات.

]يشهده المقربون[

(1)موسوعة بحار الانوار / ج ٩٢ / ص ٣٨٢ .

ان مجرد حضور المقربين عند الكتاب كرامة و شهادة منهم عليه ، و لذلك فان الشهادة هنا تأتي بمعنى الحضور و التوقيع اما المقربون فهم - حسب الآية التالية طائفة من البشر يأكلون و يشربون ، و هم الذين ذكرتهم آيات سورة الواقعة " و السابقون السابقون * اولئك المقربون " و قد بين القرآن شهادتهم بقوله : " و يوم نبعث في كل امة شهيدا عليهم من انفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء " (١. (

و قال بعضهم : انهم الملائكة المقربون ، و قيل اسرافيل - عليه السلام - خاصة ، بيد ان التفسير الاول اقرب الى السياق ، و هو يوحي بكرامة المقربين عند ربهم ، حيث جعلهم شهودا على كتاب الصالحين.

[22]الكتاب مظهر بارز لمسؤولية الانسان عن افعاله ، اما المظهر الاجلى فانه النعيم المقيم للابرار ، و الجحيم الاليم للفجار.

]ان الابرار لفي نعيم[

تحيط بهم آلاء الله ، قالوا : لان كلمة " نعيم " جات بصيغة فعيل (صفة مشبهة (فانها تفيد الاستمرار ، و لانها جاءت نكرة فهي تفيد الكثرة و التنوع ، و يبدو ان التعبير بـ " لفي نعيم " هو الاخر يدل على الكثرة و التنوع.

[23]لان الانسان روح و جسد فان روحه تتطلع الى لذات خاصة بها بعد ان يتشبع الجسد بالنعم ، فما هي لذة الروح في الجنة ؟ يبدو انها تتمثل في مجالس المؤانسة و المعرفة ، فالحديث مع الاخوة الاصفياء يعطي النفس لذة عظيمة ، كما ان العلم غذاء شهي للروح و العقل.

]على الارائك ينظرون[

(1)النحل / ٨٩.

جلوسهم على الائك مع اخوانهم المتقابلين لذة للنفس ، و نظرهم الى خلق الله و تجليات رحمته و قدرته لذة للعقل ، و روي عن النبي - صلى الله عليه وآله " : - ينظرون الى اعدائهم في النار. "

قالوا : الارائك جمع اريكة ، اي السرير ، و قيل اصلها فارسية ، و قيل : انها مشتقة من اسم شجرة يسمى بأراكة.

[24]عندما يصفو عيش المرء من الاكدار ، و قلبه من الضغائن و الطمع و الحرص ، يتلألأ وجهه بآثار النعم ، كما يزهر النبات و يتنور ، كذلك اهل الجنة تفيض على وجوههم الجميلة اثار النعم نضارة و نورا.

]تعرف في وجوههم نضرة النعيم[

و لعل التعبير بـ " تعرف " يوحي بانك تعرف مدى النعيم الذي هم مستقرون فيه بنظرة الى وجوههم ، و مدى نضارتها ؛ فان النضارة درجات و انواع ، و هي تعكس ماوراءها من عوامل النعيم و درجاتها.

[25]و جلسات الانس لا تكتمل الا بشراب يزيدهم نشاطا و سرورا.

]يسقون من رحيق مختوم[

قالوا :الرحيق : صفوة الخمر ، و قال بعضهم : انها الخمرة العتيقة البيضاء الصافية من الغش النيرة ، و اما المختوم فانه يوحي بكرامة الشارب الا تسبق الى الشراب يد غيره.

[26]و اذا كان ختم الشراب عادة قطعة طين لازب ، فان ختم رحيق الجنة المسك الاذفر.

]ختامة مسك[

فيزيده عطرا و جمالا ، و لنا ان نتصور اماد هذه النعم فنسعى اليها بكل همة و نشاط.

]وفي ذلك فليتنافس المتنافسون[

في ضمير الانسان نزعة راسخة تدعوه الى التسابق و التقدم على الاخرين ، و كثير منا يستثير هذه النزعة الفطرية في التسابق على الدنيا و نعيمها الزائل ، بينما العقل يهدينا الى ان التنافس ينبغي ان يكون على المكرمات و الجنة ، و الآية هذه واحدة من عدة آيات قرآنية تستثير هذه النزعة المباركة في الطريق القويم ، و هو التسارع الى الخيرات ، و التنافس في المكرمات ، قال ربنا سبحانه : " و سارعوا الى مغفرة من ربكم و جنة عرضها كعرض السماء و الارض اعدت للمتقين " (١) و قال سبحانه : " فاستبقوا الخيرات اينما تكونوا يأت بكم الله جميعا " (٢) و قال تعالى : " انهم كانوا يسارعون في الخيرات و يدعوننا رغبا و رهبا " (٣. (

و اذا كان الانسان يتنافس على شيء ، فان افضل ما يتنافس عليه ذلك الرحيق المختوم ، الذي يأتي مكملا لسلسلة من النعم المتواصلة ، و لعل هذا هو السر في ذكر هذه الجملة عند بيان هذه النعمة ، لانها مكملة لسائر النعم ، او لبيان عظمة هذه النعمة و ما فيها منلذة عظيمة لا تقاس بسائر اللذات حتى لذات الاخرة و نعيمها ، او لان من آداب الشرب عند أهله في الدنيا تنازع الكؤوس بينهم و تنافسهم فيها.

و انى كان فان التنافس في الرحيق المختوم في ذلك اليوم يتم اليوم في الدنيا(١) الحديد / ٢١.

(2)البقرة / ١٤٨.

(3)الانبياء / ٩٠.

بالتسارع في الخيرات ، و التنافس فيها ، و قد جاء في الاثر ان ترك الخمر في الدنيا ثمن الرحيق المختوم في الآخرة ، كما ان ثواب سقاية المؤمن و اطعامه هو الرحيق المختوم.

جاء في وصية النبي - صلى الله عليه وآله - لعلي - عليه السلام - انه قال : " يا علي ! من ترك الخمر لغير الله سقاه الله من الرحيق المختوم ، فقال علي : لغير الله ؟ قال : نعم . و الله ، صيانة لنفسه فيشكره الله تعالى على ذلك " (١. (

و روي عن علي بن الحسين - عليه السلام - انه قال : " من اطعم مؤمنا من جوع اطعمه الله من ثمار الجنة ، و من سقا مؤمنا من ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم " (٢. (

و روي : " من صام لله في يوم صائف سقاه الله من الظمأ من الرحيق المختوم " (٣. (

[27]قيل : بان في الجنة عينا تجري في الهواء ثم تصب في كؤوس الابرار ، و قالوا : انها تجري من تحت العرش و تسمى بالتسنيم ، لانها في أعلى الجنة ، و هي شراب المقربين خالصا ، و يضاف شيء منه الى شراب الابرار فيعطيه نكهة خاصة ليس فقط لانه عظيم اللذة ، بلربما ايضا لان فيه اثرا من روح المقربين و ريحهم ، و عبق درجاتهم المتسامية ، و قالوا : انه اشرف شراب في الجنة ، قال الله سبحانه :

]و مزاجه من تسنيم[

قال الرازي : تسنيم علم لعين بعينها في الجنة ، سميت بالتسنيم الذي هو(١) نور الثقلين / ج ٥ / ص ٤٣٤.

(2)المصدر.

(3)المصدر.

مصدر سنمة اذا رفعه ، اما لانها ارفع شراب في الجنة ، او لانها تأتيهم من فوق على ما روي : انها تجري في الهواء مسنمة فتنصب في أوانيهم ، و اما لانها لاجل كثرة مائها و سرعته تعلو على كل شيء تمر به وهو تسنيمه ، و اما لانها عند الجري يرى فيه ارتفاع و انخفاضفهو التسنيم ايضا ، و ذلك لان اصل هذه الكلمة العلو و الارتفاع ومنه سنام البعير ، و تسنمت الحائط اذا علوته (١. (

و قال بعضهم : ان كل عين تجري من الاعالي تسمى بالتسنيم ، و بالرغم من ان هذا اقرب المعاني الى سياق الآية الا اني لم اجد مصدرا لغويا يؤيده.

[28]و للجنة درجات تتعالى حتى تتصل بعرش الله ، فعنده جنات عدن حيث منازل المقربين من عباده الانبياء و الصديقين ، و قد بينت سورة الواقعة جانبا من الفرق بين درجات المقربين السابقين و درجات أصحاب اليمين ، و في هذه السورة اشارة الى جانب منه ، حيث ان مزاج شراب الابرار التسنيم ، بينما يرتوي منه المقربون ، فهو شرابهم الخالص.

]عينا يشرب بها المقربون[

و لعل في شراب التسنيم اثار معنوية ، حيث يكسب شاربه قربا الى الله و رضوانا ، و هكذا خمرة الجنة تزيد العقل ، و تنشط الفكرة ، و تلهم الروح ايمانا و عرفانا ، فاين هي من خمرة الدنيا التي تزيل العقل ، و تخمل الفكر ، و تبعد الروح من مقام ربها ؟!

[29]تلك كانت مجالس الانس و المصافاة ، و شرب الرحيق و السلسل يجازي الرب بها عباده الذين عانوا الالام الروحية ، فكم ضحك منهم المجرمون و كم(١) التفسير الكبير / ج ٣١ / ص ١٠٠.

تفاخروا ، و كم سرقوا منهم لقمة العيش فتفكهوا بها و تركوهم يتضورون جوعا.

]ان الذين اجرموا كانوا من الذين امنوا يضحكون[

ذكروا في تنزيل الاية سببين : الاول : ان المجرمين هم اكابر قريش كانوا يضحكون من عمار و صهيب و بلال و غيرهم من فقراء المسلمين و يستهزؤون بهم ، الثاني :انه جاء علي - عليه السلام - في نفر من المسلمين فسخر منهم المنافقون و ضحكوا و تفاخروا ، ثم رجعوا الى اصحابهم فقالوا راينا اليوم الاصلع ، فضحكوا منه ، فنزلت هذه الآية قبل ان يصل علي الى رسول الله . (١) و الظاهر ان سبب النزول الثاني اقوى لان السورة مدنية.

[30]اول شهادة تسجل ضد المجرم هي شهادة ضميره الذي لا يني يلومه و يؤنبه على جريمته ، لذلك تراه يسعى جاهدا للتخلص منه فماذا يفعل ؟ انه ينتقم من اهل الصلاح و ينتقص منهم و يستهزىء بهم لعله يخفف من وطأة اللوم الذي يتعرض له داخليا . كلا ... انه يزداد وخزا و الما لان الاستهزاء بالمؤمنين جريمة اخرى ارتكبها و استحق عليها لوم ضميره ، و هكذا يزداد استهزاء و سخرية دون اية فائدة.

]و اذا مروا بهم يتغامزون[

اي يشيرون اليهم بأعينهم و ايديهم استهزاء ، و قيل : الغمز بمعنى العيب.

و الله يدري كم تكون جراحة اللسان أليمة بالنسبة الى المؤمن الشريف الذي لا يزال يجتهد من اجل تزكية نفسه.

(1)التفسير الكبير / ج ٣١ / ص ١٠١.

و اذا كان الغمز في الجاهلية بالعين و اليد فانه اصبح اليوم بالاقلام و الافلام و سائر وسائل التشهير التي امتلكها اعداء الانسان ، اعداء الله و الدين ، و ان صمود المجاهدين اليوم امام هذه الدعايات المضللة يزيدهم عند الله اجرا وزلفا ، لانهم يصبرون على اذى عظيم ، و الام نفسية لا تحتمل.

[31]و بينما يعيش المؤمنون و المجاهدون اشد حالات الالم و الخوف و تنتفض اطفالهم و نساؤهم في المخابىء و المهاجر خشية مداهمة جنود ابليس المعسعسون ترى المجرمين ينقلبون الى بيوتهم في أمن ظاهر ، يتبادلون نخب الانتصارات الزائفة ، و يرتادون مجالس اللهو والعربدة.

]و اذا انقلبوا الى اهلهم انقلبوا فكهين[

قالوا : اي معجبين بما هم عليه من الكفر ، متفكهين بذكر المؤمنين ، و لعل المراد من الاهل هنا اصحابهم و أهل مؤانستهم.

[32]و يحاول اعداء الرسالة الصاق تهمة الضلالة الى المؤمنين لعلهم يعزلونهم عن المجتمع.

]و اذا راوهم قالوا ان هؤلاء لضالون[

و يبدو ان هدف هذه التهمة اثارة حساسية الناس ضدهم ، لانهم يخالفون الخرافات الشائعة التي ينصب المجرمون انفسهم مدافعين عنها ، و بينما يسعى المؤمنون نحو انقاذ المجتمع من و يلاتها.

[33]و هؤلاء المجرمون الذين هم عادة اصحاب الثروة و القوة و الجاه العريض يزعمون انهم الموكلون بأمر الناس فتراهم يوزعون التهم يمينا و يسارا ، بينما هم بشركسائر الناس لم يجعل لهم ميزة و سلطانا على احد.

]و ما ارسلوا عليهم حافظين[

بل كل امرء مسؤول عن نفسه ، و بهذه الكلمة الحاسمة سلب القرآن الشرعية المزيفة التي تدعيها السلطات و المترفون لتسلطهم على الناس . كلا .. السلطة انما هي لله و لمن يخوله الله ، اما اولئك المجرمون فانهم غاصبون ، و ان على المؤمنين الا يابهوا باحكامهم الجائرة عليهم ، لانه لا شرعية لها ابدا.

[34]بسبب تلك المعاناة الشديدة و الالام المبرحة التي ذاقها المؤمنون المجاهدون في سبيل الله من ايدي المجرمين تنقلب الصورة تماما في يوم الجزاء.

]فاليوم الذين امنوا من الكفار يضحكون[

قال بعضهم : انه يفتح للكفار في اطراف النار باب الى الجنة ، فاذا سعوا اليها و وصلوه بعد عناء عظيم اغلق دونهم فيثير ذلك ضحك المؤمنين عليهم ، و روي مثل ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله . (١)[٣٥] و المؤمنون جالسون على الارائك فرحين بما اتاهم الله ، و ينظرون الى ما يجري هناك في نار جهنم.

]على الارائك ينظرون[

جاء في الحديث في قوله تعالى " :الله يستهزىء بهم " اي المنافقين : " و اما استهزاؤه بهم في الاخرة فهو ان الله عز وجل اذا اقر المنافقين المعاندين لعلي(١) انظر الدر المنثور / ج ٦ / ص ٣٢٨ / عن نمونه / ج ٢٦ / ص ٢٨٨.

-عليه السلام - في دار اللعنة و الهوان ، و عذبهم بتلك الالوان العجيبة من العذاب ، و أقر المؤمنين الذين كان المنافقون يستهزؤون بهم في الدنيا في الجنان بحضرة محمد صفي الملك الديان ، اطلعهم على هؤلاء المستهزئين بهم في الدنيا حتى يروا ما هم فيه من عجائباللعائن و بدائع النقمات ، فيكون لذتهم و سرورهم بشماتتهم بهم كما لذتهم و سرورهم بنعيمهم في جنان ربهم ، فالمؤمنون يعرفون اولئك الكافرين باسمائهم و صفاتهم ، و هم على اصناف:

منهم من هو بين انياب افاعيها تمضغه ، و منهم من هو بين مخاليب سباعها تعبث به و تفترسه ، ومنهم من هو تحت سياط زبانيتها و اعمدتها و مرزباتها يقع من ايديهم عليه تشدد في عذاب و تعظم خزيه و نكاله ، و منهم من هو في بحار حميمها يغرق و يسحب فيها ، و منهم من هو في غسلينها و غساقها تزجره زبانيتها ، و منهم من هو في سائر اصناف عذابها ؛ و الكافرون و المنافقون ينظرون فيرون هؤلاء المؤمنين الذين كانوا بهم في الدنيا يسخرون لما كانوا من موالات محمد و علي والهما - صلوات الله عليهم - يعتقدون ، فيرونهم : منهم من هوعلى فراشها يتقلب ، و منهم من هو على فواكهها يرتع ، و منهم من هو على غرفاتها او في بساتينها و تنزهاتها يتبحبح ، و الحور العين و الوصفاء و الولدان و الجواري و الغلمان قائمون بحضرتهم و طائفون بالخدمة حواليهم ، و ملائكة الله عز وجل يأتونهم من عند ربهم بالحباء و الكرامات و عجائب التحف و الهدايا و المبرات يقولون : سلام عليكم بما صبرتهم فنعم عقبى الدار ، فيقول هؤلاء المؤمنون المشروفون على هؤلاء الكافرين المنافقين : يا ابا فلان و يا فلان - حتى ينادونهم باسمائهم - ما بالكم في مواقف خزيكم ماكثون ؟ هلموا الينا نفتح لكم ابواب الجنان لتتخلصوا من عذاب و تلحقوا بنا في نعيمها ، فيقولون : ويلنا انى لنا هذا ؟ يقول المؤمنون : انظروا الى هذه الابواب ، فينظرون الى ابواب الجنان مفتحة يخيل اليهم انها الى جهنم التي فيها يعذبون ، و يقدرون انهم ممكنون ان يتخلصوا اليها ، فيأخذون في

السباحة في بحار حميمها و عدوا بين ايدي زبانيتها ، و هم يلحقونهم و يضربونهم باعمدتهم و مرزباتهم وسياطهم ، فلا يزالون هكذا يسيرون هناك و هذه الاصناف من العذاب تمسهم حتى اذا قدروا انهم قد بلغوا تلك الابواب وجدوها مردومة عنهم و تدهدههم الزبانية باعمدتهافتنكسهم الى سواء الجحيم ، و يستلقي اولئك المؤمنون على فرشهم في مجالسهم يضحكون منهم مستهزئين بهم ، فذلك قول الله عز وجل : " الله يستهزىء بهم " و قوله عز وجل : " فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الارائك ينظرون " (١. (

[36]ماذا ينظرون ؟ انهم ينظرون الى مجريات جزاء الكفار اليومية ، و عقابهم المتتابع الذي يتصل بجرائمهم المتتالية في الدنيا.

]هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون[

اي ينظرون لكي يروا هل انهم ثوبوا و جوزوا ؟ و بالطبع : انهم يجدون هذا الجزاء لحظة بلحظة ، و لا ينتهي جزاؤهم لانه مستمر ، ذلك ان كل فعلة خاطئة قاموا بها تجازى بمئات السنين ، فيستمر النظر و يستمر الجزاء . اعاذنا الله من مثل هذه العاقبة السواى ، و جعلنا من أهل جنته و رضوانه . آمين.

(1)بحار الانوار / ج ٨ / ص ٢٩٨.

سورة الانشقاق

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن ابي عبد الله الصادق (ع) قال : " من قرأ هاتين السورتين ، و جعلهما نصب عينيه في صلاة الفريضة و النافلة : " اذا السماء انفطرت " و " اذا السماء انشقت " لم يحجبه من الله حاجب ، و لم يحجزه من الله حاجز ، و لم يزل ينظر الله اليه حتى يفرغ من حساب الناس. "

تفسير نور الثقلين / ج ٥ / ص ٥٣٦

الاطار العام

قبسان من نور تشع بهما سورة الانشقاق:

/ 1قبس يرشه على واقع الانسان عسى ان يعرف نفسه و يضعها في المقام الاسمى الذي خلق له . فالانسان كادح الى ربه كدحا فملاقيه .. وهو يركب بالتأكيد طبقا عن طبق.

فهو اذا ذلك الانسان المسؤول الذي سخرت له الارض و اجرام السموات العلى ، و امامه عقبات كاداء لابد ان يتحداها حتى يصل الى دار المقامة عند رب العزة ، و الا فيكون من اصحاب الشمال ، يؤتى كتابه و راء ظهره ، و يساق الى جهنم ليصلى سعيرا.

/ 2قبس يضيء به الطبيعة انها خلقية الله ، و تستجيب لمشيئته النافذة ، فالسماء حين تنشق ، و الارض حين تمتد تأذنان لربهما العظيم ، و حق لهما ذلك اوليستا مخلوقتين ! و يلتقي شعاع هذا القبس بذلك عندما يستنكر السياق كفر هذاالانسان : فما لهم لا يؤمنون ، و اذا قرء عليهم القرأن لا يسجدون ؟ ! او لم يخلقوا كما خلقت السموات و الارض . أم اعظم خلقا أم ذاتك ؟!

و كما في السور القصار تفتح آيات السورة منافذ القلب على الحقيقة .. و لكن قلب من ؟ انما قلب الذين استجابوا لربهم ، فآمنوا به و عملوا الصالحات ، فتبشرهم بأجر متصل غير منقطع.

انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه

بينات من الآيات

[1]هل تستطيع ان تتصور السماء كيف تنشق ، و النجوم كيف تنتثر ، و هذه السلاسل الجبلية التي تزن ملايين الاطنان من الصخور العملاقة كيف تندك اندكاكا ؟

أرايت البحر حين يهيج فاذا بأمواجه كالجبال تتطلام فوق سطحه . هل لك ان تتصور لو ان بحار الارض كلها سجرت . انها اعظم من الوف ملايين من القنابل الهيدروجينية حين تنفجر معا .. انني اعترف بعجز قدرة الخيال عندي من ان تتصور كل هذه الاحوال .. فكيف بنا و نحن لابد ان نشاهدها عن كثب ؟ عظيم اذا شأن هذا الانسان الذي يستضاف لمثل هذا البرنامج بل المهرجان الكوني ، لا ان الانسان ليس يومئذ ضيف شرف ، بل متهم يساق الى المحاكمة ، و يوقف للسؤال . حقا انه ذا شأن عظيم ، و ان مسؤوليته التي يتحملها اليوم جدا عظيمة . تعالى- يا اخي-

نرتفع لحظات الى مستوى تصور الساعة كما يصفها ربنا . و اني لعلى يقين ان مجرد تصورها يجعلنا ننظر الى الامور بطريقة مختلفة ، و نعرف انئذ اننا لازلنا في ضلال بعيد لازلنا لا نعرف قيمة انفسنا . من نحن ، ما هي حكمة وجودنا ، و الى اي مصير نساق ؟

لمحكمة الرب جو رهيب . انها ليست في قاعة مفروشة بالسجاد . انها في الفضاء الرحب .. و اجرامها تصدع قلوب الجلاميد . السماء يومئذ تنشق . و لعل النيازك السماوية تتساقط من خلال شقوقها فوق الارض ، و لا نعرف ماذا تحدث من دمار و صعقات ، اما الارض فان جبالها تندك ، و بحارها تتسجر ، و تمتد الى ما شاء الله حتى تصبح كأديم مبسوط.

]اذا السماء انشقت[

و اذا كانت قاعة المحكمة في الدنيا محاطة بجنود محافظين ، فان جنود السموات و الارض تقف يومئذ مستعدة لتنفيذ اوامر الرب فورا.

] [2]و اذنت لربها و حقت[

و هل تستطيع ان تتمرد السموات عن امر ربها ؟ كلا .. بل حق لها ان تأذن لربها ، اي تقف انتظارا لاوامره الصارمة.

] [3]و اذا الارض مدت[

فلا جبال و لا آكام و لا روابي و لا بناء و لا اشجار .. انها في ذلك اليوم قاع صفصف.

] [4]وألقت ما فيها و تخلت[

فلا معادن و لا مقابر كلها اليوم فوق الارض .. فلا يستطيع احد ان يبحث داخل الارض عن مخبأ او خندق.

] [5]و اذنت لربها و حقت[

و كيف لا تنتظر اوامر الرب و هي مخلوقة مدبرة . افلا يحق لها الخضوع ؟ ! بلى.

[6]يومئذ و في هذه الاجزاء المرعبة يلقى الانسان ربه ليسأله عما فعله ، و ليعطيه جزاءه الاوفى ، و لكن بينه و بين ذلك اليوم الرهيب عقبات و صعوبات تكون بمثابة ارهاصات و اشراط لما قد يلقاه الانسان يومئذ.

]يا ايها الانسان انك كادح الى ربك كدحا[

الولادة ساعة كدح لك و لامك . تحديك للامراض منذ نعومة اظفارك و الاخطار . و تعرضك لاعراض الجوع و العطش ، و الحر و البرد ، و الالم و الشدائد ، و تواصل الاحباط و الحرمان عليك منذ ان ميزت يمينك عن شمالك ، ثم حينما نموت و ترعرعت واجهت الوان الضغوط الجسدية و النفسية ، و دخلت معترك الحياة التي كلها صراع و صعوبات . ان كل هذه الوان من الكدح في حياة الانسان . ولكن ياليت كانت هي النهاية ؟ كلا .. بعد كل ذلك يأتي يوم اللقاء مع من ؟ مع رب العزة ، و لم ؟ للسؤال ، و في اي يوم ؟ في يوم الطامة.

ان كل ذلك يجعلنا ننظر الى انفسنا باحترام بالغ . انها ليست كالشجرة التي تنبت في مزرعتنا ثم تمضي لشانها بعد عمر محدود دون عناء التحديات ، و ليست كالانعام او اي حي اخر يمضي دورته الحياتية برتابة و دون تحديات او كدح . انها النفس التي اكرمها الله و سخرلها الشمس و القمر و ما في الارض جميعا ، و لهدف عظيم . ان ذلك الهدف هو لقاء الرب للمحاكمة فالجزاء ، و هذه الحياة بما فيها منكدح شاهد على ذلك المصير بما فيه من جزاء.

]فملاقيه[

و اذا كانت الحياة سلسلة متواصلة من الكدح و النصب فلماذا السرور و اللهو اذا ؟ و لماذا يبيع الانسان

الاخرة بالدنيا ما دمنا جميعا كادحون . اهل الصلاح و المفسدون كل في طريقه ؟ و لعل المفسد يتعرض لكدح اكبر ، لانه يفقد امل المستقبل و توكل المؤمن على ربه ، و يبدو ان الامام زين العابدين يشير الى ذلك حين يقول فيما روي عنه:

"الراحة لم تخلق في الدنيا و لا لاهل الدنيا ، انما خلقت الراحة في الجنة لاهل الجنة ، و التعب و النصب خلقا في الدنيا ، و لاهل الدنيا . و ما اعطي احد منها جفنة الا اعطي من الحرص مثليها ، و من اصاب من الدنيا اكثر كان فيها اشد فقرا ، لانه يفتقرالى الناس في حفظ امواله ، و يفتقر الى كل الة من آلات الدنيا ، فليس في غنى الدنيا راحة . كلا ما تعب اولياء الله في الدنيا للدنيا ، بل تعبوا في الدنيا للاخرة " (١. (

[7]و شتان بين لقاء المؤمن ربه و غيره . ان المؤمن يلقى ربه ليستلم جائزته بيمينه.

]فاما من اوتي كتابه بيمينه[

[8]يأخذه بفرح بالغ . لقد انتهى الكدح و الى الابد . انها ولادة جديدة ، و مستقبل زاهر.

]فسوف يحاسب حسابا يسيرا[

(1)تفسير نمونه / ج ٢٦ / ص ٣٠٤ نقلا عن خصال الصدوق.

فالحساب لا بد منه لكل انسان الا عدد محدود من الصديقين و الصابرين ، بيد ان حساب اصحاب اليمين يسير ، فاذا مروا بحسناتهم قبلت . و اذا وجدوا بينها هفوات غفرت ، و لكن الحساب العسير يعني عدم قبول حسناتهم ، و عدم التجاوز عن سيئاتهم.

وفي الخبر المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وأله " : ثلاث من كن فيه حاسبه الله حسابا يسيرا ، و ادخله الجنة برحمته " قالوا : و ما هي يا رسول الله ؟ قال : " تعطي من حرمك ، و تصل من قطعك ، و تعفو عمن ظلمك " (١. (

و لعل السبب في ذلك سلامة خطهم العام مما يشفع لهم في الانحرافات الجانبية.

[9]و يجتمع المؤمنون تحت ظل عرش الله ، ينظرون الى ساحة المحكمة ، و ينتظرون رفاقهم الذين ينتهون من الحساب و يلتحقون بجمعهم المبارك ، فاذا اخذ المؤمن كتابه اسرع اليه مسرورا.

]و ينقلب الى اهله مسرورا[

ان هذا السرور يلازم منذ خروجه من قبره بسبب صفاته الحميدة ، و لعل ابرزها رضاه عن ربه ، فقد جاء في الحديث عن الصادق عليه السلام : " و من رضى باليسير من المعاش ، رضى الله منه باليسير من العمل " (٢. (

و جاء في حديث ماثور عن الامام الصادق عليه السلام : " اذا بعث الله عز وجل المؤمن من قبره خرج معه مثال يقدمه امامه ، كلما راى المؤمن هولا من اهوال يوم القيامة قال له المثال : لا تفرغ و لا تحزن ، و ابشر بالسرور و الكرامة من الله جل و عز ، حتى يقفبين يدي الله جل و عز فيحاسبه حسابا يسيرا ، و يأمر به الى(١) موسوعة بحار الانوار / ج ٦٩ / ص ٤٠٦.

(2)مجمع البيان / ج / 10ص ٤٦١.

الجنة و المثال امامه ، فيقول له المؤمن : رحمك الله . نعم الخارج خرجت معي من قبري و مازلت

تبشرني بالسرور و الكرامة من ربي حتى رايت ذلك ، من انت ؟ فيقول : انا السرور الذي كنت ادخلته على اخيك المؤمن في الدنيا ، خلقني الله جل و عز منه لابشرك " (١. (

[10]اما الكافر و المنافق و الفاسق فانه يستلم كتابه من وراء ظهره اما بعد ان تخلع يسراه و توضع الى ظهره ، و اما لان يديه مغلولتان وراء عنقه . فيوضع الكتاب في يسراه من خلف ، و عموما فانه يصبح معروفا عند الناس بسوء العاقبة.

]و اما من اوتى كتابه وراء ظهره[

و تتلاحق لعنات الملائكة و الناس عليه ، و يشدد عليه في الحساب ، و لا تقبل حسناته ، و لا تغفر سيئاته ، و اهم من كل ذلك تسقط عنه الاستار التي تزمل بها في الدنيا حتى لا يعرف على حقيقته ، و يعلن للناس اسراره و خبايا نفسه الخبيثة.

[11]اليس من الافضل ان نسعى جميعا لاصلاح انفسنا اليوم و لا نستمر في خداع حتى لا نبتلى بتلك الفضيحة الكبرى ؟ !

ماذا يكون موقف هذا البئيس ؟!

انه يصيح : و انفساه و اثبوراه ! ! ولكن هيهات حيث لا ينفعه الندم ، ولات حين مندم.

]فسوف يدعوا ثبورا[

و الثبور هو الهلاك ، و دعاؤه به اعترافه بالجريمة و استسلامه للهلاك ، و لو عرف(١) تفسير نور الثقلين / ج ٥ / ص ٥٣٨.

الانسان هذه العاقبة و هو في الدنيا و اتقاها بصالح الاعمال لما ابتلي بهذا المصير الاسود.

[12]و لا تنفعه دعوته للهلاك و اعترافه بالثبور لانه سوف يدخل النار و يصلى حرارتها.

]و يصلى سعيرا[

نارا مستعرة متقدة ذات اوار و لهب .

[13]لماذا هذا المصير ؟ لانه كان في الدنيا مسرورا ، لاهيا عما يراد به ، مستهزء بالدعاة الى الله.

]انه كان في اهله مسرورا[

و السرور هو احساس الانسان بانه قد بلغ اهدافه . و الدنيا غاية علم الكافر ، و لذلك تراهم يفرحون بما اوتوا فيها ، و تغلق افاق طموحهم دون الحياة الاخرة ، فلا يقدمون لها شيئا.

[14]كيف يتجاوز المؤمنون ظاهر الدنيا الى غيب الاخرة ؟ انما بايمانهم بالنشور ، بينما غيرهم يظن انه لا يعود.

]انه ظن ان لن يحور[

اي يعود الى الاخرة للحساب . قالوا : الحور : الرجوع ، و قيل : كلمة فلم يحر جوابا : اي ما ارجع قولا ، و لا رد كلاما ، جاء في الدعاء : " نعوذ بالله من الحور بعد الكور " اي من العودة الى النقصان بعد الزيادة ، و سميت البكرة بـ " بالمحور " لانها

تدور حتى ترجع الى محلها.

[15]و كان ظنه باطلا . فانه ليس يحور فقط ، و انما ايضا يحاسب بهذه من لدن رب بصير بشأنه ، محيط علما بظاهر فعله و غيب نيته.

]بلى ان ربه كان به بصيرا[

و لان الانسان يبرر جرائمه و ضلاله عادة ؛ فان السبيل الوحيد لاصلاحه هو تحسسه برقابة الله عليه ، و انه بصير بخبايا قلبه انى برر او نافق.

[16]هل راقبت يوما الغروب : كيف تسقط الشمس في الافق ، و ينبسط عليه الشفق ، و يلملم الظلام شمل الطيور في اوكارها ، و الوحوش و الهوام في بيوتها و جحورها ، و الناس في مساكنهم ، و اذا بالقمر يطلع علينا بنور هادىء . انه مثل للاطوار التي يتحول عبرها الانسان منذ ان كان نطفة في صلب ابيه ، و الى ان يضمه التراب في رحمه . انه في رحلة متواصلة يركب فيها طبقا بعد طبق ، افلا نؤمن باننا لسنا مالكي انفسنا ، و ان من يملك امرنا انشأنا لحكمة ، فاين تلك الحكمة لو لم تكن في القرآن ؟ ! افلا نسجد لربنا حين نتلوا آياته ؟ ! حقا .. انها حكمة الخلق التي اشارت اليها الآية الكريمة " و ما خلقت الجن و الانس الا ليبعدون " (١. (

]فلا أقسم بالشفق[

لغروب الشمس هيبة في النفوس ، و جلال عظيم ، و ان منظر الشمس حين تغرب يثير فينا اكثر من احساس ؛ انه يرسم على الافق لوحة متحركة ، بارعة الجمال ، ذات الوان تبهر الالباب ، و لكنه لا يلبث ان يثير فينا الحزن على ينبوغ النور الذي بلعه المغيب و لو بصورة موقتة ، مما يجعلنا نتساءل : السنا نحن ايضا ننتظر الغروب عندما(١) الذاريات / ٥٦.

يحين اجلنا . و متى يأتي الاجل ؟ لا ندري.

و اخيرا يصل الانسان الى قناعة : لابد من الرضا بالواقع ؟ تعالوا نرجع الى بيوتنا.

و قال المفسرون عن الشفق : انه امتزاج ضوء النهار بظلام الليل ، و قيل : ان اصل الشفق الرقة ، و انما سمي المغيب بالشفق لانه ينتشر في الافق ضياء رقيقا.

و قالوا عن اللام في " فلا اقسم " : انها زائدة للتأكيد ، و قيل بل معناها تعظيم الشفق ان يقسم به ، او تعظيم الحقيقة حتى لا تحتاج الى قسم ، و قد سبق منا : ان اللام هنا تفيد تأكيد القسم.

[17]و بعد ان يلملم الشفق بقايا خيوط الضياء ، يسوق ظلام الليل الناس ليهجعوا ، و الاشياء لتنكمش ، ذلك ان الضوء يبسط الطبيعة ، بينما الظلام يجمعها .. ارايت اسراب الطيور عند الشفق كيف تعود الى اوكارها ، و قطعان الانعام تروح الى مرابضها ، و الناس ايضايعودون الى دورهم و مساكنهم ؛ انه منظر رائع حقا.

]و الليل و ما وسق[

قالوا : الوسق : الجمع ، و طعام موسوق اي مجموع.

[18]و يطلع القمر ، و يندفع الى كبد السماء ، و يتجلى بنوره الفضي كسفينة من فضة تسير في بحر من الظلام ، و يبعث من افق السماء بنوره الهادىء فوق الاجام و الروابي بما لا يزاحم نوم النائمين ، و في ذات الوقت يكون سراجا للسارين ليلا و انيسا للشعراء و الوالهين ، و آية مبصرة لمن يحيي الليل من

المتهجدين.

]و القمر اذا اتسق[

قالوا : اتسق : مشتقة من الوسق ، بمعنى تجميع اطراف الشيء مما يوحي بكماله ، و قالوا : انه كناية عن القمر عندما يكتمل بدرا ، و يبدو لي انه اعم منه و المراد من اتساقه ارتفاعه في كبد السماء ، و بعيدا عن كدر الافق و الله العالم.

[19]ان الانسان ينتقل من حال الى حال .. تلك هي الحقيقة التي لابد ان يعيها الانسان بعمق ، و الا فانه يخشى عليه ان يضل سبيله.

]لتركبن طبقا عن طبق[

ما هو المراد من الطبق ؟ قالوا : الطبق في اللغة بمعنى الحال ، ثم ساقوا امثلة لذلك ، فذكروا ان الدواهي تسمى ام طبق ، و بنات طبق ، و استشهدوا بقول الشاعر:

الصبر احمد و الدنيا مفجعة من ذا الذي لم يذق من عيشه رنقااذا صفا لك من مسرورها طبق اهدى لك الدهر من مكروهها طبقاو يقول شاعر آخر:

اني امرؤ قد جلبت الدهر اشطره و ساقتني طبق منه الى طبقو لعل اصل معنى الطبق التطابق ، و انما سميت التحولات الاساسية و المنعطفات الحساسة من الزمن بالطبق ؛ لانهم تصوروا الزمان طبقات كما الارض طبقات او العمارة طوابق ، فسموا كل مرحلة طبقا ، كما سموا كل طبقة من الارض او طابق من البيت ، و لذلك قالوا : اتانيطبق من الناس او طبق من الجراد ، اي جماعة كانهم قسم من الناس ، و طبقة منهم ، و مشهور في ادبنا اليوم مصطلح الطبقات الاجتماعية ، و يسمى القرن من الزمان ايضا طبقا ، كما قال العباس في مدح النبي صلى الله عليه وآله.

تنقل من صلب الى رحم اذا مضى عالم بدا طبقو يقال لضريع الليل و طرف النهار طبق ، فيقولون مضى طبق من الليل او طبق من النهار.

و اذا فان ظاهر الآية يدل على ان الانسان يتدرج في طبقات الزمان ، و مراحله ، و تحولاته طبقا بعد طبق .

بلى .انه لا يملك التحولات الكبيرة التي تجري عليه . بالرغم من وجود هامش بسيط من الاختيار عنده ، فهو يولد في عصر لا يختاره ، و في مصر لم ينتخبه ، و من و الدين قدرا له دون دخل له فيهما ، و عشرات التقديرات الحتمية تصوغ حياته دون ان يكون له فيها صنع ،ثم يتحول من نطفة الى علقة الى مضغة الى خلق سوي ، يولد ليجتاز سبعة و ثلاثين مرحلة منذ الرضاعة حتى يكون هرما فيموت ، حسب الاسماء التي وضعتها العرب لمراحل حياة البشر.

و خلال هذه الفترة يتقلب عبر المرض و العافية ، و الفقر و الغنى ، و الخوف و الامنة ، و الجوع و الشبع ، و ترمي به حوادث الزمان من حزن الى سرور ، و من قلق الى سلام ، و من شدة الى رخاء و هكذا .. و قد تحمله الدواهي من ارض لارض ، و من قوم الى قوم ، و من دين الى دين.

ان كل هذه التحولات جزء من الكدح الذي كتب على الانسان في هذه الدنيا ، و لكنها لا تنتهي بالموت فما بعد الموت اعظم و ادهى.

و هكذا نقرأ في رواية مأثورة عن النبي - صلى الله عليه وآله - طائفة من هذه المراحل التي يمر بها الانسان . فقد روي عن جابر انه قال : سمعت رسول الله -صلى الله عليه وآله - يقول:

"ان ابن آدم لفي غفلة عما خلقه الله - عز وجل - ان الله لا إله غيره اذا اراد خلقه قال للملك : اكتب رزقه و اثره ، و اجله ، و اكتب شقيا او سعيدا ، ثم يرتفع ذلك الملك ، و يبعث الله ملكا اخر فيحفظه حتى يدرك ، ثم يبعث الله ملكين يكتبان حسناته و سيئاته ، فاذا جاءه الموت ارتفع ذانك الملكان ، ثم جاءه ملك الموت - عليه السلام - فيقبض روحه ، فاذا ادخل حضرته رد الروح في جسده ، ثم يرتفع ملك الموت ، ثم جاءه ملكا القبر فامتحناه ، ثم يرتفعان ، فاذا قامت الساعة انحط عليه ملك الحسنات و ملك السيئات فانشطا كتابا معقودا في عنقه ، ثم حضرا معه : و احد سائق و الاخر شهيد ، ثم قال الله - عز وجل - : " لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد " قال رسول الله صلى الله عليه واله و سلم : " لتركبن طبقا عن طبق " قال : " حالا بعد حال " ثم قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم : " ان قدامكم امرا عظيما فاستعينوا بالله العظيم " (١. (

و اذا تأملنا سياق سورة الانشقاق و تدبرنا آية الكدح فيها ، ولاحظنا هذه الرواية ايضا تبين لنا ان الجملة الاخيرة في هذه الرواية هي العبرة التي ينبغي ان نعيها من السورة ، ذلك ان عدو الانسان هو حالة اللهو اللعب التي تنزع اليها نفسه ، فتسول له العبثية والغفلة او الهروب من مواجهة الحقائق ؛ و انما ينساق البشر الى هذه الحالات بسبب غفلته عن نفسه و عما يراد بها ، و عن الاخطاء التي تنتظره . افلا يفكر هذا المسكين ان الظلام يلف الضياء ، و يتسق القمر في السماء بدل قرص الشمس ، و ان التحول سنة يخضع لها كل شيء، فهل يبقى بعيدا عنها ؟

و اذا لم نعتبر بالطبيعة حولنا افلا نعتبر بتأريخنا الحافل بالتطورات ، فهذه الامم كيف دار بها الزمن دورته و لعبت بها رياح التغيير طبقا عن طبق ، و حالا من بعد(١) القرطبي / ج ١٦ / ص ٢٧٨ - ٢٧٩.

حال اننا ايضا سائرون في ذات الدرب ، و على هذا جاء في تاويل هذه الآية حديث مأثور عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - انه قال : " لتركبن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر ، و ذراعا بذراع لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه " قالوا : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ ! قال : " فمن ؟ " (١. (

و في حديث عن ابي جعفر - عليهما السلام - رواه ابي الجارود ، في قوله : " و لا يزال الذين كفروا تصيبهم قارعة " قال : " هي النقمة " او تحل قريبا من دارهم " فتحل بقوم غيرهم ، فيرون ذلك ، و يسمعون به ، و الذين حلت بهم عصاة كفار مثلهم ، و لا يتعظ بعضهم ببعض ، و لن يزالوا كذلك حتى يأتي وعد الله الذي وعد المؤمنين من النصر ، و يخزي الكافرين " (٢. (

و هكذا ينبغي للانسان ان يعي آيات الطبيعة و عبر التاريخ ، ثم ينظر الى نفسه عبرهما حتى يعرف قدرها ، و لا يضيع فرصتها بالغفلة و اللهو و الانشغال بالتوافه.

[20]دخل ابن ابي العوجاء على الصادق (ع) فلم يتكلم مهابة منه ، فقال له الصادق - عليه السلام - : " يا ابن ابي العوجاء امصنوع انت ام غير مصنوع ؟ " قال : لست بمصنوع ، فقال له الصادق - عليه السلام - : " فلو كنت مصنوعا كيف كنت تكون؟ " فلم يحر جوابا ، و قام و خرج .

فعاد اليه في اليوم الثاني فجلس و هو ساكت لا ينطق ، فقال - عليه السلام - : " كأنك جئت تعيد بعض ما كنا فيه ؟ " فقال : اردت ذلك يا ابن رسول الله ، فقال ابو عبد الله الصادق - عليه السلام - : " ما اعجب هذا تنكر الله ، و تشهد اني ابن

(1)المصدر / ص ٢٧٩ و ذكر في مجمع البيان حديث قريب منه ثم قال : وروي ذلك الصادق - عليه السلام - راجع مجمع البيان / ج ١٠ / ص ٤٦٢.

(2)موسوعة بحار الانوار / ج ٦ / ص ٥٥.

رسول الله " فقال : العادة تحملني على ذلك ، فقال له العالم - عليه السلام) - و العالم هو الامام

الكاظم - عليه السلام - و الى اخر الرواية يسميه بالعالم . الظاهر انه الامام الصادق (ع) نفسه) : " فما يمنعك من الكلام " .قال : اجلالا لك ،و مهابه ، ما ينطق لساني بين يديك ، فاني شاهدت العلماء ، و ناظرت المتكلمين ، فما تداخلني هيبة قط مثل ما تداخلني من هيبتك ، قال (ع) " يكون ذلك ، و لكن افتح عليك بسؤال " و اقبل عليه ، فقال له : " امصنوع انت او غير مصنوع " فقال عبدالكريم ابي العوجاء : بل انا غير مصنوع ، فقال له العالم - عليه السلام - : " فصف لي لو كنت مصنوعا كيف كنت تكون " فبقي عبد الكريم مليا لا يحير جوابا ، و ولع بخشبة كانت بين يديه و هو يقول : طويل ، عريض ، عميق ، قصير ، متحرك ، ساكن ، كل ذلك صفةخلقه ، فقال له العالم - عليه السلام - : " فان كنت لم تعلم صفة الصنعة غيرها فاجعل نفسك مصنوعا لما تجد في نفسك مما يحدث من هذه الامور " فقال له عبد الكريم : سألتني عن مسالة لم يسالني عنها احد قبلك ، و لا يسألني احد بعدك عن مثلها ، ... الى اناعترف اخيرا بان له صانعا ... و الحديث طويل اخذنا الشاهد منه.

و قد صاغ المتكلمون الحجة التالية من هذه الحقيقة فقالوا : العالم متغير ، و كل متغير حادث ، فالعالم حادث . حقا ان تطورات الخليقة من حولنا ، و تطورات حياتنا ، و تقلبنا حالا بعد حال) طبقا عن طبق) افضل سبيل لمعرفة الرب و حكمة خلقه لنا ، و لكن ليس كل الناس يسلكون هذا السبيل لان بعضهم تراه يكذب و يبني حياته على اساس التكذيب ، فلا تنفعه الحجج و لا المواعظ و العبر.

]فما لهم لا يؤمنون[

و تأتي هذه الآية في سياق بيان تلك الحقائق المفزعة لعلها تنفض من فوائد الانسان رواسب الغفلة و التهاون.

[21]حين يتصل قلب الانسان بشلال النور لا تملك جوارحه الا الاستجابة لمؤثرات الوحي ، فاي قلب واع لا يخضع لهذا الوحي الذي كاد يصدع الجبال الراسيات ، ام اية جبهة لا تخر ساجدة على التراب امام هذه الصعقات المتتالية التي تنبعث من ضمير القرآن.

]و اذا قرىء القرآن لا يسجدون[

قالوا :السجود هنا بمعنى التسليم و الخضوع للقرآن ، و قال بعضهم : انه السجود المعهود الذي ينبأ عن التسليم النفسي ، و قد اعتبر ائمة اهل البيت - عليهم السلام - السجود عند قراءة هذه مندوبا.

[22]انى كانت الحجج الالهية بالغة فان الجاحد يظل يعائد و يكذب ، لانه قد قرر سلفا عدم التصديق بها ، لذلك فان موقفه لا يعكس ضعف في الحجة بل انحرافا في نفسه.

]بل الذين كفروا يكذبون[

[23]و تكذيبهم الظاهر لا يعكس واقعهم و مدى تأثرهم بالحجة ، اذ انهم بالتالي بشر ، و تنفذ البراهين الواضحة في اعماقهم ، و لكنهم يخدعون انفسهم و يكذبون بها طلبا لحطام الدنيا ، و بحثا عن لذاتها ، و الله سبحانه عليهم بانفسهم ، و يحاسبهم على ما فيها ، وليس على مجرد ما يدعون من انهم لم يقتنعوا بالحجة.

]و الله اعلم بما يوعون[

و الوعي بمعنى الحفظ ، و يسمى الاناء : وعاء ، لانه يحفظ الطعام ، و قال المفسرون في معنى الآية : الله اعلم بما يضمرون.

[24]و على اساس ما يظهرون يحاسبهم الله ، لان الكافر يشهد قلبه على كذبه قبل اي شخص اخر.

]فبشرهم بعذاب اليم[

صدقوا بالحساب ام كذبوا.

[25]و انما يستثنى من هذا التعميم الذين امنوا و عملوا الصالحات ، فانهم وحدهم الذين يعطيهم الله اجرا ، داثما غير منقطع.

]الا الذين آمنوا و عملوا الصالحات[

قالوا في معنى الاستثناء انه منقطع اذ ان الكفار غير المؤمنين ، فلا معنى لاستثنائهم منهم ، و قال بعضهم : ان معنى " الا " هنا العطف ، و لعل الافضل ان يقال : بل الاستثناء متصل ، و لكن المستثنى منه محذوف بدليل ذات الاستثناء ، اي ان الانسان انكان مبشر بعذاب اليم الا المؤمنون.

]فلهم اجر غير ممنون[

صحيح ان الاجر بقدر المشقة ، و لكن اجر الاخرة دائم ، فلو اتيت على آية ذكر فيها بيت الجنة فان هذا البيت ليس كبيوت الدنيا ، يتهدم بعد حين ، بل هو بيت دائم لا يزول ، و كذلك سائر أجر الاخرة . رزقنا الله ذلك بفضله.

قالوا :معنى كلمة " ممنون " انه بمعنى القطع ، و قد سأل نافع بن الازرق ابنعباس عن قوله : " لهم اجر غير ممنون " فقال : غير مقطوع : هل تعرف ذلك العرب ؟ قال : نعم . قد عرفه اخويشكر حين يقول:

فترى خلفهن من سرعة الرجز مع منينا كأنه أهبا.

و قال المبرد : المنين : الغبار ، لانها تقطعه وراءها (١. (

(1)القرطبي / ج ١٩ / ص ٢٨٢.

سورة البروج

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الاعمال باسناده عن ابي عبد الله - عليه السلام - قال : " من قرا " و السماء ذات البروج " في فرائضه فانها سورة النبيين كان محشره و موقفه مع النبيين و المرسلين و الصالحين. "

نور الثقلين / ج ٥ / ص ٥٤٠

الاطار العام

جبار سفيه تطغيه سلطة محدودة في بلد متواضع فيتخذ قرارا خاطئا باعدام جماعي لطائفة وعت الحقيقة فامنت بالله ، فيلقيهم في نار في الاخاديد ، و تشهد الجماهير سطوته لكي يكونوا لهم عبرة ... و ينتهي في زعمه كل شيء . كلا .. ان السماوات و الارض وجنودهما و سكانهما ينتظرون محاكمة هذا السفيه في اليوم الموعود ، و ان سنن الله في الخليقة التي تمتد من السماء ذات البروج في عمق المكان الى اليوم الموعود في افق الزمان و الى الشاهد و المشهود تحيط بهذا الانسان العاجز

المسكين ، فاين المفر ؟!

و هكذا تتواصل آيات سورة البروج التي تفتح باليمين ، و تختم بان الله من ورائهم محيط ، و ان القرآن المجيد مصون في اللوح المحفوظ ، و فيما بينهما الحديث عن اصحاب الاخدود الذين بالغوا في الجريمة فاوقدوا النار في حفر ثم القوا المؤمنين فيها و جلسوا يتفرجونعلى مشهد احتراقهم.

و هكذا ابتلي المؤمنون (و ربما بصورة مكررة و في بلاد مختلفة) بهذا البلاءالعظيم ، دون ان ينال من ايمانهم مثقال ذرة ، بل ازداد ايمانهم صلابة و صفاء.

اما اعداؤهم فماذا كانت عاقبة جرائمهم ؟ هل بلغوا هدفهم ؟ و ماذا استهدفوا من هذا العمل الوحشي الموغل في الجاهلية ؟ اوليس كسر مقاومة المؤمنين ؟ فهل افلحوا ؟ كلا .. فقد انتشر الدين بسبب مقاومة المؤمنين ، و نزل على الجبارين العذاب الاليم ، كما انزل اللهعلى فرعون و ثمود العذاب الاليم.

و كلمة اخيرة : ان هذه السورة الكريمة تتميز باعداد المؤمنين لاجتياز اصعب الامتحانات و مقاومة اكبر التحديات.

قتل اصحاب الاخدود

بينات من الايات

[1]الكائنات و الزمان و الانسان ثلاثة شهود عظام على مسؤولية البشر ، فأنى له الهروب ، و انى له التبرير ! و اعظم الكائنات حسب علمنا السماوات بما فيها من وحدات من بناء عظيم يسميها القرآن البروج.

]و السماء ذات البروج[

ما هي البروج ؟ يبدو انها طبقات السماء المتمثلة في مجاميع المجرات ، كل مجرة فيها اعداد هائلة من الشموس.

قالوا :اصل معنى البروج الظهور ، و لان البناء العالي ظاهر سمي القصر برجا ، كما سمي موقع الدفاع عن المدينة بالبرج . و لعل انتخاب هذه الكلمة هنا كان لان في السماء حرسا اتخذوا مواقع لرصد حركات الانس و الجن و الشياطين ، ممايتسجم مع السياق الذي يجري فيه الحديث عن جزاء الطغاة على جرائمهم بحق المؤمنين ، فاذا تحصن الطغاة ببروجهم الارضية فان السماء بروجا لا يستطيعون مقاومة جنودها.

و قال بعضهم : البروج هي منازل الشمس و القمر و الكواكب و افلاكها التي لا تستطيع اجرام السماء على عظمتها تجاوزها قيد انملة ، مما يشهد على انها كائنات مخلوقة مدبرة.

[2]يوم القيامة رهيب ترتعد السماوات و الجبال و البحار و سائر الكائنات خشية منه و اشفاقا ، و اعظم ما فيه مواجهة الانسان لافعاله ، بلا حجاب من تبرير ، و لا قوة و لاناصر .. و هكذا يحلف السياق به على ما يجري الحديث عنه من مسؤولية الطغاة امام ربهم عن جرائهم بحق المؤمنين.

]و اليوم الموعود[

انه يوم لا مناص منه ، لانه وعد الله ، و وعد الله غير مكذوب ، و ليس الانسان وحده بل الكائنات جميعا موعودة بذلك اليوم ، فاي يوم عظيم ذلك اليوم ؟

[3]ثم يقدم الانسان للمحاكمة ، فقد حضر الشهود . كل مكان عاش فيه يشهد عليه ، و كل زمان مر به يشهد عليه ، و كل جارحة استخدمها تشهد عليه ، و كل انسان عايشه يشهد عليه ، و في طليعة الشهود الانبياء و الاوصياء و الدعاة الى الله ، يشهدون عليه ان قد بلغوه رسالات ربه فلم يقبلها . اي مسكين هذا الطاغية الذي تجتمع عليه الشهود من كل موقع و كل حدب ؟ ! ثم تراه في الدنيا غافلا لاهيا سادرا في جرائمه و كأنه لا حساب و لا عقاب.

]و شاهد و مشهود[

قال بعضهم : الشاهد يوم الجمعة بينما المشهود يوم عرفة ، و روي ذلك عن الامام علي - عليه السلام - ، و قال البعض : بل كل يوم يشهد على الانسان بما يفعل ، و روي عن الرسول - صلى الله عليه وآله - قوله : " ليس من يوم يأتي على العبد الا ينادي فيه : يابن ادم انا خلق جديد ، و انا فيما تعمل عليك شهيد ، فاعمل في خيرا اشهد لك به غدا ، فاني لو قد مضيت لم ترن ابدا ، و يقول الليل مثل ذلك " (١ (.

[4]ارايت الذي خلق السماء ذات البروج فلم يدع فيها ثغرة و لا فطور ، و جعل للناس اليوم الموعود ليجمعهم و يشهدهم على انفسهم ، ارايته سبحانه يترك الانسان يعبث في الدنيا و يقتل عباده المؤمنين بطريقة شنيعة ثم لا يجازيه ؟ كلا..

]قتل اصحاب الاخدود[

الذين شقوا في الارض اخاديد كالانهر العريضة ، و ملأوها نيرانا تستعر.

قال بعضهم : تلك لعنة ابدية تلاحق الظالمين ، فالقتل هنا كناية عنها.

و قال البعض : بل ان اولئك الظالمين قد قتلوا فعلا اذ خرجت شعلة من نيران اخدودهم و احرقتهم . و ربما قتلوا بعدئذ بطريقة اخرى.

المهم انهم لم يفلتوا من عذاب الاخرة ، و ان امهلوا في الدنيا لعدة ايام ، ذلك ان نظام الخليقة قائم على اساس العدالة ، و لن يقدر الظالم الانفلات من مسؤولية جرائمه.

[5]كانت نيران تلك الشقوق التي صنعوا في الارض مشتعلة تلتهم الضحايا بسرعة.

(1)القرطبي / ج ١٩ / ص ٢٨٤.

]النار ذات الوقود[

و كم هي فظيعة جرائم الطغاة ، و كيف يتوسلون بابشع الاساليب في سبيل بقائهم عدة ايام اخر في سدة الحكم .. افلا يستحق مثل هؤلاء نيران جهنم المتقدة ؟

[6]رهيب و مثير منظر الانسان البريء الوادع وهو يحترق بالنار و يجأر للمساعدة دون ان يستجيب له احد ، و قد يكون شيخا كبيرا او شابا يافعا او امرأة ضعيفة او حتى طفلة بعمر الورد.

ما اقسى قلوب الطغاة و اتباعهم و هم يتحلقون حول النار ينظرون الى المؤمين يلقون في النار فيحترقون ! حقا : ان الكفر يمسخ صاحبه ، و الطغيان يحوله الى ما هو اسوء من وحش كاسر.

]اذ هم عليها قعود[

[7]لقد دعوا الجماهير الى حفلة اعدام جماعية ، ليشهدوا عذاب المؤمنين ، و ليكون عذابهم عبرة لمن بعدهم لكي لا يفكر احد بمخالفة دين السلطان.

]و هم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود[

جريمة بشعة تقع في وضح النهار و بعمد و قصد و بتحدي سفيه لملكوت الرب حيث يستشهد على وقوعها المجرم الناس .. لا اظن ان جريمة تستكمل شروط الاجرام كهذه .. فماذا ينتظر المجرم غير القتل و ملاحقة اللعنة ؟

من هم اصحاب الاخدود ؟ و في اي بقعة كانوا ؟ قال مقاتل : ان اصحاب الاخدود ثلاثة : واحد بنجران ، و الاخر بالشام ، و الثالث بفارس ، اما بالشامانطياخوس الرومي ، و اما الذي بفارس فبختنصر ، و الذي بارض العرب يوسف بن ذي نواس . (1)

و حسب هذا القول يحتمل ان تكون جريمة الحرق بالنار عبر الاخدود شائعة في الجاهلية في اكثر من بلد ، و اذا لا يهمنا من كان يفعلها ، انما العبرة منها.

و جاء في بعض الاحاديث ان القصة وقعت في الحبشة حيث بعث الله اليهم نبيا فآمنت به طائفة فاخذوه و اياهم و القوهم في النار .. (٢. (

الا ان النصوص استفاضت بقصة طريفة للاعتبار ، و لا يهمنا ذكر الاختلاف في تفاصيلها:

روى مسلم في الصحيح عن هدية بن خالد عن حماد بن سلمة عن ثابت بن عبد الرحمن بن ابي ليلى عن صهيب عن رسول الله - صلى الله عليه وآله - قال : " كان ملك فيمن كان قبلكم له ساحر ، فلما مرض الساحر قال : اني قد حضر اجلي فادفع الي غلاما اعمله السحر ، فدفع اليه غلاما و كان يختلف اليه ، و بين الساحر و الملك راهب ، فمر الغلام بالراهب فاعجبه كلامه و امره ، فكان يطيل عنده القعود ، فاذا ابطأ عن الساحر ضربه ، و اذا ابطأ عن اهله ضربوه ، فشكا ذلك الى الراهب ، فقال : يا بني اذا استبطأك الساحر فقل : حبسني أهلي، و اذا استبطأك اهلك فقال : حبسني الساحر ، فبينما هو ذات يوم اذا بالناس قد غشيهم دابة عظيمة ، فقال : اليوم اعلم أمر الساحر افضل ام امر الراهب ، فاخذ حجرا فقال : اللهم ان كان امر الراهب احب اليك فاقتل هذه الدابة ، فرمى فقتلها و مضى الناس ، فاخبر ذلك الراهب فقال : يا بني انك ستبتلى فاذا ابتليت

(1)القرطبي / ج ١٩ / ص ٢٩١.

(2)تفسير الميزان / ج ٢٠ / ص ٢٥٦ نقلا عن الامام علي عليه السلام.

فلا تدل علي ، قال : و جعل يداوي الناس فيبرىء الاكمه و الابرص ، فبينما هو كذلك اذ عمي جليس للملك فأتاه و حمل اليه مالا كثيرا ، فقال : اشفني و لك ماهاهنا ، فقال : انا لا اشفي احدا ولكن الله يشفي ، فان آمنت بالله دعوت الله فشفاك ، قال : فآمن فدعا الله فشفاه ، فذهب فجلس الى الملك فقال : يا فلان من شفاك ؟ فقال : ربي ، قال : انا ؟ قال : لا ، ربي و ربك الله ، قال :او ان لك ربا غيري ؟ قال : نعم ربي و ربك الله ، فأخذه فلم يزل به حتى دله على الغلام ، فبعث الى الغلام فقال : لقد بلغ من امرك ان تشفي الاكمهو الابرص ، قال : ما اشفي احدا و لكن الله يشفي ، قال : او ان لك ربا غيري ؟ قال : نعم . ربي و ربك الله ، فأخذه فلم يزل به حتى دله على الراهب ، فوضع المنشار عليه فنشر حتى وقع شقتين ، فقال للغلام ، ارجع عن دينك فابى ، فارسل معه نفرا قال : اصعدوا به جبل كذا و كذا فان رجع عن دينه و الا فدهدهوه منه ، قال : فعلوا به الجبل فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فرجف بهم الجبل فتدهدهوا اجمعون ، و جاء الى الملك فقال : ما صنع اصحابك ؟ فقال :كفانيهم الله ، فارسل به مرة اخرى قال : انطلقوا به فلججوه في البحر ، فان رجع و الا فاغرقوه ، فانطلقوا به في قرقور (١) فلما توسطوا به البحر قال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فانكفأت بهم السفينة ، و جاء حتى قام بين يدي الملك فقال : ما صنع اصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله ، ثم قال : انك لست بقاتلي حتى تفعل ما امرك به اجمع الناس ثم اصلبني على جذع ثم خذ سهما من كنانتي ثم ضعه على كبد القوس ، ثم قل : باسم رب الغلام فانك ستقتلني ، قال :فجمع الناس و صلبه ثم اخذ سهما من كنانته فوضعه على كبد القوس و قال : باسم رب الغلام و رمى فوقع السهم في صدغه (٢) و مات ، فقال الناس امنا برب الغلام ، فقيل له : ارايت ما كنت تخاف قد نزل و الله بك من الناس ، فأمر باخدود فخددت على(١) القرقور - بالضم - السفينة الطويلة.

(2)الصدغ - بضم الصاد - ما بين العين و الاذن.

افواه السكك ثم اضرمها نارا فقال : من رجع عن دينه فدعوه ، و من ابى فاقحموه فيها ، فجعلوا يقتحمونها ، و جاءت امرأت بابن لها فقال لها : يا امة اصبري فانك على الحق " (١. (

و روى سعيد بن جبير قال : لما انهزم اهل اسفندهان قال عمر بن الخطاب : ماهم يهود و لانصارى ، و لا لهم كتاب ، و كانوا مجوسا ، فقال علي بن ابي طالب : " بلى . قد كان لهم كتاب رفع ، و ذلك ان ملكا لهم سكر فوقع على ابنته - او قال : على اخته - فلما افاق قال لها : كيف المخرج مما وقعت فيه ؟ قالت : تجمع اهل مملكتك و تخبرهم انك ترى نكاح البنات و تأمرهم ان يحلوه ، فجمعهم فاخبرهم فأبوا ان يتابعوه فخد لهم اخدودا في الارض و اوقد فيه النيران و عرضهم عليها فمن ابى قول ذلك قذفه في النار و من اجاب خلى سبيله " (٢. (

و روي عن الامام الباقر - عليه السلام - قال : " ارسل علي - عليه السلام - الى اسقف نجران يساله عن اصحاب الاخدود فاخبره بشيء ، فقال - عليه السلام - : ليس كما ذكرت و لكن سأخبرك عنهم : ان الله بعث رجلا حبشيا نبيا و هم حبشية ، فكذبوه فقاتلهم اصحابه، و اسروه و اسروا اصحابه ، ثم بنوا له جسرا ، ثم ملؤوه نارا ، ثم جمعوا الناس فقالوا : من كان على ديننا و امرنا فليعتزل ، و من كان على دين هؤلاء فليرم نفسه بالنار ، فجعل اصحابه يتهافتون في النار ، فجاءت امرأة معها صبي لها ابن شهر فلما هجمت هابت ورقت على ابنها ، فنادى الصبي :لا تهابي و ارميني و نفسك في النار ، فان هذا و الله في الله قليل ، فرمت بنفسها في النار و صبيها ، و كان ممن تكلم في المهد " (٣. (

و جاء في حديث مأثور عن الامام الصادق - عليه السلام - قال : " قد كان(١) نور الثقلين / ج ٥ / ص ٥٤٦.

(2)المصدر / ص ٥٤٧.

(3)المصدر.

قبلكم قوم يقتلون ، و يحرقون ، و ينشرون بالمناشير ، و تضيق عليهم الارض برحبها ، فما يردهم عما هم عليه شيء مما هم فيه من غير ترة و تروا من فعل ذلك بهم و لا اذى ، بل ما نقموا منهم الا ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد ، فأسالوا ربكم درجاتهم و اصبروا على نوائب دهركم تدركوا سعيهم " (١. (

و هكذا يفعل الايمان بالقلب الانساني فيجعله اقوى من زبر الحديث ، اثبت من الراسيات ، اسمى من القمم السامقة ، اشد صلابة من كل ما يبتدعه الطغاة من وسائل الاذى و التعذيب و القتل! !

و قد نتساءل : ما الذي جعل هذا الانسان الذي لا يكاد يتحمل اذى بقة يقتحم النيران المتقدة بجسده النض ليحترق امام اعين الناقمين و الشامتين ، دون ان يتنازل عن ايمانه ؟

اقول :اولا : ان وضوح الرؤية عندهم كان قد بلغ حدا كانوا يعيشون (ببصائر قلوبهم) الجنة و نعيمها فيتسلون بها عن شهوات الدنيا ، و يعيشون (بقوى قلوبهم) النار و عذابها فتهون عليهم مصائب الدنيا و مشاكلها.

و اننا نقرا قصة الام التي ترددت قليلا باقتحام النار مع رضيعها فقال لها ابنها : يا اماه اني ارى امامك نارا لا تطفأ (يعني نار جهنم) فقذفا جميعا انفسهما في النار.

ثانيا : عندما يقرر الانسان شيئا يسهل عليه القيام به ، و بالذات حينما يكون الامر في سبيل الله يهونه الرب له ، و يثبت عليه قدمه ، و يرزقه الصبر على آلامه و تبعاته ، و يقوى ايمانه ، و يشحذ بصيرته ليرى بها اجره في الاخرة .. و هكذا ترى عباد الله الصالحين يقاومون عبر التاريخ مختلف الضغوط ، و يتحملون

الوانا من(١) المصدر.

الاذى بقلب راض و نفس مطمئنة ، لعلمهم ان سنن الله واحدة لا تتغير و لا تتبدل ، و ان المؤمنين الذين احترقوا في الاخدود هم سواء مع اي مؤمن يعتقل اليوم في سجون الطغاة او يعذب او يقتل او يتحمل مشاكل الهجرة و الجهاد و مصائبهما ، و كما خلد الله امجاد اولئك الصديقين فانه لا يضيع اجر هؤلاء التابعين لهم ، و كما ان الله قتل اصحاب الاخدود و نصر رسالاته فانه يهلك الجبارين اليوم و يستخلفهم بقوم اخرين.

[8]عند هيجان الصراع و ثورة الدعاية ضد المؤمنين . لا يعرف الناس ماذا يفعلون ، و اي جريمة يرتكبون ، و لكن عندما يرجعون الى انفسهم بعدئذ و يتساءلون : لماذا قتلوا المؤمنين ، و لماذا نقعموا منهم ، يعرفون انهم كانوا في ضلال بعيد.

]و ما نقموا منهم الا ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد]فلا افسدوا في الارض ، و لا اعتدوا على احد ، و لا طالبوا بغير حق ، و انما استعادوا حريتهم ، و آمنوا بربهم الله العزيز المنيع الذي لا يقهر و الحميد الذي لا يجور و لا يبخل ، و يعطي جزاء العباد ، و يزيدهم من فضله.

[9]و ايهما الحق التمرد على سلطان السماوات و الارض ، و الدخول في عبودية بشر لا يملكون دفع الضر عنهم ، ام التحرر من كل عبودية و قيد ، و الدخول في حصن الملك المقتدر القاهر ؟

]الذي له ملك السماوات و الارض[

و بالرغم من ان الله منح الطغاة فرصة الاختيار ضمن مهلة محدودة الا انه شاهد على ما يعملون ، و لا يغيب عنه شيء في السماوات و الارض.

]و الله على كل شيء شهيد[

[10]و شهادة الله ليست للتاريخ فقط ، و انما للجزاء العادل ، فانه يسوق الطغاة الى جهنم ذات النار اللاهبة و العذاب المحرق.

]ان الذين فتنوا المؤمنين و المؤمنات[

و هذه حكمة الله في اعطاء الطغاة فرصة الامتحان ، لانهم بعملهم هذا فتنوا المؤمنين و اختبروا ارادتهم ، حتى ظهر للناس قيمة الايمان و معناه ، و كيف انه فوق الماديات ، و ان دعوة الرسول و اتباعه ليست من اجل مال او سلطان . ثم انهم فتنوا المؤمنين فخلص ايمانهم من رواسب الشرك ، و خلصت نفوسهم من بقايا الجهل و الغفلة ، و خلصت صفوفهم من العناصر الضعيفة ، كما يخلص الذهب حينما يفتن في النار من كل الرواسب.

تلك كانت حكمة الرب في اعطاء الجبارين فرصة ارتكاب تلك المجازر البشعة بحق الدعاة الى الله . و لعل بعضهم عادوا الى الله و تابوا من فعلتهم ، و لذلك اشار ربنا بقوله:

]ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم و لهم عذاب الحريق]و فرق كبير بين عذاب جهنم الاشد و الابقى ، و بين عذاب الاخدود الذي يمر كلمح البصر ، ثم ينتهي المعذبون الى روح و ريحان.

[11]اما اولئك المعذبون فان الجنات تنتظرهم.

]ان الذين امنوا و عملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الانهار ذلك الفوز الكبير]سواء دخلوا التحديات الكبيرة كأصحاب الاخدود ام كانوا من التابعين لهم . و اي فوز اعظم لهم من انتهاء محنتهم و فتنتهم ، و بلوغ كامل اهدافهم و تطلعاتهم ؟!

[12]قسما بالسماء ذات البروج و باليوم الموعود و بالشاهد و المشهود : ان اخذ الله شديد حيث يأخذ الطغاة و الظالمين.

]ان بطش ربك لشديد[

قالوا :ان هذه الجملة جواب للقسم في فاتحة السورة . و لعل قوله : " قتل اصحاب الاخدود " ايضا جواب اخر للقسم ، فيكون القسم اطارا لكل الحقائق التي تذكر في هذه السورة.

و من هذه الآية يظهر ان الله قد اخذ اصحاب الاخدود اخذا اليما كما اخذ سائر الطغاة.

[13]و كيف لا يكون شديدا بطش جبار السماوات و الارض الذي يبدىء خلق الانسان و يعيده بعد الفناء ؟!

]انه يبدىء و يعيد[

[14]و انما لا يأخذ اهل الارض بما كسبوا عاجلا ، و يعفو عن كثير من سيئاتهم لانه يستر ذنوبهم و يحبهم.

]وهو الغفور الودود[

[15]و وده للمؤمنين و غفرانه لذنوب عباده انما هو لعزته و قوته.

]ذو العرش المجيد[

و سواء قرأناه بالضم ليكون صفة للرب او بالكسر ليكون صفة للعرش فانه واحد اذ عرشه هيمنته و سلطانه ، وهو اسم من اسمائه الحسنى ، و صفة من صفاته الكريمة.

[16]و كيف لا يكون سلطانا عظيما من يفعل ما يريد دون ممارسة لغوب و لا علاج ؟

]فعال لما يريد[

و ارادة الله صفة قدرته المطلقة . و هذه الآية تدل على انه لا شيء يحد ارادته ، فليست ارادته قديمة كما زعمت فلاسفة اليونان ، و تسربت تلك الفكرة الى اليهود فقالوا : " يد الله مغلولة " ! سبحان الله كيف يكون القادر اولا عاجزا اخرا ؟ ! و هل يوصفالرب تعالى بالاول و الاخر فيكون متغيرا ؟!

و انعكاس هذه الصفة علينا - نحن البشر - الا يدعونا استمرار نعم الله و عادته الكريمة علينا الى الغرور به ، و التمادي في الذنوب دون خشية عقابه.

[18 - 17]فهؤلاء جنود ابليس اجتمعوا ليبطشوا بالمؤمنين فأين انتهى بهم المقام ؟

]هل اتاك حديث الجنود * فرعون و ثمود[

يسوقهما القرآن سوقا واحدا بالرغم من اختلاف اكثر الظروف ، ذلك لانه سنة الله واحدة فيهما كما في غيرهما.

[19]قد يبني البشر بنيانا متكاملا من الكذب و يحشر نفسه فيه ، فتراه يبحث لانكاره لوجود ربه او لقدرته او لسنته في الجزاء عن فلسفة ذات ابعاد لعله يقنع نفسه و الاخرين بها ، و يسميها - جدلا - فلسفة الالحاد او الفلسفة المادية ، و قديتجاوز كل الحقائق و يسميها زورا بالفلسفة العلمية ، ثم يجعل

امام كل حق باطلا ، و لكل صوات بديلا من الخطا ، ثم يحكم - في زعمه - نسج هذه الاباطيل ببعضها و يسميها نظرية او مبدا ، و ان هي الا سلسلة من الاكاذيب.

ومثل هذا الانسان لا يسهل عليه الخروج من شرنقة الكذب التي نسجها حول نفسه ، و لذلك يتحصن ضد كل العبر و المواعظ حتى ولو كانت في مستوى عبرة العذاب الذي استأصل شأفة فرعون و ثمود.

]بل الذين كفروا في تكذيب[

لانهم كفروا باعظم و اوضح الحقائق (بالله العظيم و رسالاته) و دخلوا في نفق التكذيب فلم يخرجوا منه للاعتبار بمصير فرعون الذين اشتهرت قصته بين اهل الكتاب او بمصير ثمود الذين عرفت العرب أمرهم.

[20]و هل ينفعهم التكذيب شيئا ؟ هل يمنعهم جزاء اعمالهم او يخدع من يجازيهم فينصرف عنهم ؟ كلا .. لماذا ؟ لان الانسان يواجه ربه و الله محيط بهم علما و قدرة.

]و الله من ورائهم محيط[

قالوا : وراء الشيء الجهات المحيطة به الخارجة عنه ، فيكون مفهوم الآية ان الله محيط بكل بعد من ابعاد حياتهم.

و هذا يتقابل مع كونهم في تكذيب.

[21]و لكن اينتظرون ما يذكرهم و يخرجهم من نفق التكذيب اعظم من هذا الكتاب العظيم ؟

]بل هو قرآن مجيد[

عظيم المستوى ، رفيع المجد ، لا تناله ايدي التحريف ، و لا يبلغ مستواه التافهون الحقراء الذين يعيشون في حضيض الشهوات ، و لا يمس جواهر حقائقه و لآلى معانيه سوى المطهرين من دنس الشرك ، و من رجس العقد النفسية ، و من ظلام الافكار الباطلة.

لا بد ان ترتفع الى قمة المجد حتى تدرك بعض معاني الكتاب العظيم.

[22]و من علامات مجده و عظمته انه محفوظ في لوح عند الله لا يستطيع احد المساس به.

]في لوح محفوظ[

جاء في الدر المنثور عن ابن عباس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه واله " : - خلق الله لوحا من درة بيضا دفتاه من زبر جدة خضراء ، كتابه من نور ، يلحظ اليه في كل يوم ثلاث مائة و ستين لحظة يحيي و يميت ، و يخلق و يرزق ، و يعز و يذل ، و يفعل و يشاء " (١. (

و هذا الحديث تفسير قوله سبحانه : " فعال لما يريد " . اما اللوح المحفوظ المذكور في هذه الآية فلعله اشارة الى الآية الكريمة : " انا نحن نزلنا الذكر و انا له لحافظون "، حيث ان ربنا يحفظ اللوح من ان يرسم فيه غيره.

(1)تفسير الميزان.